
احمد ابراهيم الفقيه
ابنة بانايوتي
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل

أحمد ابراهيم الفقيه

ابنـة بانايوتـي

رواية صحراوية

الناشر
دار الخيال ـ بيروت

استهلال واهداء

تدور رواية ابنة بانايوتي في ليبيا الاربعينيات وفي وكالة للحلفاء تقع بين الجبال في الحمادة الحمراء ، يديرها اليوناني بانايوتي ، الذي ينجذب الى الجوانب الصوفية والعرفانية والروحانية التي يجدها لدى بدو الصحراء ، وتستقطب ابنته "انجيليكا" التي حباها الله بالجمال والذكاء، اهتمام الرجال الذين يريدون الفوز بها ، وهو ما يشكل محورا من محاور الصراع الذي تستحكم حلقاته في اجزاء من هذه الرواية وهي كما يعلم القراء المتابعون لانتاج الكاتب، الرواية الثامنة عشرة في رصيد الروايات التي كتبها الفقيه ،وتحكي جزءا من مكابدات الشعب الليبي خلال اعوام الجوع والمسغبة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية، ولعلها تكون جزءا من روايات اخرى ينوي الكاتب تأليفها تدور في هذا العالم المجهول الموجود في عزلة الصحراء الليبية برقائقها الحضارية ومجتمعاتها التي لم تكن تقتصر على اهلها من ابناء البادية، رغم العزلة وشساعة الارض والسماء، فهاهي اليوم، تحفل

بابناء الغرب الاوروبي والامريكي الذي يمزقون احشاءها، ويبحثون في جوفها عن نسغ لشجرة الحضارة المصنوعة من اسياخ الحديد واسلاك السيليكون، فاللصحراء اوجه لا تحصى ولها اسرار قد لا يسهل سبر اغوارها، وما هذه السرديات التي تستلهم عالمها الا غيض من فيض هذه الاسرار وهذه الاوجه، واذا كان لي ان اهدي هذه الرواية لاحد، فالى اهالي شاطار عبد الجواد كما كنا نسميه وهو موقع وكالة الحلفاء التي عشت في طفولتي بعض ايامها، وشاهدت معاناة الناس الذين ينتزعون لقمة عيشهم، من بين صخور الجبل واحراجه ، وتتسلخ اقدامهم وهم يتسلقون الشعاب

وتتسلخ ايديهم وهم يقتلعون نبات الحلفاء ، وبيعه لاصحاب الوكالة ، اليهم جميعا نساء ورجالا واطفالا ، شيبا وشبابا اهدي هذه الصفحات المقتبسة من معاناتهم .

المؤلف

– 1 –

كان ما اصابهم شيئا لا اسم له ، حتى وان اطلقوا عليه اسما مثل البطالة فهو ليس حقا بطالة لان هناك اعمالا يقومون بها تتصل بالحرث احيانا والحصاد احيانا والرعي احيانا والصناعات اليدوية التقليدية التي يستخدمون فيها موادا اولية من الطين او الصوف او الوبر او القصب او جريد النخيل وليس بغريب ان يعثر بعضهم على عمل له اجر ثابت مثل حفر الجبل لمد طريق ، او التحاق انفار منهم في الجيش او الشرطة ، وربما اطلقوا على هذه الحالة اسما ثانيا مثل المجاعة ، فالناس مع ذلك يأكلون ، حتى لو كان هذا الأكل تمرا قديما مليئا بالسوس ، او شيئا من جمار النخيل ، او حشائش يلتقطونها من بين الشعاب ، او لعل هناك من يسمي هذه الحالة الميزيريا ، وهي كلمة من مخلفات الطليان تعني

البؤس ، ومع ذلك فهم يتزاوجون ويقيمون الافراح ويطلقون الزغاريد والاهازيج الشعبية ويشاركون في الرقص والغناء ، ولابد ان هناك من اعتبر هذا النوع من الحياة خواء ورتابة وضجرا ، ولكن هناك من جاءتهم الاثارة تسعى في شكل حملات تجنيد اجباري في جيش موسيليني ، بعد ان اعلن انضمام بلاده الى الحرب الكونية في الصف الهتلري، واخذ هؤلاء الناس وقودا لحروبه فانجاهم من حياة الرتابة والجمود ، ومن بقى ظل موجودا داخل عشيرته او ديرته او قريته سمها ما شئت ، ولكن الاسم الذي يليق بها وبهم او بالمكان وقاطنيه ، هو الفخ ، لان الناس في هذه البقاع اطبق عليه الفخ فما عادوا قادرين عل ممارسة اعمال البادية بالمعنى الحقيقي الذي يجلب الرزق ويطعم الاهل حرثا وحصادا ورعيا عبر كل المواسم والفصول ، لان المطر امتنع اعواما عن الهطول الا في النادر جدا الذي قد يتيح العمل لقلة قليلة من اهل البادية، تاركا اغلب المناطق والاودية والنواحي وقد امحلت ابارها ونفقت اغنامها وحدث ان ترافق هذا الجدب والامحال مع انفجار الحرب العالمية الثانية فاغلقت البحار

وانصرف جهد الحكومة لادارة الالة الحربية وتوجيه كل الموارد والميزانيات اليها ، وبقيت هذه البوادي ومراكزها التي تعيش على تجارة القوافل باعتبارها محطات تلتقي عندها في ايام الحظ والزهزهة ، بلا قوافل ولا نشاط ولا تجارة ، ولا عمل لاهلها الا كتابة رسائل الاستجداء للحكومة، ولكن الحكومة مشغولة عنهم بهموم اخرى ، وقضايا اعظم شأوا ، وعندما يلتفت مسئول من مسئوليها ليسألهم هل هناك من مات جوعا منهم، كان جوابهم الصمت ، لانه لم يكن هناك من مات جوعا بشكل صريح وواضح ، ولكنهم جميعا كانوا يموتون بنوع مقنع من الجوع ، لان هذا الذي لا يجد غذاء سوى حفنة شعير محمص ، هو القلية ، قد يقتل هذا الطعام احساسه بالجوع ، الا ان المداومة على اكله وحده بلا أي مواد اخرى تحمل بعض عناصر الغذاء سيموت ليس بالجوع ولكن بسبب النقص في عناصر الغذاء وهكذا مع من يأكل بعض حشائش الارض التي لا تصلح للاستهلاك البشري . انهم كبارا وصغارا يموتون ،وغالبا ما تسبق الموت حالة من الاسهال تصيب الانسان ، ثم يكتشفه الاهل ميتا في احدى الصباحات ،

يوقظونه من نومه فيظل صامتا جامدا لا يجيب ولا يستيقظ، ومن بقى عائشا ، فانه غالبا ما يتحول الى ما يشبه الهيكل العظمي ، حيث يكون قد ذاب الشحم ولحق به اللحم والتصق الجلد بالعظم ، وتكورت العينان داخل محجرين تحيط بهما دوائر سوداء ، وهزل الجسم حتى ليجهده مجرد المشي بضع خطوات ، وفي وسط هذه الحالة التي لا اسم لها جاء الى عمق البادية رجل اسمه بانايوتي ، وينتمي للجالية اليونانية بطرابلس، لتأسيس وكالة لشراء الحلفاء من البدو، فكان انبثاقه بينهم بداية انتقالهم لحالة جديدة افضل قليلا من تلك الحالة التي لا اسم لها.

– 2 –

يبدو المكان في براعة تصميمه كانه خضع منذ بداية خلق الكون لتخطيط هندسي عبقري قام به مجموعة من نوابغ المهندسين المنتمين لملائكة السماء ، لانه لا فضل للبشر في هذا التصميم والبناء ، وان جاءوا فيما بعد يضيفون لمسة هنا واخرى هناك ، وتزايدت افواجهم مع كر الايام تستفيد من جماليات المكان وامكانياته الطبيعية التي منحتها له الطبيعة في سخاء من صانع الكون .

اسم المكان جنائن العرعار ، ربما لوجود غابة كثيفة من هذا النبات العطري الطبي ، في ازمنة غابرة ، لانه لم يبق من من تلك الاشجار الان الا القليل في مناطق الشعاب، بسبب حادث قديم افرغ المكان من هذه الغابة ،

والحادث كما يتناقله الرواة جيلا بعد جيل ، هو ان جيشا كبيرا جرده الوالي التركي نامق باشا في بداية العهد العثماني الثاني قبل اكثر من مائة عام ، لسحق تمرد قاده زعيم من اهل القبلة هو الشيخ عبد النبي ، وفعلا استطاع الجيش تدمير كل النجوع والدساكر في تلك المنطقة التي احتضنت الشيخ الثائر ودانت له بالولاء وامدته بالرجال والبنادق والتموين ، الا ان الجيش التركي دفع مقابل ذلك ثمنا فادحا من ضباطه وجنوده المرتزقة والانكشاريين والاتراك ، ولجأ الشيخ عبد النبي بمحاربيه الى الغابة في جنائن العرعار يحتمي بها من هجوم الاعداء،

ويتخذ من اشجار الغابة ذروعا عند رده للهجوم، وعندما وجد الجيش التركي نفسه عاجزا عن ملاحقة المقاتلين البدو داخل الغابة ، عمد الى اشعال الحرائق في الغابة من اركانها الاربعة ، بحيث ظلت نيرانها تستعر لعدة ايام ، وهو يحاصر الغابة ويلتقط الثائرين الهاربين من الحريق ، حتى اتت النيران في النهاية على الغابة باكملها ، وبقى مكانها خلاء مقفر تحيط به تلك الجبال التي تشكل اربعة جدران تمتد عاليا في الفضاء تملاء اجوازه التي تفصل بين الارض والسماء ، وتواترت

الحكايات التي تروى عن معاصري تلك الحرب ، ان صرخات الرعب التي كان يطلقها الرجال الذين ماتوا احتراقا ظلت تتردد لعدد من السنوات التي اعقبت تلك الحرب ، ويزيد من رعبها ولوعتها ان الشعاب كانت تعيد ترديدها مع رجع الصدى في اوقات مختلفة من الليل والنهار الى حد ان اهل البادية كانوا يتجنبون الذهاب للاقامة في جنانن العرعار ، او رعي الشياه بها ، بل يانفون حتى من مجرد المرور من تلك المناطق التي ترتع فيها الاشباح ، وبقيت الارض المحروقة التي كانت تحتلها الغابة مجرد ارض خلاء ، حتى بعد ان تغير وجهها الرمادي الى وجه تغطيه خضرة الرتم والقزاح ، والحرمل والثقفت والحنظل والرمث ، او نبتات العجرم التي تعير الارض صبغتها الشهباء الصفراء ، فيبدو المكان بما يحيط به من جدران الجبال عبارة عن قاعة عملاقة تنفع لاستخدام ارباب العالم القديم يعقدون فيها مؤتمراتهم ، عندما كان الناس يجعلون لكل غرض في الحياة الها ، او يلعبون فيها العابهم التي يتقاذفون خلالها بالنيازك والنجوم ، تحيط بها هذه الجبال التي لا تتخذ شكلا دائريا كما هو الحال مع سلاسل الجبال في

اماكن اخرى ولكن في شكل المربع ، وهي جبال ترتفع الى ما يمكن تقديره بالف متر لها قمم متعددة ذات مستويات واشكال متباينة متنوعة فبعضها تاخذ وضعا متدرجا واخرى لها اشكال مخروطية وتبلغ مساحة هذه القاعة ما يكن تقديره بعشرين كيلو مترا مربعا ، والجبال في اغلبها عارية ، جرداء ، ذات احجار صوانية تلمع تحت مسقط الشمس نهارا ، وتتلون بالوان منازلها التي تتخذ طابعا مختلفا بين الشروق والظهيرة والغروب ، تخالط الصوان في بعض المواقع المرتفعة طبقة من الاحجار السوداء ، بسبب اصلها الناتج عن تفجرات بركانية ، وتبدأ كثافة الغلاف النباتي عند سفوح هذه الجبال، وتزداد هذه الكثافة وتظهر الاشجار والنباتات ذات الاحجام الكبيرة عند الشعاب ، التي تنمو فيها مختلف النباتات التي يتعيش منها الناس علاوة على ان كثرة المسالك والطرقات التي يتخذها الناس مخارج ومداخل لهذه المنطقة المسماة جنان العرعار ، اما خارج هذه السفوح والشعاب فلا وجود لاي امتدادات للغلاف الاخضر ، ففي المناطق المرتفعة من الجبال لا وجود الا لتلك الصخور المطلة من سمتها العالي ،

بتكويناتها واشكالها المختلفة ، اما في السهل الواقع بين الجبال فارض من الحصى والرمل تتخللها بعض المناطق الخضراء والشهباء التي تصنعها بعض النباتات البعلية ، او عدد من اشجار السدر والاثل والبطم القليلة المتناثرة عبر الفضاء الممتد بين الجبال ، وللفضاء مستوى افقي واحد تتخلله في بعض المناطق ما يشبه المرتفعات الخالية من أي نبات ، وتتركز نباتات الحلفاء وسط الشعاب ، او هذه الخروم التي تخترق جدران الجبال ، في شكل فجوج تتباين اتساعا وضيقا وعمقا وارتفاعا، فبين كل مجموعة جبال تتابط بعضها بعضا ، تظهر هذه الشعاب ، التي تمثل المنافذ التي يدلف منها العابرون بشرا وحيوانا لهذه المنطقة المغلقة التي احتفظت باسمها القديم قبل ابادة غابة العرعار ، ورغم اختفاء صراخ الاشباح الا ان الناس ظلوا على خوفهم من ارتياد هذه المنطقة الا في حالات نادة وباعداد محدودة ، كما بدأت المنطقة في الاعوام الاخيرة فقط تجتذب زوار الربيع ، وهم اناس ياتون من الدساكر والدشر القريبة لملاقاة فصل الربيع ، أي نصب خيامهم والاقامة بها خلال اشهر الربيع الثلاثة ثم العودة الى

اماكنهم الاصلية ، حيث يجلبون اغنامهم ويصنعون من اغصان الاشجار زرانب لها واحطابا لنيران مواقدهم ، ويتركون الاغنام ترعى في هذه المنطقة ، ويردون على بعض الابار الجاهلية كما يسمونها نسبة الى عصور ما قبل الدولة الاسلامية ، وهي صهاريج لحفظ مياه الامطار مبنية منذ العصر الروماني والفينيقي واليوناني ، ولا زالت صالحة لاداء هذه المهمة رغم تقادم القرون ، ينساب اليها الماء في وقت الشتاء عبر المسارب التي تتجمع فيها الامطار عند هطولها وتهبط مع المنحدرات لتغذي هذه الصهاريج ، وغالبا ما يتم استهلاك هذا الماء في وقت الربيع ، ولا يبقى في هذه الصهاريج شيئا في وقت الصيف ، حيث يغادر منطقة جنانن العرعار آخر من بقى فيها من ضيفوف الربيع كما يسمون انفسهم ، لان اقامتهم الدائمة في بيوتهم المبنية بالحجارة في الواحات المتوزعة فوق رقعة الصحراء اما اهل البادية ممن يقيمون في نجوع طوال العام فقد اهملوا جنانن العرعار، خوفا من اساطير الاشباح التي تطاردها ، ويتناقل الناس الرويات عن الصراخ الليلي الذي يسمعمونه لضحايا المحرقة القديمة ،

والسبب التاني هو ان بئرا من بين هذه الصهاريج ، بئرا عميقا ، لا يكاد يعرف له احد قرارا ولا يستطيع ان يعرف ما اذا كان الماء يصل اليه او لا يصل ، واذا كان حقا يصل فانه لا وجود لحبال تدرك قاع البئر اذا كان له قاع، والمشكلة ان بعض من ساقهم الفضول للاقتراب اقترابا خطيرا من فوهة البئر انزلقوا ساقطين يلاقون حتفهم ، وخرجت اشاعة تقول ان هناك يدا تخرج من قاع البئر وتنتزعهم انتزاعا من مكانهم وتجذبهم الى موتهم في عمق البئر ، بل ان بعضهم يقول ان هناك من راى هذه اليد ويدعي انها ليست حقا يد ادمية او حيوانية وانما هي هيكل عظمي ليد كانها يد احد من الاموات ، مما جعل الناس يتجنبون الاقتراب من هذه البئر ، بل ان واحدا من اهل الولاية والصلاح ، جلب اسلاكا شائكة رماها فوق فوهة البئر ، وارسل تحذيرا لاهل البادية يدعوهم الى الابتعاد عنها فهي بئر ملعونة ، فلبى الناس دعوته وابتعدوا عنها ، بل ابتعدوا عن ارتياد هذه المنطقة باغنامهم او الاقامة فيها بخيامهم ، ما عدا زائرو الربيع الذين ياتون لهذه الاقامة المؤقتة في هذه المنطقة المهجورة حيث يجدون مراعيها

صالحة لاغنامهم فيقومون لبضعة اسابيع ثم يرحلون ، بل ان بعضهم لم يصله تحذير الشيخ ولا يعرف بخبر هذه البئر ، فيكون هذا الجهل نوعا من الطمانينة التي قد لا يحظى بها العارفون ، ثم جاء ابو فاس متحديا احاديث الاشباح ، مبتعدا عن البئر التي اكتسبت فيما بعد اسم بئر الغولة ، متبعا المقولة التي تقول ابعد عن الشر وغني له ، فاهملها ولم يقترب منها اثناء رعيه .

جاء بانايوتي ، مبعوثا من شركة الحلفاء في طرابلس، الى جنائن العرعار ، ليحط فيها رحاله ، ويؤسس فوق ارضها وكالته، بعد مسح كامل لمختلف مناطق البلاد ، قامت به الشركة بالاتفاق مع الحكومة التي استلمت حديثا ادارة البلاد ، حكومة الحماية البريطانية ، وضمن مناطق متفرقة وقع عليها الاختيار لتكون مراكز لجمع الحلفاء ، كانت هذه المنطقة الواقعة في قلب الصحراء، بسبب غزارة ما ينبت في شعابها من هذه النباتات، لتستأنف بها الشركة نشاطا توقف لمدة ثلاثة اعوام بسبب الحرب، وبدأ الان بعد ان انتهت الحرب في هذه المنطقة من العالم ، وتاسست مع مطلع عام

43حكومة العهد الجديد ، وانتدبت الشركة عددا من الوكلاء للقيام بمهمة تاسيس هذه المراكز ، التي يتم فيها تجميع الحلفاء ونقلها بواسطة شاحنات الشركة الى طرابلس ، بناء على عقد تتعهد فيه الشركة بشراء الانتاج مقابل هامش ربح للوكيل لا يقل عن ثلاثين في المائة ، على شرط ان تحدد هي سعر شراء الحلفاء من المنتج الفرد، كما تتولى القيام بانشاء المرافق التي تحتاجها الوكالة والتي تبقى ملكا لها بعد انتهاء العقد ، وهكذا جاء الرجل مع فريق العمل الذي شيد سورا كبيرا يحيط بارض مساحتها خمسمائة متر ، بجزء مسقوف بطريقة محكمة بصفائح من حديد لكي لا تتسرب مياه الامطار لهذا الجزء من هذه المساحة المسورة المخصصة بجزنيها المسقوف فيما يسمى (الهانجر) والاخر الموجود عاريا لتخزين ووزن وصف الحلفاء وتحميلها في سيارات الشحن التي ستنقلها الى العاصمة، كما احضروا له ميزانا كبيرا (باسكولا) لوزن الحلفاء ثم الة عملاقة تسمى (بريسا) لرص وحزم هذه الحلفاء في بالات يسهل نقلها وشحنها ، وبنوا له مكتبا يدير منه الوكالة ، عند باب هذه المساحة المخصصة

للتخزين والشحن ، وللمكتب مظلة او (تيندا) كما يسميها تصنع ظلا امام المكتب وتمنع دخول الشمس اليه ، وفي الجهة المقابلة ثم بناء بيت لاقامته وبنوا بمحاذاة البيت حانوتا كبيرا وتم طلاء كل هذه الابنية بمادة جيرية ، ذات لون فضي الى حد ان اطلق اناس الوكالة على هذه المنطقة من الابينة المربع الفضي حتى قبل اكتمالها ، وكانت مهمة الحانوت هي توفير السلع والبضائع لمجتمع الوكالة وسد حاجات العائلات التي يطمح المشروع لاستقطابها كي تقوم بجمع الحلفاء ، وبيع ما يجمعونه للسنيور باتايوتي ، فنظام وكالة الحلفاء لم يعد يقوم على تاجير عمال يجمعون الحلفاء ، كما كان يحدث في فترة ما قبل الحرب ،وانما على طريقة جديدة ، وجدت الشركة من خلال تجاربها السابقة انها اكثر نجاعة وجدوى ، وهي معاملة العمال حسب انتاجهم ، والاعتماد على الجهود الاهلية للعائلات البدوية والريفية التي تريد جلب رزق لنفسها عن هذا الطريق ، فتقوم بجمع الحلفاء وبيعها للوكالة يوما بيوم ، وبقدر حجم الجهد والانتاج تكون قيمة الاجر ، ويبقى التنافس لتحقيق عائد اكبر مفتوحا للجميع .

قبل ان ينتهي السيد بانايوتي من اتمام ابنيته وجلب عائلته ، بدات المراحيل التي تنقل العائلات تحط في المنطقة المواجهة لدكانه والتي تم تمهيدها بالات الجرف وتسوية الارض لتكون مكانا صالحا لنصب الخيام ، حيث ازالت هذه الالات الاحجار وجرفت النباتات الصحراوية مثل العجرم والرتم والقزاح والديس والعاقول والضمران ، وبدأت خيام النجع الجديد تنبثق بقبابها الصغيرة السوداء في هذا الفراغ الهائل .

بعكس مهن كثيرة اخرى ، يتولى العمل بها الاب فقط لاعالة اسرته ، او ابنه الذي بلغ سن الرشد ، فان مهنة قلع الحلفاء يستطيع كل افراد العائلة المشاركة فيها ، الاب والام والابناء صغارا او كبارا ذكورا او اناثا ، الا من كان رضيعا في القماط ، ومعنى ذلك ان الدخل الذي يمكن ان يصيبه الاب وحده سيتضاعف بعدد افراد الاسرة ، وهو ما كان يشكل اغراء لاهل البادية ، ونقطة استقطاب تجعل الناس يستنفرون انفسهم وعائلاتهم للمجيء والاستفادة من هذا العرض السخي

، المشكلة فقط هي ان انتشار الخبرفي البوادي وعبر هذه التجمعات البشرية الصغيرة المبثوثة على رقعة كبيرة مقدارها الاف الاميال ، لا يحدث الا من خلال وسائل محدودة ، بطيئة التوصيل ، ولهذا لم يكن ممكنا ان تأتي العائلات في وقت واحد ، وكان الامر يحتاج الى ان تصل احد العائلات او يصل احدى المراحيل وتكتشف العائلة او عائلات المرحول مردود ما تم جمعه من حلفاء ، فترسل العائلة او مجموعة العائلات خبرا لعائلات من الاقارب كي تلحق بها ، واذا كان بانايوتي سيعطي ثمنا لكيلو الحلفاء مقداره خمسة فرنكات ،فمعنى ذلك انه يمكن لعائلة من خمسة افراد ان ترجع بعائد في اليوم يزيد عن خمسة وثلاثين فرنكا مقابل جمعها سبعة كيلو حلفاء ، وهو مبلغ كبير في اليوم الواحد ، يعادل او يزيد عن مرتب واحد من المحظوظين الغاطسين في النعيم الحكومي ، مثل افراد الشرطة .

وبسرعة احضر بانايوتي افراد اسرته وهم زوجته كاتيا التي استلمت مع ابنتها ذات الستة عشر عاما البيع والشراء في الحانوت ، وابنه يورجو وهو توأم للفتاة ، يعاون اباه في

وزن الحلفاء مع عامل ابقاه بانايوتي من فريق البناء ، ليتولى مسئولية الة (البريسا) وهي الة الضغط والربط ووضع الحلفاء في حزم استعدادا لشحنها ، وبدأ الامر بعشرين خيمة تحولت في ايام قليلة الى ثلاثين ثم اربعين وبعد ان شاع الخبر وانتشر مع مرور الايام ، وصل العدد الى ما يزيد عن سبعين خيمة وبضعة اكواخ ، يخرج اصحابها من بعد الفجر،ويباشرون العمل في اقتلاع الحلفاء الى منتصف النهار ، ثم يستأنفون العمل ، بعد انتهاء فترة القيلولة التي يقضونها تحت ظلال اشجار العرعار بالشعاب ، الى ما بعد غروب الشمس ، وفي نهاية اليوم يجدون بانايوتي جاهزا مع ابنه ، بألة الوزن الكبيرة التي يسميها " البسكولا "ذات القاعدة الحديدية التي توضع فوقها الحلفاء ، والتي سرعان ما ارفدها بالة اخرى ، بل وثالثة ، لكي لا يتاخر في وزن ما يجمعه الناس كل يوم من حلفاء ، واستعان باثنين من صبيان النجوع ، يجيدان القراءة والكتابة يعينانه في الوزن ، ويمنح باتيوتي نفسه كوبونا لصاحب الحلفاء ،بثمن ما تم وزنه ، يستطيع ان يصرفه مالا من الدكان ، او يتقاضى به بضاعة ، او يدفع به

دينا او يفعل هذه الاشياء مجتمعة اذا كان المبلغ المرصود في الكوبون يكفي لذلك .

وعرف الناس امانة ونزاهة بانايوتي في الوزن ، ووفاءه في سداد الثمن دون تاخير ، فاحبوه وتفانوا في خدمة الوكالة ، والانتفاع مما يحصلون عليه من رزق كريم عن طريقها.

كان بانايوتي واسرته يتكلمون فيما بينهم باللغة اليونانية، الا انهم جميعا يجيدون الحديث بالعربية بلهجة ابناء باب البحر بطرابلس مع لكنة بسيطة ، وكان يقول لزبائنه ، ان هذه القرية ولدت لتبقى وتكبر مع الايام ، فهو بهذه الوكالة يؤسس لمدينة جديدة ، يضيف بها مجدا الى مجاد اسلافه الاغريق القدامى الذين بنوا في شرق البلاد البينتابوليس ، او المدن الخمس الشهيرة التي كانت درتها مدينة شحات الخالدة والباقية الى هذا اليوم ، وهذه هي المدينة السادسة التي سيكون مكانها بين هذه الجبال ، في جنانن العرعار ، وسياتي في المستقبل من يسميها مدينة بانيوتي ، نسبة الى مؤسسها

الذي كان عند قوله لهذا الكلام يعمل جاهدا على استكمال مدينة المستقبل بدعم من وكالة الحلفاء حيث استطاع تأمين مولد كهرباني ارسلت الشركة عامل فني سيبقى الى حين تدريب فني من شباب النجع يتولى تشغيله،

وهو عمل لا يزيد عن ثلاث ساعات كل مساء ، هي مدة تشغيل المحرك وانارة النجع والوكالة ، واقام مظلة صغيرة تحمي المحرك من المطر والرياح مع خزان صغير للوقود ، وكانت الشركة قد استخدمت الة البلدوزر وشقت طريقا ترابيا يصل بين وكالته وبين الطريق الرئيسي على بعد عشرين كيلو متر ، خلف

الجبل ، اما الماء فقد تم في هذه المرحلة الاكتفاء بصهاريج الماء الرومانية التي تحفظ ماء الشتاء ، وقد باشر منذ مجيئه بتفقدها ونقل الماء الى الفارغ منها بواسطة سيارات نقل الماء ، تجلبه من ابار ارتوازية في مزده . وعدا هذه الصهاريج وعددها خمسة ، فان هناك عين ماء صغيرة في عمق احدى الشعاب ، لا يمحل ماءها عبر الفصول الاربعة ، الا ان ماءها ياتي شحيحا فلا احد يقصد هذه العين الا اذا كان مسافرا نفد

منه الماء وتمكن منه العطش ، فيقصدها لاسعاف نفسه .
وكان يعترف بانه لم يكن صاحب فضل في اختيار المكان ، ولكنه مكان اختارته له الشركة، ويقسم انه لو ترك له الاختيار ، لما اختار في البلاد كلها افضل من هذا المكا ن لاقامته حتى لو لم يكن سيحصل فيه على رزق ، وسر جاذبيته هو هذه الجدران الاربعة من الجبال التي تجعله مكانا خاصا ، زد على ذلك انه اكتشف لنفسه اسلافا في هذا المكان فهناك نصب تذكاري لقائد يوناني مات في هذا المكان واقاموا له نصبا رخاميا يرتفع اكثر من ثلاثة امتار فوق الارض، وهناك كما تقول الخرافات التي يتناقلها الناس كنز مرصود ومحروس بالجان قرب هذا التمثال الذي يسميه اهل البادية صنما، وجاءوا اليه باكثر من ساحر مغربي ، لفك طلاسمه واجلاء حراسه عنه بما يتقنونه من تعاويذ واوراد ، الا ان كل ساحر ياتي كان يمتنع عن الدخول في معركة مع هؤلاء الحراس قائلا بانهم شداد غلاظ لا يقوى انسي مثله على هزيمتهم ، ولهذا ترك الناس التمثال دون ان يجرؤ احد على الاقتراب منه بعد تلك المحاولات الفاشلة ، وفوق قمة احد الهضاب المحيطة

بالمكان ، هناك قصر قديم يسميه اهل البادية ، قصر الخواجه ، لم تبق منه الا جدران متهالكة واعمدة مرمية فوق الارض ، لم يجد بانايوتي حاجة في نفسه للصعود اليه ، ولكنه واثق منه اثر من الاثار اليونانية ،لانه راى اثار شبيهة به فوق كثير من جبال بلاده اليونان ، وهو ما يثبت ان هذا المكان كان مأهولا باسلافه ، وانه هو واسرته ليسوا الا امتدادا لاولئك الاسلاف الذين مازالت ارواحهم تحوم بين هذه البطاح .

وكان يقول احيانا لزبائنه الليبيين الذي لا يفهمون احيانا رموزه ومعانيه المغموسة في ثقافة بلاده الاصلية

ـ لقد جاء الاسلاف المؤسسون للحضارة اليونانية بناء على اوامر الاله ،التي نقلتها اليهم عرافة معبد دلفي ، واحس انا ايضا بان امرا الهيا هو الذي جاء بي الى هذا المكان .

ويستوضحه احد الحاضرين متسائلا :

ـ وما هي دلفي هذه ؟

ـ انها المدينة المقدسة في اليونان القديمة .

ثم يتوقف مستذكرا قبل ان يستأنف حديثه شارحا لماذا هي مدينة مقدسة:

ـ عندما اراد ابوللو ان يقيم معبده امر اربعة طيور عملاقة ان ترحل من اقصى اركان الارض الاربعة الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وعند نقطة اللقاء ، حيث صرة الارض ومركزها ، التي هبطت عندها الطيور الاربعة ، بنى معبده ومدينته ، التي صارت اكثر المدن تقديسا ، كما هي مكة للمسلمين .

ويستنكر بعضهم المقارنة ، متهامسين لبعضهم بعضا ، اذ لا يجوز مقارنة مكة باي مكان آخر في العالم ، ويحس بانيوتي بما اصابهم من قلق ، فيبرر ذلك بانها مقارنة استوجبها التوضيح ، وكان الوحيد الذي يناكفه ويرد عليه هو الاومباشي جبران ، وهو رجل طاف في اصقاع العالم جنديا مع الطليان ثم مع الانجليز بعد قيام الحرب واشتغل في البحرية مع بحارة يونانيين وزار مدنهم وجزرهم ويعرف بعض كلماتهم ويستطيع ان يحيي بانايوتي وعائلته ، قائلا لهم في الصباح

ـ كاليميرا

وفي المساء

ـ كاليسبيرا

وعندما يسمع بانايوتي يتحدث عن الاله القديم الذي ارسل اسلافه، ثم عاد وتذكر بعد ثلاثة الاف عام ان يرسله الي هذه الصحراء ، يرد عليه قائلا

ـ تعرف يا بانايوتي انه لم يكن اجدادكم يعرفون الله ، وانما يعبدون الهة كثيرة متعددة بعضها الهة للبحر او البر او الريح او الخمر او الرقص ، فاي اله هذا الذي بعثك وبعث اهلك الينا ؟

فيدافع عن الهه الحالي الذي يعرفه كرجل مسيحي ، ساعيا في نفس الوقت لان يربط بينه وبين الهة اليونان القديمه ، قائلا انه لا يجد تناقضا بينه وبين دين اجداده فما تلك الالهة المتعددة الا اوجه كثيرة لاله واحد ، لم يستطع العقل البشري ادراكه الا بعد مضي عشرات القرون من السنين .

فيقول له الامباشي جبران ، هازئا من دين اليونانيين :

ـ لا تقل لي هذا الكلام يا بانايوتي ،لانه يدخلك دائرة الكفر بدينك المسيحي .

ويذكره بانه لا يتكلم من فراغ ، وانما عن دراية بما يقوله بعض اليونانيين عن دينهم :

ـ لقد عشت مع بحارة يونانيين مازالوا يصدقون ان العالم تحكمه تلك الالهة القديمة التي تقول عنها خرافاتكم ويعتبرونها الهة حقيقية تعيش في اليونان وتسكن جبلا هناك يسمونه موطن الالهة، فلا تكن وثنيا مثلهم . صدقني لقد رأيتهم عندما تضرب الريح السفينة كيف يصرخون ويركعون على اقدامهم يتوسلون مجهشين بالبكاء ، " بوسايدون ، بوسايدون " يستنجدون باله البحر ، ان يعطف عليهم ويوقف العاصفة التي تضرب السفينة .

فيرد بانايوتي ساخر:

ـ لا تقل لي ان بوسايدون خذلكم ، ولم يتدخل لانقاذ سفينتكم ، لقد فعل ذلك بالتاكيد ، بدليل انك هنا تتكلم معي ، ولم تمت غرقا اثناء تلك العاصفة .

ثم يستدرك قائلا :

ـ انت مسلم اومباشي جبران ، تعرف المسيح وتعرف العذراء امه وتعرف ان رجلا مثلى يتبع ديانة المسيح لا يعترف الا بالله والمسيح والروح القدس .

الامباشي جبران ، لا يزيد في العمر بغيرعام او اثنين عن بانايوتي البالغ من العمر سبعة او ثمانية واربعين عاما، واذا كان بانايوتي هو صاحب الوكالة ، فهو يقف ندا له في الطرف الثاني كقائد مجموعة العائلات التي اوكلت له ان يتحدث باسمها وان يمثلها لذى صاحب الوكالة ، فقد كان هو الذي حرض نجعا كاملا من اهل قبيلته على النزوح الى جنائن العرعار ، وهو نجع قوامه عشرون عائلة بدوية كانت تسكن على ضفاف بلدة مزدة ، تحتمي بالسلطات المحلية هناك بحثا عن الامان ، لانها عائلات ذهب اغلب رجالها الى الحرب ، وظلت خلال اعوام الحرب تستفيد مما يسمى القرامات وهي كيلوجرامات من الشعير تخصصها حكومة الاحتلال الايطالي خلال فترة الحرب للمعوزين من قاطني البادية ، مع تمييز خاص لعائلات المجندين ، ثم انتهت مع انتهاء الادارة الايطالية هذه المنحة المجانية من الشعير ، كما عاد الجنود ، او من

بقى منهم على قيد الحياة ، الى عانلاتهم دون وجود عمل يعملونه ،وبينهم الاومباشي جبران ، الذي وجد نفسه مسئولا عن التفكير في وسيلة للعمل والارتزاق لهؤلاء القوم ، باعتباره اكبر رتبة من بقية المسرحين من الجيش ، واكثر خبرة وتجربة ، وينظرون اليه كمرشد ودليل لهم ،

وما ان شاع خبر انشاء وكالة لتجميع الحلفاء حتى قاد نجعهم الى هذا المكان ، وكان قبل ان يغامر باحضارهم قد قام بما يستوجب عمله من تحريات وجاء بنفسه راكبا جوادا استعاره من قريب له ، للقاء باتايوتي ، في بداية انشغاله بتأسيس الوكالة ، ودخوله بجراراته الى هذا المكان لتسوية الارض وتشييد الابنية ، مستفسرا منه عما يحدث ، وعن العدد الذي يتوقع ان يستوعبه المشروع ، وعن اسلوب المعاملة ، ولم يغادره عائدا الى نجعه طالبا منهم الانطلاق خلفه الا بعد ان عرف كل الاجابات التي نقلها اليهم ، مع تاكيده ، ان ما يقوله الرجل اليوناني خبر صحيح ، سبق ان عرف مثله في وكالات للحلفاء كانت موجودة في البلاد قبل الحرب وكان هو الذي طالب باتايوتي بتمهيد الارض التي اختارها بالتشاور معه

لنصب الخيام وهو الذي اتفق معه على حق القادمين في الانتفاع بمحرك الكهرباء وان يمد لكل خيمة خيطا به مصباح ، ينيرها لمدة ساعتين او ثلاث ساعات بعد غروب الشمس ، علاوة على مبادرات جاءت من بانايوتي نفسه ، تضمن استمرار العمل والاقامة المستقرة المريحة ، لزبائن الوكالة ، مثل تعهده امام الامباشي جبران ، بانه سيملأ صهاريج الماء بماء تجلبه السيارات من مزده ، وبالاضافة الى ذلك فقد ذهب الامباشي الى منطقة الشعاب يتفقدها على جواده ويتأكد من غزارة ما ينبت فيها من حلفاء .

ورغم وصول العائلات قبل ان يكتمل بناء كل منشآت الوكالة وقبل ان يباشر بانايوتي في شراء الحلفاء ، فلم يتركهم الامباشي جبران يضيعون وقتهم جالسين امام خيامهم ينتظرون ان يبدأ بانايوتي العمل وانما قادهم نساء ورجالا واطفالا ، الى اقرب هذه الشعاب لبدء جمع الحلفاء ووضعها في خيامهم الى ان ينتهي بانايوتي من استكمال المرافق التي يحتاجها لمباشرة العمل ، واكثر من ذلك فقد مضى يتفقدهم جميعا ليتأكد من اتقانهم لطريقة اقتلاع سيقان الحلفاء ،

ويقوم بتعليم من لا يعرف ، فهي عملية بسيطة ، لا يحتاج ان يجهد الانسان نفسه في اتقانها ، تبدأ بان يحمل الواحد في يده قطعة خشب في حجم وتد صغير ، يقترب بها من نبتة الحلفاء التي تنتصب بسيقانها في علو متر او اكثر قليلا ، فينحنى عليها ويقوم بلف الجزء الاعلى من هذه السيقان حول قطعة الخشب ويقتلعها ، فتنسل السيقان من الجذر ، الذي يبقى ثابتا في الارض وهكذا مع ما تبقى من سيقان النبتة ، لان هذه السيقان اكثر كثافة وغزارة من اقتلاعها في قبضة واحدة ، فيواصل اقتلاعها كلها قبل ان ينتقل الى نبة اخرى ، وهكذا لا تبقى بعد اقتلاع السيقان الا الجذور التي تستولد فيما بعد اوراقا جديدة سيحين قطافها بعد مضى فصل من فصول العام ، ثم يضعون هذه السيقان في رزم يعودون بها الى خيامهم ، لبيعها فيما بعد الى الوكالة ، ونبتات الحلفاء تبدأ اوراقا خضراء ، وتستمر كذلك طالما هي لم تقطف بعد ، ولكنها بعد اقتلاعها وتخزينها تتحول الى اوراق يابسة يميل لونها الى الاصفرار ، حيث تصل الى الشركة الام في طرابلس بهذه

الحالة ومنها عبر سفن الشحن الى مصانع ورق البنكنوت في اوروبا .

لم تمض غير ايام قليلة حتى بدأ بانايوتي في شراء الحلفاء ، واستقر روتين العمل في الوكالة وانتظمت مواعيده ، كما انتظمت مواعيد اقتلاع الحلفاء ومواعيد فتح الحانوت وقفله ، بمثل ما انتظمت مواعيد صرف الكهرباء اثناء الليل ، وكان عدد الخيام يتزايد مع مضي الايام ، وحجم العمل في الوكالة يزداد ، وبدلا من سيارة شحن واحدة تاتي مرة كل اسبوع لنقل الحلفاء ، ارتفع عدد سيارات الشحن الى سيارتين ثم ثلاث سيارات في الاسبوع ، ثم قفز العدد وصار شاحنة كل يوم ، ونتيجة للصداقة التي انعقدت بين الاومباشي جبران وبانايوتي ، فقد انعقدت بين اسرتيهما ، ولان للاومباشي ابنة اسمها مريم في عمر انجيليكا ابنة بانايوتي ، فقد تعلقت الاثنان ببعضهما ، وطلبت انجيليكا من امها وابيها ان ترافق ابنة الاومباشي عندما تذهب مع اسرتها في رحلة جمع الحلفاء ، فوافق الاب وخافت الام كاتيا على ابنتها ، لانها تخشى عليها من الافاعي والعقارب التي يكثر تواجدها بين صخور الشعاب ،

فبادر الاومباشي الذي كان حاضرا الحوار، يرد على السينيورة كاتيا قائلا بان هذه الشعاب هي التي تذهب اليها ابنته مريم التي تراها سليمة لا تلذغها الافاعي والعقارب فكان ردها بان بنات البادية اكثر خبرة ودربة وشطارةعلى التعامل مع مخاطر البيئة الجبلية البدوية وتفادي حشراتها السامة، بينما لم تعرف انجيليكا الا المدينة وشوارعها الخالية من مثل هذه المخاطر ، وانتصر الاب لخروج ابنته قائلا بانها الان تعيش خارج المدينة ، وليس خروجا مؤقتا للفسحة والسياحة ، وانما خروج للعمل والحياة يستمر اعواما ولا تستطيع حبسها في البيت لكي لا تتعرض للمخاطر ، يجب ان تذهب وتتعلم . ولم تقتنع الام رغم التدخل الحاسم للاب الا بعد ان اكد لها الاومباشي ان كلبه الاربش سيكون رفيقا لابنته وابنتها وهو كلب ربما تعرف شدته وشراسته ، ولكنها قد لا تعرف انه بارع في اكتشاف العقارب والافاعي ، وطردها بعيدا عن الديرة واهلها . وهكذا وافقت السيدة كاتيا لابنتها انجيليكا ان تترك جدران البيت والدكان وتذهب مع مريم واهلها لاقتلاع الحلفاء في الشعبة القريبة ، لان النظام الذي اقترحه

الاومباشي على المجموعة الا يتوزعون في كل الشعاب وعددها يبلغ تسع ، بل يبدأون بها شعبة بعد الاخرى ، ولا يتركون الاولى حتى يفرغونها مما فيها من حلفا ء ، قبل الالتحاق بالثانية وهكذا مع كل شعبة حتى يكملونها جميعا ، ليعودوا بعد ذلك للاولى التي ستكون قد استعادت اوراقها كاملة النضج والطول فيبدأون معها دورة جديدة.

وكان بانايوتي سعيدا بتطور العمل في الوكالة ، وباقبال اهل البادية على الانخراط في اقتلاع الحلفاء ، واثقا ان العدد سيزيد مع الايام ، والانتاج سيتطور ، وان النجاح سيكون حليف هذا المشروع الذي اقبل منذ البداية على انشائه بحماس ورغبة ، وقد عاد لممارسة عادة قديمة ، هي كتابة بعض يومياته ، خاصة وان التجربة جديدة وتستحق ان تكون موضع توثيق في يوميات يعود اليها بعد ان تصبح هذه الحياة نوعا من الذكريات ، وكان قد جاء بكراس له غلاف جلدي اسود ، استهل اولى صفحاته بهذه السطور

((جنانن العرعار، اسم يستحق ان اتفاءل به ، وسط هذا الخلاء

المحاط بجبال تشبه تماما جبال اولومبيا التي تنسب اليها الميثولجيا الاغريقية شرف ايواء الالهة ، لازلت اذكرها وانا صغير اقطع الطريق من الاسكندرية اليونانية حيث جذوري ومسقط راسي ورؤوس آبائي الى العاصمة اثينا على بعد مانيتي كيلو متر ، وعند المرور عودة وذهابا ، كنت امرق من تحت جبل اوليمبك الذي يتكون هو ايضا من حلقة من الجبال الجرداء التي تشبه تماما جبال جنانن العرعار ، وربما من هنا جاءت هذه الالفة مع المكان ، وهي الفة تتعزز بما كان يراودني دائما من ميل للعزلة والانسحاب من ضجيج المدينة الى سكينة هذا الخلاء وهذا البراح المضمخ بعبق الطمأنينة والسلام ، سمعت عما يقوله الناس من معارك دارت في هذه المنطقة ابيدت على اثرها غابات العرعار، وينسب الناس ابادتها وقتل رجال المنطقة ، الى الجيش التركي منذ مئات عام حيث كان هذا الجيش يرتكب في نفس ذلك الوقت مثل هذه المجازر في ارض اليونان ، فهل لابد ان يكون القاسم المشترك الذي اجده بين وطني الاصلي وهذا الموطن الجديد يتصل بجرائم سلاطين الاتراك ، هل هي حقا مصادفة ، واذا

كانت كلذلك فهل للمصادفة ايضا قانون يبسط نفوذه على حياة البشر ، وهل للمصادفة دخل في ايصالي الى هذا المكان ، هناك الهة عاشوا فوق جبل الاولمب والهة عاشوا فوق هضاب جنانن العرعار، انهم حتى وان لم يعيشوا فلابد ان قاندا اغريقيا ، او كاهنا منذ ذلك الزمان جاء بهم وقام بعبادتهم ، بدليل وجود اكثر من اثر واكثر من طلل ينتسب الى الاغريق القدماء موجود بين شعاب هذه المنطقة ، الماضي موصول بالحاضر ، ودوري ان اكون احد حلقات الوصل ، فهل اعتبرها مهمة تارخية ، اسعى للارتفاع الى مستواها ؟ مهمة لا يفرضها احد على ، وانما اتطوع بنفسي لوضعها فوق كاهلي ، لعل في ذلك شيئا من الغفلة ، او شيئا من الظلم ، ولكنها غفلة وظلم احبهما واتقبل بحب ما يترتب عليهما من تبعات ،

وساطلب العون من سيدتي مريم العذراء ، ومن سيدي ومولاي يسوع ، ولتبارك يارب هذا الكون روحي وتحميني من مزالق الطريق ، امين))

- 3 -

اقتضى الامر دورة عام كامل ، اربعة فصول بالتمام والكمال ، حتى توفر هذا العدد الكبير من الخيام والاكواخ ، واستقر العدد عند رقم تسعين عائلة تعمر المكان . انقضى ربيع وصيف وخريف وشتاء ، منذ ان بدأ بانايوتي تشييد وكالته ، وجاء ربيع جديد ، وكانت ارض القبلة وضمنها الحمادة الحمراء هي الفراغ المهول الذي يفصل بين بري طرابلس وفزان ، وكانت دساكر القبلة ونجوعها هي التي ترسل افواجا من قاطنيها الى وكالة بانايوتي ، في جنان العرعار ، الغارقة في عمق الحمادة ، المندسة بين جبالها ، التي تشبه جيبا من جيوبها السحرية السرية ، مخفيا عن الانظار ، منزويا عن الطرق التي تعبرها القوافل ، ويبدو هذا الجيب كانه ظهر فجاة من عالم الخفاء ، ليستقطب جموع الراحلين الى فجوجه العميقة ، وعادت الالسنة تلهج باسم اشجار العرعار ، رغم ما يحكيه تاريخ قرن مضى عن

المجزرة التي تعرضت لها هذه الاشجار ، الا ان ما تبقى منها بين الشعاب ، بدا كانه هو الذي يرسل عبقه الطيب واريجه الفواح عبر هذه البوادي الهائلة الاتساع ، ليغري البشر بالمجيء الى هذه المربع من الارض وما يحيط به من شعاب ، ما تزال رغم اعوام الجفاف وامحال الاودية والعيون ، تحتفظ بانواع من النباتات قادرة على مقاومة العطش ، تصنع غلافا اخضر كان هناك منابع سرية تختفي خلف الصخور تغذي جذور ما به من نباتات واعشاب واشجار .

وكما بدأ تعمير الوكالة بتلك العائلات العشرين التي قادها الاومباشي جبران ، فقد انتهى ايضا بما يماثل هذا العدد من العائلات يحملها مرحول انطلق من جنوب البلاد ، من المنطقة الحدودية الليبية التشادية في اوزو ، ومن عاصمة تلك المنطقة ذاتها بلدة اوزو ، التي تسكنها قبائل اولاد عثمان وهي قبائل ليبية مسلمة يختلط في عروقها الدم العربي بالدم الزنجي الافريقي ، ويقود المرحول رجل اسمر اللون ، عظيم البناء الجسدي، يحمل هو ايضا لقبا عسكريا جاءه من خدمته في الجيش الفرنسي هو السيرجينتي خليفة ، وقد اظهر شيئا

من الحنكة والمرونة وهو يجد ان الامباشي جبران قد احتل موقعا قياديا قبله ، فرضي بان يكون مساعدا له ، وبدلا من نصب الخيام ، عمد اهل هذه القافلة الى بناء عشرين كوخا جمعوا لها احطابا من الشعاب ، وغطوا سقوفها بالياف ومصنوعات يدوية من سعف النخيل مغطاة باردية شمعية تمنع تسرب المياه جاءوا بها معهم لها شكل القباب قاموا بتثبيتها باسلاك الحديد وربطها ربطا متينا باعمدة الكوخ لكي لا تطير بفعل الرياح، وكان بينهم رجل كان يشتغل باحياء الافراح اسمه الشوشان أنشأ من بعض صبية هذا المرحول الاسمر ، فرقة للرقص الشعبي اجاد تدريبهم وصار اهل النجع يستعينون بهم في احياء مناسبتهم ، ولم يقتصر مجيء الناس من دساكر الصحراء ونجوعها وانما من عاصمة الاقليم مزده نفسها ، وليس من اطرافها ، فقد جاء شيخ من شيوخها هو الحاج رضوان ، الذي كان تاجرا يملك حانوتا ، اضارته سنوات الحرب ، وشحت موارده بسبب نضوب الزبانن من اهل الصحراء الذين كانوا يقصدون حانوته ، لمقايضة شياههم وجمالهم بما لديه من بضائع ، حتى اقفل دكانه ، وراى الانقاذ

في وكالة باتايوتي فانطلق مع عدد من اقاربه ، كما سبقته بعض العائلات ، ولحقت به عائلات اخرى ليستقر في بيت كبير اصبح هو اكبر البيوت ، بل اضاف الى البيت الذي تقطنه العائلة بيتا يستقبل فيه ضيوفه ، ويتفرغ فيه لاداء عباداته ، ويدعو احيانا بعض اصحابه لمشاركته صلاة الجماعة طلبا للاجر والثواب .

وحول هذا البيت وقريبا منه ، وجد اهل النجع براحا استغلوه في انشاء سوق صغير لا يظهر الا مع اول الليل بعد عودتهم من الشعاب ، كانت رائدة السوق العمة مريومة التي طرحت اعشابها الطبية على صندوق لمن يريد ان يدفع ثمن الانتفاع بها ومع الاعشاب عصاير ومقطرات لاوراق اشجار مثل اوراق العرعار ، وثمار مجففة لشجيرات اخرى مثل الحنظل ، ولكل نوع خصائص واسرار في تطبيب وعلاج العلل والامراض ، وجاء بعدها من وضع صندوقا يبيع فوقه بعض المشغولات اليدوية من اوراق الحلفاء في شكل حبال وحلقات لتقييد جدي او حمار واخر يبيع اوتادا مصنوعة من اعراف

الاشجار ، ورابع يبيع مشغولات من الصوف او الوبر ، جوارب وفانلات وطواقي وسيدة سمراء من اهل اوزو احضرت بيض ما لديها من دجاجات لبيعها وهكذا هو سوق يومي غير حانوت الوكالة نشا بموازاته يقدم خدمة مضافة تكمل خدمته وتشكل دخلا اضافيا لبعض عائلات النجع .

— 4 —

الشعبة في هذه المنطقة ليست مجرد شق بين جبلين ، وانما انفراجة تفصل بين سلسلة الجبال يبلغ اتساعها بضعة امتار ، وتمضى تخترق الجبال حتى تنفذ الى الناحية الاخرى منها على امتداد مائتي متر او اكثر قليلا ، وتنحدر الى ان تصل قريبا من سفوح الجبال، فلا يزيد ارتفاعها عن هذه السفوح على ثلاثة امتار ، يصعدها الناس من قدم الجبل الى مستوى الشعبة ، يتسلقون صخورا كانها السلالم ، ليستقر عندند مستوى الارض في هذه الفجوة الفسيحة بين جبلين ، حيث تكثر نباتات الحلفاء ، تحاذي بعضها بعضا ، لتكون اقرب في شكلها الى جذور الشعير او الحنطة ، بل اكثر ارتفاعا ، واصلب عودا ، واكثر استقامة ، لانها لا تملك سنابل في نهايتها تثقل عليها وتحني هاماتها ، فتبدو وهي تميس وتتمايل بسبب تيار الهواء الذي يصنعه التجويف بين الجبال ، كانها حقل كبير من حقول الشعير او الحنطة وقت اخضرارها

، تمتد عبر ذلك التجويف وفوق ارضه المنبسطة وتصعد مع جانبية حتى تبلغ ذلك الحزام الاسود المصنوع من صخور بركانية ، وتصل بين الغلاف الاخضر الذي يغطي الجزء الاسفل من الجبل بسمته العالى عند القمم ذات الاحجار الصوانية التي تشكل لاغلب هذه السلاسل الجبلية ما يشبه العمائم البيضاء . وتشبه الشعاب التسع بعضها بعضا ، كانها ناتجة عن تصميم هندسي واحد ، وقد تنقل الرواد الاوائل من جامعي الحلفاء ، في هذه السنة الاولى من عملهم في وكالة بانيوتي ، عبر اربع شعاب ، أي بمعدل ثلاثة اشهر قضوها في كل شعبة ، افروغها من كل ما فيها من حلفاء ليعودوا اليها فيما بعد ، الا انهم الان وبعد ان تضاعفت اعدادهم ، ووصل حجم عمالتهم الى هذا الرقم الكبير ، فسيتضاعف بالضرورة حجم المحصول ، وبالتالي سيحتاجون لتوزيع انفسهم بين شعبتين في كل فصل من فصول العام ، ولن يؤثر ذلك في استنزاف هذا النبات ، طالما ان الشعبة التي تم اقتلاع ما فيها من حلفاء في الربيع الماضي ، عادت هذا الربيع مليئة بالحلفاء كما كانت قبل اقتلاعها، وهكذا هو الحال مع بقية الشعاب مما كان مصدر

فرح لاهل النجع، لانهم كانوا يضعون ايديهم على قلوبهم خشية الا تصدق المعلومة عن تجدد الحلفاء ، وان ينفد هذا المصدر من مصادر الرزق ، الا ان الايام اثبتت لهم انه حقا وفعلا كما تم ابلاغهم في البداية ، مصدر متجدد ، خصب ، سريع وغزير في نمو اوراقه ، لا سبيل الى نفاده ، يتمدد ويتوالد على مدى الدهر ، رغم اعوام الامحال والجفاف ، مما اعطى مصداقية لكلام امراة عجوز هي العمة مريومة ، التي تقول ان نبتة الحلفاء ، نبتة مباركة ترعاها ملائكة السماء ، وتشرف باذن من خالق الكون على استمرار تجددها وتوالدها

لم يكن سهلا على الفتاتين مريم وانجيليكا وغيرهما من صبيان وبنات ، مجاراة الكبار من اهلهم في اقتلاع الحلفاء لان اقتلاعها يحتاج الى جهد لا يقدرعليه الا من اكتمل بناءه الجسماني ، وقد علمهما الاومباشي جبران كيف يتجنبا الجذور الغزيرة الكثيفة الخضراء ، وان ينتقيا الجذور الصغيرة الذابلة ، لانها اكثر يسرا وسهولة عند الاقتلاع ، كان قد عود ابنته على طريقة استعمال الوتد في الاقتلاع ، وطلب

منها ان تترك الجذور الخضراء الكبيرة الملينة بالاوراق المكتملة النضج والطول وان تختار فقط نبتات الحلفاء الصغيرة الذابلة التي لم ترتفع نفس الارتفاع الذي وصلته النباتات الاخرى لانها اكثر يسرا وسهولة عند اقتلاعها، وهي مطلوبة مثل غيرها من اوراق ، في سوق البيع والشراء، ومع ذلك ، فقد كانت ام انجيليكا تتفقد يدي ابنتها عند عودتها من الشعاب ، وتنزعج لما تراه يعتريهما من احمرار واحتقان بسبب الجهد المبذول في جمع الحلفاء ، فتعمد الى تدليكهما بالمراهم ، دون ان تستطيع منع ابنتها من مواصلة الذهاب في اليوم التالي لان هذا ما تريده وتصر عليه الفتاة ، ولم يكن عمل الناس كلهم يقتصر على جمع الحلفاء ، فالحاجة مريومة مثلا ، التي تلهج بالثناء على نباتات الحلفاء المباركة ، لم تكن تستطيع ان تشارك في جمعها ، لان لها مهمة اخرى تراها اكثر يسرا وملاءمة لرسالتها في الحياة ، هي جمع ثمار واوراق واغصان العرعار ، التي تقوم اثناء عودتها الى خيمتها بتجفيفها وطبخها وتقطيرها وصنع عطور وادوية منها او عجائن لاستخدامها في كمادات لخفض الحرارة المرتفعة في

اجسام المرضى ، وتسكين الام الروماتيزم ، كما تعتني ايضا بجمع ما تجده من اعشاب ونباتات طبية اخرى مثل البردقوش والشندقورة والشيح والزعتر والحنظل وغيرها ، وهناك رجل عجوز من زنوج اولاد عثمان القادمين من اوزو ، اكتشف انه لا يملك قوة على اقتلاع سيقان الحلفاء ، فلم يرض بالبقاء عاطلا ، وانما اتخذ لنفسه مجلسا تحت شجرة عرعار ، واوقد نارا ، واحضر سخانا كبيرا يعد به الشاي الذي يبيعه في اكواب صغيرة لجامعي الحلفاء مقابل قبضة صغيرة مما يجمعونه ، وصار قادرا على ان يعود كل يوم بمحصول اكثر مما يعود به اكثر الرجال صحة وقوة مستعينا باحد من اقاربه على حمله له ، وهناك اناس لا يكتفون بجمع الحلفاء فقط ، وانما يلتقطون ما يقع في طريقهم من نباتات الصبار والعجرم ، لكي يعودوا بها الى خيامهم فينزعون ما فيها من اشواك فيطبخونها لاكلها ولصنع مرق منها ، وهم ما كانوا يفعلونه اضطرارا واحتياجا في زمن المسغبة ، لكنهم الان يفعلونه بسبب العادة ، بعد ان توفر لهم طعام افضل يشترونه من حانوت بانايوتي مقابل الكوبونات التي يصرفها لهم . ولا يعدم من رجال النجع من

جلب معه بندقيته وهو ياتي الى الشعاب ، واية بندقية هي موضع ترحيب وارتياح من بقية الناس ، يستانسون بوجودها ويرونها اداة للدفاع والحماية ، ليس خوفا من قطاع الطرق ، لانه ليس لديهم ما يستهدفه قاطع الطريق ، ولكن من غدر ضبع او ذئب واحيانا بعض الطيور الجارحة التي يمكن ان تستهدف في هذه الجبال طفلا غفلت عنه امه ، او قد يستهدفه او يستهدف غيره ثعبان اخضر من ثعابين الجبال التي يطلق عليها "الصل" ذات الاحجام المهولة , رغم ان صاحب البندقية لا يكون قد جاء بها لهذا السبب وانما للانتفاع بها في صيد ارنب او شاة من شياه الغزال اخطأت طريقها الى هذه الشعاب ، وهي شياه ندر وجودها بعد ان اجهز الناس بسبب القحط والجفاف على بني قومها ، فلم يبق في عرض الصحراء وطولها الا شياه شاردة نافرة ، تركض عشرات الاميال مبتعدة عن أي مكان يصله البشر، بسبب ما عاناه اهلها من غدرهم وخياناتهم.

– 5 –

لم تكن العائلات التي جاءت من اوزو يقودها السيرجينتي خليفة ، كلها ذات ارومة ليبية ، وانما جاء معها مرحول صغير من خمس او ست عائلات بدأت رحلتها من عمق الصحراء الافريقية ، بحثا عن الكلأ والماء ، حتى وصلت شريط اوزو ، وعندما نفد الكلا ونفقت الاغنام ، لم تستطع عائلات هذا المرحول العودة الى بلادها في كانو او كانم ، ووجدت السيرجينتي يتجه بنجعه الى جنائن العرعار ، فاستنجدت بنخوته كي يعبر بها البون الصحراوي الى مواطن العمل والرزق ، الا انه بدا من الواضح ان لهذه العائلات الافريقية نزوعا الى التحرر في العلاقات الاجتماعية ، اكثر مما هو موجود لدى قبائل الصحراء الليبية ، بما في ذلك الطوارق الذين يتركون لنسائهم حرية ان يخرجن سافرات او حاسرات الرؤوس ، ولكنهم يتحفظون كثيرا في اقامة العلاقات الحرة

بين النساء والرجال ، بينما كانت نساء هذه العائلات الافريقية، يخرجن مع الرجال الى الشعاب سافرات ، وحاسرات الشعور ، ولا يتحرجن احيانا من الكشف على اثدانهن وصدورهن خاصة اذا كانت الواحدة منهن تملك ذريعة ارضاع طفل، مما كان يثير حفيظة العائلات البدوية الليبية ، الا ان نساء ورجال هذه العائلات يرغمون انفسهم على احتمال ما يشاهدونه من تصرفاتهم الهوجاء باعتبارها نوعا من التقاليد التي تعايش معها هؤلاء الناس ، الا ان الامر الذي لم يكن مما ان تطيقه المجموعة هو ما يحدث من تجاذب جنسي بين افراد هذه المجموعة من اناث وذكور ، اذ بدأ الناس يلحظون كيف ان اثنان ينتميان لهذه العائلات ، رجل وامرأة ، لا ارتباط شرعي بينهما ، يتسللان من الشعبة ، وينحدران الى الجانب الاخر من الجبل ، في محاولة مفضوحة للاختلاء بنفسيهما ، فيما بدا واضحا انه من اجل معاشرة جنسية ، بل لم يعدم من ساقه فضوله لتتبعهما وكشف ما دار بينهما تحت احدى الصخور ، وارتفعت اصوات الاستنكار والاستبشاع لما يحدث ، وهناك من تطوع بلفت انتباه بعض الكبار من رجال هذه العائلات ، الى ان

ما يحدث لا يتفق مع تعاليم الاسلام الذي يدعون انتسابا اليه ، وانه يجب احترام تقاليد اهل هذه البلاد التي جاءوا يبحثون عن لقمة عيشهم فيها ، الا انه لم يحدث أي شيء ينبيء بتغيير سلوكهم ، بل ان هذه الخروقات للمألوف الاجتماعي البدوي ، ازدادت تواترا واستفحالا ، اذ ان ظاهرة هذا الانفلات الاخلاقي لم تبق محصورة في العائلات الافريقية وفيما يحدث بين رجالها ونسائها ، وانما تجاوزت ذلك الى استقطاب بعض شباب العائلات البدوية نفسها ، ممن وقعوا في غواية نساء منحرفات من العائلات الافريقية ، وصار مألوفا ان يرى الناس شابا بدويا من اهل البشرة البيضاء ، يرافق امرأة زنجية اثناء اقتلاع الحلفاء ، ثم اذا به ، يغافل الناس ويتسلل بها هو ايضا خلف الجبل ، وظل الامر مثار قلق وتكهنات تدور في تكتم وسرية ، الى ان حدث ان ذهبت العمة مريومة تبحث بين الصخور عن عشبتها المفضلة الشندقورة ، والتي اكتشفت انها تنمو بصورة افضل في قدم الجبل وبين صخوره ، فذهبت تبحث عنها في المنحدرالجبلي خارج الشعبة ، واكتشفت عندما وصلت هناك فعلا فاضحا ترتكبه احدى النساء الزنجيات صحبة

صبي من اهل البادية ، فصارت تصرخ من هول المفاجأة وتكتح التراب في الجو قائلة

ـ يا سمي صبي المي

يا سمي صبي المي

وهو القول الشعبي الذي يشير الى مصيبة حصلت ، فتجمع الناس حولها اثر سماعهم هذا الصياح ورؤيتهم لكتح التراب ، ليشاهدوا المرأة الافريقية والفتي البدوي وهما يركضان في الخلاء، هربا من الفضيحة .

صار ما حدث في الشعبة ، وما فضحته العمة مريومة ، موضوع حديث بين عدد من كبراء النجع ،في اجتماع ،امام ادارة الوكالة حضره السنيور بانايوتي ، والحاج رضوان ، والامباشي جبران ، والسيرجينتي خليفة ، كما حضر رجل من حفظة القرآن ، هو الفقي عمار الذي جاء الى الاجتماع مترددا ، لانه يحب ان يبقى بعيدا عن المشاكل ، يلتقط رزقه مع اولاده الثلاثة وامهم ، وتقتصر مشاركاته مع النجع على القيام بدور الامام مرة في الاسبوع اثناء صلاة المجمعة التي تقام في الخلاء ، متفرغا بقية الاوقات لتلاوة القران واداء الفرائض والنوافل في خيمته ، وقد جاء بعد ان ارسل الحاج رضوان في طلبه ، لان هناك جانبا شرعيا يعرفه اكثر من غيره ، وتناول الحديث واقعة الامس ، واستبعدوا منذ البداية الخوض فيما يمكن فرضه مع عقاب على الجناة الاثنين كما تطالب بعض الاصوات ، التي تصل الى ذكر اقامة الحد ، وهو كلام يقال دون علم ، لان لاقامة الحد شروطا لا تتوفر فيما حدث ، ولا وجود لشهود يؤكدون حقيقة هذا الذي حدث ،بما في ذلك العمة مريومة ، التي وجدتهما في حالة

تلبس، تقول بانها اغمضت عينيها، وادارت وجهها وجسمها مستبشعة ما راته من عري الاثنين ، وانفلتت مولولة تكتح التراب فوق رأسها دون ان تمعن النظر فيهما ، ثم بادرا بالهروب والابتعاد عن المكان الى حد لم يعد باماكن احد ان يتعرف عليهما ، ولم يعد ممكنا معرفة ما اذا كانا قد هربا ام تسللا تحت جنح الظلام عائدين الى النجع .

واتفقوا على ان يصرفوا النظر عن البحث في معرفة من هما ، او فكرة ان يتعقباهما باي عقاب ، لان ما يهم المجموعة الان هو تجنب تكرار ما حدث ، وطالما انه امر ارتبط ظهوره بهذه العوائل الافريقية ، فالي أي مدى يمكن الضغط على هذه العوائل ، حتى تغادر المكان ؟ وهل يستطيع بانايوتي ان يمتنع عن شراء الحلفاء منهم ؟ الا انه لا يستطيع كما اخبر اعضاء الاجتماع ، لان ذلك سيكون مجازفة يمكن ان تجلب له المشاكل اذا ما عرفت الشركة انه يمتنع عن شراء الحلفاء، من أي مصدر كان ، وستعتبره اخلالا بشروط العقد ، يجيز لها التحلل من التزامها معه ، والبحث عن وكيل اخر يقوم بالعمل ، واقترح الفقي عمار ان يتم استدعاء رؤساء العائلات وافهامهم

ان ما حدث يجب الا يتكرر ، واذا تكرر فانه لا مكان لهم في هذا النجع ، ويترك الاختيار لهم بين الالتزام بالنواميس والاخلاق ، التي يحتكم اليها اهل هذه البلاد ، او مغادرة جنائن العرعار ، وتم ارجاء الاجتماع الى مساء الغد ، حيث يتم استدعاء ارباب العائلات الافريقية وابلاغهم بما اتفقوا عليه .

وكان يورجو هو الذي يتولى خدمة الرجال وتقديم الشاي والقهوة ، دون ان يشارك في الحديث ، وفي ختام الجلسة ، وعندما بدأ الرجال يهمون بالنهوض همس شيئا في اذن والده ، الذي تحرك باتجاه الاومباشي جبران، ، ليقول له بصوت هامس انه لا حاجة لان يترقب ابنته انجيليكا ، لكي تصحب مريم الى الشعاب ، لانها ستبقى لمعاونة امها في الحانوت والبيت ، وعرف الاومباشي جبران ، ان بانايوتي يفعل ذلك خوفا من هذا الاختراق الاخلاقي الذي حدث بالامس ، فرد عليه قائلا ، بانه يكبر فيه ما اظهره من غيرة على شرفه وشرف اسرته ، ولكن الامر في رايه لا يشكل خطورة اذا نجحوا في ايقافه عند هذا الحد ، الا ان بانايوتي اصر على موقفه ، قائلا ان هذا راي زوجته كاتيا وابنه يورجو، ثم ان

للفتاة عملا آخر غير جمع الحلفاء ، فلتعد اليه ، ولينصرف كل انسان لما جاء من اجله في هذه الوكالة .

لم تذهب انجيليكا الى الشعبة في اليوم التالي ولم يحدث اثناء ذهاب الناس هناك أي حدث يثير القلق كما حدث بالامس ، ومضى النهار في روتين طبيعي عامر بالهدوء والسلام ، وعاد رجال النجع الكبار لاجتماعهم وقد دعوا اليه ارباب العائلات الافريقية، الذين استمعوا الى ما يحمله هؤلاء الرجال من انتقادات لتصرفات عائلاتهم ، وما طرحوه من اسئلة ، اجابوهم عليها قائلين بان هناك سوء فهم لبعض عوائدهم التي لا تخالف تعاليم الاسلام ، لان تقاليدهم تجيز للخاطب ان يلتقي بخطيبته ويرافقها ويمكن ان يختلي بها لتبادل الافكار واختبار ما بينهما من حب وتفاهم ، وهو ما لا تتيحه تقاليد العائلات البدوية ، ولكنه لا يجافي الاخلاق ولا الدين ، وشككوا في رواية العمة مريومة لما حدث خلف الجبل ، فهي امرأة عجوز ، ضعيفة النظر ، ازعجها ان تجد رجلا وامرأة يختليان ببعضهما فعمدت الى الصراخ وتكتيح التراب، ومهما كان من صحة او عدم صحة ما حدث ، فهم يتعهدون بمراعاة كل ما

يطلبه منهم جيرانهم ، و لا يصرون اطلاقا على القيام باية ممارسات غير مقبولة من اهل البلاد ، فقد جاءوا لالتقاط لقمة عيشهم بلا مشاكل اورغبة في استفزاز احد من الناس ، وفعلا حدث هذا الانضباط اثناء ساعات جمع الحلفاء ، وصار هناك اكثر من رقيب يحرص على منع حدوث أي تجاوز ، الا انه لم يكن صعبا على شباب النجع ، من اهل البلاد ، الاقتراب من بعض الفتيات الافريقيات ، للاتفاق على موعد معهن ، بعد ان عرفوا ميولهن التحررية ، او الاختلاط بهن في حفلات راقصة ، تقام في الخلاء اثناء الليل بعد ساعات من عودة الجميع من الشعبة ، حول نيران كبيرة يوقدونها او تحت ضوء القمر او النجوم ، بحجة انها حفلات يجلبون بها شيئا من الترفيه لانفسهم ، ويحيون بها التراث الشعبي لاهلهم ، وهي التي بدأوا في اقامتها منذ مجيئهم فلم تلاقي اعتراضا، الا تحفظا بسيطا ممن يحبون النوم مبكرا ويزعجهم بقاءها الى منتصف الليل، فتم الاكتفاء بان تكون ثلاث مرات في الاسبوع وان تقتصر ساعات اقامتها على الساعات الثلاث من الليل التي

يضيؤها نورالكهرباء ، والتي يجب ان يهجع بعدها جميع اهل النجع في مراقدهم .

– 7 –

انتظم مجيء سيارات الشحن الى وكالة بانايوتي ، واستقر على روتينه الحالي ، وهو شاحنة كل يوم ، تاتي مفردة اغلب الايام ، وتاتي مرة او مرتين في الاسبوع تجر مقطورة خلفها ، لشحن ما فاض على حمولة السيارات المفردة من لفانف الحلفاء ، وتاتي السيارة ومعها عدد من العمال لا يقلون على ثلاثة عدا السانق ، بينم مساعد له ، وعامل متخصص في تشغيل الرافعة التي تاتي مع كل سيارة شحن ، ليستعين بها هؤلاء العمال في رص اكبر عدد من لفانف الحلفاء في الشاحنة ، وببطء تسير الشاحنة بحمولتها مع الطريق المترب الذي شق حديثا ، حتى تتجاوز الجبل ، وتزداد سرعتها وتاخذ معدلها الطبيعي عند وصولها الى الطريق الممهد ، المرصوف بمادة جيرية واسمنتية ، ينقصها الاسفلت يطقون عليها طريق البيستا، وتتكرر وجوه السانقين في اغلب

هذه الرحلات ، وقد يغيب سائق او معاونه ، ليحل محلهما سائق ومعاون غيرهما، اما العمال فهم محكومون بعمل تناوبي مع سيارات الشركة يجعلهم في حالة تبدل دائم ، عدا عامل واحد هو الذي يتخصص في خدمة الالة التي ترفع حزم الحلفاء ، فهو دائما الفونسو ، الفتى الايطالي الذي يتكلم العربية باعتباره ينتمي للجالية الايطالية الطرابليسة ، وبخلاف العمال الذين يرتدون الاوفرول على الدوام ، فهو يعمل فوق الشاحنة متحررا من قميصه ولا يحتفظ الا ببنطاله الذي يكون قصيرا في اغلب الاوقات ، يتخذ مكانه فوق الكرسي المحاذي للرافعة فوق الشاحنة ، ويزداد مقعده علوا ، كلما امتلأ جوف الشاحنة بحزم الحلفاء ، اذ ينتقل بالرافعة والكرسي فوق المستوى الاول من هذه الحزم التي يكون قد اجاد رصها فوق ارضية الشاحنة ، ثم يرتفع بهذه الحزم الى مستويات اكثر ارتفاعا تصل الى خمسة وستة ادوار فوق مستوى ارتفاع الشاحنة نفسها ، فيعمد بعد الانتهاء من رصها الى تطويقها بعدد من الاسلاك يجيد ربطها بحلقات حديدية مثبتة في جوانب السيارة ، وهكذا الامر مع المقطورة اذا كانت هناك واحدة .

وتاتي الشاحنة فارغة الى الوكالة الا من حمولة صغيرة من السلع يكون بانايوتي قد اوصى باحضارها للحانوت، وكان الفونسو هو الذي يعهد اليه بانايوتي بمهمة الوسيط بينه وبين متاجر طرابلس ، يحاسبهم ويستلم منهم ما يرسلونه من بضائع ويعيد اليهم فوارغ الزجاجات والبراميل والصناديق ، وبسبب هذه العلاقة الخاصة كان هو وحده بين العمال من يحظى بالدخول الى بيت صاحب الوكالة لمشاركته الطعام مع عائلته ، واقتضت الحاجة اقامة خيمة في البراح الموجود امام مخزن الوكالة ومقرها الرئيسي يقضي بها العمال قيلولتهم وتم فرشها لهم بالبسط والحصران ، ولانهم لا يشغلونها طوال الوقت ، صار شباب النجع يأمونها مساء ، حتى صارت مركزا لتجمعهم ، واضطر بانايوتي تحت الحاحهم ان يجلب لهم الة لصنع القهوة والشاي ، ومعالف يضع فيها علب المشروب محاطة بمكعبات الثلج ، واتفق مع اثنين من شباب النجع يتناوبان على خدمة الشباب في عمل مساني ليلي يتقاضيان اجرا عليه ويحاسبان الشباب على ما يستهلكونه من مشروبات ساخنة وباردة ، في هذه الخيمة التي اتخذت تدريجيا شكل

المقهى ، واكتمل هذا الشكل بعد اضافة مجموعة من كراسي وطاولات البلاستيك يتم وضعها ليلا امام الخيمة لمن يريد استخدامها خاصة اثناء لعب الورق والديمينو والضاما ، بل ان بانايوتي نفسه احضر رقعة شطرنج وصار يعلم اللعبة لبعض اصحابه ليكونوا شركاء له في لعبها ، وكانت انجيليكا، التي بدأ جمالها ياخذ كلما تقدمت في العمرصورة اكثر فتنة واثارة ، وقد وصلت الان الى مشارف السابعة عشرة ، وغدت صبية شديدة الجمال والفتنة ، برزت مؤهلاتها الانثوية باكثر من اية امراة في عمرها ، تشاركها الاقامة في هذه البيئة ، خاصة انها ترتدي دون غيرها ملابسها ذات الطابع الاوروبي ،متحررة من شروط الملابس النسوية الاسلامية التي يلتزم بها اهل النجع ، بسبب انتمائها لدين يجيز لها ان ترتدي ملابس لا تحجب شعر الرأس ولا ان تستر ساقيها وذراعيها ، تخطر بينهم مستقطبة الانظار والقلوب ، الا انها ، دونا عن كل الناس ، كانت حفية بالفتى الايطالي الفونسو ، تذهب في مشاوير كثيرة بين البيت وسيارة الشحن عند تعبئتها ، تنقل له فنجان قهوة او شاى الذي اعدته في البيت واحضرته مصحوبا

بقطعة جاتوه ، او كوب ماء مثلج ، مما استنتج معه الحاضرون ، وجود عاطفة تربط بينها وبين الشاب الايطالي ، ولم يكن احد يجد غرابة في مثل هذا التجاذب بينهما ، فكلاهما يلائم صاحبه ويليق به ، ما عدا تأومها يورجو ، الذي يتربص لاخته عندما تأتي الى مكان الشحن ، وينهرها ، ويطلب منها حين يراها واقفة قريبا من المكان الذي يعمل فيه الفونسو ، ان ترجع الى البيت او الحانوت ، والا تظهر ثانية في هذا المكان ، واعترضها ذات مرة وهي تحمل كاس ماء مثلج لالفونسو ، وقبل ان تصل وتمد له يدها بالكاس ، انتزعه شقيقها منها ورمى بما فيه من ماء على وجهها مبللا ملابسها ، وارسلها تبكي الى امها في الحانوت ، بينما واصل الفونسو عمله صامتا ، وكأن الامر لا يعنيه ، وقد بدا واضحا لمن كان يراقب العلاقة بينهما ، ان المبادأة كانت دائما تأتي من طرف انجيليكا ، دون ان يظهر الشاب الايطالي حماسا يماثل حماسها ، ربما تثاقلا ، وتحفظا ، وحرجا من اهلها ، وربما حقا لا يجد في نفسه حبا لها ، يرد به على ما تعرضه عليه من حب في سخاء واريحية .

لم يكن بانايوتي يستطيع ان يستقر في مكان واحد ، فهو ما زال يشعر بان جوانب كثيرة في الوكالة تحتاج الى مزيد من الجهد لاستكمالها ، مع كل ما قام حتى الان بانجازه ، اذ لا يكاد يمضى شهر منذ ان انشأ الوكالة الا وثمة شيء يضيفه اليها ، وكان آخر ما استطاع انجازه هو استصلاح جزء من الارض التي تحيط بهناجر الوكالة ومقر سكناه والحانوت ، واستحداث مربعات زراعية فيها ، حيث يتولى بنفسه استخدام خرطوم للمياه لسقي الزرع والنباتات في هذه المربعات ، ساحبا الماء من سيارة الخزان او (البوطو) المخصصة لنقل الماء في دورات متعاقبة من مزدة وتغذية الصهاريج المبنية في الارض ، وتعبئة البراميل التي تشبه احواضا معدنية يستفيد منها اهل النجع وعمال الوكالة في سد حاجتهم من الماء شربا واغتسالا ، وقد غرس في هذه المربعات الزراعية بجوار الخضار الموسمية ونبتات النعناع التي يفوح عطرها في ارجاء المكان ، فسائل نخل وشتلات زيتون وتين وكروم ، تشي لمن يراها بصدق نية غارسها في البقاء هو ايضا مغروسا لاعوام كثيرة

في هذه الارض فهي فسائل وشتلات تحتاج الواحدة منها لمدة لا تقل عن اربعة اعوام حتى تنمو وتبدأ في طرح أكلها ، واحاط هذه المربعات بحواجز من اشجار التين الشوكي، ولم يقتصر عمله على هذه الاعمال الكمالية التي تضفي بهاء على المحيط الذي يعيش فيه ، وانما انتقل باهتمامه الى اهل النجع ، يساعدهم في اكمال ما يحتاجونه من مرافق ، وبعد الانتهاء من الماء والكهرباء ، ساعدهم في اعداد المسجد ، الذي يجمع الرجال اثناء الصلاة ، والذي كان عبارة عن خيمة وضعت فيها الاكلمة والحصران ، وعلقت عند السقف فوق اعلى ركيزة بها لوحة خضراء على شكل هلال ، وتم اقناع الفقي عمار لكي يتولى رفع الاذان ، والقيام بدور الامام وبالذات خلال صلاتي المغرب والعشاء حيث يكون الرجال قد فرغوا من عملهم في الشعاب وعادوا الى النجع ، وكذلك خلال صلاة الفجر قبل مباشرة العمل ، واضحت خيمة الجامع هي خيمة المناسبات الاجتماعية ، كما حدث عندما اقيمت اكثر من حفلة لختان الاطفال ، وكان الفقي عمار يتولى ختانهم لسابق خبرته بهذا العمل . اما باتايوتي فقد كان مسكونا بالقلق ، يتفقد كل

شيء بعين ناقده ، ويرى دائما وجود شيء ناقص ينبغي استكماله ، ولا يتواني في السعي جاهدا لتحقيقه وانجازه ، وقد كتب في سجل يومياته :

كم مضى من الوقت لم افتح هذا الكراس ولم اسجل فيه خاطرة واحدة ، انه الانشغال ، فالتأسيس شيء شاق ، وشي ء ياكل الوقت ويستهلك الجهد ، ولا تظهر نتائجه الا بعد اعوام واعوام ، خاصة تاسيس المدن ، فهل يمكن اعتبار هذه الوكالة حقا مدينة من مدن المستقبل ابدا ببركة الله في تاسيسها ، اليس خطا ان ابدأ عملي ببناء الاوهام قبل بناء الاساس الحقيقي لما يحتاجه العمل ، هناك مهمة اساسية هي الحلفاء ، شراءها ونقلها للوكالة في طرابلس، وهو انتاج محدود بطاقة المنطقة على الانتاج ، وطاقة اية وكالة في اي جزء من هذه البلاد على هذا الانتاج وما وصلناه الان في هذه الوكالة هو سقف ما وصلته اية وكالة اخرى ، سيارة شحن في اليوم ، هو اقصى ما وصل اليه انتاج اية وكالة ، وان نضيف الى هذه السيارة اليومية مقطورتين في الاسبوع فهذا شيء يفوق كثيرا ، ما حدث مع الوكالات الاخرى ، وباعتباري صاحب الوكالة

فيجب ان اقبل يدي وجها وظهرا لهذا الانجاز ، لا استطيع ان اقول ان هناك موارد اخرى في المنطقة يمكن ان تقوم عليها تجارة او صناعة تجلب مزيدا من الناس ، ولكن المستقبل بيد الله ، حتى وان وجدت هذه المصادر فلا شأن لي بها ، وكالتي وكالة للحلفاء ، فليات من يصنع الفحم اذا شاء ، او يكتشف الحديد ويقوم باستخراجه ، او يصنع من رمال المنطقة معدات واواني من الزجاج اذا استطاع ولكنه امر لم يقدم عليه احد في السابق وقد لايقدم عليه احد في المستقبل المنظور ، فلا حاجة بي لان اشغل نفسي بغير الانتاج الذي تخصصت فيه ، واقبل الناس على العمل فيه وصار يشكل مورد رزق لهم ، بدلا من حياة البطالة والعطالة ، ليس ما يهمني حقا انشاء المدن ، وانما هو ترميم نفسي ، وبناء حياة روحية لشخصي تنسجم مع ما اطمح اليه من صفاء وهناء روحي وسلام وطمانينة كتلك التي احس بها اولئك الاسلاف من الرهبان الذين كانوا موضع فخر اهل اسكندرية لان الواحد قضى عمره عائشا فوق عرف شجرة او وسط حفرة في الجبل او في تجويف صخرة من صخوره ، متوحدا مع ذاته ، عابدا ربه ، مكتفيا به عن

بقية الخلق ، قد لا اطمح الى ان كون مثل اولئك القديسين ، ورجال الله الافذاذ ، لان لهم من البركة ما يمكن ان يأمروا بها الريح ان تقف اذا كانت توذيهم والمطر ان تجف ، اذا ارادوها كذلك ، ا وان تهطل لتزويدهم بالماء ، ويامروا العشب وحشانش الارض ان تنبت فوق الصخور بجوارهم لتكون هذه الحشانش طعاما لهم ، وهذه قدرات لا املكها وكرامات اعجز عن اجتراحها ، ولكنني اتوق بامكانياتي الروحانية المتواضعة ان اعيش بما يجعلنِي مكتفيا بالله عن الناس وبحياتي الداخلية عن العالم الخارجي ، ولو بدرجة محدودة ، لا تبلغ حد الكمال الذي بلغه اهل التربية الروحية الراقية ، ولا تحرم من بعض اللذائذ التي احسوا بها ، فليكن هو العماد وهو المعين.

- 8 -

فتى في سن ابنه، اعترض طريق الاومباشي جبران، بعد ان انتهى من صلاة العشاء عائدا الى خيمته ، ليستوقفه هامسا في اذنيه جملة واحدة اربكت الاومباشي وجعلته يعدل عن العودة الى بيته، ويتجه بدلا من ذلك الى خيمة القهوة ، التي غالبا ما يستفرد بالجلوس فيها شباب النجع ، يلعبون الورق حتى ساعة متأخرة من الليل ويستعينون بضوء مصباح الغاز بعد انطفاء محرك الكهرباء ، سيذهب ليتفقد ابنه يوسف هناك . كان الصبي الذي اعترض طريقه قد ابلغه بان ابنه واعد امرأة زنجية وذهب بها خارج النجع ، عند سفح الجبل ليقضي معها لحظات غرامية ، وقد فاجأه ما سمعه ، ولم يستطع تصديقه ، كما لم يستطع توجيه اية اسئلة للصبي يستوثق بها مما قاله ، فقد قال الولد جملته كالاطلاقة

وانصرف مسرعا يبتلعه الظلام ، هل كان حقا غافلا عما يفعله ابنه ، ناسيا انه قد كبر وبلغ مبلغ الرجال، ولكن أي مبلغ وأي رجال لصبي في السابعة عشرة من عمره ، واين ذهبت التربية الدينية التي حرص على ان يربي بها ابنه، ليرتكب اثما كهذا ، لا يلحق الاذي بنفسه وسمعته فقط بل باسرته ايضا ، وبابيه الذي يرى فيه الناس مثلا وقدوة لهم ، اذ كيف سينظرون اليه اذا وصل الى اسماعهم خبر هذه الفضيحة، فالصبي الذي اخبره بما يفعله ابنه ، قد ينقل الخبر الى اخرين ، ينقلونه بدورهم الى دائرة اوسع من الناس وتكبر الفضيحة ، وهناك غير الفضيحة الخطر على حياة الولد ، اذ يمكن ان يثير مثل هذا الخبر غيرة وحمية احد افراد عائلة الفتاة فيلحق بهما او يترصد لهما بهدف الانتقام منهما، ثم من تراه يأمن على نفسه الاختلاء بامراة ومعاشرتها بين الاحراج والصخور عند سفح الجبل وفي ظلمة الليل البهيم، حيث لا سبيل الى تبين العقارب والافاعي والهوام السامة الضارة، والحيوانات المفترسة ، انه يرجو صادقا ، متجها بالدعاء الى خالق الكون ، ان يكون الولد الذي اعترض طريقه كاذبا او مخدوعا ، لم يستطع التفريق

بين ابنه يوسف وبين فتى اخر من اترابه، سيذهب بنفسه الى المقهى ليتأكد ، ويتطلع في وجوه الشباب الجالسين هناك واحدا واحدا ، فان لم يجده هناك فلن يسأل عنه ، لكي لا يثير ارتيابهم بمثل هذا السؤال ، ووجد عندما وصل المقهى يورجو يتولى خدمة الشباب وخدمة نفسه ، لانه كان يضع فوق طارمة الخدمات زجاجة اوزو بجوارها كاسا مليئا بالسائل اللبني اللون ، يعب منه دون ان يشاركه احد من شباب النجع شرب الخمر ، لخوفهم من اهلهم فيما يرى ، بينما يشربها يورجو دون حرج مثلما يفعل اهله في بيتهم ، فطلب منه كوبا من الشاي الاخضر المخلوط بالنعناع ، دون ان يخشى من ان يبقيه الشاي مسهدا ، لانه يعرف الان ، بعد ان بحث بين الجالسين عن ابنه ولم يجده ، ان النوم لن يواتيه هذه الليلة سواء شرب الشاي او لم يشربه ، سيذهب ضاربا وسط المتاهة والظلام ، باتجاه سفح الجبل، مدركا انه جهد لا طائل من ورائه ، فهو لا يعرف مكانا محددا يتجه اليه ، ثم انه لن يستطيع ان ينادي باسمه ، لكي لا يفضحه امام اهل النجع ، الا انه سيذهب مهما كانت النتيجه ، فقد يسمع صوت ابنه يطلب النجدة ، فيكون

قريبا قادرا على انقاذه، وسيذرع هذا الفضاء ، وسط هذا الليل الذي غاب بدره ، وتضاءل ضوء نجومه بسبب غبار احمر انتشر منذ المساء وصنع طبقة ضبابية ، تحول دون وصول الضوء القادم من النجوم في جلاء وقوة مثل بقية الليال . ذهب الى خيمته اولا ، واختطف البندقية ووضعها على كتفه تحسبا لحدوث أي شيء يوجب استعمالها ، وسار باتجاه اقرب السفوح ، يتعثر فيما يعترض طريقه من احجار ونبتات عجرم متيبسة الاغصان ، غير قادر على ان يتبين موقع قدميه ، فالضوء الخافت المتسلل من النجوم غير قادر على ان يقدم له ما يكفي من الاضاءة ، ليعرف طريقه ، كما انه لا يستطيع ان يرى العالم امامه ، اشجارا وجبالا وصخورا وكثبانا من الرمال، الا على شكل اشباح ، ويلتفت بين الحين والاخر وراءه ملقيا نظرة على اضواء النجع منصتا لما يصدر عنه من اصوات ، ليستمد منه شينا من الونس ، مقابل هذا العالم الموحش الذي يرتمي امامه ، ومضى حتى اوغل بعيدا عن الوكالة وعن النجع ، وعندما رأى انه يستطيع ان يرفع صوته مناديا ابنه دون ان يخشى وصول صوته الى احد من اهل

النجع ، صاح باسم ابنه يوسف ، وسمع رجع الصدى ، تردده الجبال ، فاكتفى بان نادى عليه مرة واحدة ، واثقا انه لا يمكن ان يتفادى ابنه سماعه لو كان حقا موجودا في مكان ما من هذه السفوح ، وقد صار الان يسير بمحاذاة قدم الجبل، متطلعا الى ان يرى شبح انسان يتحرك امامه ، فلم ير احدا، وانصت بانتباه فلم يتناهى له أي صوت غير صرير الجنادب، وعواء ذئب تاتي به الريح من اصقاع بعيدة ، ومضى متمهلا بمحاذاة الجبل ، يطوف بكل صخرة كبيرة تصادفه ، دون ان يلحظ شيئا يثير انتباهه ، فهل كان الامر كله مجرد مزحة من هذا الصبي؟ ولكن لماذا تراه يفعل ذلك؟ هل لمجرد العبث واللعب ؟ انه امر يبعث حقا على الحيرة والريبة . وراى بعد ان قطع مسافة عند سفح الجبل ، انه لم تعد هناك ضرورة لان يتقدم اكثر من ذلك ، لان من اراد ان يكون بمعزل عن النجع ، لا حاجة لان يبتعد اكثر من هذه المسافة ، فهو بالتاكيد اجتاز المكان الذي يمكن ان يختلي فيه ابنه وصاحبته ، اذا كان في الخبر نصيب من الصحة ، واكتشف وهو يقفل عاندا ، انه لم يعد يستطيع ان يرى اضواء النجع ليهتدي بها في طريق العودة ، فقد

انخفضت به الارض المحاذية للجبل الى حد حجب عنه تلك الاضواء ، وصار عليه ان يضرب عاندا دون ان يتاكد حقا من الاتجاه الذي يسير فيه ، واستوجب الامر ان يقضي في العودة الى النجع وقتا اكثر مما قضاه في ذهابه ، لانه لم يستطع ان يمضى في طريق مستقيم ، واحتاج الى تصحيح المسار بعد ان انحرف اكثر من مرة عن هدفه، خاصة ان اضواء الكهرباء كانت قد انطفأت ، وصار النجع وصارت ابنية الوكالة جزءا من كتلة الظلام التي تملأ الكون امامه، الا انه وصل اخيرا الى خيمته ، وكانت المفاجأة ان ابنه كان هاجعا في الركن المخصص لنومه من شق الخيمة، غاطسا في النوم . ارتمى الاومباشي جبران مجهدا فوق فراشه ، وانتبه الى الخدوش الكثيرة في ساقيه ، ففتش عن مرهم مصنوع من رحيق الاعشاب دهن به الساقين واستغرق في نوم عميق لم يوقظه منه الا صوت الفقي عمار يرفع اذان الفجر ، فقام وتوضأ وعمد الى ايقاظ ابنه يوسف ، الذي استيقظ مفزوعا،لانه لم يتعود على الاستيقاظ في مثل هذا الوقت الباكر ، فسأله والده ان ينهض ويتوضأ ليرافقه لصلاة الفجر .

كان امر هذه الصلاة مفاجأة للصبي ، ثم ما هذا الوضوء الذي يمكن ان يباشره الان وهو في هذا الحال ، وعرف الاب سبب حيرته ، فان كان حقا قد اقترف الحدث الاكبر ، فهو يحتاج الى الاغتسال من الجنابة قبل الوضوء للصلاة ، ومثل هذا الاغتسال ليس متيسرا دون تحضيرات يتم الاعتناء بها منذ مساء الامس، اعداد ركن للاغتسال وتحضير نار لتسخين الماء وماعون نحاسي للاستحمام ، ورغم ان الاب اشار الى صخرة صغيرة من الصوان يستطيع ان يتطهر بها تيمما ، الا ان الابن لم يكن واثقا ان التيمم يمكن ان يزيل الحدث الاكبر ، وتحت الحاح والده قام يوسف بالتيمم مرتين مرة لازالة الجنابة ومرة للوضوء ، وجمع شجاعته وهو يسأل والده عن السبب في اصراره على حضور الصلاة هذا اليوم، فاجابه الاب بان صلاة الفجر جماعة في خيمة المسجد امر استحدث اخيرا، واذا ما سهى عنه بضعة ايام قبل اليوم ، فانه لم يعد ممكنا الاستمرار في ذلك بعد ان اصبح تقليدا ثابتا ، خاصة وانه صار رجلا كامل الرجولة ، يلزمه الدين بان يقوم بواجب اداء

الصلوات الخمس في اوقاتها كل يوم ،وسيتولى في كل فجر ايقاظه ليرافقة للصلاة .

عادا من الصلاة الى الخيمة ، فارتمى الابن فوق فراشه لاستكمال نومه ، بينما بقى الاومباشي جبران ، يقرأ اوراده ، ويواصل اداء النوافل ثم صلاة الصبح ، حتى استيقظ بقية اهل البيت ، لاعداد وجبة الافطار المكونة من شاي وخبز ، ولم يشأ الاب ان يفاتح ابنه بما سمعه عنه وما قام به من مغامرة ليلية بحثا عنه عند سفح الجبل ، اكتفى بما حدث في الفجر ، حامدا الله ان الامر انتهى عند هذا الحد دون حدوث مكروه ، مصمما بينه وبين نفسه الا يغفل عن مراقبة ابنه او يسمح لاحتمال حدوث شيء كالذي سمعه عنه مرة اخرى ، وسيحرص على ان يرافقه ابنه اثناء صلاة العشاء وصلاة الفجر والا يتركه يغيب عن عينيه اثناء الليل.

اشرقت شمس الصباح وبدأ الاستعداد للذهاب باوتادهم التي يقلعون بها الحلفاء وسلالهم وشباكهم التي يجمعونها فيها وحبالهم التي يربطونها بها ، متجهين الى الشعاب،

وفوجي الاومباشي جبران بابنته تقف امامه وقد وضعت يدها في يد صديقتها انجيليكا ، وعرف عندما سأل الفتاة انها توسلت لوالدها وامها ان يتركاها تذهب للشعاب ، لانها تجد متعة في الذهاب الى هناك صحبة صديقتها مريم ، وقضاء وقت في احضان الطبيعة بين الجبال ، حتى وافقاها على ذلك ، الا انه لم تمض غير لحظات قليلة، حتى جاء شقيقها يورجو غاضبا ، طالبا منها ان تعود معه الى البيت ، رافضا ان تذهب مع هذه الاخلاط البشرية الى الشعاب، ورفضت انجيليكا باصرار ان تستجيب له ، مما حذاه الى ان يتقدم منها رافعا يده مهددا بضربها ليحملها على العودة الى البيت بالقوة، فاسرعت تتوارى خلف الاومباشي جبران محتمية به من اخيها ، بحيث وقف الاوباشي حائلا بينها وبين وصول يورجو اليها ، قائلا له بان كلمة والديه فوق كلمته بشأن ذهاب اخته الى الشعاب ، ولهذا فان عليه ان يعود من حيث اتى تاركا اخته تفعل ما تريد بعد ان اخذت اذنا من ابيها وامها . وعندما اراد ان يهجم على اخته دفعه الاوباشي في صدره بقوة حتى كاد ان يسقط فوق

الارض ، ومرغما تراجع وهو مازال ساخطا يتوعد اخته بالانتقام عندما تعود .

كان الامباشي ، ما زال وهو يقود عائلته الى الشعبة ، منشغلا بامر ابنه يوسف الذي اظهر له وجها جديدا لا يعرفه وظل يتلصص النظر اليه ، من حين الى آخر ، ويرقب اخضرار ذقنه الذي صار الولد يداوم على حلاقته ، مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع ، ويلحظ ان هناك تحولات وتداعيات استوجبتها هذه التحولات التي كان يراها دون ان يتوقف عندها الا الان بعد ان جاء التنبيه من مصدر خارجي ، وانزعج ان رأى ابنه اثناء الطريق يقترب من انجيليكا ، ويتبادل معها حديثا هامسا ، وهي تتمخطر بدلال ، ترتدي تنورة ضيقة تلتصق بعجيزتها ، وقصيرة تترك ساقيها عاريتين ، يتألقان باشعاعات الفتنة ، والولد في سنها او يكبرها بعدة اشهر ، ولديه فيما يبدو خبرة بتعليق النساء ، فهي ترنو اليه بشيء من الانجذاب ، ثغرها باسم وعيناها يفصحان عن اعجاب بكلامه الهامس ، ومعنى ذلك ان ثمة شيئا يمكن ان ينمو بينهما ، وهو ما لا يريده الاب ، فهو غرام

خطير اذا حدث ، ولا مستقبل له، فلا هو لها ولا هي له ، وكلاهما من دين غير دين الاخر ، وقوم غير قوم الاخر ، وموطن غير موطنه ، وتقاليد وعادات غير تقاليد الاخر ولا عاداته ، فهي علاقة اذا حصلت ستجلب معها نذر الشر ، فليته لم يسع منذ البداية لجلبها مع ابنته ، بل ليته وافق اخاها هذا الصباح على ارجاعها الى البيت ، ورأى ان يكون حازما وصريحا مع ابنه ، الا انه لم يستعجل الامر ، وانتظر الى حين الوصول الى الشعاب وبدء التقاط نبتات الحلفاء ، فاقترب من ابنه وجره بعيدا عن بقية الجمع ، ليخاطبه بلهجةغاضبة قائلا من تحت الضرس :

ـ ليس في كل مرة تسلم الجرة .

ـ لم افهم يا ابي

ـ اسمع ما اقوله لك ، لا تقترب من ابنة بانايوتي ، ولا تتهامس معها ، ولا تشغل بالك بها ، هل هذا واضح ؟

ـ لم اقل لها أي شيء يمكن ان ......

قاطعه الاب بحدة :

ـ لا اتكلم عما مضى ، اتكلم فيما يأتي ، لا تعد للحديث معها في أي شيء ، واتركها وشأنها .

تركه ومضى ينتزع اوراق الحلفاء بغل وحقد .

- 9 -

وقفت انجيليكا خلف الشاحنة تنتظر ان ينتهي الفونسو من انهاء رص حزم الحلفا فوقها ثم يهبط ليترك لاثنين من زملانه العمال مهمة احكام ربط شبكة من الاسلاك المعدنية حولها ، لضمان تثبيتها في مكانها فوق الشاحنة لا تتاثر بما يحدث لها من هزات وما يعترض طريقها من مطبات ، وتحركت انجيليكا تقطع على الفونسو الطريق قبل ان يصل الى صنبور الماء ليزيل ما علق به من قش وغبار قائلة له بلهجة يساورها الغضب ممزوجا بالدلال

ـ هل تراني طفلة امامك يا الفونسو ؟

كانت تكلمه باللغة العربية ، لانها لا تفهم لغته الايطالية ولا هو اليونانية ، واللغة المشتركة بينهما كمنتمين للمجتمع الاجنبي في المدينة القديمة ، هي اللغة العربية بلهجتها التي يتكلم بها اهل باب البحر .

ـ من قال انك طفلة يا انجيليكا ؟ انت امرأة ما شاء الله ، تتمتع بالعلو والامتلاء ، كما يقول الناس في باب البحر .

ـ ولكنك تعاملني دائما باعتباري طفلة ، ولم اشعر يوما انك تعاملني كامرأة ، ولازلت عندما تاتي ترمي لي ببعض قطع الكاراميلا اول ما تراني

ـ كنت دائما تقبلين عليها بفرح وحماس

ـ كان ذلك في العام الماضي

ـ وما الذي جد هذا العام ؟

ـ ما حدث هو انني منذ اسبوع مضى احتفلت ببلوغي السابعة عشرة من عمري .

ـ لو كنت اعرف لكنت جلبت لك هدية بالمناسبة ، ولكن لا تغضبي، ساجلبها لك في مشوار الغد ، اما الان فهاتي خدك اقبله واقول لك عيد ميلاد سعيد يا عزيزتي انجيليكا .

ولم يكن هو ولا انجيليكا يعلمان ان يورجو ، كان قد خرج من خلف الشاحنة ووقف خلفهما ، يسمع ما يقولان ويرى ما فعله يورجو وهو يقبلها فوق خدها ، فانتفض هانجا ، ثائرا ، وانتصب امام الفونسو ، يشتمه ويسدد له لكمة جعلته

يفقد توازنه ويتداعى ساقطا فلا يحول بينه وبين السقوط فوق الارض الا اصطدام راسه بحديد الشاحنة ، الى حد ان نزف الدم من جبينه ، فهرعت انجيليكا للامسك به وهي تصرخ وتشتم اخاها ، وقد تدافع العمال يفصلون الاشتباك بينهما ويجرون يورجو بعيدا عن الفونسو ، وياخذ احدهم الجريح الى داخل خيمة العمال لاسعافه ، ومسح الدم الذي يسيل من رأسه ، وتهرب انجيليكا باتجاه البيت تستنجد بامها .

حدث ذلك مباشرة عقب العودة من الشعبة ، ساعة المغرب ومع انطلاق صوت المحرك ينشر انوارا تبدد العتمة ، وجاءت الام كاتيا ، وجاء بانايوتي يصطحبان ابنتهما ، وقد تركت المرأتان للاب مهمة الاستفسار عن سبب الهجمة التي قام بها ابنه ضد الفونسو ، متجها بالسؤال بداية الى ابنه الذي ابى ان يرد مباشرة على السؤال واتجه بالخطاب الى اخته يهددها قائلا :

ــ اللوم كله يقع على هذه التافهة ، فدعوني القنها درسا لن تنساه.

اسرعت الفتاة للاحتماء خلف امها وعمد بانيوتي الى تكرار السؤال على ابنه ، ملحا في معرفة السبب ، فلم يزد ابنه على ان قال :

ــ انه دائما يتعمد استفزازي .

وانتقل الاب الى حيث وقف الفونسو وسط عدد من العمال يحيطون راسه بقطعة شاش ، يحاولون بها ايقاف نزيف الجرح ، فاعتذر منه عما بدر من ابنه ، واضعا اللوم على هذه

الحالة العصبية التي تنتابه ، ثم رفع صوته ينادي ابنه ان يأتي ليطلب السماح من الفونسو ويعتذر له بنفسه عن فعلته، وانضمت كاتيا الى زوجها تعينه على تحقيق المصالحة بين الاثنين ، ودفعت ابنها في ظهره كي يتجه الى غريمه ويمد له يده للمصافحة ، وبعد تردد من جانبه والحاح من جانبها ، مد يده دون كلام ، وتصافح الاثنان ، واعتبر الحاضرون ان الاشكال بينهما قد انتهى ، ومصطحبين ابنتهما عاد بانايوتي وزوجته الى البيت ، يريدان ان يعرفا منها تفاصيل ما حدث ، مدركين انها كانت سببا لهذا العراك بين الاثنين ، وحاصراها بالاسئلة حتى ارغماها على الاعتراف بما حدث بينها وبين الفونسو، قائلة انها ذكرت بطريقة عرضية الاحتفال بعيد ميلادها فتقدم لتهنئتها مصافحا، طابعا قبلة على خدها ، واعدا باحضار هدية لها ، وحدث ان خرج يورجو من خلف الشاحنة ليرى ما حدث فهجم غاضبا على الفونسو بتلك اللكمة التي اسالت منه الدم ، وكل ما طلباه منها ، بعد ان فرغت من حديثها ، هو ان تتجنب الحديث مع الفونسو ، او الالتقاء به ، طالما ان هذا الموضوع يثير اعصاب اخيها ، وتناقل الناس في

الوكالة والنجع اخبار المعركة بين شقيق الفتاة وحبيبها ، مضيفين اليها من خيالهم ما يجعلها اكثر تشويقا واثارة ، فالقبلة على الخد ، انتقلت بفضل هذه الاضافات ، الى قبلة على الشفتين ، وتواصل الحديث حول هذه القبلة جهرا وسرا في الشعبة اثناء جمع الحلفاء ، وبين اناس يرون انجيليكا تخطر بينهم ، متاحة وسافرة الوجه محلولة الشعر ، لمن يريد ان يرى ويتفحص ويتأكد من مكامن الفتنة التي اشعلت الحرب بين شقيقها وحبيبها ، ولم يكن الناس رجالا ونساء وصغارا وكبارا يترددون في القاء هذه النظرات الفاحصة عليها، وكأنهم يكتشفون لاول مرة مدى قوة انوثتها وجمال فمها والالق الذي يشع من جبينها ووجنتيها واتساع عينيها وطول رموشها وانسيابية جسمها وما يصدر من الاجزاء المكشوفة من جسمها كالنحر والصدر والساقين من اشعاعات مغرية ، وما يحتويه الجسم من داونر وتعرجات ونتوءات تنبيء بالانوثة في اوج ازدهارها وتفجرها ، ولم يكن الاومباشي جبران ، الرجل المؤتمن على رعايتها ، استثناء من هؤلاء الناس الذين ارغمهم الحدث على اعادة اكتشافها، والتلصص

على مواقع الفتنة في جسمها وذا كان في يوم مضى قد خشى عليها من ابنه، فهو اليوم يخشى منها على ابنته التي هي اقرب صديقة لها ، خاصة وهو يرى نظرات الشبق التي يتجه بها الرجال لانجيليكا ، فهذه النظرات ستجد مريم ابنته موجودة في مجال رؤيتها ، وقد ينالها نصيب من هذا الاذى والانتهاك للخصوصية الذي تحمله هذه النظرات وما يرافقها من همس وشائعات .

ولم تمض غير لحظات حتى وصل يورجو لاهث الانفاس الى الشعبة، يسأل عن الاومباشي جبران ، وقبل ان ينتهي من سؤاله كان الاومباشي قد رآه واتجه اليه ليعرف سبب مجينه ، فقال ان والده وامه ارسلاه لاحضار اخته الى الوكالة ، لانهما يريدانها ان تبقى لمساعدة امها في افراغ ما احتوته صناديق الكرتون التي جاءت من المدينة تحتوي سلعا لوضعها في الدكان ، والتفت الاومباشي الى انجيليكا يستطلع رأيها ، فشككت فيما يقوله اخوها غير مصدقة انه ينقل رسالة من ابيها وامها لانهما دائما يوافقان على خروجها الى الشعبة واختلاطها باهل النجع وهو وحده الذي يعارض، ولكن

الاومباشي تذكر انه منذ لحظات كان ينظرة الى الفتاة متمنيا لو انها بقيت مع اهلها لتعفيه من حرج وجودها مع ابنته في الشعبة، وتنقل ببصره بين الفتاة واخيها ليعرف من تراه يصدق منهما، وبدت له واضحة علامات الاسراف في شرب الخمر على يورجو، من خلال احمرار عينيه وما بقى من اثر في طريقة نطقة ورائحة الاوزو التي تخرج كلما فتح فمه بالكلام ، ومع ذلك وجد نفسه هذه المرة ينحاز لموقف الاخ ضد الاخت ، قائلا لانجيليكا بلهجة حانية ان تستجيب لما قاله اخاها وتذهب معه الى البيت ، حتى لو كانت هذه رغبته وليست رغبة والديها ، لكي تتاكد من ذلك بنفسها، وهنالك دائما يوم الغد ، حيث تستطيع ان تعود لتستأنف رحلتها اليومية الى الشعاب ، دون ان يبقى لشقيقها حق الاعتراض او الممانعة اذا تبث حقا انه يتصرف بوحي من فكره الخاص، وواصل مثل هذا الحديث معها حتى طابت نفسها ووافقت على مرافقة يورجو في طريق العودة الى الوكالة .

عاد الناس يحنون ظهورهم ويمدون ايديهم تحمل الاوتاد يستلون بها سيقان الحلفاء ، وقد انسحب من وسطهم

عنصر الاثارة ، انجيليكا، بما اسهمت في تحريكه من حديث النميمة والشائعات بكل ما فيه من تسلية وتزجية للوقت ، فقد عاد الوقت الى روتينه البطيء الثقيل الذي تآلفوا معه خلال مسيرة العمل ، بكل ما ينتج عنه من ضجر وضيق ، وهي مسيرة تواصلت مع اغلبهم ممن بدأوا مع بدأ الوكالة مدة عام كامل ، دون ان يكون في ادراكهم وهم يرقبون انسحاب انجيليكا ، وانسحاب ما تبعث به من احاسيس الاثارة في نفوسهم ، ان هناك لحظات اكثر اثارة ستنجم عن هذا الانسحاب ، اذ لم تنقض غير دقائق لا تزيد عن ربع ساعة ، حتى انطلق الصراخ يتردد بقوة عبر الشعاب ، صراخ امرأة ياتي من مكان ما قريبا من سفح الجبل عند بداية الصعود الى الشعبة ، ويتواصل في الحاح ورعب ، صادرا عن امرأة تطلب النجدة ، مختلطا بتموجات الصدى التي تعطي الصراخ مزيدا من القوة وتضفي عليه شيئا من الرهبة والاحساس بالخطر والفجيعة ، بحيث لا تترك مجالا امام كل الناس في الشعبة الا ان يتوقفوا عن التقاط الحلفاء ، مندفعين باتجاه مصدر الصوت اسفل الجبل ، وكانت المفاجأة التي لم يكن احد منهم

يتوقعها او يتصور حدوثها ، هي وجود انجيليكا تطلق الصراخ ، مطروحة ارضا فوق كثيب من الرمال تحت شجرة رتم ذات ازهار صفراء ، تحاول النفاذ من قبضة شقيقها يورجو الذي انطرح فوقها وقد مزق قميصها وتنورتها وحمالتي صدرها ، ومازال يصارعها محاولا ان يمتطيها لاكمال اغتصابها ، وقد ضعفت مقاومتها تحت تأثير لكماته وضرباته ، مرغما اياها ان تستلم له ، بعد ان افلح في الدخول بين فخذيها ، وقد ظهر عري محاشمه ومحاشمها ، فهرع اليه الرجال راكضين يرفعونه عنها ، ويتعاونون على رفع جسمها الغانص في الرمال وقد نزع احد الرجال عباءته ورماها فوق جسمها العاري ، وهي متهالكة تكاد لا تقوى على الوقوف الا انهم اوقفوها ، ولا تقوى على المشي ، الا انهم ساروا بها ، وقد تعاون رجلان ، احدهما الاومباشي جبران على اسنادها، حتى استطاعت ان تمضي وهي تجر قدميها بينهما تجهش بالبكاء ، واستطاع يورجو ان ينتزع نفسه من وسط الرجال الذين امسكوا، ومضى يعدو باتجاه الشعبة التي يشقها طريق السيارات ، منطلقا عبره الى الطريق الرئيسي الذي يربط

الصحراء بالعاصمة ، ركض بعض الشباب خلفه ، ثم تركوه بعد ان ينسوا من اللحاق به ، وعادوا يلتحقون بالركب العائد بانجيليكا الى الوكالة دون ان يعبا احد من اهل النجع بالرجوع الى الشعبة لجلب ما جمعوه من كميات الحلفاء القليلة ، مصطحبين انجيليكا الى بيت اهلها ، وكانت اخبار ما حدث قد وصلت بطريقة من الطرق الى بانيوتي وزوجته فخرج الاثنان يركضان باتجاه الجمع الذي جاء يصحب انجيليكا ، ويلاقيانه قبل مسافة من الوصول بها الى البيت ، وارتمت الام فوق ابنتها تحتضنها ، لحظة وصولها اليها، وتنفض التراب العالق بشعرها، وتنخرط مع ابنتها في البكاء ، بينما وقف الوالد مصعوقا ، ذاهلا لا يدري ما يقول ، عاجزا عن القاء السؤال عما شاهده هؤلاء الناس الذين جاءوا يصحبون ابنته ، فقد وصله من الاشارات ما يكفي لان يعرف بالفعل الاجرامي الفاضح المرعب الذي ارتكبه يورجو في حق اخته ، كل ما كان يقوى على ترديده جملة واحدة، ظل يرددها المرة وراء الاخرى ، دون ان يتعب من ترديدها ، لانه احس بها تعيد له شيئا من التوازن والثبات اما هؤلاء الناس:

ـ سأقتله ، سأقتل الولد الفاسد حال ان تقع عليه عيناي . نعم سأقتله ، لا محالة سأقتله ، قسما بالسيد المسيح سأقتله .

وبعد وصلة من البكاء استمرت بضع دقائق ، تبادلت خلالها الام مع ابنتها ترديد الاهات الحرى وهما واقفتان ، تحرك الركب وقد استلم الاب وزوجته مهمة اسناد ابنتهما ، ومعاونتها على جر قدميها باتجاه البيت ، حتى اوصلاها اليه ، عندند تفرق الناس عائدين الى بيوتهم ، متخلين هذا اليوم عن العمل ، وقد احسوا بان مقتضيات اللياقة تستدعي ان يتركوا بانايوتي وزوجته يختليان بابنتهما يواسيانها ويواسي احدهما الاخر ، شاعرين جميعا بجسامة الفعل الذي حدث لهذه الاسرة الصغيرة ، في موقع غربتها بين هذه الشعاب المعزولة عن العالم ، البعيدة عن ارض الوطن والاهل .

حال دخولها البيت عاودت انجيليكا البكاء الهستيري ، تنتفض وترتعش ، غير قادرة على ان تتعاطى الا بالبكاء مع الام التي تسعى لمواساتها والتخفيف من الامها ، تاخذها الى

حضنها وتطرح اسئلة متوالية بغية الاطمئنان على حالتها دون ان تتلقى عنها ردا . جلست في البداية مع والديها في الصالون الموجود بردهة البيت ، وعندما تفاقمت معها حالة البكاء والارتعاش ، نهضت ودخلت مسرعة الى غرفتها وانكفأت على سريرها تواصل النشيج والانتفاض . استبقى بانايوتي زوجته قليلا عندما همت بان تلحق بابنتها ، يريدها ان تمنح الفتاة لحظات للبقاء مع نفسها ، علها تعود بعد ان تستنفذ طاقتها من البكاء ، الى حالتها الطبيعية ، لتستطيع ان تعرف منها على وجه التأكيد ان كان شقيقها قد اكمل فطته المشينة معا ، متمنيا على الله ان تكون ابنته ما تزال تحتفظ بعذريتها ، والا يكون قد حدث ما تنتج عنه نطفة ملعونة ، كان هذا مصدر قلقه الاساسي ، كما ابلغ زوجته التي جلست معه برهة قصيرة ، ثم لم تستطع صبرا ، فلحقت بابنتها تحاول ان تتلقى منها ردا يجيب على تساؤل اولدها ، الا ان الفتاة كانت ما تزال في حالة من التشنج والحدة والعصبية ، فلم تفز منها الام باي جواب ، وعندما تكلمت ، لم تقل شيئا غير التعبير عن اشمئزازها من نفسها ، ومن احساس بالتلوث شمل كل جسمها ، وضيقها من

حبات الرمل التي دخلت في ثقوب جسمها وتسللت بين طيات شعرها ، ومدت يدها الى فوطة الحمام ودخلت الحمام تضع جسمها تحت الدش تزيل ما لحق بها من ادران . ارادت امها ان تساعدها في حمامها ، فصاحت انجيليكا تطلب منها ان تتركها في حالها ، وانتهت تلك الساعة دون ان تفصح لامها عن حدود ما حصل لها ، ودون ان تستطيع الام ان تعرف هذه الحدود من خلال معاينتها لها ، لان الفتاة لم تكن تسح لامها بالاقتراب منها للقيام بهذه المهمة سواء اثناء اخذها للدش او بعد ذلك وهي تستسلم للنوم وقد احكمت الغطاء حول جسمها.

فر يورجو متواريا خلف الجبال ، ولم يعد ، انقضى النهار وجاء الليل وانقضى دون ان يظهر له اثر ، ودون ان تبدى عائلته أي نوع من القلق عليه او الخوف على المصير الذي ينتظره، وهو يهرب مختفيا في الصحراء، بما في ذلك امه ، التي تجنبت ان ترى الناس ، حيث ابقت بيتها مقفلا عليها وعلى ابنتها ، تاركة الدكان للاب يقسم وقته بينه وبين الوكالة ، ولم يكن صعبا ان يستعين بمن يحل موقتا محل ابنه الهارب في الوقوف على الميزان ، وقد عاد الناس في اليوم التالي الى جمع الحلفاء ، وهم يجدون موضوعا زاخرا بالاثارة يوحد احاديثهم ، هو موضوع الاغتصاب الذي تعرضت له انجيليكا من قبل اخيها يورجو ، باعتباره جريمة يصعب ان يجد لها الانسان مثيلا يحدث في مثل هذه المناطق ، ويؤكد كبارهم ممن شهدوا الحروب وسمعوا عن اهوال وكوارث ، انه لاول مرة في حياتهم تصادفهم جريمة من هذا النوع الفاحش ،

ويتساءلون وهم يجمعون على استنكارها كبارا وصغارا ، عما اذا كان غياب مثل هذه الجريمة عن بيناتهم البدوية ، يرجع الى عمق الولاء للديانة المحمدية ، التي تشكل لاتباعها رادعا من الوصول الى هذا الدرك الاسفل في الجرائم الاخلاقية والجنسية ، اذ انهم لا يجدون تفسيرا لحدوث ما حدث الا في حقيقة ان ابطال هذه الفضيحة ينتمون الى دين آخر ، مع اعترافهم ويقينهم ان الدين الاخر ، وهو دين النصارى هذه المرة ، لابد انه يستهجن ويستنكر ويستهول مثل هذه الجريمة التي تستباح فيها الحرمات وتسقط فيها الاخلاق الى حضيض الزنا بالمحارم ، مهما بدا احيانا من وجود شيء من التسامح في العلاقات الاجتماعية بين النساء والرجال وقبول الاختلاط بين الجنسين اكثر مما يحدث لدى المسلمين ، وليس ادل على استبشاع هذه الجريمة لدى اصحاب هذا الدين ، موقف اسرة بانيوتي الرافض لسلوك الابن الى حد تمني الموت له والرغبة في قتله كما كان يردد الاب ، وموقف الابن المجنون نفسه الذي لحقه الرعب من عاقبة ما فعل ، فاعطى قدميه للريح ، معرضا نفسه للموت تائها في الصحراء ، هروبا من العقاب

الذي ينتظره على يد اسرته . كان الحديث يدور همسا بين الناس في الشعبه ، لسبب اول هو عامل الحياء ، باعتباره حديثا يتعلق بعمل مخجل ، لا يخاطب فيه الصغير كبيرا ، ولا تخاطب به الانثى ذكرا ، وكل فئة من الناس تدس روؤسها في بعضها البعض وتتهامس به بين انفسها ، والسبب الثاني في عدم المجاهرة والافصاح عما يقولون، يتعلق بعائلة يعرفونها هي عائلة بانايوتي ، ويكرهون ان يكونوا سببا في اضافة مزيد من الالم والمعاناة لما تعانيه بسبب ما حدث. بل كبار اهل النجع كانوا يتدابرون في كيف يجدون سبيلا لرفع العناء عن بانايوتي وعائلته ويتابدلون حديثا يصب في هذا الغرض:

ـ لقد ابتلاه الله بهذا الولد المجنون ، المدمن لشراب الاوزو ، فماذا بامكان المسكين ان يفعل ؟

قال ذلك الاومباشي جبران مخاطبا الحاج رضوان وهم يتناولان الشاي اثناء استراحة الغذاء تحت شجرة العرعار

ـ لقد هرب الولد ، وقد تهرب البنت بعده ، لانها ستجد صعوبة في مواجهة اهل النجع والتعامل معهم كما كانت تفعل قبل الكارثة .

ـ لا يستحق بانايوتي ما حدث له ، ولا تستحق ذلك زوجته كاتيا

ـ و لا تستحقه الفتاة ، فهي فتاة عاقلة ، جميلة ، موضع محبة وتدليل من امها وابيها .

ـ لوالدها من رجاحة العقل ما يؤهله لوجود طريقة يعالج بها الموقف.

ـ لا علاج ولا حل ، الا بان يتدبر لها زوجا في التو واللحظة .

وهذا ما كان بانايوتي فعلا قد عقد عليه العزم ، زوج لانجيليكا ، وليكن اليوم قبل الغد ، وعلى غير عادته وقف بانايوتي في الخلاء عند حافة الطريق الذي تسلكه الشاحنات الى الوكالة ، ينتظر في قلق وترقب وصول الشاحنة ، في لحظة توافقت مع عودة اهل النجع من محصولهم اليومي من عملهم في الشعبة ، وقد اطلق بعضهم السلام عليه ، واقترب منه الاومباشي جبران يحييه ويسأله عما اذا كان هناك شيء يدفعه الى ترقب القادمين ، فاجابه بانيوتي بان ما يقلقه هو ان الشاحنة تاخرت عن موعدها ، فخرج يتغلب على القلق بالمشي بضع خطوات عبر المدخل الذي ستأتي منه سيارة

الشحن عله يراها وهي تخرج من منعطف الشعبة، فمد الاومباشي ايضا بصره بذات الاتجاه الذي اشار اليه بانايوتي، وراى خلف رؤوس التلال التي تشكل مدخل الشعبة عمودا من غبار يثور في الاجواء فخمن انه ناتج عن عجلات السيارة ، قبل ظهورها، وقال بشيء من الحماس يخاطب صاحبه اليوناني

ـ ابشر يا سيد بانايوتي ، فالشاحنة ستظهر بعد قليل عبر المنعطف، فانظر جيدا وسترى انفها يسبقها خارجا من وراء تلك التلة .

ولم تمض غير بضع دقاق حتى ظهر انف السيارة تغطيه غلالة من الغبار بسبب الطريق الرملي الذي تمخره العجلات ، وقبل ان يقفل الاومباشي راجعا لخيمته تاركا لابنه مهمة الانتهاء من وزن محصول الحلفاء واخذ الكوبون ، راودته رغبة ان يقف على سر هذا القلق الذي اخرج بانايوتي الى الطريق يرقب الشاحنة ، فلعلها تحمل اضيافا ينتظر قدومهم ، فهو قلق وراءه سبب ، لانها ليست اول مرة تتاخر فيها الشاحنة عن موعدها لبعض الوقت ، وانتظر حتى

وصلت الشاحنة ، ووقفت في المكان الخاص بها ، دون ان يهبط منها أي ضيوف ينتظرهم باتايوتي ، فهو لم يكن ينتظر احدا غير الفونسو ، لانه ما ان هبط حتى هرع اليه باناياتي وسحبه بعيدا عن بقية رفاقه ، يتحدث اليه على انفراد ، ويطيل معه الوقوف والحديث ، ولم يكن صعبا على الاومباشي جبران الذي عمل اثناء خدمته العسكرية في مهمات تجسسية ، ان يتكهن بما يشغل بال باتايوتي ، وما يمكن ان يريده من الفونسو ، وما هي طبيعة الحديث الذي يدور بينهما ، بل عاين اتجاه الريح واستدار عائدا الى خيمته في حركة التفاف يكون منها قريبا من الاثنين حيث يمكن ان ينقل له الريح مفردة يلتقطها من حديثهما لانه لن يكون قادرا على التصنت للحديث بكامله وكانت هذه الكلمة التي وصلت الى مسامعه لتكون مفتاحا لشفرة ما يتبادلانه من كلام هو اسم انجيليكا ، واستمر في طريقه عائدا الى بيته ، دون ان يخبر احدا بما رآه وما تكهن به ، لكي يتوضأ ويذهب الى الجامع للمشاركة في صلاة المغرب . وعندما عاد ليلا الى المجلس الذي اصبح انعقاده بعد المغرب عند مدخل الادارة تقليديا يوميا ، لم يسأله عما

دار من حديث بينه وبين الفونسو ، او عن اية تدابير ينوي اتخاذها ازاء محنة ابنته، فالموضوع مصدر حرج كبير للاب ، خاصة اذا تم الحديث حوله في حضور شيوخ النجع المتحلقين حوله ، كما تجنب ان يسأله عن ابنه وعما اذا سمع أي اخبار عما حدث له وهو يغيب في الصحراء ، بعد ان ارتكب جريمته النكراء ، كان يراه يجلس ثم ينهض من جديد ، دون ان يستقر على حال ، منشغلا باعادة توزيع العمل في المواقع التي شغرت ، فقد تركت زوجته المتجر كما تركته ابنته وغابتا داخل البيت لا تغادرانه ، غير المكان الذي شغر بهروب ابنه ، وقد بدأ يستعين بعمال مؤقتين من شباب النجع ، وكان بانايوتي قد رأى الاومباشي يرقبه وهو ينفرد بالفونسو عند وصوله ويتفاوض معه ، وعرف انه يتحرج من سؤاله حول الموضوع ، فتطوع بالاجابة قائلا له في حضور بقية رفاق السهرة

ـ حمدا لله فقد وافق الفونسو ، على ان يقوم بمهمة الاشراف على الميزان، ولن يعيقه عمله الجديد عن الاستمرار في عمله السابق فوق الرافعة .

ـ الفونسو سيكون عونا كبيرا لك ، فهو صاحب خبرة في مثل هذه الاعمال وسيعتمد على نفسه دون انتظار مساعدة منك كما كان الحال مع يورجو.

ـ لا اريد ان اسمع اسمه ، كنت اظن انني انجبت ولدا ولم اعرف انه خنزير وليس انسانا الا الان ، لعنة الله عليه اينما ذهب ، صدقوني انني كنت اهم ظهر امس بالذهاب الى مركز شرطة مزده لاشتكيه للراند السردوك لينال عقابه تعذيبا وسجنا ، ولكن امه الدرويشة منعتني من ذلك اشفاقا عليه .

يعرف الاومباشي جبران ان صديقه باناريوتي لم يبلغه بكل شيء ، وان اشياء اخرى تم الاتفاق عليها اثناء تلك الوقفة الطويلة مع الفونسو لم يشأ الافصاح عنها ، الا ان الطرف الثاني في الصفقة ، بدأ فعلا يكشف عنها وهو الفونسو الذي ذهب صحبة باناريوتي الى بيته ، ليفتح له باب البيت دون غيره ويبقى فيه بعضا من الوقت ، ثم اقتضاه العمل ان يغادر الوكالة مع الشاحنة التي جاء فيها ، ليجلب الاغراض التي يحتاجها للإقامة الدائمة وترتيب حياته على هذا الاساس ، وفعلا ، هذا ما حدث ، فقد احضر في اليوم التالي ما يكفي من مواد البناء

لبناء غرفة بمنافعها وردهة تتبعها ، ملصقة ببيت بانايوتي ، مصطحبا معه ثلاثة عمال باشروا في بناء البيت الصغير الجديد الذي سيكون مقرا لاقامته ، وانتهزت السنيورة كاتيا وجود هؤلاء العمال فاستعانت بهم في بناء ركن في ردهة بيتها خصصته للعبادة وضعت به ايقونة العذراء وجدارية للمسيح وصليبا ومكانا للصلاة ليكون ركنا للعبادة من اجل ان تحل البركة ببيتها واسرتها ولكي تتقي ببركة اليسوع وامه العذراء الشرور وكيد الاعداء الذين يتربصون باسرتها الدوائر في هذه الارض الغريبة .

رشح من حديث الفونسو ان هذا البيت الصغير الذي يبنيه سيكون عش الزوجية الذي سيضمه مع عروسه انجيليكا ، وقد بدا باناوتي سعيدا وهو يشارك بهمة ونشاط في التخطيط والاعداد للبناء البيت ، وبسرعة انتشر الخبر وازداد تأكيدا بما فعله باناوتي عندما امر بذبح خروفين لاقامة وليمة من قصاع الارز والمكرونة لقاطني النجع ، فيما بدا انه ترتيب وتهيئة لاخراج زوجته وابنته من عزلة البيت ، واقامة احتفال صغير بمناسبة خطبة الفونسو لانجيليكا ، وتم اعداد خيمة المقهى

لتكون مكانا للاحتفال ، وتم فرش البراح الذي امامها بالاكلمة والبطاطين والحصران لاستيعاب كل اهل النجع في قسمين قسم للرجال وقسم للنساء والاطفال، وبينهما اريكة جلس عليها الخطيب وخطيبته ، وحلقة من الكراسي لجلوس اكابر اهل النجع ، وكان باناپوتي حريصا على ان يكون حفل الخطوبة حفلا كبيرا صاخبا بزغاريد نساء البادية والمزمار البلدي يعزفه عاشور وهو ابرع من يعزف المقرونة من اهل النجع ، جاء يحمل سمعته معه منذ ان كان في مزده يحيي افراح البلدة ومن حوله اعضاء فرقة الشوشان ، وقدر ردد الحاضرون معه مقاطع الغناء التي كان يقولها ، بعد ان يملأ قربته بانفاسه لتتسرب منها هذه الانفاس الى القصبتين المربوطتين الى بعضهما البعض بمادة صمغية لاصقة ، وقد اعطى اقترانهما بهذا الشكل ، الاسم الشعبي لهذا المزمار وهو " المقرونة " ، فيستخدم عاشور هذه الاستراحة من النفخ ، في اطلاق الاغاني التي يرددها خلفه الحاضرون من نساء ورجال :

غزالات جبل

اليوم ريت غزالات جبل

خذن قلبي كانك تسأل

وانتهت بعد حفلة الخطوبة تلك العزلة التي فرضتها كاتيا على نفسها وعلى ابنتها ، تحت وطأة الاحساس بالعار ، فقد ازالت هذه الخطبة ذلك الاحساس واعادت الفتاة وامها الى العمل في الحانوت دون ان تعاود انجيليكا ذهابها الى الشعبة مع اهل النجع ، وصار للوكالة رجل يتولى القيادة مع بانايوتي هو الفونسو الذي اتخذ لنفسه مكانا مؤقتا لمبيته داخل هانجر الحلفاء الى حين الانتهاء من بناء البيت ، واظهر سلوكا مختلفا عن سلفه يورجو في معاملة الناس اثناء قدومهم لوزن الحلفاء ، فقد بدى شديد الترحيب عند قدومهم اليه بحمولاتهم من الحلفاء ،يستقبلهم بود وبشاشة ويقوم بوزن محاصيلهم وهو يداعبهم ويتبادل معهم الحديث دون كلفة وتقتير في الحساب ، بل كان كريما في الكوبونات التي يقدمها لهم مقابل ما يستلمه من الحلفاء ، ولا يتردد في اعتبار نصف الكيلو الذي جاء بعد الكيلو السادس مثلا ، متمما للكيلو السابع ، ويصرف كوبونا بقيمة هذا المقدار ، وصارت له صداقات مع اهل النجع ، الى حد ان اصبح يذهب الى خيامهم يتفقد صديقا

مريضا ، ويعرف ما يريده من دواء، ليوصي عمال الشاحنة باحضاره له ، ولم يكن احد من اهل النجع يستخدم الحقن الا عند الذهاب الى المستوصف المركزي في مزده ، لانه لا احد يجيد استخدامها بينهم ، ولا امكانية لحفظها ، فصار هو يوصى باحضارها للمرضى ، ويعتني بحفظ الدواء الذي تعبأ به الحقن في ثلاجة المقهى مستعينا بقوالب الثلج عند غياب الكهرباء ، كما يقوم بمهمة حقنها للمريض منهم في الاوقات المحددة لذلك ، مما جعله محبوبا من رجال النجع يتوددوه اليه ، ويسعون لكسب صداقته ، وانتهت في بضع اسابيع بناء الغرفة ومنافعها ، فشاهد ساكني الوكالة قسيسا بكامل هندامه الكنسي ، ياتي مع الشاحنة جالسا بجوار السائق ، وعرفوا بطبيعة الحال انه جاء بالضرورة لاتمام مراسم الزواج بين الفونسو وانجيليكا ، فاستضافه الفونسو للمبيت في الركن الذي كان يستخدمه لنومه وانتقل هو الى البيت الذي سيضمه مع زوجته ، وابدى الفونسو نشاطا وحيوية في مد اسلاك الزينة عبر المنطقة التي يقام بها حفل الزفاف ، مستعينا بمن كان موجودا من عمال الوكالة ، وهي اسلاك تحمل عقودا من

المصابيح الملونة ، وتم نصب خيمتين لمبيت الضيوف ، وبدأ الرجال في نحر الخراف ، وقد بلغ العدد هذه المرة ست خراف ، وقبل حلول الظلام ظهر عبر الطريق الترابي موكب السيارات كان اولها سيارة نصف نقل تضم افراد عائلة الفونسو وبعض اصدقائه الايطاليين وصلوا يغنون اغانيهم الايطالية ويصفقون ويصنعون ضجيجا مرحا ، تبعتهما بعد فترة قصيرة سيارتان صحراويتان من نوع الجيب، قادمتان من عاصمة القبلة مزده، تضمان رئيس المركز صالح السردوك ، يرتدي بزته العسكرية ورمز رتبة الرائد وهو التاج ذهبيا يلمع فوق كتفيه ، ووسام فضي يزين صدره ، وفي يده العصاء الغليظة التي تشبه الهراوة ، وهي عصاة لا علاقة لها بعصاة الشرف المصنوعة من الابنوس التي يحملها بعض الضباط من ذوي الرتب العالية ، فهي هراوة ذات خشب مصقول ، تؤدي مهمتها في الضرب والتعذيب بكلفاءة شديدة ، مع كل من ساقه سوء طاله للامتثال بين يديه ، فالسردوك لا يستطيع ان يستجوب متهما دون استخدام هذه الهراوة ، حيث يصل الضرب الذي يقوم به الى حد كسر العظام او خروج المتهم بعاهة خلال ايام من حجزه ،

بل ان بعض مرتكبي الجرائم الكبيرة ، لا يخرج من مركز الشرطة الذي يديره الراند السردوك الا الى قبورهم ، لانه يرى ان لا حاجة لان تتعب الدولة نفسها في اقامة المحاكم ، التي تنتهي بعد مشوار طويل من العناء ، بادانتهم والحكم عليهم بالسجن او الاعدام ، فهو يقوم باعدامهم فور وصولهم اليه اختصارا للطريق وتوفيرا للجهد والتكاليف .

جاء هذا الرجل الشهير بسطوته وقوة باسه ليكون احد الشهود على عقد الزواج ، او ما يسميه الاجانب افضل رفاق العريس ، وخدمة لصاحب الوكالة جاء له من عاصمة الاقليم بصديقه الشيخ مفتاح شيخ البلدة، وكبير تجارها اليهودي شلهوب ، وجلب اثنين من انفار الشرطة بملابسهم المدنية علاوة على السائق للقيام بخدمته ومساعدة اهل الفرح في خدمة الضيوف .

واشتعل محرك الكهرباء ، لتلعلع الاضواء الملونة في المكان ، وبدأ تجمع الناس ، وصدحت الحناجر بالغناء البدوي ، تطلقه النساء ، بمرافقة الزغاريد ، ومزمار عاشور وفرقة

الشوشان، واكثر من امرأة في الجانب الذي تحتله النساء واكثر من رجل في الجانب الاخر يضربون الطبول ، وارتدت انجيليكا فستان الفرح الابيض فظهرت في صورة لم يكن احد يستطيع التكهن بها ، جمالا يتألق تحت اضواء الفرح بهيجا ومشرقا ، كأنها كائن سماوي تنتمي الى حوريات الفردوس ، وجميع الحاضرين منبهرون بهذه الزينة التي ظهرت بها ، وجمالها الذي ابرزته الزينة ، وصنع له الثوب الجميل اطارا يليق به ، وصاروا رجالا ونساء يعلقون ابصارهم بها لا يريدون ان يتركوا التحديق في صورتها للحظة واحدة ، بمن فيهم رجل القوة والسلطة الميجور السردوك ، الذي ظل يلهج بلكمات التسابيح يرتلها في حضرة ربة هذا الجمال وهذا الاغراء قائلا بصوت مرتفع يسمعه الناس

ـ سبحان الله ، ما شاء الله ، سبحان الله ، ما شاء الله .

وبعد ان مدت اسمطة الطعام والشراب وهنأ الجميع باكلهم شرابهم ، قام القسيس بواجبه في اتمام مراسم العرس مانحا الاذن للعريس بان يقبل عروسه حسب التقاليد الاجنبية ، امام اعين كل الحاضرين ، وواصل العرس انطلاقه بعد اتمام

المراسم باكثر ضجة بحيث تم افساح مساحة للرقص قاد فيها العروس وعروسه عدد من الراقصين الاجانب بمن فيهم بانايوتي الذي مضى سعيدا يراقص زوجته كاتيا ومن حولهما افراد عائلة الفونسو ، وحرصا على المحافظة على بعض التقاليد اليونانية التي تجلب الحظ ، امر بانايوتي باحضار بعض الصحون الخزفية ، التي صار يقذف بها فوق احدى الصخور الموجودة لدعم اوتاد الخيمة ، وقلدته زوجته فحطمت بعض الصحون وسط دهشة فقراء النجع الذين يرون في تحطيم هذه الصحون ، اهدارا لادوات يتم شراؤها بالنقود ، فهي بالتالي اهدار للمال من اجل اللعب والعبث ، وخلال كل الوقت استمرت دفوف فرقة الشوشان و مزمار عاشور تقدم الانغام السريعة الخفيفة الراقصة التي تساعد الراقصين على ان يقوموا بتبديل خطواتهم على ايقاعها .

– 11 –

انتهى العرس

ذهب العريس يشبك ذراعه في ذراع عروسه الى دارهما الجديدة ، وعاد اهل النجع الى خيامهم واكواخهم ، اما الضيوف القادمون من خارج الوكالة فقد تفرغ بانايوتي نفسه للاشراف على ترتيب مهاجع مريحة لهم داخل خيام الفرح ، فقد ذهبت احدى الخيام لعائلة الفونسو ، وقد جاءوا معهم باسرة السافاري ، وخصصت الخيمة الثانية للسردوك وضيفيه ، اما الثالثة وهي خيمة المقهى التي تركت مفروشة بالاكلمة والحصران والبطاطين فقد خصصت للعمال القادمين مع الضيوف وسائقهم واصدقاء الفونسو من العاملين في شركة الحلفاء ، وكان الميجور السردوك وضيفيه، قد رآوا ان يواصلوا السهر قليلا بعد انتهاء الحفل ، خاصة وان بانايوتي قرر ان يستمر محرك الكهرباء في العمل لساعتين او ثلاثة بعد موعده ، فسحبوا عددا من الكراسي من خيمة العرس وجلسوا في الخلاء يتسامرون تزجية للوقت الذي كان سيستغرقه اعداد الخيمة ، وحلت لهم الجلسة فواصلوا انعقادها حتى بعد ان جاء بانايوتي يبلغهم بان الخيمة جاهزة لمبيتهم ، وسألهم ان كان يستطيع ان يجلب لهم شيئا من الاكل

او الشراب يتسلون به ، وعندما رآهم صامتين حائرين ، اقترح ان يحضر لهم سخانا من الشاي الخفيف الاخضر الذي تزيد فيه كمية النعناع على الشاي لكي لا يكون مانعا من النوم ، فوافقوا على اقتراحه ، فارسل لهم السخان مع علي وهو صبي يعمل في المقهى ومعه عدة اطباق من اللوز المحمص والفستق السوداني وقطع الكعك والبسكويت ، وسفرة تقبع فوقها اربعة كؤوس زجاجية صغيرة ، واراد ان يقف على خدمتهم فسألوه ان ينصرف بعد ان اعد كأسا لكل واحد منهم ، وكان الجو فعلا يغري بان يبقى هؤلاء الاصدقاء الثلاثة جالسين في الخلاء ، حتى بعد ا ن حان اطفاء محرك الكهرباء وتبعا له انطفات اضواء الوكالة وحل الظلام والصمت محل النور والضجيج ، ولم تبق الا اضواء النجوم ، وضوء قمر لم يصل الى مرحلة البدر الكامل ، يطل من جانب الافق ، وقد بدت البهجة على السردوك ، منتشيا بالعبق الذي ياتي مع نسيم الليل ، محملا بعبير اشجار العرعار ، فعبر بكلمات اشبه بالهمهمات عن هذا الاحساس ، فصادق عليه الشيخ مفتاح قائلا

ـ الا يغرينا هذا الهواء الجميل الزكي الرانحة ، وهذه السماء المرصعة بالنجوم ، التي نحس بها قريبة حتى لتكاد تلامس الرؤوس ، وهذا الخلاء، وهذا الهدوء ، بان نترك مزده ، وناتي لنعيش تحت ولاية ورعاية السيد باتايوتي .

فرد عليه الراند السردوك قائلا :

ـ نعم ، نعم ، خاصة في جوار هذا الجمال المبهر الملهم لابنة صديقنا باتايوتي .

ـ يشهد علي سيدي ربي انني لم استطع ان احيد عنها بصري طوال السهرة .

قال ذلك التاجر شلهوب ، واضاف :

ـ الا انني كنت انظر بطريقة اقل صراحة ، وشجاعة منك يا سيادة الميجور ، فقد كنت فالتا عينيك فيها ، كانهما ماسورتا بندقية ، يرميان الرصاص .

فرد الراند السردوك متحسرا

ـ ولكن ما الفائدة ؟

ـ لم افهم

قال شلهوب واضاف متسائلا :

ـ ما هي الفائدة التي التي تريد تحقيقها من الحملقة غير متعة النظر .

فرد عليه الرائد بغضب

ـ اقصد انه خطأ ولم يعد هناك امكانية لتصحيحه ، نعم خطأ صريح قبيح ، اذ كيف يكون بانايوتي عانشا معنا ، ويعطي هذا الكنز من الجمال لولد ايطالي قادم من طرابلس ، لماذا ؟ هل خلت القبلة من الرجال ؟

فقال شلهوب يطرح سؤاله بخبث ومكر

ـ ومن من رجال القبلة تريد ان توده بهذا الكنز ؟

وقبل ان يجيب الرائد ، تكلم الشيخ مفتاح بصوت العقل والمسئولية :

ــ الزواج ستر وغطاء ، وقد فعل والدها خيرا بان جاء لها برجل من اهل دينها يبني بها .

وبغضب اكثر حدة قال الكولونيل السردوك

ــ وما اهمية ان يكون العريس من اهل دينها او لا يكون ؟ الم يكن الشرع كريما ورحيما فاباح بان يتزوج المسلم من اي دين ، مسيحية او يهودية كما فعل سيدنا الرسول ؟

ـ نحن هنا لا نتكلم عن الحلال والحرام ، ولكن عما هواكثر لياقة وانسجاما ، واعتقد ان كل من العريس والعروس يليقان باحدهما الاخر منتهى اللياقة ، دينا وعمرا ومستوى اجتماعيا وثقافيا .

لم يعجب كلامه الرائد السردوك ، فقام واقفا

ـ هيا ، تصبحون على خير .

ورغم الخيمة التي اعدها بانايوتي للضيوف الثلاثة ، الا ان السردوك اصر على اتباع تقليد يقوم به كلما خرج الى الصحراء ، حيث قام واتجه الى سيارته ، فانبثق سائقه من مكان ما في الظلام ولحق به مهرولا ، ليركب بجواره ، امام المقود ، ويقود السيارة بضع مئات من الامتار ، حيث تعود السردوك في مثل هذه الرحلات الصحراوية ان تكون سيارته مجهزة بحاجات المبيت في العراء ، مستغنيا عن غطاء الخيمة ، منتبذا لنفسه مكانا قصيا عن الجميع ، يهنأ فيه بنومه ، وبجواره سائقه يقوم بمهمة الحارس ، والخادم الذي يلبي طلباته .

اجتمعت في عرس انجيليكا والفونسو ، بعض تقاليد البدو الليبيين، وتقاليد الاجانب، طليانا ويونانا ، ولعل اهل النجع انتظوروا كما كان متبعا في تقاليد الاعراس لديهم ان يعقب ساعة الدخلة ، ما يسمونه (اخراج القمجة) اي عرض قميص نوم العروس ممهورا باثار قطرات من دم البكارة تأكيدا لعذرية الفتاة ، الا انهم اكتشفوا انه تقليد لا وجود له في اعراس الاجانب ، ومعنى ذلك انه لا سبيل الى ارضاء فضولهم لمعرفة ما اذا كانت انجيليكا ،قد ذهبت بعذريتها الى بيت الزوجية ام انها فقدت هذه العذرية يوم اغتصاب اخيها لها ، كل ما حدث انها ظهرت في مساء اليوم التالي تعمل مع امها في الحانوت ، متألقة كأنها جوهرة ، ترتدي فستانا يجر في الارض ، اسود اللون ، بعكس فستان الفرح ، ببياضه الشمعي الناصع ، ومع الثوب الاسود ، وتحقيقا لجماليات التقابل والتضاد ، ارتدت عقدا من الذهب الابيض يشع كانه الالماس ، يحيط بعنقها ، وتتارجح زوائد منه فوق صدرها ، وهو الجزء الاساسي من طقم تكمله اسورتان في معصميها وقرطان في اذنيها ،

ووضعت في قدميها حذاء نساء جميلا انيقا له سيور بيضاء لا تقل القا وبريقا عن الطاقم البلاتيني ، وكانها شاءت ان يتواصل الانبهار بجمالها وهي ترتدي فستان الفرح ليلا ، ويبقى موصولا بكلام الناس وهم يتناقلون اخبار مظهرها الصباحي الجديد ، وهو ما حدث فعلا ، الى حد ان الرجال صاروا يختلقون الذرائع لزيارة الحانوت وشراء اشياء لا يحتاجون اليها ، لمجرد الاستمتاع بالنظر اليها ، وبدت هي سعيدة ، تستقبل الزبائن بالابتسام ، وتودعهم بذات الابتسامة المشعة التي تكمل الاشعاع الصادر من حليها ، وكأنها وجدت في الزواج ، نبعا من السعادة تنهل منه ، وتفيض بما نهلت على كل من حولها .

وكان والدها اكثر سعادة منها لانه ازال الغمة التي خيمت على اسرته وكادت تسمم حياته ، ولم يعبأ بمصير ابنه ، فقد سمع طشاش كلام يقول بان ابنه وصل الى طرابلس ، وينوي العودة الى اليونان ، واثقا انه هناك لن يسمع احد بفضيحته ، ويبدأ حياة جديدة بمعاونة فرعي الاسرة ، الفرع الموجود في الاسكندرية من ناحية ابيه ، او الفرع الموجود في جزيرة

كريت من ناحية امه ، فليذهب حيث شاء لان المهم بالنسبة لابيه ان يغرب عنه ولا يريه وجهه مدى الحياة ، وقبل ان يأوي لسرير ه اخرج بانايوتي دفتره الاسود وكتب بضعة اسطر عما يجول في ذهنه من خواطر

لم يكن ممكنا ان افتح هذا الكراس وادون شيئا في الايام الماضية وانا بين شطري رحى تلك المحنة القاسية تطحنني وتسحقني كما تسحق الرحى حبة شعير ، لم يكن ممكنا ان ا قوى على مواجهة نفسي ، او اقدر ان امسك القلم واصف محنتي التي لم يصنعها لي منافس او عدو وانما صنعها لي كانن من نسيجي ولحمه من لحمي ودمه من دمي ، فكأن جزءا مني يمسك سكينا ويذبح الجزء الاخر ويمزق لحمه نتفا ومزقا ، الان فقط وقد سخر الله لي امكانية تجاوز المحنة ومعالجة الازمة والخروج منها بسلام ، استطيع ان اجلس واكتب شاكرا الله ان هداني للحل الذي انقذني من العذاب وانقذ ايضا ابنتي وزوجتي ، ومع كل هذه النتائج الطيبة التي وصلنا اليها اخيرا ، فان الندوب في النفس باقية ، وبانايوتي الذي تعرض للازمة وخرج منها ، لم يعد نفس الشخص قبلها ، هناك اشياء كثيرة

تغيرت في حياتي ، بل اقول هناك شيء انكسر ، فاقبالي على الحياة في هذا المكان الذي جئت انشد فيه السلام والطمانية والامان ، تلون بلون المصيبة التي حلت بي وباهلي وبيتي ، وكانها ريح تقلب الاشياء وتجعل اعاليها اسافلها ، فاين حقا هذه الطمأنية وهذا الامان وهذا السلام اذا كان العدو داخليا ، بمعنى من داخل بيتي واسرتي ، ويحمل حفنة من دمي ولحمي ، كيف يهرب الانسان من دمه ولحمه وبيته واسرته ، الاثم طبعا ليس على المكان ، فهذه الجبال التي اوت اسلافا من قبل الفي عام ، لم يطرأ عليها ما يحول طبيعتها الى شيء اخر ، ولن تضيق بحمل وايواء خلف ياتي لاجئا اليها من سلالة اولئك الاسلاف ، فلا لوم ولا تثريب ولا عتاب على جنائن العرعار ووهضابها وشعابها وما ينمو فيها من نبات كالحلفاء الذي يمدنا بخبز يومنا ، ولا لوم ولا عتاب ولا تثريب على الزمان فهو في امتداده من الازل الى الابد دائم سرمدي بذات البدور والكواكب والاقمار ، تشرق شمسه الابدية كما كانت تفعل من بدء الخليقة وتغرب دون تغيير ، تنتقل في منازلها كما تفعل كل عام في نظام يسير عليه الكون ، وتلتزم به

الفصول من شتاء وربيع وصيف وخريف ، لا يلحقه التبدل ، انما التغيير والتبدل هو ما يحدث في نفوس الناس ، ولا احد يستحق اللوم والعتاب والتتريب الا انفسنا فالطف بنا يا رب الكون ، واعنا يا يسوع يا مخلص النفوس من ادرانها .

- 12 -

لم تكن فرحة الاومباشي جبران ، تقل عن فرحة صديقه بانايوتي بهذه النتيجة التي وصلتها احوال الفتاة بعد الكارثة التي تعرضت لها ، وان يغبط والدها لانه استطاع بمهارة واقتدار لفلفة الفضيحة بهذا الزواج ، ونجح في ان يضع غطاء فوقها ومحاصرة نتائجها ، فلتنجب انجيليكا طفلا الان اذا شاءت ، يكون ثمرة تلك الجريمة التي ارتكبها شقيقها ، فلا احد يجرؤ ان ينسب الطفل الى ذلك الاب الذي تحرم النواميس والشرائع ان يكون له ابنا منها ، ولا احد يمكن ان ينكر عليها ان تنسبه لزوجها الفونسو حتى لو لم يكن حقا من صلبه ، ومن ناحية ثانية فقد افرحه هذا الزواج لانه جاء يرفع عنه عبء اصطحاب الفتاة مع اسرته الى الشعبة واختلاطها بابنه

وابنته ، فاذا كان جمالها قد اصاب بالغواية الملعونة المجنونة شقيقها فلم تمنعه الحواجز الانسانية والا خلاقية والدينية من الاعتداء عليها ، فكيف الحال مع فتى في سنها ويحل له ان يتعشقها ويفتن بها مثل ابنه ، فيرتكب بدافع هذا العشق والافتتان حماقة الاعتداء عليها ، كما كان مصدر راحة له ان هذا الزواج اعفاه من ان يراها ترافق ابنته وهي محاطة بتلك الدائرة من الاتهام والخطيئة ، لان وجودها ملازمة لمريم ، كان يمكن ان يفسد شيئا من براءة ابنته ، او ينالها رذاذا من جو الاثارة الذي تثيره انجيليكا ، ولكنه لم يفاتح احدا بمشاعر الارتياح التي احس بها ، ويبدو ان طيف ابتسامة كان يرف على شفتيه وهو يمضي في اقتلاع الحلفاء قريبا من صديقه الحاج رضوان ، فسأله الحاج عما يجعله يبتسم فاجابه قائلا

ـ تذكرت عرس البارحة ، وكيف اختلطت فيه عوائد البدو بعوائد الروميين.

ـ هاهو عرس يختلط فيه الناس ، نساء ورجال ، دون ان تتفجر البراكين او يغمر الارض الطوفان ، فلماذا لا نقيم نحن

ايضا اعراسنا بهذا الشكل وتجلس العروس بجوار عريسها سافرة الوجه حاسرة الراس امام الجميع .

ـ واين نهرب من الفقهاء ورجال الدين . حمدا لله ان صاحبنا الفقي عمار ليس موجودا بجوارنا والا اعتبرك خارجا عن الدين بسبب هذا الكلام .

ـ سامحني اذا قلت لك ان هؤلاء الفقهاء مخطئون ، فقد رأيت بنفسي اختلاط الرجال والنساء ، عند الكعبة ، اقدس مكان فوق الارض ، فهل يحرم الله شيئا حلل حدوثه في اقدم بيت من بيوت عبادته واكثرها شرفا عنده.

ـ سيمضي وقت طويل قبل ان يتحقق هذا الامر ، فالناس تخشى على اعراضها ، والعرض عند اهلنا اكثر اهمية من الحياة نفسها.

ـ الاعراض مصونة ، محفوظة ، الا اذا كنت تقصد حادثا كالذي حصل بين ابنة بانايوتي وشقيقها ، فهو طبعا امر فوق التصور .

ـ اللهم اسبل سترك علينا .

ـ لو حدث هذا الحادث لعائلة بدوية من اهلنا لما كان امام افراد هذه العائلة الا الانتحار .

ـ قد لا تعلم ان بانايوتي اراد ان يأخذ سكينا ويلحق بابنه ليقتله .

ـ هل صار بانايوتي بدويا هو ايضا .

ـ بانايوتي عاش منذ صباه في المدينة القديمة ، في باب البحر ، واهلها اشداء في المحافظة على الشرف وقد تعود بعاداتهم .

ـ ان يورجو اكثر انغماسا منه في المدينة القديمة ، فهو مولود فيها .

ـ مجنون ، لا محالة في انه ولد مجنون ، وما فعله لا علاقة له بالتربية ولكن بالجنون .

ـ الم يكن للفتاة دور في غواية شقيقها .

ـ لقد خلقها الله جميلة ، فائقة الانوثة ، فماذا تريدها ان تفعل ؟

لا ، لا ، الفتاة طبيعية جدا ، لكن اخاها صبي فاقد العقل .

وعاد الحاج رضوان الى حديث العرس قائلا

ـ هل رأيت ما كان يفعله رئيس الشرطة القادم من مزده .

ـ قصدك صالح السردوك .

ـ نعم . كان يغرز عينيه في العروس كانه قط يتربص بفأر ، يريد التهامه.

ـ وماذا تنتظر من رجل اشتهر بتعذيب الناس وضربهم والاعتداء عليهم ، بسبب ودون سبب؟

ـ وكيف تركته الحكومة في هذا المنصب ؟

ـ وهل تريد الحكومة غير رجال مثله ، خاصة وانها حكومة اجنبية لا يهمهاغير حفظ الامن ...

فاكمل الحاج رضوان

ـ وهو يوهمها ان حفظ الامن لا يأتي الا بالقبضة الحديدية .

ـ نعم ، هذا ما يفعله.

ـ ولكن رئيسه الانجليزي لا يفعل مثله .

ـ تقصد نائب الوالي في مزده ، انه توزيع ادوار ليس الا ، فهو يصدق فيه المثل ، ما داير الذنب ما كاره الكلب ، فهو يرى ويعرف ولا يفعل شيئا ، وعندما ياتي من يشتكي اليه من السردوك ، يقول هذا واحد منكم ، تعرفونه ويعرفكم اكثر مني .

ـ وقانا الله من شرهم .

شيء ما دفع الاومباشي جبران ان يرفع راسه من الانحناءة التي تفرضها عملية اقتلاع الحلفاء ، وينظر في الافق عند منفذ الشعبة قبالته ، ليقول بفزع لصاحبه الحاج

ـ ارفع رأسك ياحاج رضوان ، وانظر ان كنت ترى ما اراه ،ام هي ضبابة حمراء طبقت على عيني .

ـ انها ضبابة حمراء تطبق على الدنيا باجمعها .

ـ هي اذن عاصفة قادمة تنذر بشر كبير ، لم نر مثلها في هذا المكان منذ مجيئنا اليه .

ـ يجب ان نخرج بسرعة من الشعبة ، لكي لا تصطادنا العاصفة بين فتحتيها . كل الناس يجب ان يخرجوا .

ـ وان يتركوا كل ما جمعوه من حلفاء ، لانه لن يقوى احد على حمل قشة واحدة .

اخذ كل منهما اتجاها يصيح بالناس يطلب منهم مغادرة المكان على وجه السرعة ، فرمى كل رجل وامراة وصبي وصبية ما في يده وانطلقوا للخروج من الشعبة ، وقد بدأ بعضهم يطلق الصراخ خوفا مما سيواجهونه بعد قليل وقد رأوا الضباب الاحمر يغطي الافق ويقفل منافذ الشعبة ، واصوات

نساء تنادي على اطفالهن في فزع ورعب ، ويمسكن الواحد منهم عندما يجدنه ويسحبنه وهن راكضات نانحت ، لان هناك خطرا داهما شعروا جميعا باقترابه .

مهلة صغيرة اعطتها العاصفة ، قبل ان تبدأ هجومها الكاسح ، تلفحهم بغبارها الاحمر ، وتضربهم بحصاها ، وهم يركضون وقد زاد ركضهم سرعة لان العاصفة جاءت من خلفهم ، وحمدا لله انها كذلك ، لان الامر سيكون اكثر مدعاة للفزع لو ان العاصفة قبالتهم ، لقد وصلت العاصفة لحظة ان اوشكوا على ترك الشعبة وراءهم ، وهوامر لصالحهم ، اذ ما لبثوا ان وصلوا سفح الجبل حيث تنكسر حدة العاصفة قليلا ، ويتضاءل عنفها ، لانها وسط شعبة مفتوحة من الجانبين ستكون اكثر قوة وشراسة، شكرا للاومباشي جبران والحاج رضوان ، لولاهما لاصطادت العاصفة اهل النجع وهم ينحنون على جمع الحلفاء ويضعون روؤسم في الارض حتى تاخذ العاصفة بتلابيبهم ، قريبا من تلك الاخاديد وتحت تهديد الصخور التي لن تبقى ثابتة بسبب عنف العاصفة ، ورغم انها تاتي من خلف اظهرهم الا ان ترابها وحصاها يتحرك بصورة

تجعله يضرب وجوهنم ويدخل في عيونهم ، فيحاولون ابعاد الضربات بما يفيض من ارديتهم واغطية روؤسهم ، يغطون بها وجوههم ويتركون انفراجة او شقا يتبينون بها او به طريقهم الى النجع .

وجدوا عند وصولهم اليه ، ان اكثر من خيمة تهدمت ، واكثر من كوخ طار سقفه ، الا ان الاغلبية ، صمدت للعاصفة ولم تكن تحتاج الا الى لمزيد من تعزيز اوتادها بوضع صخور فوقها وفوق الاطراف التي يقفلون بها مداخل الخيام وجنباتها التي يعبث بها الريح ، لتكون مكانا صالحا لاتقاء العاصفة ، فهو يوم مخصوم من وقت العمل ، كان عليهم ان يقضوه جالسين داخل الخيام ، يضعون ما لديهم من امتعة بينهم وبين الشقوق التي تتسلل منها موجات الهواء المحملة بالتراب ، واضعين صغارهم في احضانهم ، يقرأون ما تيسر لهم من سور القرآن، ويستنجدون باولياء الله الصالحين ، متوسلين الى الله باسمائهم ان يمنع عنهم شر هذه العاصفة ويأذن بايقافها . وانضمت كل عائلة وجدت خيمتها متقوضة او كوخها بلا سقف للاحتماء بخيمة او كوخ الجيران وقد استمر

بقاؤهم على هذا الحال طول النهار غير قادرين على اعداد اي طعام ، وبالكاد يصل الواحد منهم الى مطرة ماء يطفي بقطرات منها حرقة العطش ويبل بها جفاف فمه وحلقه ، والعاصفة تواصل العواء والزنير ، كانها غابة تزحم بالوحوش المفترسة المتعاركة ، حتى تراجع ضوء النهار ، وبدأ ت العتمة تطبق على الدنيا ، وكانت هذه العتمة اشارة للعاصفة بان تتوقف عن زنيرها ، ومتمهلين ، حذرين ، بدأ الناس يخرجون من خيامهم واكواخهم ، وهم ينفضون التراب عن ملابسهم ويزيلونه عن وجوههم ويبحثون عما تسلل منه الى ما تحت الملابس وبين خصلات الشعر ، ويعاينون اثار العاصفة بالخارج ، وما اهالته من اتربة ورمال حول خيامهم وغطت به المسارب التي سبق ان صنعتها اقدامهم بين الخيام وبين ابنية الوكالة وهناجرها.

وباشر عدد من شباب النجع ، يقودهم السيرجينتي خليفة ، في اعادة بناء الاكواخ المتهدمة وترميم السقوف الطائرة ،

وخرجت العمة مريومة من خيمتها تتفقد ما زرعته من اعشاب طبية في احواض امام الخيمة ، لتجد ان النبتات اختفت باحواضها الطينية تحت التراب فجلست ترفع عنهاالتراب

بيديها واحدة واحدة ، وجلبت لها جارتها العمة بدرية كاسا من الشاي الاخضر مدته لها فارتشفته بسرعة وعادت تنزع التراب حتى ظهرت اوراق نبتة شندقورة خضراء سليمة ، كما كانت قبل العاصفة ، فقالت الجارة تبارك لها سلامة النبتة :

ـ الحمد لله ان العاصفة لم تقتلع هذه النبتات الصغيرة وهي التي اقتلعت اشجارا ذات جذور وجذوع .

ـ الحمد والشكر له ان جاء العقاب خفيفا بهذا الشكل .

ـ عن اي عقاب تتكلمين يا مريومة .

ـ وهل تشكين يا بدرية في ان العاصفة كانت عقابا من رب العالمين لاهل هذه الديرة على المفاسق والشرور التي ظهرت في ديرتهم .

ـ فعلا الان فقط انتبهت الى هذه الحقيقة ، ربنا يجعلها نهاية ما يلحق بنا من سوء.

ـ نعم ، هذا ما سيحدث ، اذا توقفت المفاسق والشرور ، ولكنني احس انها لن تتوقف .

ـ ولماذا لا تتوقف لا سمح الله

ـ لا ادري ، وليس عندي تفسير غير انه احساس احس به .

ـ قلب المؤمن دليله يا اختي ، وانت امرأة خير وصلاح ، فما الذي يقوله لك قلبك بالله عليك ؟

ـ يقول ان يورجو الذي ارتكب الفاحشة ، رجل مجنون، ولكن الاخت التي كانت بطلة القصة ، لا تخلو هي ايضا من عنصر الشر ، انه يتبدى واضحا في عينيها .

ـ وهل تأملت عينيها وعرفت على وجه اليقين ان هناك شرا يصدر عنهما؟

ـ لا حاجة لان يتأمل الانسان عينيها ، انهما يهجمان عليك ويقولان لك بصريح عبارة انهما عينان ابليسيتان .

ـ اعوذ بالله من شر ما خلق .

ـ انتظري وستسمعين المزيد من هذه المفاسد والشرور .

وارتفع فجأة النواح من مكان قريب ، نواح امرأة ملتاعة ، مفجوعة ، كما هو الحال في حدوث كوارث الموت الفجائي .

كان النواح يرتفع من كوخ معزول مبني بالطين والقش وكرناف النخيل ، هو كوخ الراعي منصور ابوفاس ،المواطن الاول كما يسميه اهل النجع ، يسكن مع امراته سالمة التي ارتفع نواحها بمجرد ان سكت عواء العاصفة ، تبكي زوجها

منصور ، لانه لم يعد بشياهه التي كان يأخذها للرعي ، في الوهاد القريبة ، وهرع بعض اهل النجع مسرعين اليها ، وعندما عرفوا سبب عويلها ، صاروا يطمننونها بان الرجل خبير بهذه المناطق وليس جديدا على مثل هذه العواصف ، فهو يعرف كيف يتقي شرها ، الا انها استمرت في البكاء ، قائلة من خلال بكائها انها لا تعرف منذ اقترنت به قبل اربعة اعوام حصول عاصفة بهذا العنف وهذه القوة التدميرية ، ولان جزءا من سقف الكوخ هدته الرياح ، انتقلوا بها الي خيمة المقهى التي عادة ما تتحول الى مركز لقاء وتجمع في مثل هذه المناسبات ، وتركوا للمجموعة التي يقودها السيرجينتي خليفة مهمة اعادة الكوخ الى ما كان عليه ، ووجدوا وهم يصلون المقهى ، الفونسو قد استعان بستة رجال بينهم ثلاثة من عمال الوكالة ، لتوزيع اطباق ورقية ملينة بالتمر ، على عائلات النجع هدية لهم من صاحب الوكالة ، لانه يعرف ان الناس جميعا قضوا يوما كاملا بلا اكل لصعوبة ان يقوموا بطهي واعداد اي طعام بما في ذلك طعاما مثل السويق الذي يكتفون بخلطه بالماء ويتناولونه اثناء استراحة

جمع الحلفاء واسمه (الزميته)، لسهولة اعداده ، فالعاصفة لم تترك لاحد فرصة ان يفتح فمه مجرد الفتح ، ولهذا كانت وجبة التمر ، التي جاءت على سبيل الهدية محل ترحيب من الجميع بمن فيهم مجموعة النساء والرجال التي رافقت سالمة زوجة منصور ابو فاس الى المقهى ، طالبين منها ان تنتظر هناك عودة زوجها ، لانه لم يكن ممكنا ان يتحرك باغنامه قبل هدوء العاصفة ، ولن ينقضي طويل وقت قبل ان تراه عائدا بهذه الاغناء الى النجع ، الا انها لا تريد ان تقتنع بكلامهم ، وواصلت البكاء الذي يتحول احيانا الى نواح ، تطالب وتلح في الطلب ان يذهبوا بها للبحث عن زوجها بين الشعاب ، وتحت تأثير هذا الالحاح اعد باناپوتي بعض المشاعل ، ودعا عددا من الرجال لمرافقته في رحلة البحث عن منصور ، ومضى يتقدمهم حاملا مصباحا يدويا يسلط بورة ضونه على ما يعترض طريقه من حجارة وكثبان رمال واشجار سدر ورتم واثل ، وقد اصرت سالمة على مرافقتهم ، وصارت ترفع صوتها بين الحين والاخر تنادي منصور ، وشاركها في النداء عددا من الشباب ، الا ان منصور لم يكن يرد النداء حتى وهم

يصلون الى عتبات الشعبة التي كانوا يجمعون فيها الحلفاء ، وكانت هي على معرفة بالطرق التي يسلكها زوجها وهو يقود اغنامه ، خاصة المنحدرات والتجاويف الجبلية التي يكثر بها العشب ، الموجودة داخل الشعاب وبين الجبال ، وفي حين كان هو متفرغا لرعي الشياه لا يشارك اهل النجع في جمع الحلفاء ، كانت هي التي تقوم بهذا الدور ، وكان يدخل هو بشياهه الى الشعبة الا انه يتخذ مسالك ويرود مناطق بداخلها غير مناطقهم ، وكان الناس يخافون ان تاكل الشياه نباتات الحلفاء ولكنه كان يطمننهم ان الشاة والنعجة او الخروف يلتقط الاعشاب حول نبتة الحلفاء ويابي ان ياكلها فهي لا تدخل في الغذاء الذي تستهلكه الاغنام ، ولهذا اطمانوا الى ان وجود اغنامه في الشعبة لا يجلب ضررا لمصدر رزقهم ، وكانت سالمه هي التي قادت المجموعة الى نفس الشعبة ، واستمرت في المناداة على منصور ، طالبة من الجميع ان يشاركوها النداء لانها تعرف ان زوجها اذا كان على قيد الحياة فلا بد انه التجا الى تجويف او كهف من تجاويف وكهوف هذه الشعبة ، توغلوا في اعماق الشعبة وصعدوا بعض دروبها وهم ينادون اسم

منصور ، وقبل ان يأتيهم ردا منه ، تعالى عواء الذئاب شرسا قريبا ، فواصلوا النداء باصوات اكثر ارتفاعا ، فلابد ان هذه الذئاب تعوي بسبب دخولها في مواجهة ما قد تكون هذه المرة مع منصور نفسه ، وكانت المفاجأة ان جاءهم صوته يرد على ندائهم ويدل على مكانه ، مختلطا باصوات الذئاب،

وقادهم صوته الى حيث كان موجودا في براح من الارض داخل الشعبة تحيط به تجويفات جبلية ، حيت تحاصره وتحاصر شياهه مجموعة من الذئاب ، وسط غابة واطئة من نباتات العجرم ذات الاحجام القزمية ، تشتبك بعضا مع بعض ، وتغطي الارض الحجرية لتلك التجويفات الجبلية،

بينما اطلت الصخور الكبيرة ، في سمتها العالي ، كانها غيلان تصنع حلقة حول ذلك البراح من الارض ، متلفعة بالظلام ، تقدم افراد المجموعة بمشاعلهم ، ففرت الذئاب هاربة من رؤيتها لمنظر اللهب ، وقد انطلق بعض حاملي المشاعل يطارد بها الذئاب ، وكان منصور ينتفض بردا ورعبا يلهج ببعض التسابيح شكرا لله لانقاذه ، فقد احتمى هو وشياهه داخل هذا الاخدود ، من عنف العاصفة التي هاجمته وهو موجود بشياهه

قريبا منه ، فلم يكن امامه الا ان يدفع بها داخل هذه التجويفات الجبلية، الا ان العاصفة حركت قطعة من الصخر في اعلى الجبل ، فانحدرت بقوة وسرعة عند احدى التجويفات ، واخذت في طريقها ثلاث شياه احالتها الى اشلاء ، وقد حدث سقوط الصخرة قبل نصف ساعة من انتهاء العاصفة ، وحلول الليل ، فاذا بذناب الجبل تخرج من كهوفها ومخابئها وقد ايقظت رائحة الدم الناتج عن مقتل الشياه شهيتها للافتراس فانحدرت تنادي بعضها بعضا فاسرع هو بوضع الشياه خلف ظهره وتصدي هو للدفاع عنها بالعصا التي كانت معه وبرميها بالحجارة ، فتتراجع ثم تعود حتى تصل قريبا منه ومن الشياه فيعمد الى ضرب انوفها ورؤوسها بالعصا ، واستطاعت ان تختطف شاة رابعة فتفتك بها غير الشياه التي فتكت بها العاصفة ، اذ قامت الذناب بجرها بعيدا والالتهاء بالتهامها لمدة من الوقت استراح فيها من هجومها ، الا انها عادت تطلق عوانها وتنادي مزيدا من اهلها وتتكاثر حوله حتى ذهب في يقينه انه لن تنتهي هذه الليلة حتى تهزمه وتفتك منه شياهه وقد تنتهي بالتهامه هو ايضا معها ، ولكن الله ستر ،

فلولا مجيئهم يحملون المشاعل لما فرت الذئاب هاربة من امام نيرانهم . واحاط به اثنان من الشباب يعينانه على المسير ، فقد كان منهكا متهالكا ، عاجزا عن المشي ، بشكل طبيعي ، في حين عمدت زوجته الى الشياه ، التي تصل الى ثلاثين شاة ، غير ما ضاع منها ، تعيد تجميعها بعد ان توزعت بين الاحقاف ، اثر الضجيج والمشاعل والجمهور ، وتدفع بها امامها في طريق العودة ، وقد وجدوا اثناء عودتهم اكثر من زمزمية ماء كانت العاصفة قد طوحت بها واكثر من غطاء راس واكثر من عمامة امسكت بها اشجار السدر ، وكانوا يلهجون بالثناء على سالمة لانها هي التي اصرت على المجيء بحثا عن زوجها في حين كان رأي الاخرين انتظاره حتى يعود ، وهو بالتأكيد لم يكن ليعود وسط هذه الظروف التي وجدوها تحيط به ، وحصار العاصفة الذي قتل بعض شياهه قبل ان يسلمه لحصار الذئاب التي كانت عازمة على افتراسه هو وقطيع اغنامه .

في صباح اليوم التالي للعاصفة ، لم يذهب احد من اهل النجع الى الشعبة ، مؤجلين الذهاب لجمع الحلفاء الى ما بعد الظهيرة ، فقد كانوا منهكين بسبب مقاومتهم لعاصفة الامس ، التي تلاها ذهاب بعضهم لانقاذ منصور والسهر معه بعض الوقت ، علاوة على ان كل شيء اصبح مردوما بالرملة ، ولم تكن نباتات الحلفاء استثناء من عملية الردم ، فلا بأس من اعطاء مهلة للطبيعة تستعيد اثناءها توازنها ، وتقوم بارجاع الامور التي اربكتها العاصفة الى ما كانت عليه قبل انطلاقها ، مع علمهم بان الامر سيحتاج الى جهد اضافي منهم لازالة الاتربة من فوق سيقان الحلفاء قبل ان يتمكنوا من اقتلاعها ، ولذلك هم يؤجلون ذهابهم لاداء هذا الواجب الثقيل ، قدر ما يستطيعون ، الا ان شيئا اثار فضول اهل النجع ، حدث اثناء هذا الصباح الاستثنائي الذي جعلوه عطلة اختيارية ، هو ان الاطفال وقد اخذ وا جميعهم عطلة مع الكبار ، بمن فيهم الاطفال الذين عهد بهم اهلهم للفقي عمار يعلمهم القرآن ، انطلقوا يرقصون في دوائر ويغنون اغنية عن انجيليكا تجعلها

مسئولة عن العاصفة وهجوم الذئاب في مزج جميل مع وصف
محاسنها حيث تقول الاغنية

انجيليكا يا محلاها
في القلب غلاها
يسلم فم اللي سماها
يا محلى بسمتها ونظرتها
ويا مبهى ضفيرتها يا ما ابهاها
ويا سعد سعود اللى اصبح راقد بحداها
وامبارك هالزين اللي ربي عطاها
لكن ليش عليها جابت
ريح القبلي لديرتنا
وليش عليها بسحر العين السودة هلكتنا وقتلتنا
وضباعة وذيابة في جيرتنا
يعووا طول الليل علينا
انجيليكا يا محلاها ، يا مبهاها
يا زين النجمة في سماها
يسلم فم اللي سماها

لكن ليش عليها ليش

وعبثا حاول الاباء ايقاف الاولاد والبنات عن قول الاغنية ، فقد كانوا يهربون من مكان الى آخر ، يصنعون حلقة راقصة من جديد ، ويواصلون الغناء والتصفيق والرقص ، وابدى بعض الكبار محاولات لمعرفة مصدر الاغنية ، فسألوا الاطفال عن ذلك ، وكان جواب اي طفل ، هو الاشارة الى طفل آخر بانه نقل له الاغنية ، دون ان يهتدي احد منهم لمعرفة المؤلف الحقيقي لكلمات الاغنية .

ذهب الاومباشي جبران يتجول قبل ساعة الغذاء عند مباني الوكالة ، فوجد صاحبه باتايوتي حائرا لا يدري سببا لظهور هذه الاغنية ولا يكاد يعرف معناها رغم انه لم يكن مرتاحا لكلماتها ، فتوسل لصاحبه ان يشرح له ما تعنيه ، فقال الاومباشي

ـ الكلمات كلها جميلة ، تشيد بجمال انجيليكا وتبارك هذا الجمال ، وتحيي من اطلق عليها هذا الاسم الجميل .

ـ طبعا اسم جميل ، معناه ملاك ، او ملانكي ، شيء له علاقة بملانكة السماء ، فهل تراه عرفوا معناه ؟

ـ للاسم ايضا رنين جميل ، فهم ان لم يفهموا المعني عرفوا جمال الشكل.

ـ نعم هناك كلام جميل ورد في الاغنية ، وكلا م اخر ليس جميلا ، اليس كذلك ؟

ـ نسبة قليلة جدا ، من الكلمات الغريبة ، وهي ايضا دخيلة على بقية الكلام الجميل ، اذا ما معنى ان تقول لماذا جاءت انجيليكا بالعاصفة ؟

ـ هذا كلام غير جيد اومباشي جبران ، كلام وراءه مشاعر حقد وكراهية .

ـ لا لا ليس كذلك ابدا يا سيد بانايوتي ، كان ما تريده الاغنية هو ان تحمي انجيليكا بهذا الحضور الملانكي ، الوكالة من الشرور ، وتصونها وتحفظها من العاصفة والذناب .

ـ اريد ان اصدق ما تقول ، لانني لا اريد ان يكون هذا الكلام مقدمة لشيء آخر اكثر سوءا .

ـ لن يكون الا الخير يا بانايوتي ، لن يكون الا الخير .

جاءهما الفونسو يقول ان العاصفة منعت البارحة السيارة بمقطورتها من المروق عبر الطريق الذي يمر بالشعبة ، ووجدت اليوم صعوبة في ان تتحرك بسبب اكداس الرمال التي غطت الطريق ، وساله بانايوتي كيف استطاع ان يعرف هذه الاخبار ، فاشار الى رجل كان يقف امام البسكولة ، قائلا انه احد العمال ، سرى منذ الفجر ، وجاء على اقدامه ليبلغهم ذلك ، وان السيارة ستتأخر ربما ليومين قادمين ، الى حين وصول الة جرف تزيح الرمال والاتربة من الطريق وطمأنه بان دورية من الشرطة عائدة الى مزده تكفلت بنقل الرسالة الى الشركة في طرابلس ، وظهرت على وجه بانايوتي تلك العقدة بين الحاجبين ، ورأى صاحبه الاومباشي ذلك فقال متسائلا

ـ هل حقا ازعجك هذا الخبر؟

ـ نعم ، ازعجني ، لان معنى ذلك عطالة وبطالة للوكلة وفلوس تخرج دون ان يقابلها فلوس تدخل .

واقترب غناء الاطفال ، وهم يلعبون ويتقافزون ويعقدون حلقاتهم الراقصة ويفضونها وهم يواصلون الغناء ، فخرج لهم الاومباشي يطردهم ويسوق بعضهم امامه الى خيمة الجامع ليسال الفقي عمار ان يعقد لهم حلقة تعليم القران ، وعاد الى خيمته ليقود اهل بيته الى الشعبة فقد حان وقت استئناف العمل ، وكان عارفا ان المهمة هذا اليوم ستقتصر على رفع التراب عن نباتات الحلفاء وان المحصول الذين سيعودون به سيكون ضينلا ، الا انها مهمة لابد من القيام بها ، وسارت من حوله وخلفه بقية عائلات النجع ، في شيء من الكسل والاجهاد والنفور من المهمة على عكس مشاويرهم السابقة التي تبدا مع شروق الشمس ، الا انهم وككل يوم مع اقتراب الشمس من محطة الغروب باشروا عودتهم بما توفر لهم من محصول ضنيل وكان الاومباشي قلقا على حالة صاحبه باناتيوتي الذي تركه في كدر وضيق ، فاستانف حديثه معه فور عودته من الشعبة وانتهائه من اداء صلاة المغرب .

ـ احس بان الامور تسير في طريق لا يبعث على الرضا .

هكذا تكلم بانايوتي وهو ينقل لصاحبه بعض يا يدور في راسه من افكار كانها قطع من سحب سوداء ، وواصل كلامه قائلا

ـ تعلم يا اومباشي جبران كيف جئت الى هذا المكان مليئا بالحماس والامل في ان اقوم بتاسيس مدينة جديدة ، ولكنني مع هذه الاحداث ، اشعر بكثير من الاحباط ، وهاهي اغنية كهذه يغنيها اطفال دون العاشرة ، تبعث في نفسي احساسا مؤلما بالغربة .

رد صاحبه محاولا ان يعيد شيئا من الوهج يذيب سحب الاسى في نفس بانايوتي :

ـ لا تقل هذا الكلام يا بانايوتي ، لتكن هناك عقبات ، وليكن هناك بعض سوء الفهم ، واحيانا بعض الالم ، فالطريق الى النجاح ، ليس دائما مفروشا بالورود ، كما يقول التعبير الشهير ، المهم ان الوكالة قائمة ، وناجحة ، وبدأت صغيرة ، ثم صارت كبيرة ،واستقطبت اناسا كثيرين ، وهي تقوم على مورد لا ينفد ، فلماذا الاسى والحزن .

ـ انني اتكلم معك تعبيرا عما احس به ، لا اكثر ولا اقل .

ـ سيتغير هذا الاحساس عندما تنظر الى نصف الكاس الملآن وليس الى نصفه الفارغ.

ـ شكرا لانك ذكرتني بما اريد ، الكأس الملآن ، نعم ، هذا ما احتاج اليه الان ، سأملا كاسا من الاوزو ، اشربه واريح به اعصابي قليلا فارجو الاذن .

ـ اذنك معك .

ينهض بانايوتي من مكان جلستهما في البراح المقابل لخيمة المقهى ، فيدخل المقهى ، ويمضى الى ما وراء الطارمة ، وبدون ان يسأل عامل المقهى ان يقدم له شرابا ، سحب الزجاجة من مكانها وسكب في الكاس مقدارا صغيرا منها ، اضاف له الماء فتحول السائل الذي له لون الماء ، الى سائل شديد البياض كاللبن ، وعاد بكاسه يواصل الجلوس بجوار صاحبه قائلا

ـ ليس معنى كلامي انني ساقفل الوكالة واترك هذا الخلاء يعود خلاء كما كان ، انني مستمر في البقاء ، لان هنا توجد لقمة عيشي ، وليس بامكان الانسان ان يخوض في مجال العمل مغامرة جديدة كل يوم او كل عام .

ـ ان شاء الله سيطول بك العمر حتى ترى جناين العرعار وقد صارت مدينة وسيعترف الناس بفضل مؤسسها وسيطلقون عليها اسمه كما تنبأت انت ذات .

ـ هل لا تزال تذكر ذلك ، كلام قلناه في البداية وجدوة الامل لا تزال تشتعل.

ـ وهي لن تنطفي ابدا باذن الله .

ـ لا تنسى انك شريك في تاسيس هذا المكان ،فقد كنت اول من جاء بمواطنين يعمرونه .

ـ وهل كنت ساضع قدمي هنا لولا الوكالة ، فانت بهذه الوكالة انقذت جزءا كبيرا من شعب الصحراء من غائلة الجوع

ـ انت يا سيد جبران ، تتكلم بدافع المودة .

ـ نعم وهي مودة لا تتناقض مع الحقيقة ، ادام الله المعروف .

كان قد تخلف عن جلسة اليوم بقية اعضاء الحلقة التي تنعقد حول بانايوتي بسبب انشغالهم بمعالجة اثار العاصفة او نتيجة الانهاك الذي لم ينج منه احد من اهل النجع ، وجاء من خيمة المسجد صوت الموذن يرفع عقيرته باذان العشاء فاستاذن

الامباشي للذهاب للصلاة تاركا باناپوتي مع كاسه، ومتبرما من بقائه وحيدا وسط الضجيج الذي يصنعه رواد المقهى من شباب النجع ، حمل الكأس في يده وغادر دائرة الضوء التي تصنعها مصابيح الوكالة ، ودخل دائرة القمر ونورها غير المشوب بالانوار الصناعية، ومضى يغوص وحيدا في العتمة المضيئة ، تلفح وجهه انفاس الليل المحملة برائحة اشجار العرعار ، ويغمره الضياء الشاحب الشفيف الذي ينعكس باصفرار لونه على بعض الاشجار ونبتات العجرم القريبة، وتظهر له انعكاسات على صخور الصوان في قمم الوهاد البعيدة ، تثير في نفسه تلك الالفة التي احس بها مع المكان عندما بدأ يبني وكالته ويهيء بيته ويتخذ جنائن العرعار موطنا له ومحلا لاقامة تستمر طويلا كما كان يأمل ، نعم انها لا تزال مكانا لاقامته واقامة اسرته ، ولكن احساسا يراوده في هذه اللحظات ، ان هذا المكان الذي ظنه مكانا لاقامة طويلة ربما دائمة، لم يعد يراه كذلك ، وانما هو مكان طاريء ، عارض ، في حياته، وان حاله ، كما بدا له على ضوء ما شعشع في راسه من سائل الاوزو، لا يختلف عن حال من ياتي

ليغرس شجرة في بينة ومناخ وتربة لا تصلح لها، نعم هنا ارض تنبت الرتم والسدر والاثل والعرعار ، كما تنبت الشيح والحلفاء والقزاح والحنظل والحرمل والثقفت والحنظل والرمث والقندول بازهاره الصفراء، وهي نباتات بعلية برية فطرية تعلم اسماءها وتعرف على خصائصها واستخداماتها رغبة في ان يتواءم مع البيئة التي انتجتها ، كما جرب بنفسه غرس اشجار فاكهة مثل النخل والتين وايضا الزيتون لانها اشجار تنتمي لهذه الارض وهذا المناخ وهذه التربة ، الا انه لا يمكن لنفس هذه الارض ان تنبت اشجار المناخ الاستواني ، ويبدو ان البشر هم ايضا مثل هذه الاشجار لديهم مناخ وتربة وبينة تصلح لهم دون غيرها . توغل في الخلاء ينشد الطمأنية والسلام الداخلي ، متأملا المشهد الطبيعي الذي يحيط به ، مفعما بالعتمة ، التي يتخللها ضوء القمر ومن قاوم البقاء معها من نجوم ، محاولا ان يجد في هذا التامل شينا من الاستغراق ينسيه هموم النهار التي ظلت تلح على ذهنه ، وعندما وصل في مسيره الى منطقة قريبة من سفوح الهضاب ، بعيدا عن الوكالة ومصابيحها التي لم تعد موجودة في افق

الرؤيا ، طوح بالكاس الذي كان يحمله فارغا ، فارتفع غائبا في الظلام ثم سقط شظايا فوق جزء من الارض الصخرية عند قدم الجبل ، تصنع التماعات تحت مسقط النور الباهث القادم من قبة الكون ، احس بشيء من الراحة والسكينة واقفل راجعا ، موقنا انه سيمضي في فراشه ليلة خالية من الارق ، الا انه قبل ان ينام ، صادفة في ردهة البيت المكتب الخشبي الصغير الذي يجلس اليه عند قراءة الانجيل او القيام ببعض العمل المكتبي الذي يعود به من الوكالة الى البيت فجلس عليه ، وفتح بمفتاح كان معه اخر درج في المكتب يحتفظ فيه بكراس له غلاف جلدي اسود ، يحرر فيه خواطره ، وتناول القلم وكتب:

شيء من النشوة احسست به وانا اقذف بالكاس الفارغ واسمع صوت تهشمه على الصخور ، وارى شظاياه الزجاجية وقد انعكس عليها نور النجوم فتتحول هي ايضا الى ما يشبه النجوم الصغيرة المرمية فوق الارض ، فكيف لفعل تافه مثل هذا الفعل ان يحدث هذا التأثير في نفس انسان مثلي كان للحظات يشعر بثقل الهموم كانه حمل يكاد يعيقه عن الحركة ،

الى حد انني متثاقلا نهضت من مجلسي احمل الكاس في يدي وكانه ليس كأسا وانما صخرة اثقل من صخرة سيزيف ، ثم اشعر بعد هذا الدخول في الخلاء ، انني اعود خفيفا كانني صرت كائنا من شعاع

هل هي تفاهة الهموم التي نحملها ونظن ان لها ثقل الجبال فتذوب لاتفه سبب مثل عدة جرعات من الاوزو ، وبضع خطوات تحت نور القمر ، والعبث بكاس فارغ ورميه فوق الصخور ، ام التفاهة ليست في الهموم وثقلها او خفتها وانما خفة عقل الانسان وتحولاته دون اسباب واضحة بين مناطق الضوء والظلام ومشاعر الاسى والبهجة ، بما يعني انه في كلا الحالتين انما هو خاضع لاوهام ، فلا حزنه حقيقي ولا فرحه حقيقي وانما هي تهويمات وتصورات مصدرها الضعف الانساني وهشاشة هذا الكائن المخدوع في نفسه الذي يظن انه اقوى الكائنات . يجب ان اضع هذا الامر في اعتباري فلا اسعى لتهويل ما اشعر به من حزن ولا تهويل ما اشعر به من بهجة ولا اركن او اثق في اي افكار اظن ان لها شيئا من الثبات والرسوخ لان قلوبنا قائمة على التحول والتقلب وما

نظنه الان شيئا ثابتا تبوت الحقائق الازلية في الحياة اذا به يصبح في تحوله اشبه بريشة تعبث بها الريح ، انه شيء فيما اري يتصل بباطل الشأن البشري في هذه الدنيا .

تدبرت وانا اسير متوحدا مع نفسي ما قاله لي الاومباشي جبران، واراه يعرف في كثير من اشياء هذه البلاد اكثر مما اعرفه ، ولديه نظرة للامور اكثر صفاء من كثيرين غيره ، وربما اكثر صفاء من نظرتي لها ، لانني اجلب معي الى هذه الارض كثيرا من الافكار والمعارف التي يمكن ان تفيض بالوانها على رؤيتي للامور ، بينما هو يستطيع بطبيعة الرجل البدوي وخبرته العملية وعدم توغله في الافكار والتجريد ، ان يراها على حقيقتها ، ولهذا فان من المهم استشارته فيما تشوبه الفوضى من امور في هذه الوكالة للاهتداء بالبوصلة الفطرية الموجودة داخل رأسه .

انتظم قدوم الشاحنات بعد ان قامت الجرافة بازالة الاتربة والرمال من الطريق ، كما انتظم العمل داخل الوكالة بعد حالة الارتباك الناتجة عن العاصفة ، واجتهد اهل النجع في تخليص نباتات الحلفاء من اكوام الاتربة والرمال التي ردمتها واحاطت بها ، وعادوا الى جمعها بذات الكميات السابقة ، وجلبها قبل الغروب الى المربع الفضي ، لوزنها واستلام كوبونات الثمن من الفونسو ، والذهاب بها الى الحانوت حيث كانت كاتيا وابنتها انجيليكا تقومان على خدمة الزبائن ، ورغم ان الاومباشي طرد الاطفال واسلمهم الى معلمهم الفقي عمار ، الا انه ما ان جاء المساء والتقى الاطفال الذين انهوا حصتهم الدراسية في المسجد ، بالاطفال الاكبر سنا العائدين مع عائلاتهم من الشعبة ، حتى ملأت حلقات الرقص والغناء النجع منتقلين بها نحو ابنية الوكالة ، وجاءت هذه المرة مصحوبة بآلة المقرونة يعزفها عاشور ، يغريه بعض الصبيان بعزفها مقابل قطعة معدنية من النقود ، او ببعض مكعبات الكعك

وحلقاته التي تصنعها بعض نساء النجع ، فيسحب مزماره ويأتي معهم ، وتصادف ان شاهدوا انجيليكا تقطع الطريق بين البيت والحانوت الموجود في ظهر البيت ، فجاءوا يرقصون حولها ويغنون لها ذات الاغنية ، فتخلصت منهم بسرعة ودخلت لتلحق بامها في الحانوت ، وقد صفقت بابه خلفها بقوة مظهرة غضبها مما يحدث لها ولكي تقطع عليهم فرصة ملاحقتها بالداخل ، وسمع غناءهم الاومباشي ، وهو في طريقه للوكالة بعد ان اكمل صلاة المغرب ، ورآهم وهم يضايقون انجيليكا ، فجاء مسرعا يصرخ في عاشور ان يتوقف عن العزف ، ماشيا كالاهبل وراء الصبيان ، ويسأل الاطفال ان يتوقفوا عن قول الاغنية وان يعودوا الى بيوتهم ويهددهم بالضرب ان استمروا في اللعب وغناء الاغنية ، فتفرقوا واختفوا واوقف عاشور يلومه قائلا

ــ ما هذا الذي تفعله يا عاشور ، هؤلاء اطفال لا عقول لهم ، ولكنك رجل له عقل ، فكيف تفعل ما يجب ان تنهاهم عن فعله .

ادرك الاومباشي ان عاشور لم يكن واعيا بفحوى الاغنية ، فاعاد عليه بعض كلماتها ، التي رآها لا تليق بان تقال في حق اية امرأة ، فمالك بامراة تنتمي لبيت صاحبهم ورب نعمتهم بانايوتي ، فوعده عاشور ، الا يعاود عزفها مع الاطفال ، الا ان الامباشي لم يكن ليكتفي بهذا الوعد ، وانما طلب منه ان يقدم للاطفال اغنيات جديدة ، من التراث الشعبي ، تنسيهم هذه الاغنية فلا يعودون لقولها ، وبدوره سيسال اباء هولاء الاطفال اثناء لقانه بهم في المسجد منع اطفالهم ذكر هذه الاغنية التي يستاء منها بانايوتي واسرته ، وذهب يبحث عند مكتب الوكالة عن صاحبها لانعقاد الحلقة التي سيحضرها بقية رفاق السهرة ، وعندما وجده عاكفا على مراجعة دفاتره ، اكتفى بان القى عليه التحية ، واقفل راجعا مؤجلا الجلوس معه الى ما بعد انتهانه من عمله ، فناداه بانايوتي يستبقيه قائلا انه اكمل عمله ، وطوى سجلاته وخرج يسحب باب المكتب خلفه ، وقبل ان يبدأ الاثنان اولى خطواتها بعيدا عن باب المكتب استعدادا لانعقاد جلسة الاصدقاء ، سمعا صراخ انجيليكا قادما من الحانوت ، ثم خرجت هاربة باتجاه البيت

امام زوجها الفونسو الذي خرج خلفها يتبعها ويلاحقها بسيل من الكلمات الغاضبة ، ينطقها بلغته الايطالية ، فيما بدا واضحا انه سباب لم يكن صعبا عليهما فهم بعض كلماته ، فهرعا يحولان دونه ودون الوصول الى زوجته لكي لا يشتبك معها في عراك بالايدي لانها هي ايضا التقطت غصن شجرة يابس قبضت عليه بقوة ورفعت به يدها استعدادا للدفاع عن نفسها ، وقد وقفت قريبا من باب بيتها تلفها العتمة ، وهي تجهش بالبكاء ، في حين صاح بانايوتي بالفونسو غاضبا:

ـ ما الذي حدث يا الفونسو ، ما السبب الذي يجعلك تشتمها وتحاول ضربها .

ـ ارجوك يا اونكل بانايوتي ان تسألها هي اولا ؟

فتدخل الاومباشي جبران قائلا :

ـ لا تحول المسألة الى لغز ، قل لوالدها ماذا حدث قصرا للشر.

ـ اردته ان يسمع منها ما الذي ستقوله عن المسخرة التي حدثث ، وهي راضية بان يأتي عاشور يسوقه الاطفال ، يرددون لها الاغنيات التي تهينها وهي ترقص بينهم .

سأله بانايوتي والغضب يلون صوته :

ـ هل رأيت ذلك بنفسك ؟

ـ نعم

وهنا تقدم الاومباشي بشهادته قائلا :

ـ لا تخطيء يا الفونسو ، ولا تظلم زوجتك ، لقد كنت انا موجودا ، ورأيتها عندما تصادف خروجها من البيت ووصول الاطفال الى هنا ، وقد داروا حولها ، فتخلصت هي منهم وذهبت مسرعة الى الحانوت ، واشهد بالله ان هذا ما رأيته بهذين العينين اللذين سيأكلهما الدود والتراب .

ـ ومن تراه يعلم ما دار بينهما وبين الشبان الثلاثة الذين دخلوا الى الحانوت ؟

قبل ان تواصل النقاش ، صاح بانايوتي بابنته ان تدخل البيت فتجاوزت عتبة بيتها ودخلت بيت اهلها ، ورأى الام قادمة من الحانوت ، فخشى ان تضيف اشتعالا للمشهد المشتعل ، ولهذا سألها ان تقفل الحانوت وتلحق بابنتها في البيت ، وتترك له معالجة الموقف ، وطلب من كل من الفونسو والامباشي ان يأتيا معه بعيدا عن مناطق الضوء وقد رأى

بعض الاطياف قادمة من ناحية النجع ، حزر ان من بينهم اعضاء الجلسة الثلاثة الباقين الا ان هناك غيرهم ممن اثار فضولهم المشهد الذي يحدث امام الدكان ، فآثر ان يبتعد بهذه المناقشة عن الجميع ، وفعلا اسرع بالدخول في المناطق المعتمة يتبعه الاثنان ، ومضى يوسع الخطا ولم يتوقف الا عندما وصل الى مكان بعيد عن احتمال ان يلحق به احد من اهل النجع ، وعاود الحديث متجها بالخطاب الى الفونسو

ـ كنت تقول ان ثلاثة شبان دخلوا الحانوت ، ثم ماذا ؟

ـ اتساءل عما يمكن ان يكون قد حدث بينهم وبين انجيليكا داخل الحانوت؟

وبغضب وحدة قال الاب

ـ هل رايت شينا يحدث داخل الحانوت ؟ هل كنت هناك؟ انها ليست زوجتك وحدها ، وانما زوجتي انا ايضا ، بالاضافة الى ان التي تتحدث عنها ابنتي ، فقل بصراحة ماذا رأيت ؟

ـ لم اكن هناك، ولا اعرف ماذا حدث ، ولكن كلام الاغنية يكون دافعا لمثل هؤلاء الشبان في الاجتراء على انجيليكا ،

يكفي ان يعاود احدهم كلمات الاغنية امامها ليحدث الضرر ، لقد سقط رداء الحياء والعفة .

ـ لا تتحدث عن شيء لم يحدث كأنه حدث ، فهذا دكان يدار بهذه الطريقة، منذ زمن طويل قبل ان تاتي انت الى هذا المكان ، فلا تخترع اشياء لا احتمال لحدوثها .

وتدخل الاومباشي قائلا :

ـ لا تصنع يا الفونسو من الحبة قبة ، تدمر بها حياتك الزوجية وهي لا زالت في بدايتها .

واضاف بانايوتي معاتبا :

ـ تريد ان تصنع لنفسك فضيحة من لاشيء .

ـ عاهدنا انك لن تعود ابدا لهذا السلوك ، ابدا ، ابدا ، لكي اسعى مع والدها لارضانها ، شرط ان تأتي وتعتذر لها بعد الاعتذار لوالدها .

وفي شيء من الارتباك والاحساس بالاثم ، قال الفونسو

ـ اعرف انني عصبي ، وهم يسمونني في البيت ، الفونسو الاحمق ، ولهذا فارجو وان تسامحني ايها الاونكل بانايوتي ، وان تعطني رأسك لاقبلها .

عاد الثلاثة الى خيمة المقهى ، وكان بقية زملاء السهرة قد اقفلوا راجعين الى خيامهم ، بعد ان احسوا بان الجو لم يكن ملائما للسهر ، وجلس الثلاثة الى طاولة من تلك المتناثرة خارج الخيمة ، بعيدا عن الشبان الذين يلعبون الورق ، وبعد برهة قصيرة، استاذن بانايوتي في تفقد امر العائلة ، وعاد يطلب من الاومباشي ان يأتي معه ليحاول ان يقنع معه انجيليكا بالعودة الى بيت زوجها ، الا انها ابت ان تعود ، واستمرت في بكائها مصرة على موقفها الرافض للصلح .

واتفق الاثنان على ان يتركاها الليلة لتنام مع امها التي ستعمل على تهدئتها وستكون في الغد اكثر قبولا لمبدأ التصالح ، وخرجا الى الفونسو يبلغانه بقرارهما بان يتركها الليلة حتى تهدأ وينتهي غضبها ، وقد اتضح انه فعلا مد يده عليها في عتبة الحانوت ، الامر الذي لم يكن الاب والامباشي قد عرفا به الا متأخرا ، وهو ما اسهم في اضرام غضبها لانها لم تكن تتوقع ان يفعل الفونسو معها ذلك ، وسبب لها صدمة لم يكن سهلا ان تتجاوزها.

انسحبا الى ركن خارج دائرة الضوء يسحبان معهما كرسيين يجلسان اليهما دون ان يطلبا شيئا من المقهي ، يريدان ان يستفردا بنفسيهما الا ان رجلا ثالثا وجداه يقلدهما في سحب كرسيه وينتقل به اليهما ، واذا به منصور ابو فاس الذي اطلق عليه بانايوتي المواطن الاول ، لانه وجده يسكن جناين العرعار قبل تاسيسه للوكالة ، وطلب الاذن بان ينضم اليهما قائلا انه جاء متاخرا ليشكر صاحب الوكالة على الجهد الذي بدله في انقاذه عندما قاد فريقا من اهل النجع واقتحم الشعاب ليلا يبحث عنه ، فهو مدين له بحياته ، وقد الهته المشاغل في اليومين الماضيين عن المجيء اليه ليشكره ، فقد احتاج للراحة مما حصل له كما انشغل فيما بعد باستكمال ترميم العشة التي يسكنها ، وراى اليوم انه لن يستطيع ان يتأخر اكثر من ذلك في تقديم واجب الشكر للرجل الذي يعود له الفضل في انقاذ حياته ، لانه لم يكن ليستطيع ان يواصل المقاومة لو لم تصل النجدة في موعدها ، فرد بانايوتي يشكره على مشاعره ويقول انه لم يقم الا بالواجب ازاء الرجل الذي راد هذه الارض قبل الجميع ، وسبقهم بتاسيس مكان لاقامته

الدائمة ، وهي المنطقة التي كان يخشى الجميع دخولها والبقاء فيها ، وتخلوا عنها للغيلان والاشباح ، فجاء هو يطرد منها الغيلان ويثبت انها مكان لاقامة البشر ومورد رزق لحياتهم فكان المثل والقدوة الذي احتذى به كل من جاء بعده ، وانتهز بانايوتي هذه الفرصة قائلا بانه كان يتحين الفرصة ليسأله عما كان موجودا قبل وجود الوكالة ومجيء اهل النجع ، وهل كان حقا يتصور هذا الخلاء الذي تحيط به الجبال مكانا لاقامة مثل هذا العدد من البشر ، فقال بانه لا يستطيع ان يقول بانه لم يكن خائفا في البداية من مخزون الخرافات والاشاعات التي تتحدث عن الاشباح وصراخ الاموات ، وانه كثيرا ما تهيأ له انه سمع مثل هذه الاصوات خاصة عندما يشتد عصف الريح وكان يطمئن نفسه بانها اصوات تصنعها الريح حتى لو جاءت في شكل نواح وعويل كما تحكي الخرافات لاناس يحاصرهم الحريق ، ولعله راي ظلالا تعدو ليلا على ضوء القمر ولكنه ايضا كان يفسرها بانها ظلال لثعلب يركض او ارنب يفر مذعورا حتى لو كان الظل بحجم رجل لان ضوء القمر يمكن ان يجعل الظلال كبيرة وطويلة في بداية اطلالته

من خلف الوهاد ، وهكذا كان يطرد مخاوفه ، ويرفض احيانا تصديق ما يراه ببصره وما يسمعه باذنيه لكي يستطيع الاستمرار في الحياة في هذا المكان ، لانه كان دائما يجد الافضل لرعي الشياه ، كما انه لم يقترب ابدا من البئر التي يسمونها البئر الملعونة او بئر الغولة التي يقال انها المسئولة عن قتل اناس سقطوا في عمقها السحيق ، بل رفض ان يلبي فضوله لرؤية شكلها واسقطها من حسابه نهائيا ، وطبعا ازداد الونس وتضاءل الخوف بزواجه من سالمة وموافقتها على الحياة معه وسط حلقة الجبال ، وكانت فرحته كبيرة عندما تاسست الوكالة وتوافدت مراحيل العاملين ، لانهم ياتون لعمل لا ينتزع الحشائش من افواه اغنامه ، فهم يبحثون عن مصدر رزق اخر غير مصدر رزقه وطعام شياهه ، وقد استفاد شخصيا من وجود الوكالة فقد صار ما تجمعه زوجته من حلفاء رزقا مضافا الى الرزق الذي يتحصل عليه من رعي الشياه ، مع وجود الحانوت والمقهى ووجود الرفقة وتواصل المواعيد ومجالس الدردشة والحكايات ، فهو يشارك بانايوتي اليقين بان الوكالة هي بداية تاسيس لبلدة جديدة ستستمر

وتكبر وتبقى موجودة بين حواضر القبلة . والح عليه باتايوتي ان يوضح له بصورة افضل ظروف الحياة في جنائن العرعار قبل مجيء الوكالة ، فقال انها لم تكن منطقة مقطوعة او معزولة تماما عن الناس ، لانه كان دائما هناك اناس يأتون ويذهبون ، الا انهم لم يقوموا باختيارها مكانا للبقاء الدائم مثله ، فقد استقر بها لا يغادرها الا في رحلات موقتة منذ تسع سنوات ، سبع سنوات كان وحيدا قبل ان يتزوج من سالمة ، الا انه لم يكن في عزلة فقد كان يلتقي باناس بعضهم رعاة مثله ، التقى بشيوخ من اهل الله جوابون طرقات ، والتقي باهل تجارة وقوافل ، والتقى باهل حكمة من شيوخ البادية ، مثل الذي جاء يتبع اثر ناقة ضائعة ، واستطاع ان يعثر عليها في احدى شعاب جنائن العرعار، وقال انه لم يبحث عنها في اي مكان اخر ، وانما جاء ليجدها في المكان الذي حلم اثناء منامه انه راها موجودة فيها ، وراي فيه رجلا صالحا من اصحاب الرؤيا فساله ان يبارك هذه الشعاب والوهاد خاصة وانه كان رجلا حافظا لكتاب الله فصار يرتل سور القرآن بصوت مرتفع جميل لمدة طويلة ، ثم اخذ ناقته ورجع من

حيث اتى واحس منصور ابو فاس ان المكان صار اكثر امانا فاطمأنت نفسه للاقامة فيه خاصة ان هذا الشيخ كان قد جاء في اول عام من الاعوام التي قضاها في جناين العرعار.

عندما عاد الى البيت كتب بانايوتي في دفتر يومياته السطور التالية:

ربما كنت احمل استعدادا للتعامل مع مشاكل العمل في الوكالة الا ان المشاكل التي تأتي من البيت تكون بالتاكيد اكثر مدعاة للكدر والتعب ، يجب ان تتصالح انجيليكا مع زوجها ، لا استطيع ان انسى انني بذلت جهدا في ايجاد هذا الزوج وجهدا في اقناعه ولا سبيل لان تخسره لان به شيئا من الحماقة ، جاء منصور ابو فاس الى مجلسي بالليل ، شاكرا ما قمت به من عمل لانقاذه ، فكان اشبه بنسمة رطبة في يوم قانظ ، لان للرجل كما يقول الليبيون ملا نكة خفيفة ظريفة ، وكانت فرصة لان اثير فيه شهية الحديث عن ماضي هذه الشعاب ، ربما هناك اشياء تدل على الماضي البعيد ، اما الماضي القريب فهو الشاهد الحي عليه ، وهو حلقة الوصل بين الماضي والحاضر في هذه المنطقة من الارض ، من هنا تكون اهميته

واهمية شهادته ، لا اريد ان استبق الاحداث ولا ان استاء مما يحدث ، فقد علمتني الايام ان آخذها كما تاتي ، وان الغد ليس ملكنا ولكنه ملك الله فلماذا نحمل قلقا من اجله . قناعتي ان انجيليكا يجب ان تعود الى الفونسو ، وهي مهمة ربما تكون الام اقدر من الاب على القيام بها ، ولهذا فسوف اسعى لان تقوم كاتيا بواجبها في هذا السبيل .

وفي اليوم التالي اعتكفت انجيليكا في بيت ابيها ولم تخرج ، رغم ان الفونسو كان يترصد لها ، ليتولى بنفسه التصالح معها ، وتردد على الحانوت يسأل عنها امها ، الا انها نصحته ان يبتعد عن طريقها ، والا يعترضها عند خروجها من البيت ، لانه يمكن ان يحدث مشهد آخر يزيد الامر تعقيدا واستفحالا ، واعدة اياه بانها ستواصل مساعيها لترطيب خاطرها ، راجية منه ان يبقى بعيدا حتى ترسل اليه احدا لكي يأتي وياخذ زوجته بيده ويعيدها الى بيتها . فخرج من الحانوت متجها للعمل في الشاحنة التي كنت تنتظر ان يتخذ مكانه على الكرسي الملازم لالة الرفع ، ترافقه حالته العصبية وهيو يرفع رزم الحلفاء ، لانه كان ناقما على نفسه، نادما

على لحظة الغضب والغيرة التي تملكته دون سبب حقيقي يبررها .

وكان الاومباشي قد نفذ ما عاهد نفسه امام عاشور على القيام به ، فقد تكلم مع اباء الاطفال في المسجد ، طالبا منهم منع اطفالهم من العودة الى ترديد الاغنية التي تسيء الى ولي نعمتهم واسرته ، وبالغ في تصوير النتائج الوخيمة التي قد يحصدها اهل النجع اذا وصل الغضب بصاحب الوكالة حدا يجعله يقفل وكالته ويعود الى سابق عمله بطرابلس ، ويتركهم يواجهون البطالة والعطالة والمجاعة كما كانوا قبل تاسيس الوكالة . ولهذا ماتت الاغنية التي تتحدث عن انجيليكا وحلت مكانها الاغاني التي علمها عاشور للاطفال وصاروا في مساء اليوم التالي يرددونها بحماس ،رغم كلماتها التي لا احد يعرف لها معنى ، وكانت احداها تقول

ـ يا العين بوزعي

بوزعي يا العين

عندما علا عمود الغبار ، ينبيء بدخول سيارة من منعطف الشعبة التي يشقها الطريق الذي يقصد الوكالة ، ذهب في ظن من رأى العمود المشطور الى نصفين انها الشاحنة التي تجر المقطورة ، والمتوقع وصولها هذاالمساء وهي وحدها من يمكن ان يصنع هذين العمودين المتعانقين في عمود واحد ، الا ان العمود الذي واصل زحفه عبر الافق الذي تنعكس فوقه الوان شمس غاربة ذات الوان عسجدية ، لم يسفر عن خروج الشاحنة تتبعها مقطورتها ، وانما عن سيارتين من نوع الجيب ، تمخران بعجلاتهما التراب ، قادمتين باتجاه الوكالة ، وازداد الفضول في اعين الناس ، ونطقت شفاههم بالتساؤل الذي يعبر عن هذا الفضول مستغربين لهذا الاهتمام الحكومي بالوكالة الذي استوجب ظهور سيارتين بدلا من الاكتفاء بسيارة واحدة مهما كان الامر جللا ، وكان بين هؤلاء المترقبين وصول السيارتين ، الفونسو الذي هرع مسرعا الى بانايوتي في مكتبه ، يسأله ان يخرج ليستقبل القادمين قائلا

ـ اونكل بانايوتي ، هيا اترك ما بين يديك واسرع بالخروج ، فلديك ضيوف حكوميون على وشك الوصول .

هم بالتأكيد ضيوف حكوميون ، فلا احد يستخدم مثل هذه السيارات الرصاصية اللون ، الا الحكومة ، وشركة الحلفاء نفسها لم يسبق لها ان ارسلت احدا يركب مثل هذا النوع من السيارات , واذا جاء مندوب منها فهو يأتي راكبا بجوار سائق الشاحنة ، وهكذا خرج بانايوتي ليقف بجوار الفونسو ، ينتظران ان يعرفا ما تحمله السيارتان من ضيوف ، وان ان وقفت اولاهما حتى تقدم منها بانايوتي ، وهو يهمس في اذن الفونسو :

ــ ادعو معي ان يكون السبب خيرا وراء مجيء هذا الرجل .

فتح الراكب الجالس بجوار السائق ، باب السيارة وهبط مرتديا بزته العسكرية ورتبة الرايد فوق كتفيه وفي يده هراوته الشهيرة ، وقد اقترب منه بانايوتي فاتحا احضانه يرحب به ، لاهجا بعبارات الترحيب

ــ اهلا ، اهلا ، سيادة الميجور ، شرفت وكالة بانايوتي .

ـ اهلا بانايوتي ، هل كل شيء على ما يرام ؟

ـ الحمد لله ، نحن نعيش تحت حمايتكم سيادة الميجور ، ولهذا فنحن دائما نشعر بالامان .

واضاف يقدم صهره للرائد السردوك :

ـ تذكر الفونسو ، زوج ابنتي .

ــ طبعا اذكره ، وحضرت عرسه ، ولكنه يرتكب مخالفة في حق المنطقة ، وكان واجبك تنبيهه اليها .

ويخوف سأل بانايوتي

ـ اية مخالفة لا سمح الله ؟

ــ التسجيل . اي انسان اجنبي يخرج من محل اقامته في طرابلس ويأتي ليعيش في بلدية خارجها ، لابد ان يسجل اسمه في سجل المقيمين الاجانب، التابع للبلدية التي انتقل اليها .

نعم ، عليه ان ياتي الى مركز شرطة مزده ويبلغنا بهذا الانتقال . كيف تنسى ان هذا ما فعلته انت واسرتك.

ــ طبعا جئت وسجلت واحضرت معي رخصة الوكالة ، لاكون في حماية امن المنطقة ، اما الفونسو فهو مجرد زائر .

ـ طالما هو هنا ، يقيم ويعمل ، فلا بد من ان نأخذ علما بوجوده ، بشكل رسمي . وواجبه ان يحضر جواز سفره الايطالي ، ويأتي ليسجل اسمه ويملأ النماذج المخصصة لذلك ، مفهوم ؟

ـ مفهوم ، مفهوم ، افندي سردوك .

واثناء هذا الحديث كانت قد وقفت السيارة الثانية وخرج منها خمسة من رجال الشرطة ، فنظر اليهم بانايوتي بارتياب ، سائلا الرائد السردوك :

ـ هل جئت يا افندي بهذه الحملة من اجل الفونسو .

ـ لا طبعا ، ليس من اجله ، وسانتظر كي ياتي لتسجيل نفسه في المركز باسرع وقت ، لقد جئنا من اجل امر آخر . اين انجيليكا ؟

وفي فزع سأله بانايوتي

ـ ماذا تقول؟ هل لانجيليكا علاقة بهذه الحملة ؟

ـ لا ، طبعا لا ، انجيليكا العروس الجميلة ، لا تخرج حملات التفتيش من اجلها ، وانما عساكر التشريفات لتحيتها . لقد سافرت يوم عرسها دون ان اودعها او اهنئها ، فقلت لابد من تدارك هذا الخطأ ، بالاعتذار ، والمبادرة بالتهنئة .

ـ انت رجل ذوق وكرم ، شكرا لك ، دعني استضيف جماعة الحملة على مشروب في المقهى ، ليرتاحوا قليلا من مشقة السفر .

انتقلوا جميعا الى خيمة المقهى . توزعوا على طاولتين وامر لهم باناديوتي بالمشروب ، وجلس بجوار السردوك يريد ان يعرف منه سبب الحملة ، فهمس له بانه يجب ان يخبره بذلك على انفراد ، ولم يكن يشاركهما الجلسة غير الفونسو ، الذي نهض منسحبا قبل ان يسأله باناديوتي ان يفعل ذلك ، وبنفس الصوت الهامس ، مال السردوك على باناديوتي حتى ليكاد ان يلامس رأس الرجل برأسه ، قائلا

ـ بلاغ من طرابلس ، يقول بان رجلا شارك في مهاجمة قافلة جنوب البلاد، هرب من الشرطة الفرنسية هناك وانضم الى وكالة الحلفاء هنا، وهو من قبيلة اولاد عيشة ، اسمر الله، اسمه ابو عوف ، هل لديك فكرة عنه ؟

ـ لا فكرة ابدا ، ولا اعرف احدا باسم ابو عوف .

ـ بالتأكيد جاءكم يحمل اسما مستعارا.

ـ وما العمل ؟

ـ لا نريد القيام باية شوشرة في الوكالة ، لاننا لن نظهر باية نتيجة حتى لو قمنا بالتحقيق مع كل الناس ، واسلم طريقة هي ان نترك مخبرا هنا ، موجود الان معنا ، وجاء يرتدي ملابس

مدنية ، وقد احضرنا له معنا الخيمة والامتعة التي يحتاجها ، سينصب خيمته ، وسيذهب لجمع الحلفاء مع اهل النجع ، وسيقوم هو باسلوبه البوليسي بمهمة التحري والتقصي عن الرجل في تكتم وسريه. اتركه يعمل ، فقط لا تبلغ احدا بانه مخبر.

ـ سرك في بئر يا سيادة الميجور.

وسط سحابة من غبار اكثر كثافة مما سبقه ، وصلت الشاحنة تجر مقطورتها ، حتى وقفت في المربع الفضي ، فاستأذن باتايوتي من الراند السردوك ، دقيقة لاستقبالها ، انتهزها السردوك فرصة ليذهب لتحية انجيليكا في الحانوت ، فهو في الحقيقة لم يات الا من اجل ان يكحل ناظريه برؤية جمالها ، وهذا ما انتهى اليه تفكير الاومباشي وصديقيه الحاج رضوان والفقي عمار ، فقد اثار وجود السيارتين الحكوميتين فضول اهل النجع ، خاصة بحمولتها من العساكر يقودهم السردوك ، وقد رآهم الرجال الذين اجتمعوا لصلاة المغرب فقرر هؤلاء الثلاثة من بينهم، المجيء الى خيمة المقهى لمعرفة ما يحدث ، وعندما اقتربوا ورأوا السردوك يتحرك

باتجاه الحانوت ، عرفوا ان للرجل نواياه المبيتة ازاء انجيليكا وانه جاء ليواصل عملا بدأه منذ ليلة العرس عندما قضى الوقت كله يحملق في وجهها غير قادر على رفع عينيه عنها ، ولان الاومباشي جبران يشعر بنوع من المسئولية ازاء ابنة صديقه، فقد رأى ان يتبع السردوك ويمضى وراءه الى الحانوت ، فاستأذن من رفيقيه ان يفعل ذلك بامل ان يمنع هذا الرجل المشهود له بالقسوة وسوء السلوك ، من ان يتمادى في مضايقة الفتاة وامها ، تاركا اياهما ينضمان الى بانايوتي امام خيمة المقهى ، وعندما دخل وجد السردوك قد مد يده يصافح انجيليكا ، لكنه لم يتركها تسحب يدها من يده ، قبض عليها ، محتفظا بيدها في قبضته ، بحجة انه يستبقيها لكي لا تتركه قبل ان يفرغ من حديثه معها قائلا

ـ انني من اجل عينيك الجميلتين الساحرتين ، وليس من اجل اي شيء اخر غيرهما ، ساصفح عن زوجك واعفيه من دفع الغرامة، شرط ان يسرع بالمجيء الى مزده وتسجيل اسمه كواحد من المقيمين في منطقة القبلة ، تحت رعاية وحماية

الراند صالح السردوك ، وان لم يسرع فلن استطيع ان اغمض عيني عن تنفيذ القانون مدة طويلة ، قولي له ذلك؟

واخيرا افلحت في فك يدها من يده وهي تقول :

ـ ولماذا تقول لي انا هذا الكلام ؟ اذهب وقله لصاحب الشأن .

ـ وهل هناك فرق بينك وبين صاحب الشأن ؟

وهنا تدخلت الام لتقول ببراءة :

ـ انها تقول لك ذلك لانها غاضبة قليلا من زوجها ، وستعود لمراضاته سريعا بعون الله .

ـ ماذا تقولين يا سيدة كاتيا ؟ غاضبة منه ؟ وهل يجرؤ هذا السنكوح على اغضابها ؟ هذا النغل الذي لا يعرف احد من اين جاء ، يغضبها ؟ اليس له عينين وعقل ويد وقلب وانف واذنين ، يرى ويشعر ويسمع ويلمس ويشم بها هذا الجمال الالهي ، فيسبح بحمد الله ليل نهار ، لنعمانه التي انعم بها عليه ، بدل ان يكفر بنعمة ربه ويغضب هذا الجمال ؟

قالت كاتيا وقد فاجأها هذا السيل من الغزل الصريح بابنتها :

ـ لا لا ياسيد سردوك ، الامر ليس كذلك؟ انه موقف بسيط مما يحدث بين اي زوجين في العالم ، فارجوك لا تلوم الفونسو على اثم لم يقترفه .

ـ انني اسمه اكثر من اثم ، انه جريمة ، ولكن لومي لا اتجه به اليه ، ولكن اليكما يا سيدة كاتيا ، انت ووالدها لانكما استعجلتما باعطانها لهذا الرجل الذي لا يصونها ولا يستحقها .

وهنا راى القبطان ان من حقه ان يتدخل ، فاعطى كوبونا لانجيليكا ، لتصرف له قالب صابون وصندوق كبريت ونصف كيلو سكر وخمسين جرام شاي اخضر ومثلها شاي احمر ، وعلبة بسكويت وعلبة مناديل ورقية وتعمد ان يجعل القائمة طويلة ، لكي يعطيها فرصة الانشغال عن الرجل المصوب انتباهه ونظراته لها ، وتدخل يوجه حديثه للسردوك:

ـ شرفت الوكالة يا افندي السردوك ، واتمنى عليك ان تكون محضر خير ، فلا تزيد نار الفتنة اشتعالا بين ابنة بانايوتي وصهره .

ـ قد لا تعلم يا اومباشي جبران انني اعرف باتايوتي قبل ان تعرفه ، واعرف اسرته المؤلفة من زوجته وابنه وابنته ، قبل اي احد آخر في هذه البطاح ، واستطيع ان اقول من منطلق الحرص على مصلحة هذه العائلة ان زواج انجيليكا من الفونسو كان منذ البداية خطأ ، وليتني استطيع اقناع العائلة بتصحيح هذا الخطأ.

ـ وكيف يكون هذا التصحيح برأيك ؟

ـ بتطليقها منه طبعا

ـ فال الله ولا فالك ايها الرائد السردوك ، اتريدها ان تصبح امرأة طالق في اول اسبوع من عرسها؟ لا حول ولا قوة الا بالله .

ـ ليست طالقا وانما طليقة ، حرة ، تختار من ترضى عليه من عشرات بل منات ، بل الاف الرجال الذي يتمنون الفوز بها .

جازف الاومباشي جبران بالقول ساخرا ، وساعيا في ذات الوقت لان يجعل السردوك يكشف اوراقه :

ـ لعلك واحد من هؤلاء الراغبين في الفوز بها .

ـ نعم ، ولم لا ، سيكون شرفا كبيرا وعظيما لي ومصدر سعادة وافتخار ان اصاهر صديقى بانايوتي ، واحفظ واصون شرف وجمال ابنته العزيزة انجيليكا ، سافرش لها الارض ريحانا وورودا ، وساضعها وسط قلبي ، واجعل نفسي خادما مطيعا لجمالها وساجعلها اسعد انسانه في العالم كله ، وساوفر لها الخدم والحشم واجعلها لا تطلب شيئا الا وكان في الحال تحت قدميها .

ــ الا تستحي من قول هذا الكلام وانت رجل متزوج لك اولاد وبنات .

ـ ساطلق امرأتي ، ساطلقها بالثلاثة ، لتذهب الى بيت ابيها هي اطفالها . واطلب منك الا تعود لمثل هذا الكلام لانك تعرف اني استطيع ان اطلق صفارتي لافراد الحملة فيقبضون عليك ويرمونك في زنزانة المركز حتى تأتي زاحفا على قدميك طالب مني العفو .

خرجت مدام كاتيا من خلف الطارمة ، تسحب الاومباشي جبران خارج الحانوت بعد او ضعت في يده كيس الورق الذي

يحمل البضاعة التي طلبها ، قائلة له ان يترك لها معالجة الامر مع الافندي ، وان يخرج لكي لا يتطور الموقف الى عناد ثم يتحول العناد الى عراك بينهما . خرج الاومباشي يطلب من بانايوتي ان يذهب لانقاذ ابنته وزوجته من مماحكات السردوك ، في حين طلب من صديقيه الحاج رضوان والفقي عمار ، ان ينتقلا معه الى مكان غير هذا المكان ، لانه يخشى ان بقى ان يحدث احتكاك جديد بينه وبين السردوك سيكون بالتأكيد اكثر حدة وعنفا من سابقه ، فسايراه وعادا معه الى خيمة الجامع ينتظرون موعد اقامة صلاة العشاء ، وانتقل باناينوتي بسرعة الى الحانوت ، وافلح باللين والسياسة في اقتلاع السردوك من هناك والعودة به الى المقهى ليطلب له مشروبا ويبقى فيه ينتظر عساكره الذين انزلوا خيمة زميلهم من السيارة يبنونها له على اطراف النجع ، فهو رجل اعزب ، ولهذا فان خيمته لا يجب ان تكون داخل حرم المكان الذي يختلط فيه نساء النجع . وكان الحاج رضوان والفقي عمار قد عرفا اثناء جلوسهما مع باناينوتي امام المقهى ، بان السردوك جاء بحثا عن مجرم قال انه شارك في الهجوم على قافلة في الصحراء وهرب من

شرطة فزان الى هذه الوكالة ليختبيء بين اهلها تحت اسم مستعار ، واسر لهما بانايوتي بان السردوك يريد ان يزرع شرطيا سريا في النجع ، بادعاء انه مجرد طالب رزق مثل الاخرين ، ليكشف سر هذا المجرم ، الا ان الاومباشي جبران ، وبسبب معرفته بالسردوك ، رفض ان يصدق هذه الرواية ، قائلا بانه كاذب كاذب ، وانه لن يقبض على احد ، لانه لا وجود لهذا المجرم الذي يقول انه جاء متسللا الى الوكالة ، فلا مجرم غير السردوك نفسه ، فهو امير اللصوص وقطاع الطرق ولا تقوم جريمة الا اذا كان هو مديرها والمستفيد منها ، يقتسم مع مرتكبيها العوائد بالنصف ، مقابل ان يتستر عليهم ، ويعرقل جهود الحكومة في القبض عليهم ، وما حكاية هذا المجرم المزعوم الا ذريعة لكي ياتي الى هذا المكان وينشر الرعب بين اهله في سبيل الضغط على بانايوتي ، وعندما سأله الشيخان عن الحاجة التي يريدها السردوك من باناتيوتي ، ابلغهما بان الرجل افصح صراحة عما يريد ، امام زوجة باناتيوتي وابنته ، فهو غير راض عن زواج انجيليكا بالفونسو ، ويريدها زوجة له ، طالبا من اهلها ، ودون حياء او خجل ،

ان يطلقوها منه ، خاصة بعد ان سمع من الام ان انجيليكا في حالة خصام مع زوجها .

ـ لا حول ولا قوة الا الله .

ضرب الفقي عمار كفا بكف مستغربا لسلوك الرجل الامني ، في حين تساءل الحاج رضوان عن كيف يأمن الفونسو على نفسه ، لانه يستطيع ان يقوم بتلبيسه تهمة تدخله السجن في سبيل ازاحته من الطريق ، وربما يسعى لقتله لانه يعرف صعوبة ان يفارق الزوج زوجته اذا كان كاثوليكيا، فرد عليه الاومباشي قائلا بان السردوك لن يستطيع ان يفعل ذلك ، لان بلاكلي حاكم البلاد اصدر قرارا يحمي به الاجانب من انتقام رجال الشرطة الليبيين ، فقد تكررت الحوادث التي يستخدم فيها رجال الشرطة الليبية سلطتهم في الانتقام من عنصر ايطالي او يهودي سبق ان اساء اليهم او لاحد من اهلهم ، فجعل سلطة القبض والمساءلة لاي عنصر اجنبي مقصورة على اعوانه ونوابه الانجليز ، ولهذا فهو لن يكون قادرا على القبض عليه ، او تلفيق تهمة له، ونائب الوالي في منطقة القبلة وحده من يستطيع ان يفعل ذلك ، اما بالنسبة لشروط

الزواج الكاثوليكي فهي لا تنطبق على زيجة مختلطة مثل هذه خاصة وان اغلب الايطاليين خارج بلادهم يتزوجون زواجا مدنيا لا يخضع لسيطرة القواعد الصارمة للفاتيكان داخل الوطن الام .

رفع الفقي عمار أذان العشاء وتوافد على خيمة الجامع عدد من المصلين ، وفوجيء الحاضرون للصلاة بمجيء الراند صالح السردوك ، يشاركهم صلاة العشاء ، ويبقى لاكمال صلاة الشفع والوتر ، ثم يقدم لهم الشرطي الذي جاء من المركز متنكرا في الملابس المدنية ، باعتباره صديقا جاء يدله على مكان يستطيع ان يلتقط فيه رزقه بامان ، مخفيا مهنته الحقيقية كشرطي ، قائلا بان اسمه رشيد عبد السلام المطري ، من عشيرة المطاري ، التي هي عشيرة ام الراند واخواله ، فهو قريب له يحظهم على الاهتمام به ومعاونته في الاندماج معهم ، مضيفا بان في عنقه عائلة من اليتامي هم عائلة اخ له توفاه الله وترك اطفالا لا عائل لهم الا هذا الاخ ، وعندما نهض ، وقفوا لوداعه ، وان تجنب الاومباشي الحديث معه ، وشيعه بعض المصلين حتى وصل سيارته وامتطاها جالسا بجوار

سائقه ، استعدادا للعودة الى مزده ، وعندما اراد بانايوتي ان يجامله ، داعيا اياه ان يبقى لتناول العشاء وقضاء الليل في الوكالة لدواعي السلامة ، اجابه ضاحكا

ـ واين هو الليل ، وقد ظهر هذا القمر ، زاهيا كامل الاستدارة يحيله الى نهار ؟ اما الدعوة لتناول العشاء فهي مقبولة ولكنها مؤجلة الى يوم قادم باذن الله .

مضى السردوك ناشرا غبار سيارته ، ولحقت به السيارة المرافقة ، تصنع هي الاخرى عمودا من هذا الغبار الذي تقع عليه اشعة القمر ، فيغذو غبارا فوسفوريا له لون فضي. تبادل الناس عبارة " تصبحون على خير"، عائدين الى خيامهم ، الا الاومباشي جبران الذي استبقاه بانايوتي لكي يتحدث معه على انفراد ، فالبدر الكامل يضفي على المكان غلالة ذات جمال وصفاء ، ويصنع جوا يغري بالمشي في هدأة الليل عبر الخلاء الممتد العابق بالسلام والسكينة ،

عب بانايوتي جرعة من النسيم المضمخ بعبق العرعار والشيح ، واصدر تنهيدة عميقة ، قبل ان يقول :

ـ لم يكن ينقصني هذه الليلة الا رجلا في يده السلطة الحكومية مثل السردوك لتكتمل من حولي حلقات الحصار .

ـ لن يستطيع ان يفعل شيئا لك .

ردعليه صديقه الاومباشي ، واكمل كلامه:

ـ هذا اذا واجهتم الموقف متحدين متراصين ، ولكن الامر يختلف اذا ازدادت حدة الخلاف بين الفونسو وزوجته وبالتالي بينكم وبينه ،فسيجد عندند هذا الثعبان صدعا في الجدار يتسلل منه .

ـ الا ترى انه زرع شرطيا من اعوانه السريين بيننا ،بعد ان مهد لذلك بحكاية ان هناك مجرما هاربا يعيش بيننا ، وارى انه جزء من خطة ينوي تنفيذها لم تظهر تفاصيلها بعد ، فما الذي تراه سيفعل بعد ذلك؟

ــ جميل يا سيد بانايوتي انك على وعي كامل بخزعبلاته ، نعم ، هذا ما كنت اقوله ايضا ، فحكاية المجرم الذي يختبيء بيننا مجرد كذب.

ـ نعم ، ولكن الهدف ، ما هو؟

ـ لا يهم ، ليرسم ويخطط ويتآمر كما يشاء ، فسيظل الطريق مسدودا ، لان يده مغلولة بقرار الجنرال بلاكلي ، الذي يمنعه من الاقتراب من عنصر غير ليبي .

ـ قد لا يستطيع القبض على الفونسو ، او استدعاني الى المركز الذي يديره ، ولكنه يستطيع ان يحارب الوكالة .

ـ الوكالة ليست رهن ارادته ، فهي شيء يريده الناس ويحتاجونه ويمثل مصدر رزق لهم ، في وقت اوصدت فيه مصدار الرزق الاخرى ابوابها ، فمن يجرؤ على محاربة الوكالة ، الا اذا كان مجنونا ، يريد جلب سخط وثورة الناس ضده ؟

ـ المهم انني لست مرتاحا لنوايا الرجل .

ـ نعم ، فهومليء بالنوايا الكريهة ، لكن قدرته على الفعل محدودة ، لقد افصح صراحة على انه يريدك ان تطلق له انجيليكا من الفونسو ، لكي يتزوج بها .

ـ اولا ، لا احد يستطيع ان يطلق انجيليكا من الفونسو ، الا الفونسو نفسه، ولو حدث وهو امر بعيد الاحتمال ، فلن

يستطيع ان يتزوج انجيلكيا الا الانسان الذي تريده هي ، فالامر خارج نطاق اختصاصي ، ولن ينال شيئا بالضغط علي.

شاهد الاثنان في البعيد ، طيفان لرجل وامرأة يسيران خلف ظلان طويلان يصنعه لهما البدر المرشوق على حافة الافق ، راجعان الى النجع من منطقة ما في عمق الخلاء ، تابعاهما وهما يواصلان سيرهما حتى وصلا الى حرم الخيام فذهب كل منهما في اتجاه ، دون ان يستطيعا فعل شيء لمعرفة من هما ، ولكنه كان واضحا انهما قادمان من مغامرة غرامية ، هي من بيوت العائلات الزنجية حيث اتجهت الى منطقة الاكواخ، والرجل من ابناء البادية ، حيث اتجه الى خيمة تتوارى خلف بقية الخيام.

– 15 –

عاد بانايوتي الى بيته ليجد ابنته ما تزال موجودة في البيت ، غير راغبة في العودة الى بيت زوجها ، وهو ما زاد من قلقه ، خاصة وان كلمات صاحبه الاومباشي ما زالت تتردد في راسه عن مواجهة السردوك ونواياه الشريرة بموقف موحد صلب داخل العائلة ، لا وجود فيه لشقاق بين ابنته وزوجها . انه برغم ما احس به من سكينة بسبب التطمينات التي وردت في حديث الاومباشي ، ما زال خائفا من الراند الرمادي الشكل الذي تتحدث الصحراء عن مكره وخبثه وقدرته على ممارسة الشر وحبه لارتكابه ، وهو يأسف حقا ويشعر بالاسى لان يجد رجلا مثله يعترض طريقه، مع انه ما ترك المدينة وجاء

يبحث عن العزلة بين الجبال ، الا لانه رجل يؤثر الهدوء والسكينة ويكره الصراعات ، وارتضى بان يتخذ لنفسه مكانا وسط الصحراء هروبا من الوقوع في الصراع الذي يحكم الحياة في المدينة واسواقها ، حتى لو كان هذا الصراع روتينا مألوفا يمليه التنافس بيه اهل المهنة الواحدة ، مما يحدث بين موظفي الشركة، وبين اصحاب الدكاكين ، دون ان ينتج عنه ضرر او ادى لاحد . عافت نفسه كل انواع التنافس والصراعات ، فرحب بفرصة الانسحاب من حياة المدينة القديمة في طرابلس والانتقال باسرته الى الصحراء لتأسيس هذه الوكالة ، راجيا من عمله في هذا الخلاء ،ان يوفر له حياة اقرب الى الرهبنة ، خاصة وانه يجد هنا بيئة لا تختلف كثيرا عن البيئة التي شاهدها تزحم بالرهبان والزاهدين في ضواحي مدينة الاسكندرية اليونانية التي قضى بها طفولته ، فهو قد تهيا له ان وجوده في جناين العرعار محاطا بمربع الجبال ، وسط متاهة الصحراء التي تترامي خلف حلقة الجبال ، شيئا يوقظ في ذهنه ما شاهده وعاينه في طفولته ، في اليونان وما سمع عنه عبر حكايات امه وابيه واعمامه وعماته عما يفعله

رهبان الكنيسة الاورثوذكسية اليونانية في جزيرة كريت وساندوريني ولاوس وقبرص ، حيث يذهب الراهب الى ابعد المناطق الموغلة بين الجبال الجرداء ، ويختار هناك كهفا او تجويفا لا يصله باحد ، او لا يستطيع الوصول اليه الا قلة من ناس ، فيتخذه مكانا لرهبنته ، ولا يشترط في مثل هذا المكان الا وجود شق صغير بين الصخور ترشح منه قطرات من الماء تصلح مصدرا لشرابه ، وقليل من التربة وسط الارض الصخرية الجبلية تصلح لانتاج شيء من العشب القابل للاستهلاك البشري كالخس ، يكون مصدرا لغذائه المتقشف الضنيل الفقير ، يقدم له الحد الادنى الذي يحتاجه للبقاء على قيد الحياة ، هكذا كان يرى اهل المثل والقدوة ، ممن انقضى زمانهم ، ولا سبيل لتقليد اسلوبهم تقليدا كاملا ، ولا يطمح الى ذلك، بل يطمح فقط لامكانية الاقتراب منهم ، والاقتداء بالمعنى الذي يمثلونه ، ويسعون لتجسيده في الحياة ، فلماذا يرمي الله في طريقه رجلا مثل السردوك ، يفرض عليه صراعا لا يريده ولا يحبه، هل يحدث هذا من اجل اختبار قدرته على البقاء والحياة والصبر ، ام تراه امتحان لقوة الايمان بمثل هذا

الابتلاء ، نعم ، انه يخشى الدخول في صراع مع السردوك، ليس لقوة منصبه الامني ، فهو يوافق صاحبه الاومباشي جبران ، على ان هناك حدودا لهذه القوة ، ولكنه يدرك انه لا حدود عند الرجل لفعل الشر ، وهذا ما يخيفه اكثر ، وعندما دخل مختليا بزوجته في غرفة نومهما ، جدها اكثر منه رعبا بسبب ما راته من اسلوب وغثاثة الرجل الذي دخل الحانوت يتحدث بطريقة فاجرة داعرة عن رغبته في الزواج من ابنتها ، وهي المرأة التي لم تمض غير بضعة ايام على زفافها ، فيتكلم في حضورها ، مخاطبا امها ، طالبا يدها ، ورات ان من يفعل مثل هذا الفعل ، ويقول مثل هذا الكلام ، لا يمكن الا ان يكون انسانا مجبولا على الخسة والنذالة وارتكاب الشرور ، ولا يتورع عن ارتكاب اية جريمة في سبيل الوصول الى اهدافه . افصحت لزوجها عما يراودها من هواجس ومخاوف ازاء الرجل ، فطمأنها الى انه سيعرف كيف يعالج الموقف ، ولا يجب ان تشغل نفسها بأمره ، كل ما يريده منها هو ان تسرع باقناع ابنتها بان تعود الى بيت زوجها ، لان خصامها معه ، ستكون نقطة ضعف في صف العائلة ولن يزيد الامور

الا تعقيدا خاصة مع وجود رجل مثل السردوك ، قادر على استغلال موقف كهذا لصالح الخطط التي يرسمها ، في حين ان واجبهم ان يسدوا في وجهه كل الابواب والشقوف التي يمكن ان يتسلل منها لخدمة اغراضه .

دعاها في ختام حديثه معها ان تنام هانئة البال والا تشغل نفسها بمثل هذه المسائل التي تتعلق بمواجهة الرجال مع الرجال ، الا انها لم تهنأ في نومها ، وانما بقيت مسهدة تفكر في طريقة تسهم بها في افساد خطط السردوك ، ولم يكن في ذهنها قوة يمكن الاستقواء بها عليه غير اليسوع المخلص ، وعمدت في الصباح الى الذهاب الى ركن العبادة تتوسل بعيون باكية ان يعينها الرب على مواجهة الموقف الذي يتّهدد اسرتها وان يحمي بيتها من الشرور التي تحيط به ، والمتمثلة في هذا الضابط الذي زار الوكالة بالامس وما جاهر به من نية مبيتة لافساد الحياة الزوجية لابنتها، ثم رأت الا تكتفي بالتوسل والدعاء، وان تمضي خطوة اخرى باتجاه استنفار القوى الروحية ذات الاسرار الالهية والاستعانة بها في تحصين بيتّها ورد كيد الكاندين عن اسرتها وابنتها ، ومن اجل هذا الغرض

ذهبت الى خيمة العمة مريومة ، فهي تعرف انها بارعة في علاج البدن بالاعشاب ، وفوق هذا صاحبة قدرات في التعامل مع القوى الخفية المجهولة وتسخيرها لحل معضلات وعلاج مشكلات غير امراض البدن ، وقد وجدت المرأة العجوز ما تزال تضع السخان على النار تصنع افطارا لنفسها ،

فصارحتها بالاخطار التي تحيط بابنتها ، والرجل المسئول عن الشرطة الذي يطاردها ويريد استخدام نفوذه في افساد حياتها الزوجية خدمة لاغراضه وشهواته ، وتريد ان تضع لها حرزا او تعويذة تحميها ، او تعمل لها عملا يمنع الشر عنها ،

فسكتت العمة مريومة قليلا دون ان تجيب بالرفض او القبول ، ثم سألتها ان كانت ابنتها انجيليكا تؤمن مثلها بجدوى مثل هذا العمل الروحاني ، لانها ان كانت حقا تؤمن بذلك فانها ترى من الافضل ان تحضر بنفسها لترافقهما في رحلة قصيرة سيقومان بها جهة الجبل تتحقق بها البركة لهم الثلاثة ، وان كانت انجيليكا تنتمي بافكارها الى هذا الجيل الجديد الذي لا يؤمن بشيء غير ما يرى ويلمس بنفسه فلا حاجة لاحضارها ، الا ان السنيورة كاتيا اسرعت لتأكيد ان ابنتها امرأة شديدة

الايمان بالمسائل الروحية ، لانها سبق ان انتفعت بمثل هذه الاسرار ، فقد حدث وهي طفلة في سن السابعة ، ان اصيبت بداء الحصباء ، ولم تنفع اي حبوب ومراهم مع هذا الداء ، وبناء على نصيحة احدى سيدات المدينة القديمة ، ذهبت بها الى ضريح سيدي الهدار فوق هضبة باب البحر ، واوقدت له الشموع وتوسلت له ان يشفي ابنتها ، ودهنت المناطق المصابة من جلد ابنتها بالشحم المذاب من تلك الشموع ، وفي الصباح كان المرض قد زال من كل جسمها ، بفضل بركة واسرار سيدي الهدار ، ولهذا فان ابنتها ستكون على استعداد للانتفاع باي اتصال مع عالم الاولياء والصالحين ، فذكرت لها العمة مريومة ، بانها مرة اخرى ستصعد بابنتها الجبل ، كما فعلت قديما وهي تصعد هضبة باب البحر الى ضريح سيدي الهدار ، الا ان الجبل هذه المرة هنا في جنائن العرعار وفي فج من فجوجه ، حيث ستزور مكانا شريفا مثل ذلك المكان ، ليس ضريحا وانما نبع ماء ، يقع خارج مناطق الحلفاء ، وتركتها السنيورة كاتيا عائدة الى بيتها لاحضار ابنتها لترافقهما في هذه الرحلة المباركة ، وحيث ان اهل النجع قد

بدأوا يغادرون الخيام في طريقهم الى الشعبة ، فقد فضلت ان تتاخر الرحلة الجبلية قليلا حتى يغادر كل اهل النجع خيامهم ، اذ لا حاجة لان يعرف اي احد منهم خبر هذه الرحلة ، كما اطمأنت من العمة مريومة الى انه ليس جبلا عاليا يصعب الصعود اليه ، وانما فج قريب من مستوى الارض لا يرتفع الا بضعة امتار عن السفح ، ودون ان تفصح لزوجها عن فحوى هذه المهمة ، ابلغته بانها ستزور بابنتها خيمة العمة المريومة ، ربما تستفيد ببعض علومها الطبية واعشابها التي تستخدمها في العلاج ، لكي لا يفتقدهما ويهتم بامر الحانوت اذا اقتضى ان يفتحه لاحد الزبناء ، وبمعية العمة مريومة ، انطلقا في الطريق الى العين الجبلية ، وقد جاءت كل منهما ترتدي شالا فوق راسها تحوطا لما يمكن ان يطرأ من تغيير على الطقس اثناء وجودهما في الجبل ، وقد كانتا على علم بما يتداوله الناس في النجع عن وجود عين شحيحة ترشح منها قطرات من الماء في مكان ماء داخل احدى الجبال القريبة من الوكالة ، الا انه لا احد يقصدها للميراد لانه قد يقضي الساعات قبل ان يملأ منها زمزمية صغيرة ، وانه ماء يبلغ درجة شديدة من

النقاء والصفاء ، واكثر عذوبة من ماء الغدير نفسه ، فماذا تراه يوجد من اسرار في هذه العين ، سألت السينيورة كاتيا العمة مريومة، وثنت ابنتها بسؤال مماثل ، فاجابتهما بان السر ليس في العين او في الماء الذي يرشح منها ، وانما في الشيخة خديجة التي تقيم هناك ، وفهمت كل منهما ان امراة العلاج الروحي ، تشير الى امرأة بدوية مباركة ذات اسرار وكرامات اختارت الحياة بجوار تلك العين ، وتبادلتا نظرة استغراب واندهاش ، لانهما لم يسمعا بها من قبل ، دون ان يفصحا باي كلام يشرح سبب الاندهاش ، اذ لعلها امرأة جاءت حديثا الى جنانن العرعار، فلم ينقضي بعد ، ما يكفي من الوقت الذي يجعل خبر وجودها شائعا بين الناس ، ولم يعرف بهذا الخبر الا من لهم اتصال بعالم الاسرار الروحانية ، مثل العمة مريومة ، وتوقعتا وهما تصعدان خلف العمة ، باتجاه الفجوة التي تقع فيها العين ، ان يظهر امامهما كوخ او عشة او خيمة ، الا انهما سارتا خلفها ، وهي تتكيء على عكازها ، تضرب به الصخور ، وتسير بنشاط وحيوية تتسلق الجبل كانها هي الاخرى شاة من الشياه التي تعودت الحياة بين الجبال ، حتى

اشارت وهي تبشرهما بقرب الوصول ، الى صخرتين كبيرتين ، قائلة ان بينهما تقع عين الماء ، وسرعان ما ظهرت الارض المبللة بالماء ، والتراب والحصى الذي امتزج بما رشح من العين ، ثم ظهرت تلك العين في شكل قطرات تتساقط من شق بين رقائق من الصخور ، في شكل قطرات كالتي يستعملها الانسان في علاج عينه من زجاجة الدواء ، الا انها اكثر تواترا وسرعة ، وادارت كل من كاتيا وابنتها عينيهما تبحثان عن الشيخة خديجة التي ورد اسمها في كلام دليلتهما في رحلة الجبل ، ولكن لا اثر للمرأة المباركة التي توقعتا وجودها عند العين ، وفاجأتهما العمة مريومة ، عندما بدأت تطوف بالصخرتين الكبيرتين تنادي بصوت مرتفع على الشيخة خديجة ، وتسألها ان تخرج لها ، واستغربت المرأتان لسماع هذا النداء وهذا الطواف ، خاصة وهي تترك الصخرتان وتبحث بين نبتات الحرمل والشيح والعجرم، وكأن الشيخة خديجة كائن اثيري يختفي وسط الهواء وبين اوراق العشب وسيقان النباتات الصغيرة الملتصقة بالارض ، تسأله العمة مريومة ان يتجسد امامهم حضورا ماديا في شكل امرأة ، الا

ان الكائن الذي خرج من تحت الصخرة ، لم يكن امرأة ، ولم يكن بشرا ولا عفريتا من الجن ، وانما كان سحلية ، كبيرة ، جميلة ، خضراء اللون ، يلمع جلدها الناعم تحت مسقط الضوء كانه مدهون بزيوت ربانية ، تبحلق في هؤلاء الزوار بعينيها الصغيرتين المتوقدتين ذكاء وحيوية ، تخرج لسانها الوردي وتدخله كأنها تقول بهذه الحركة شيئا ، ربما هو رد على تحية العمة مريومة اطلقت السلام على السحلية التي تسميها الشيخة خديجة ، كما طلبت من كل من كاتيا وانجيليكا ان يبادرا بتحية الشيخة ، فاسرعت الام قائلة

ـ السلام عليك ورحمة الله يا شيخة خديجة

وكررت ابنتها من خلفها نفس التحية ، في حين انهمكت العمة مريومة في قراءة بعض الاوراد ومجموعة من ايات القرآن ختمتها بان اتجهت بالحديث للسحلية التي كانت واقفة تستمع باهتمام لما تقوله العمة مريومة وهي تشرح لها الحاجة التي تريد قضاءها والمهة التي جاءت من اجلها رفقة هاتين السيدتين ، واخرجت من كيس كان معها اغصان نعنع بري اخضر صارت تطعمة للشيخة خديجة وتركت بقية تحت اقدام

السحلية،وعادت تتمتم ببعض الاوراد والتعاويذ ، ثم مدت يدها فتسلقتها السحلية وصعدت مع ذراعها حتى استقرت فوق كتفها ومدت فمها فمدت العمة مريومة فمها تقبلها وتسألها الاذن بمغادرة المكان ملقية عليها تحية الوداع ، وسالت رفيقتيها ان يقولا وداعا للشيخة خديجة ، فيسرعا لاجابتها الى ما امرتهما به ، وتنهض فتنتزع بعض الاعشاب من تحت الصخرة التي كانت تأوي اليها السحلية ، وتضعها في الكيس الذي افرغت منه النعنع البري ، وتبدأ رحلة انحدارها مع الجبل ومن خلفها كاتيا وانجيليكا اللتان انتظرتا حتى وصلتا معها الى اسفل الجبل ، لتسألاها عن معنى ما حدث ، في هذه الزيارة لمقر اقامة الشيخة خديجة ، فابلغتهما بانها ليست حقا سحلية ، وانما هي امرأة من اهل الخفاء ، تجسدت في شكل سحلية لتستطيع خدمة الناس والتواصل معهم ، في شكل دبيبة وديعة جميلة لا تخيفهم ، وان اول من اخبرها بوجود هذه الشيخة وحقيقة اصلها وفصلها سيد من اسياد اهل الخفاء ، تعرفه منذ مدة طويلة ، وتراه مرتين او ثلاث مرات كل عام ، لانه ملك من ملوك الجن في الساقية الحمراء ، لا يستطيع ترك

مسئولياته الملكية في تلك الاماكن القصية ، الا للحظات قصيرة يزور فيها بعض اصحابه من الانس المتفرقين في بلاد الله، وهو الذي كان حلقة وصل بينها وبين الشيخة خديجة ، بسبب وجودهما في جوار واحد هو جنانن العرعار ، وهي على يقين من ان الشيخة خديجة قد فرحت بهذه الزيارة لانها تقيم اعتبارا كبيرا لمن يتحمل متاعب الطريق وصعود الجبل وصولا اليها ، وستعمل دون كلل على حماية انجيليكا من اي شر يدبر لها ، وسترد كيد الكاندين الى نحورهم باذن الله، كل ما في الامر انها ستعطيها هذه الاعشاب الطبية التي اقتلعتها من مهجع السحلية ، كي تقوم بتنقيعها في ماء ساخن ثم تشربها كما تشرب كوبا من الشاي ، ولا باس من وضع شيء من هذه الاعشاب في النار لتتبخر به.

لحظة عودتهما الى البيت ، كان جميلا ان تسمعا من الاب ان الراند السردوك ، تعرض لزوبعة رملية في الطريق من ذلك النوع الذي ينطلق على شكل دولاب يدور ، او دوامة من عجاج ، كانت قوية الى حد قذفت بسيارته خارج الطريق ، فانقلبت به ، وخرج من الحادث مصابا ببعض الرضوض

والكدمات ، كما عرف من شلومو البائع الجوال الذي شاهد ما حدث وهو في طريقه الى الوكالة ، واعتبرت كاتيا ان الخبر دفعة اولى من وعود الشيخة خديجة ، او عربونا استبقت به الزيارة ، ومصداقا لوعدها بان تحمي ابنتها وتعيد كيد الاعداء الذين يريدون بها شرا اليهم . واعتزمت ان تقتطع صحنا من غذاء اسرتها وتهديه للسيد شلومو الذي كان يتخذ مكانا لنفسه وبغلته بجوار سور الوكالة مكافأة له على خبر الانقلاب الذي تعرضت ليه سيارة السردوك .

وقد اهتم بانايوتي بشلومو ضيف الوكالة ، واراد ان ينتقل معه الى البيت ليتناول فيه صحن الغذاء الذي اعدته له كاتيا الا انه فضل ان يبقى بجوار بغلته وحمولته من السلع الموجود في (عديلتين) اراحها منهما ووضعهما فوق الارض ، تاركا اياهما معروضتين لمن يريد ان يشتري من نساء النجع وصبيانه ، وجلس بانايوتي بجواره قليلا اثناء تناوله للغذاء ثم تركه لزبائنه مؤجلا الحديث معه الى المساء حيث انعقدت حلقة المجلس اليومي فاستدعى بانايوتي شلومو لينضم الى الحلقة ويمتع اعضاءها بما يتوفر لديه من حكايات وطرائف يلتقطها

من حياته كبائع جوال في هذه البوادي حتى صار خبيرا بشعابها ونجوعها وابارها واماكن الاضرحة فيها ، وكان بانايوتي حريصا ان يعرف منه ما مر به من اثار في هذه الصحاري تنتمي للاغريق القدامى ، ولكن نصيب الاغريق في هذا الجزء من الوطن قليل كما يقول شلومو ، لان دولتهم اقتصرت على الجزء الشرقي من البلاد فيما سيطرت الامبراطورية الرومانية على الجزء الغربي منها حيث اثار قصورهم ما تزال موجودة فوق الهضاب وصهاريج ابارهم لا تزال صالحة للاستخدام في السفوح وقبورهم واصنامهم الموضوعة فوق هذه القبور لا تخلو منها ضفة من ضفاف الاودية الكبيرة فهي موجودة في وادي مرسيط ووادي سوف الجين ووادي الاثل ووادي زمزم ووادي غلبون ووادي مقدال ووادي غرغار ووادي عنتر ووادي منصور التي تشق الصحراء الى البحر، وقلاعهم موجودة في عدد من البلاد مثل القريات الشرقية ، وابو نجيم وام العجرم اما مدينة قرزة المسخوطة فهي مدينة كاملة تحتوي على اثار قصورهم ومعابدهم وحماماتهم واثار من جاء قبلهم مثل الفينيقيين واثار

من عاصرهم وصارعهم من اهل البلاد مثل الجرمنت ، وذكر شلومو لبانايوتي ورفاقه ان حاكما يهتم بالاثار في بني وليد هو الذي جمع في قصره قطعا من الاثار جلبها من الصحراء فيها اثر يوناني تمثال للطفل المجنح الذي يعتبرونه الها للحب ، ولا يدري شلومو من اي مكان جلبه ، لكن كلها اثار خاف الوالي عليها من النهب ، فاحضرها من اودية زمزم وام العجرم ومن مدينة قرزه التي تقع تحت ادارته واحتوى معرضه على اعمدة لها تيجان وجداريات لتماثيل ولوحات فسيفساء واقواس عليها الزخارف وصور الحيوانات وتمثال لصقر ينشر جناحيه وجرار فخارية كانت تقدم قرابين للالهة وصناديق حجرية تحفظ رماد الموتى بعد حرقهم مزينة هي الاخرى بالنقوش والكتابات الرومانية والفينيقية ، وكان تعليق الاومباشي جبران على مثل هذه الحكايات ان هذه الآثار التي ينسبها الاجانب الى انفسهم فيها الكثيرمما ينتمي لاهل البلاد وضرب مثالا بآثار اكاكوس وتاسيلي التي لا يجادلون في نسبتها لليبيين القدامي لسبب بسيط هو انهم لا يستطيعون نسبتها لا للفينيق والا الرومان والا اليونان لانها وجدت قبل

ظهور هؤلاء الاقوام في ليبيا ، الا انهم بعد مجيء الاحتلال الفينيقي ثم اليوناني في شرق البلاد والروماني في غربها اضطر هؤلاء الليبيون الى التطبع بطبائع مستعمريهم وتسمية انفسهم باسمائهم وتقديم الولاء لالهتهم واديانهم فصار كل ما يصنعونه ينسب للمستعمرين لانه كتب بلغتهم وتسمى باسماء تشبه اسماءهم وحمل الولاء لالهتهم فاعتبره علماء الاثار الغربيون فينيقيا او رومانيا او يونانيا بينما هو من صنع وبناء وابداع اهل البلاد ، وهم الذين بقوا في الارض بعد خرج هؤلاء الاقوام المستعمرين الطارنين لانه على حد قوله لا تبقى في الوادي الا حجارته ، ولم يكن بانايوتي ياخذ كلام الاومباشي في مثل هذه القضايا التاريخية مأخذا جادا لانه يعتبره يتكلم عن جهل وبدافع التعصب والانحياز لاهل بلاده على غير علم ودراية وانتظر حتى حان موعد عودته الى البيت ليضع بعض افكاره على الورق ، كما تعود ان يفعل عندما يجد ان هناك افكارا او كلمات يضيق بها صدره ويريدها ان تخرج الى النور ، فكتب يقول:

يظهر شلومو ويختفي ، فافرح دائما بظهوره وارى ان خيطا ما يشدني اليه ، بل ارى شبها في الاقدار بيني وبينه ، انه مولود لاب وام يهوديين من قاطني غريان ، وماتا عنه وهو لا زال صبيا ، فوجد نفسه يعمل صبيا لتاجر يهودي جوال ورث عنه تجارته بعد ان مات ، لكنه لا يدري الا صورة غامضة ومشوشة عن الوطن الذي جاءت منه اسرته ، فهي اسرة مهاجرة ، اتبعت كما يقول طريقا لعله ينحدر من الاندلس ، وانتقلت الى مراكش ثم الى تونس ثم الى طرابلس ثم الى الجبل الغربي وعاصمته غريان ، وها هو هنا يجوب هذه البوادي وحيدا ، غريبا ، بديانته التي لا تربطها اية علاقة بديانة اهل البلاد ،بل لعل من اهل البادية من لا يضمر له خيرا ولا يضمر لديانته ودا ولا احتراما ، ولكنه مع ذلك يطوف دون وجل ولا خوف في هذه البوادي ، ببغلته حاملا امشاطه واخراصه ومراياه وعطوره ، يعمل براس مال صغير ، لكنه قد يغري في هذه الاعوام التي ينتشر فيها العوز ويجوع فيها الناس ، قاطع طريق ، او لص من لصوص الصحراء بالتربص به ، ونهب متاعه والسطو على بغلته وقد يصل الحد الى قتله

، ولعل هناك من اشباهه من باعة متجولين من لاقى مثل هذا المصير ، فمن اين يستمد الشجاعة ، والقدرة على مجابهة الاخطار، والاستمرار في اداء عمله المحفوف بالمهالك ، انها شجاعة ، قد يكون مصدرها السذاجة ولكنها تجعل انسانا مثلي يغبط نفسه لانه قادر ان يحيط نفسه باسرة ومجتمع وبطانة اجتماعية تخفف من غربته وتزيل اي احساس بالخطر من طريقه ، مقارنة بوضع شلومو في وحدته واسلوب حياته وهو يمضى وحده مع بغلة تشق به الليل ويواجه معها عواء الذئاب ومخاطر اللصوص دون اي حماية او وسيلة للدفاع .(قال في زيارته اليوم ان جاره في مزده رجل يهودي يعمل حدادا له ابنة ترملت ، فبني بها وصار له اخيرا زوجة يقيم معها في بيت صهره ليستطيع ان يسافر من اجل تجارته ، وهو مطمئن الى انها تعيش في ونس اسرتها)

سانام هانئا في سريري ، ولن اخشى كثيرا من تهديد السردوك ، ساعتبره مثل الذئاب التي نسمع عوائها البعيد قادما مع الريح من احدى الشعاب ، فلا يثير في النفوس خوفا ، ولا يبعث فيها اي احساس بغياب الامان . لا اصدق ما يقوله

شلومو عن عدم وجود اثار يونانية في شرق البلاد الا ذلك التمثال لاله الحب ، فالتمثال لم يصل الى قصر الوالي سوندرز من فراغ ، والحضارة التي انتشرت في ربوع الشق الشرقي من هذه البلاد قد امتزجت ببعض ما تركه الرومان في غرب البلاد ، تماما كما حدث للحضارة اليونانية التي ورثها الرومان في شرق البلاد وامتزجت باثارهم وصار بعضها جزءا من ثراتهم . لقد رايت بعضا من هذه الاثار ، واعمدة القصور التي لم تكن اطلاقا تختلف عما رايته في جبال اليونان ، في الاسكندرية وساندوريني وكريت ورودس ، ولكن ذلك لا يهم ، فاذا لم يستطع اليونانيون القدامى ترك اثار في هذا الجزء من البلاد ، فان هناك يونانيا حديثا ، من اهل هذا الزمان ، عازم بحق المسيح وامه مريم العذراء، على ان يترك شيئا يدل في هذه الوهاد والربوع عن اهل اليونان وحضارتهم ، واذا كنت قد انشأت مصدرا للرزق للبدو في هذه المناطق ، فلن اغادرهم الا وهم اكثر تقدما وحضارة لاثبت ا ن اهل اليونان سواء انتسبوا للماضي او للحاضر للشرق او للغرب فانهم لن يتخلوا عن رسالتهم الحضارية التي سيغرسونها في اي مكان يصلون

اليه ، حتى لوكانت ارضا غبراء شعثاء مثل صحارى جنائن العرعار.

— 16 —

كان غريبا ان يجد اهل النجع عند عودتهم من الشعبة ، ان خيمة جديدة قد اقيمت ، وان صاحب الخيمة ليس الا خليل مكاري ، الذي اكتسب اسمه من مهنته التي اشتهر بها ، باعتباره اكبر واغنى مكاري للحمير بمنطقة القبلة ، ومركزه بلدة مزدة ، كما كانت هي مركز اسلافه من اصحاب هذه التجارة ، فهو يملك مئات من هذه الحمير ، يبيعها ويقوم بتأجيرها لاهل المنطقة ، كما يقوم ببيعها وشرائها في مختلف اسواق البلاد ويقصده الناس من سكان الجبل الغربي ، يستفيدون من خدماته ، ويؤجرون حميره ، احيانا بالسانس الذي يقودها ، ووصل عدد هؤلاء الرجال من سانسي الحمير ما يقرب من خمسين فردا يعملون تحت امرته، لكن تجارة

الحمير بدأت تفقد اهمتها ، بدءا من ختام الحرب ، فقد صارت تتدفق على الاسواق سيارات نصف النقل والاخرى ذات الدفع الرباعي ، وسيارات الشحن ، واغلبها ياتي الى السوق نصف عمر ، ويباع باسعار متهاودة ، فهي سيارات عسكرية من مخلفات الحرب ، احيلت الى سيارات مدنية ، وطرحت في اسواق هذا الجزء من العالم ، بعد ان انتهت الحاجة اليها عقب الحرب وتسريح الجيوش ، وشينا فشينا صارت الحمير تتناقص في اسطبلات صاحبها بعد ان امتنع الناس عن تأجيرها ، فصار يبيعها بارخص الاسعار يتخلص من نفقاتها ، ويقوم بالاستغناء عن الشباب والصبيان الذين يسوسونها ، ولم يستطع ان يكيف نفسه ومهنته مع اعمال ما بعد الحرب ، فظل ينفق من مذخراته ، ويستنزفها يوما وراء الآخر ، وما وجوده اليوم هنا في وكالة بانايوتي ، بين فقراء القوم الذين يبحثون عن لقمة عيشهم باقتلاع الحلفاء ، الا دليلا على ما وصل اليه حاله من سوء ، وما بلغه من انحدار بعد ايام الزهزهة والرخاء. وما ان رآه بعض الرجال يتجول في الوكالة متنقلا بين المتجر والمقهى والهناجر، في عملية استكشاف

لمكان اقامته الجديد ، ورأوا ما يرتدي من اسمال ، حتى ادركوا حقيقة الوضع الذي وصل اليه ، وقد وجد من بينهم من اقبل يحييه ، ويبادر بتقديمه الى باناپوتي ، مشيدا بمكانته عندما كان اكبر مكاري للحمير في منطقة القبلة ، فلم يجد من صاحب الوكالة الا الترحيب والتحية ، مؤكدا له انه سيجد هو واسرته في هذه الوكالة اخوة واخوات يشكلون اسرة كبيرة تحتضن كل من ينضم اليها ، فأكد خليل مكاري لباناپوتي انه لم يأت ليكون رقما يضاف الى ارقام جامعي الحلفاء ، وانما ليؤدي خدمة اكبر واكثر نفعا تسهم في رفع معدلات الانتاج وتعم بالفائدة على الجميع ، اذ انه ما زال في حوزته ما يربو عن عشرين حمارا ، احتفظ بها من سائر ما كان يملكه من حمير لانها عفية قوية ما تزال في سن الشباب وقادرة على حمل الأثقال بيسر ودون كلل ، وقد راى استجابة لنصيحة بعض اهل البلدة ، الا تبقى عاطلة هناك ، وانما يأتي بها الى الوكالة ، لتمكين جامعي الحلفاء من استخدامها في نقل محاصيلهم ، ولن يطلب ايجارا كبيرا مقابل تاجيرها لهم ، فاي ايجار هو بالنسبة له افضل من لاشي ، ولذلك فلن يأخذ غير

نسبة عشرة في المائة من قيمة الحلفاء التي سيحملها الحمار ، وهو يامل ان يكون مجينه بحميره هذه اسهاما في انجاح الوكالة ورفع العناء عن جمهور العاملين فيها ، مضيفا الى ما قاله انه لن يتاخر هو واسرته في المشاركة في جمع الحلفاء بالاضافة الى تأجير الحمير ، وعندما سأله بانايوتي عن مكان هذه الحمير لانه لا يراها، اجابه بانها قادمة في الطريق ، يسوقها السانس ويهتم بتغذيتها اثناء رحلتها من مزده متوقفا بها عند المناطق المعشوشبة ، ولذلك وصل هو واسرته يقودون حمارا واحدا يحمل عنهم الخيمة وبعض الادباش .

وانتشر الخبر بين اهل النجع عن وجوده ووجود ما جلبه من حمير لتأجيرها بهذه النسبة الضئيلة فلم يترددوا في تاجيرها وساهمت احيانا اكثر من عائلة في تاجير حمار واحد لقلة هذه الحمير الى حد ان بقية ارباب العائلات ممن لم يتمكنوا من الحصول على حمير، ذهبوا يطالبون خليل مكاري بان يسعى لتزويد الوكالة بمزيد منها، ولم يحتفظ هو بغير حمار واحد لنفسه ، وصار كل من قام بتأجير حمار يبقيه معه ويتولى الاهتمام به ويتركه يرعى في الشعاب ويبقيه مربوطا امام

خيمته اثناء الليل وتزويده بما يحتاجه من شراب وعلوق وكانه صاحبه ، ويقدم لخليل مكاري النسبة المتفق عليها من بيع الحلفاء التي يحملها الى الوكالة يوما بيوم في شكل كوبونات مما يقوم باستلامها عند البيع ، وقد وجد الرجل نفسه محاطا بالود والتقدير ، حيث افسح له شيوخ النجع مكانا بينهم ليكون احد افراد الحلقة التي تنعقد كل مساء حول صاحب الوكالة ، مثله مثل الاومباشي جبران والحاج رضوان والفقي عمار واحيانا السيرجينتي خليفة ، خاصة وانه ينتمي لذات المرحلة العمرية التي ينتمون اليها ، وكلهم اصحاب عائلات ولهم اولاد وبنات بلغوا سن المراهقة والشباب ، ولخليل مكاري ابن مثلهم ، على مشارف العشرين هو ايضا ، الا ان وجود الابن مع والده في النجع اثار شيئا من القلق لدى هؤلاء الشيوخ ، لان للابن سمعة في العنف وسوء السلوك سبقت مجيئه ، ورغم انه لم تبدر منه اية بادرة سوء منذ ان وصل ، الا ان هناك تخوفا من سجل سيئاته ، راى شيوخ النجع الافصاح عنه لرفيقهم الجديد بشكل لا يستفزه ولا يثير لديه حرجا ولا كدرا ، وتم اسناد المهمة للفقي عمار الذي اتخذ

حديثه سياقا قريبا من السياقات التي يستخدمها في خطب الجمعة ، بما يرصعها به من احاديث نبوية واستشهادات من الذكر الحكيم ، قائلا ان الحياة هنا تفرض على الناس نوعا من السلوك يختلف في اسلوبه عن سلوكهم في المراكز الحضرية مثل مزده ، حيث الفصل كاملا ناجزا بين مجتمع الرجال ومجتمع النساء ، اما هنا فقد حتمت طبيعة العمل على الناس ان يخرجوا بنسائهم واولادهم وبناتهم في مسيرة واحدة وان يعملوا جنبا الى جنب وهم يلتقطون الحلفاء في مكان واحد ، هو دائما شعبة ضيقة بين جبلين ، لا تفصل بينهم جدران ولا حواجز من اي نوع ، ورغم ان الامهات وبناتهن يتخذن جانبا ، ويتخذ الأباء والابناء جانبا اخر من الشعبة ، فان هناك اتصالا وتعاونا وحديثا دائرا بين الجانبين ، في حدود اللياقة والادب ، ولهذا فقد كانت المهمة الاساسية للأباء والامهات امام هذا الوضع الجديد وغير المألوف في اماكن اقامتهم السابقة عن المجيء للوكالة ، هي افهام اولادهم وبناتهم ، ضرورة الالتزام الصارم بمحاسن الاخلاق ، مع تشديد الرقابة عليهم ، لكي لا يحدث انحراف او خروج عن السلوك القويم

بسبب هذا النوع من التجاور الذي يصل الى حد الاختلاط ، وان تضرب النساء الحجاب على وجوههن، وان يحترم الصبيان والشبان سمعة واعراض الاخرين ، واكتفى الفقي عمار بهذا الشرح مخلوطا ببعض الاحاديث والآيات ، متجها بالكلام الى خليل مكاري ، دون اشارة صريحة الى ما تناهى لاهل النجع من سمعة ابنه السيئة ، فقد وضعه في الصورة التي يلتزم بها الاباء والامهات ازاء ابنائهم وبناتهم في هذا النجع ، متعشما ان يعرف الرجل واجبه في تشديد الرقابة على ابنه ، وارغامه على التزام السلوك السوي ، فلا تغريه حالة التواصل بين العائلات نساء ورجالا على استغلالها في ارضاء شهواته وممارسة انحرافه ، ولم يكن خليل مكاري عاجزا عن فهم ما يقصده الفقيه من حديثه ، او غافلا عن سمعة ابنه في هذا الصدد ، ولهذا فانه فور انفضاض الجلسة ، نهض مسرعا باتجاه خيمة المقهى ، التي لم تكن تبعد سوى خطوات عن مكان الجلسة امام مكتب بانايوتي ، ليجد ابنه يلعب الورق مع الفونسو ، واستدعاه لكي يعود معه الى الخيمة، وفي الطريق اعاد على مسمعه ما كانه يقوله الفقي عمار، حول طبيعة

الحياة والسلوك التي تقتضيها ظروف العمل في الوكالة ، مذكرا اياه بانه تجاوز الان سن الطيش والرعونة ، ويتوقع منه سلوكا يحكمه العقل والاتزان ، جديرا بمن بلغ مثله مبلغ الرجال ، فلا يريد ان يسمع عنه شيئا سيئا يجلب به المشاكل لنفسه واهل بيته ، خاصة وان امامه بدل المهمة الواحدة مهمتين اثنين ، اولاهما ان يجتهد في جمع محصول وافر من الحلفاء يحصل عن طريقه بيعه بمذخرات تعينه في تكوين نفسه وبناء مستقبل لحياته ، لانه سيجعله يحتفظ بكل فلس لمواجهة ما يريده من مصاريف بناء اسرة وبيت ، وثانيهما يقوم بمراقبة الحمير التي اكتراها اهل النجع ، فهي في النهاية حميره وحمير والده ، التي يجب ان يحرص على سلامتها ، رغم وجودها في عهدة من قام بتاجيرها ، فلا يسمح لاحد بان يسيء استخدامها او يهمل في اطعامها ، لانه اذا فعل ذلك فسيتم سحب الحمار منه ، وعليه ان يبتعد عن طريق اي فتاة من اهل النجع ويكتفي بالحرص على اكتساب صداقات الشباب امثاله ومعاملتهم بتهذيب واسلوب نبيل كريم ، ولم يكن الاب اثناء هذا الحديث يسمع من ابنه الا ردا احدا هو كلمتي حاضر

ونعم ، مما اعطاه انطباعا بان موسى استوعب ما يدعوه اليه من انضباط والتزام ، فذهب الى مهجعه راضيا هانئا ، ولم يمض على هذا الحديث اكثر من يومين حتى راى الاب بمثل ما راى بقية الناس الذين كانوا يتواجدون في الشعب ة عراكا شرسا ينشب بين ابنه وبين يوسف ابن الامباشي جبران ، بسبب ان ابن الاومباشي شاهد ابن المكاري موسى يتبع اخته مريم وهي تقتلع الحلفاء، ويلقي باتجاهها بعض كلمات الغزل ، مبديا اعجابه برشاقة جسمها و جمال ضفيرتيها ، فراى في هذه الكلمات اجتراء على اخته وتحرشا بها ، فما كان منه الا ان هجم عليه ، يلكمه ويصفعه ، ويطرحه ارضا قبل ان ينتبه الولد الثاني لما يحدث له فينهض ليباشر رد اللكمات والصفعات لمهاجمه ، وبسرعة هرع اليهما بعض الرجال يفضون الاشتباك بينهما ، ويسحبون كل واحد منهما الى مكان من الشعبة بعيدا عن الآخر ، الا ان الامر لم ينته عند هذا الحد، وانما انتقل في المساء الى خصومة بين الابوين ، فقد امتنع الاومباشي جبران عن ارتياد الجلسة اليومية التي تعقد امام الادارة ، وارسل الى بانايوتي يعتذر عن حضور الجلسة

بسبب انه لا يريد ان يكون موجودا في مكان واحد مع خليل مكاري ، الذي لم يستطع رغم التوضيح والتحذير كبح جماح ابنه ومنعه من الاساءة لاعراض الناس ، وكان رد خليل مكاري ، انه مستعد لتقديم الاعتذار له عما بدر من ابنه ، ويعده بانه لن يتكرر منه أي سلوك من هذا النوع ، واذا لم يرضه هذا القول ، فليتفضل الاومباشي جبران بابلاغه ما الذي يريده منه ، وسيستجيب له في الحال ، ونقل الحاج رضوان رد خليل مكاري اليه في خيمته ، لكنه بقي غاضبا ، رافضا ان يغادر الخيمة ، قائلا له ان ما حدث جعله يفكر جادا في ان ينأى بعائلته عن موقع تلحقه فيه الاهانات ، عائدا الى مكان اقامته في ضاحية مزدة ، وكان اثر عودته من الشعبة قد اعاد الحمار الذي اكتراه من مكاري الى صاحبه ، لانه لا يريد ان تجمعه اية علاقة مع هذا الرجل ، وابلغ الحاج رضوان عن اسفه لانه لن يستجيب لاية وساطة تتصل بالشرف ، ولا ينفع مع حادثة مثل هذه الا مقاطعة خليل مكاري وعائلته ، تمشيا مع المثل الذي يقول " الباب الذي ياتي منه الريح سده واسترح "ولكن الرجل الذي قام بالوساطة رفض ان يعود الى

الجماعة الذين ارسلوه بدون نتيجة ، ملحا على صاحبه الاومباشي ان يقول له الشرط الذي يرضيه لينهي هذه الخصومة مع خليل مكاري ، وردا على الحاح الحاج رضوان ، وتحديا له ، قال شرطه الذي مفاده ان غلطة تتصل بالشرف ، مثل التي ارتكبها موسى بن خليل مكاري ، في حق ابنته ، لا يصلحها الا ان يتقدم الولد للزواج من ابنته مريم كدليل على حسن نيته ، وقد تردد الحاج رضوان قليلا في القبول بان يتولى مهمة نقل مثل هذا الشرط ، لانه يراه لا يتفق مع حجم الخطأ الذي ارتكبه الولد ، وقد يكون ظلما له وظلما لمريم ابنة الاومباشي نفسها ، ان يفرض عليها الزواج ويرغمهما على القبلول به ، بسبب كلمة غزل طائشة ذهبت مع الريح ، وليس عدلا في حق خليل مكاري الذي قد لا يكون مستعدا في هذه الفترة لتحمل نفقات تأهيل ابنه، ثم تبعات الصرف على العائلة التي تنتج عن هذا الزواج ، فابنه مازال يعيش في كنفه وليس في حوزته عمل او دخل يجعله مستقلا بحياته عن ابيه ، الا ان الاومباشي افهمه انه لا يرغم احدا على القبول بهذا الشرط ، فهو يرحب بالقطيعة بديلا عن تنفيذه ، ثم انه كلام

يتوجه به للرجل الذي ارسله طالبا ان يسمع شرطه ، فليتفضل مشكورا بنقله له ، وله وحده حق ان يقبل ان يرفض دون ان يلحق حامل الرسالة أي لوم او عتب ، وهكذا وجد الحاج رضوان نفسه مرغما على حمل هذا الشرط الغريب الى الطرف الثاني ، مع تعليق منه يقول فيه انه لا يراه شرطا معقولا ولا منطقيا ، ناصحا المكاري بان يطلب مهلة للتفكير يمكن ان تطول حتى يتمكن مع اعضاء الجلسة من ارجاع الاومباشي عن ضلاله ، وارغامه على القبول بالمصالحة دون تضحية منه او من ابنه بمثل هذا الحجم ، الا انه فوجيء بخليل مكاري ، يتحمس لقبول الشرط قائلا ، بانه يعتبره يوم فرح وهناء ، يوم ان يصاهر بيتا شريفا كريما عريقا مثل بيت الاومباشي جبران ، وان فرصة تزويج ابنه فرصة كان يبحث عن وسيلة لتحقيقها ، لانها ستكون مناسبة لوضع هذا الابن المشاغب الشقي ، امام مسئولياته ، واخراجه من مرحلة الطيش والاستهتار بالحياة ، الى مرحلة الاهتمام بنفسه ومستقبله ، ولذلك فهو يرحب بهذا الشرط دون تحفظ ، ومع مثل هذه الاجابة ، لم يكن هناك حاجة لكي يعود الحاج رضوان الى

خيمة الاومباشي ، لابلاغه بقبول شرطه ، وانما ارسال نادل المقهى يدعوه، الى الالتحاق بالجلسة بعد ان وافق المكاري على طلبه ويرجوه ان ياتي لمناقشة التفاصيل ، وعندما جاء قام خليل مكاري يعانقه ويقبل راسه طالبا من السماح قائلا تلك الجملة التي يضع بها الرجل المخطيء نفسه تحت امر صاحب الحق وهي :

ـ انت الموسى وانا يا امباشي جبران اللحم .

بمعنى انه يضع لحم جسمه رهن سكين الاومباشي اذا اراد تقطيعه واخذ ارطال منه فسيقبل ذلك راضيا سعيدا ، وكل ما طلبه منه وهو يوافق على تزويج ابنه من ابنة الاومباشي ، هو ارجاء الزفاف الى ان تتحسن حالته المالية قليلا ، للوفاء بما يحتاجه العرس من نفقات ، اما الفاتحة وعقد القران فلا ما نع لديه ان تحدث منذ الان تاكيدا للارتباط وبرهانا على صدق النية من جانبه ، وتدافع اعضاء الجلسة يبدون استعدادهم للمساهمة في وليمة العرس وذلك بان يتقدم كل واحد منهم بشاة ينحرها ، واضاف بانايوتي الى الشاة تقديم بعض المواد التموينية من حانوته متمثلة في كرتونة من

علب الطماطم المحفوظ ، وكرتونه من علب الزيت وشوال من المكرونة واخر من البرغل الذي يصنع منه الكسكس ، وتم الاتفاق بين الامباشي والمكاري على ان يتم حفل الخطوبة وقراءة الفاتحة يوم الخميس القادم ، أي بعد خمسة ايام تبركا بليلة الجمعة ، وان يحدث الزفاف بعد شهر ونصف من قراءة الفاتحة ، وفي وقت من الشهر القمري القادم يكون فيه البدر في تمام اكتماله ، ليساعد ذلك على احياء العرس والقيام بطقوسه ، ولم يكن أي منهما ، سواء الاومباشي او المكاري، بحاجة لان يرجع الى صاحب الشان او صاحبة الشان ، أي العريس والعروس ، باعتبار الزواج في مناطق القبلة ، يتجاوز ارادة الاولاد والبنات ممن يعنيهم الامر ، ويقتصر اقراره على كبار العائلة ، وتعود الكلمة النهائية فيه لرب هذه العائلة ، ولهذا فلم يكن ممكنا ، ولا متوقعا ، ان يرتفع صوت من كلا البيتين يعارض ما حدث ، وصار يقينا لدى اهل النجع ، ان موسى مكاري ، سيتزوج مريم جبران ، وتم وضع الترتيبات على هذا الاساس ، وجاء اليوم المحدد لاعلان الخطبة وعقد القران ، فتم افراغ خيمة المقهى من زبائنها

واعداد كراسيها على شكل صوان كالذي يستخدم في الافراح ولانه عرس عربي بدوي وليس عرسا اجنبيا كما في حالة الفونسو وانجيليكا ، فقد تم دون اختلاط ، واحتل خيمة المقهى رجال النجع ، يتصدرهم الفقي عمار ، وبين يديه كتاب اصفر الصفحات يقرأ منه الصيغة المحفوظة لعقد النكاح ، بما فيه من مقدمات تتخللها ايات من القرآن الكريم واحاديث الرسول ، الى ان انتهى بسؤال الولي عن امر العريس والولي عن امر العروس ، بان يرددا وراءه ، كل على حده ، صيغة القبول بالزواج نيابة عمن يتولى ولايته او ولايتها ، والموافقة على مقدم الصداق ومؤخره المذكور في العقد ، ثم يقومان بالتوقيع على العقد ، ومن بعدهما يقوم بالتوقيع الشاهدان ، وهما اليوم صاحب الوكالة بانايوتي ديميتريس ، والضيف الذي داهم الوكالة بشكل مفاجيء الرائد صالح السردوك، وقد وصل محمولا على سيارة الجيب الحكومية رفقة سائقه ومعاونه ، وحط قبل دقائق من انتهاء الفقي عمار من قراءة الديباجة التقليدية لعقد القراءة ولحظة ان بدأ في اخذ موافقة والدي العريس والعروس ، قادما ، حسب قوله ، يلبي نداء الواجب ،

لانه لا يمكن ان يحدث عرس في الوكالة دون ان يكون حاضرا يهنيء اصحابه ، مرددا على مسمع من كل الحاضرين ، انه يضع وكالة بانايوتي دائما في طليعة اهتماماته ، حريصا على متابعة اخبارها واحداثها ، مع ان باتايوتي سال لحظة ان راي سيارته قادمة ان كان احد من عائلة العروسين قد دعاه فعرف انه وصل بلا دعوة ، وخمن ان عميله رشيد الذي قال انه يطارد مجرما مدسوسا على اهل النجع هو الذي اخطره بوجود الحفل، فهو عميل موجود لمثل هذا الغرض ولا صحة لادعاء ان هناك مجرما يطارده ، وباتايوتي يعرف ذلك ويعرف ان السردوك لم يات الا في اطار المطاردات التي قوم بها لابنته ، مدعيا حرصه على مشاركة الناس في افراحهم ، لكن ماذا بامكانه ان يفعل لرجل من اهل السلطة والدولة مثله ، غير المصانعة والمداهنة واتقاء شره بادعاء القبول به والترحيب بمجيئه .

وخوفا من سطوته ومنصبه ، افسح له اهل العرس مكانا في الصدارة ، ووضعوا اسمه في عقد القران باعتباره احد الشاهدين ، وكانت فرقة الشوشان جاهزة بطبولها

ودفوفها ، كما كان عاشور جاهزا بمزماره الشعبي ، لعزف وترديد محفوظاته من اغاني الاعراس بدءا بالاغنية التي تقول :

اشرك والبس تحت البخنوق
المحزم خاوي جوفه
من صغره قلبي محروق
مهبلني بكلوفه

وكذلك اغنية

يا نوار البوقرعون
سحنتيني وانا مسحون

وصولا الى اغنية :

سلامي ارفعه ياريح
سلامي ارفعه وصحيح كلامي

للي خذي قلبي

وهاني ، هايم في البراري هاني

ورامي

سبحتي وانسيح

سلامي

ارفعه ياريح

ودار خدام الحفل بكؤوس الروزاتا وكعك العبنبر الذي اعدته زوجة بانايوتي ، باعتبارها صاحب خبرة في اعداد مثل هذا النوع من المشروبات و الحلويات الطرابلسية ، التي لا تكتمل الاعراس الا بها ، وانتقلت الفرقة بعد تقديم وصلتها امام خيمة الرجال ، الى خيمة النساء ، وسط النجع ، وهي خيمة اهل العروس ، التي كانت تنطلق منها الزغاريد وغناء البوطويل ، وقد اكتسب هذا الاسم لانه يعتمد على المد والطويل ورفع العقيرة بالغناء الى ابعد مدى ممكن واعلى طبقة يمكن ان يصلها الصوت البشري ، وكل اغنية من البوطويل لا تتعدي عبارات

قليلة تحية للعروس او للعريس ، يرتفع بها صوت اكثر من امراة في وقت واحد

الله يجعلك شجره خضراء ، وفيك القماري ، يربح البايع ويربح الشاري

تقوله احدى النساء من قريبات العروس

فترد احدى قريبات العريس بتحية لابن عائلتها قائلة

مبروك يا غالي مبروك ، على أمّك وبوك ، وعالجماعه اللي يحبّوك

وقد توقف هذا الغناء الذي يتصاعد من نساء الفرح دون ان ترافقه طبول ولا مزامير بمجرد وصول الفرقة ، وانتقل الى نوع اسرع ايقاعا ، يرافق عزف الفرقة ، وكانت اكثر نساء الحفل اناقة وجمالا وزينة ، كما هو الحال دائما ، بما لديها من لمسة مدنية ، اجنبية ، تميزها على نساء البادية ، انجيليكا ، التي كانت ترقص وتغني احتفاء بعرس صديقتها مريم ، ورغم ان امها قامت بتبخيرها باعشاب الشيخة خديجة ، الا انها كانت خائفة عليها من حسد النساء، خاصة ان بينهن امراة المكاري ، ام العريس ، وقد بدأ الناس في النجع

يتحدثون عن قوة الايذاء التي تملكها عيناها ، وقد وصل تاثير هذين العينين ، الى العمة مريومة نفسها ، بكل ما تملكه من وسائل التحصين والحماية لنفسها وما يقع في حوزتها ، فهي التي نقلت ان امراة المكاري واسمها " تبره " نظرت الى احدى النبتات الطبية التي تزرعها امام خيمتها ، وقد ازهرت وكبرت وتكونت من ازهارها الزرقاء تيجان جميلة ، فابدت عجابها وهو تسلط عليها عينيها ، فاذا بازهار تلك النبتة تتساقط كلها في لحظة واحدة وتصفر اوراقها ويصيبها الذبول، كان تلك النظرة كانت صاعقة ضربت النبتة ، ومنذ ذلك اليوم صارت ترتل التعازيم والتعاويذ التي تحفظ هذه النباتات من العين ، وكان خوفها يزداد وهي ترى الاعين تبحلق في جمالها وزينتها واعجابا واندهاشا ، فتدعو في سرها السيدة العذراء والسيد المسيح ان يصونا ابنتها ، وتاكدت شكوكها من نفاذ نوع من الحسد الى ابنتها، حال سماعها بان سيارة وصلت الى الوكالة تحمل السردوك ، وقد ظنت ان حادث السير الذي وقع له في المرة الماضية ، يجعله يفكر كثيرا قبل ان يركب سيارته باتجاه الوكالة ، لكنه للاسف عاد ، عارفة بينها وبين نفسها

انه ما جاء الا بغية ان يضايق ابنتها ويتحرش بها ، هذا النذل الخسيس ، ولهذا صممت الا تعطيه فرصة ان يراها او يلتقي بها ، وستبقى ابنتها في بيت العرس حتى لو اقتضاها الامر ان تنام هذه الليلة والليلة التي تليها في خيمة الاومباشي وهي ستكون معها ، لكن الرائد السردوك لديه برنامج آخر ، سعى جاهدا لتنفيذه رغم انه لا يكره ان تتكحل عيناه بجمال انجيليكا الحبيبة ، الا ان عدم رؤيتها لن يقف عائقا امام تحقيق هدف اساسي من اهداف هذه الرحلة غير رؤية المراة التي ملكت عليه جماع قلبه ، فقد اعطاه الفونسو ، فرصة الضغط عليه ، عندما تأخر في تسجيل نفسه في سجل المقيمين الجدد في منطقة القبلة ، كما تقتضى لائحة المقيمين في البلاد من حملة الجنسيات الاجنبية ، وفعلا انتحى جانبا بصاحب الوكالة يخبره بخطورة ان يتأخر صهره الفونسو في تسجيل نفسه ، وانه لا يريد ان يستصدر امرا من نائب الوالي البريجادير هيوز بالقبض عليه لمخالفة اللوائح ، بسبب العلاقة الطيبة التي ترطه به ، ولهذا فهو ينصحه مخلصا ، تجنبا لاي ملاحقات قانونية قد تضر بصهره ، ان يذهب معه في سيارته الى

مزده ، ويقوم في الغد بتسجيل نفسه ووضع توقيعه في السجل المخصص لذلك ، مصطحبا معه جواز سفره ليتم التقاط صورة له ولجوازه ، فتنتهي المهمة بسلام وسيضع سيارة تحت امره تعيده صباح الغد الى الوكالة ، وفاتحا معا الفونسو بهذا الاقتراح ، وبتحريض وتشجيع من صهره ، وافق على تنفيذه ، وكان السردوك جاهزا بسائقه ومعاونه وسيارته للتحرك في ذات الليلة عائدا الى مزده مصطحبا معه الفونسو .

مضت سيارة الجيب بهم ، ترتفع وتنخفض وتهتز وترتعش مثل مريض بالحمي ، عبر الطريق المترب ، وعجلاتها تثير الغبار ، الذي يتسلل رغم الزجاج المقفول الى الافواه، منتقلا منها الى الحلوق ليبقى ملتصقا بها ، كما تبقى ذرات منه عالقة باهداب العيون ، حتى وصلوا الطريق الرئيسي الذي لم يكن معبدا ولكنه كان مرصوفا ببعض المواد الجيرية ، اكثر اتساعا واقل ترابا ، فصار بامكان السيارة ان تزيد في سرعتها ، وعبر كتل الظلام التي تشقها السيارة بانوارها الصفراء الشحيحة المريضة ، كان الطريق يظهر تحف به كتل الرمال وتظهر شجرة بين الفينة والاخرى كانها شبح يطل على

الطريق ، وعبر العتمة التي تحيط بكل شي ، الطريق والسيارة ووجوه الرجال داخل السيارة ، اسفر السردوك للفونسو عن وجهه الحقيقي، وجه العدو ، الذي يكرهه ويحسده لانه فاز دونا عنه بجميلة الجميلات انجيليكا ، وافهمه بلغة صريحة واضحة ، وفي حضور هذين الشرطيين من اعوانه ، اللذين يأتمران بامره ، ويبديان استعدادهما ، امام الفونسو ، بل سعادتهما بتنفيذ ما يأمرهما به من تعليمات حتى لو كان امرا بقتل انسان ما ، قائلا له انه الان في قبضته ، يفعل به ما يشاء ، واذا ما قام هذه اللحظة بقتله، وحفر له حفرة في هذه القفار ، فلن يكون ثمة مجال لان يعثر له احد على اثر ، بل لن يعدم وسيلة اخرى اكثر امانا و نجاعة في التخلص منه ، بان يفتعل الان حادثا يحدث لهذه السيارة، ويقول مدعوما بشهادة الرجلين انه قتل اثناء الحادث ، وهو خيار يضعه امامه مستهلا به الحديث ، لكنه سيتركه جانبا ولن يقوم بتنفيذه الا مرغما ، بل كارها ، لانه لا يتفق مع طبيعته التي تكره القتل ،

وسيعرض عليه الان الخيار الثاني الذي سيكون نعيما يتمرغ فيه، مدى الحياة ، اذا سمع كلامه واستجاب له ، اذ ان هناك

منطقة في الصحراء في الجبال المحانية لقرية طبقة ، وهي تقع في اطار المنطقة الادارية للقبلة ، مليئة بنبات الحلفاء ، ربما بكميات اكثر غزارة من جنانن العرعار ، وقد تم ابلاغ شركة الحلفاء ، وتكليفها من قبل نائب الوالي بتأسيس وكالة بها ، على غرار وكالة بانايوتي ، مشترطا هذه المرة ان تعطى الرخصة بمعرفة الجهاز الاداري لمنطقة القبلة ، التي ستنتدب لها رجلا من اهل الخبرة ، يكون صاحب الوكالة ، ولن تجد الادارة عنصرا افضل منه لتسليمه الوكالة ، وسيتولى السردوك نفسه اعطائه المبلغ الكبير الذي يدفعه صاحب الرخصة للشركة على سبيل التأمين ، وسيعطيه المبلغ كاملا ليبقى محفوظا باسمه لدى الشركة ، ويكون ملكه حتى بعد انتهاء مدة الضمان وعودة المبلغ اليه ، وهو مبلغ كبير يزيد عن خمسة الاف فرنك ، وستكون الوكالة هي طريقه الى الثراء باذن الله ، يعرضها السردوك عليه هبة خالصة مقابل شيء واحد لا يكلفه مليما واحدا ، هو ان يطلق انجيليكا ، وهو يرجوه بل يتوسل اليه ان يقبل هذا العرض ، ويعفيه من البديل الاخر ، وهو ازاحته من طريق انجيليكا وتحريرها من

ارتباطها به لتكون حرة تتزوج مرة اخرى ، عن طريق قتله ، اذ لا سبيل لاعطاء المرأة حريتها الا عن هذين الطريقين ، وهو شخصيا يفضل طريق الطلاق ، لانه يعفيه من تلويث يده بدمه ، والاختيار متروك له ، وهو يريد ان يسمع منه ردا الان وفي هذه اللحظة ، دون ان يكون ملزما بتنفيذ هذا الطلاق قبل ان يضمن الفونسو حقوقه كاملة ، ويضع عقد الوكالة في جيبه ، بعد ايداع الضمان في صندوق الشركة باسمه ، عارفا ، يقول السردوك ، انه لن يستطيع خداعه ، لان يده طويلة ، وسيلحق به اينما كان ، ولن يكون اول ولا أخر رجل يلقى حتفه على يديه ، فهو يقتل الناس بحكم العمل وتنفيذا للقانون ، وبترخيص حكومي ، ولن يحير في تدبير الاسباب والوسائل لقتله ولا توفير الشهود الذين سيعينونه في المهمة اذا اظهر خيانته له ، كما انه وبحكم منصبه ايضا يتحكم في عدد من قطاع الطرق ولصوص الصحراء ومجرميها الذين يتصرفون باشارة من اصبعه ، وسيناله اذا اراد نيله سواء بالقانون او خارج دائرة القانون ، وهو هنا الان ، يترك له الخيار كاملا، كل ما يريده منه ان يبلغه بالقرار الذي يختاره ، ولم يكن

الفونسو يستطيع ان يعارض، بل لم يكن يستطيع ان يفتح فمه لينطق باي شيء ، اذ وجد نفسه للوهلة الاولى عاجزا عن فتحه لمجرد ان يتنفس ، فقد انحبس في حلقة الكلام كما انحبست الانفاس ، لان ما قاله السردوك كتم على صدره حتى اشعره بالاختناق ، ولم يستطع ان يقول شيئا ، او يفعل شيئا ردا على عروض السردوك الا ان يهز راسه موافقا على العرض الذي قدمه اليه ويخرج اصواتا اشبه بالحشرجة يفيد بها قبوله له ، ولم يصدق بعد ان وصل الى مزده انه مازال حقا على قيد الحياة، وان السردوك تركه يرتاح في غرفة الضيافة في بيته ، ثم عندما جاء الصباح اخذه معه الى مركز الشرطة للقيام بمهمة التسجيل والتقاط صورة له ولجوازه ، وبعد ذلك اوفى بوعده الذي قاله له في الوكالة ، ووضع تحت امره سيارة الجيب بسائقها تعود به الى بيته في وكالة بانايوتي ، ولكن هل يستطيع ان يسمى ما حدث له الان نجاة من تهديد السردوك؟

اوصلته السيارة الى باب مكتب بانايوتي واقفلت راجعة ، وهرع اليه صهره يساله في قلق عما حدث ،

لانه لم يكن يأمن للسردوك ، ولهذا فهو سعيد بان يراه يعود سالما ، فابلغه صهره بانه قام فعلا بتسجيل نفسه في سجل اقامة الاجانب ، الا ان الامر لم يكن يبدأ او ينتهي عند هذا الحد ، فما التسجيل الا ذريعة استخدمها السردوك لتحقيق غرض آخر كان في نفسه ، واخبر صهره بما تعرض له من تهديد بالقتل من السردوك ، وما عرضه عليه من اغراء مقابل ان يترك له انجيليكا ، بمعنى ان يطلقها ، ليستطيع بالتالي ان تزوج منها ، وبلهفة سأله بانايوتي عما كانت اجابته للسردوك ، فقال الفونسو بشيء من المكر والمخاتلة:

ـ اريد ان استشيرك انت ، عما تريدني ان افعل اونكل بانايوتي ؟

ـ وهل يستحق موضوعا كهذا اية استشارة يا الفونسو ؟ ترفض طبعا ، لانه ليس وحده في البلاد ، ولم تتنازل له حكومة بريطانيا العظمى على حكم البلاد والتصرف في رقاب الناس كما يشاء.

ـ انه يقول بان الحكومة اعطته ترخيصا بالقتل .

ـ انه كاذب سافل حقير ، الا تعرف ذلك ؟

ـ اعرف طبعا اونكل بانايوتي ، وبسبب هذه السفالة والحقارة ، يستطيع تنفيد تهديده لي بالقتل ؟

ـ لابد ان نشتكيه الى نائب الوالي .

ـ نائب الوالي يعرفه ، ويبقيه لانه يخاف منه على نفسه ، ويعرف انه سيصبح قتيلا

لو حاول عزله او نقله .

ـ من قال لك مثل هذا الكلام الفارغ ؟

ـ هناك اناس يرددون هذا الكلام .

ـ انت خائف منه ،اليس كذلك؟

ـ اقول لك ان نائب الوالي مرعوب منه ، فكيف بالنسبة لرجل لا حول ولا قوة له مثلي؟

ــ لا تقل انك اجبته لما يريد .

ــ وهل لديك بديل ؟

ــ هب انك اجبته حقا لتطليق زوجتك ، من يضمن له انها ستوافق على الزواج منه ، او انني شخصيا لن ارفض تزويج ابنتي منه ؟

ــ هذا طبعا راجع اليك اونكل بانايوتي وراجع لانجيليكا ، فانتما من سيدخل في المواجهة معه عندند ، بالنسبة لي فكل ما يريده مني ان اتنحى عن طريقه .

ـ وماهو الثمن الذي عرضه عليك ؟

ـ اولا ، انه لن يقتلني .

ـ وثانيا ؟

ــ وثانيا ، فانه يتحدث عن وجود مكان في الصحراء تنبت فيه الحلفاء بغزارة ، ويملك اذنا بفتح وكالة في يده رخصتها ، يستطيع منحها لي .

ــ هل اعتبر ابنتي انجيليكا طالقا ؟

ــ انها ليست طالقا .

ـ ولماذا وانت فيما يبدو قد اتخذت قرارك ؟

ـ لن يحدث هذا الطلاق الا بعد ان استلم عقد الوكالة في يدي .

ـ لم اكن اظن انك ساقط الى هذا الحد .

ـ الفونسو ليس ساقطا ، اونكل بانايوتي ، الفونسو بائس مسكين .

ينخرط الفونسو في البكاء وهو يكرر كلمتي بانس مسكين ، في حين يتركه بانايوتي ويمضي كعادته في لحظات الكدر والضيق ، متوغلا في البراري ، وقد بدأت العتمة تطبق على المكان،

ماضيا في طريقه حتى احس بنفسه يذوب تماما في الظلام وقد ابتعدت عنه اضواء الوكالة وابتعد عنها .

جاء الى هذا المكان لا من اجل الربح واكتساب المال ، وانما جاء ينشد الصعود في مدارج الصفاء والنقاء متأثرا بمن عرف قديما من النساك ممن رآهم يعتزلون الناس والعمران ويصعدون الجبال لكي لا يصلهم ضجيج الحياة ولا ينسحقون تحت مطالبها كما يفعل سكان المدينة ولا يدخلون صراعاتها ولكن هاهو مهدد بالانسحاق ، مطالب بدخول ميادين الصراع حتى وهو يهرب الى هذا المربع من الجبال التي تحيط به من كل جانب ، واصوات تاتيه من خلفه ومن امامه تقول له لا نجاة ، حتى لو صنع ثقبا في الارض واختفى فيه ، ربما لانه حقا تاخر في هروبه الى الصحراء ، كان يجب ان يقوم بهذا الهروب منذ زمن مضى ، ربما قبل الزواج والانجاب ، كما

يقول له الخاطر الذي يلح عليه مرة وراء الاخرى، ولكن لابد من حل ،

لابد من سبيل لتكسير الاغلال وتحقيق الانعتاق ، لابد من طريق ما ، اما الان فان الهروب يبدو مطلبا عزيزا ، حتى في وضعه الان وهو ينزوي في الظلمة ويرى حلقة الجبال تحيط به كتل سوداء من الظلام ، نعم كانوا اولئك النساك يذهبون في رحلة العزلة والهروب من مشاغل الحياة ومشاكلها ، فرادى ، لا يحملون الا مسئولية انفسهم ، اما هو ، فالامر يختلف بالنسبة له ، فكرة الارتقاء في مدارج الصفاء الروحي ، جاءته وهو يرسف في هذه القيود العائلية ، التي يتعذر معها التحليق بعيدا عن ارضها واجوائها المثقلة بالالتزامات والاحتياجات والمطالب ، وهذه الاسرة التي انشأها ، هي التي يسميها اهل الاجتماع خلية ، وذلك يعني ان تتولد عنها خلايا اخرى ، كما يحدث الان لعائلته ، فابنته صار لها زوج ، ومع الزوج بيت ومسئولية ، ودعك الان من يورجو الذي تلبسته روح شيطانية لا يدري اين ساقته وماذا فعلت به ، اما ابنته فانها معه ، لم تنفصل عنه رغم الزواج ، والبيت الجديد ، لكنه زوج فيما يبدو

، ليس اهلا للمسئولية الزوجية ، فهو يتهاوى مع اول هبة ريح تلاقيه ، يهرب من المواجهة ليتركه وجها لوجه مع رجل بلغ الحد الاقصى من الخسة والسقوط الانساني ، ستكون مشكلته معه انه لن يستطيع ان يحاربه باسلحته واساليبه التي يجيد اختيار اكثرها انحطاطا ودناءة في معاركه ، لو اراد حقا ان يكون شريرا مثله ، ويهبط الى مستوى الاساليب الهابطة التي تتفق مع مستواه ، لما استطاع ان يفعل ذلك ، حتى لو اراد حقا ان يتجرد من جانبه الانساني ويتخلى عن مبادئه واخلاقياته ، لان في الامر شيئا يتصل بالتكوين ، ويتصل بطبع الانسان ، واستعداده الفطري لان يفعل او لايفعل ما يستطيع او لا يستطيع فعله ، نعم ، انه يستطيع التفكير فيما يجب ان يفعله ليجابه الرجل باساليبه وتآمره ، لكنه في التنفيذ ، لن يستطيع ، اليس بمقدوره مثلا ان يكتري له قاطع طريق ماهر في القنص ، يترصد له اثناء عودته من الوكالة الى مزده ، ويصيبه في مقتل ، فتنتهي بذلك كل المشاكل التي يصنعها له هذا الرجل ويقوم بتقديم الخلاص لاخرين كان مصدر ضرر واذي لهم ، لكنه ساعة التنفيذ سيرى امامه قول الانجيل في اصحاح لوقا "

ولكنني اقول لك ما يجب ان تسمعه ، افعل خيرا لولئك الذين يكرهونك ، ومن صفعك على خذك ، فادر له خذك الثاني ليصفعك عليه " او ما يقوله الله بحسب ما ورد في رواية القديس بول " اتركوا الانتقام لي ، انا من يقوم به ، يقول الرب " فهو الذي اخذ عهدا على نفسه ان ينتقم للظلم والمظلومين ، اما الانسان فعليه كما يقول انجيل لوقا في موضع آخر، الا يدين احدا لكي لا يدان ، وعليه دائما ان يغفر للاخرين اخطاءهم لكي يغفر الله له اثامه، ولهذا هو يعرف انه لن يستطيع ان يهبط باخلاقه ومثله الى حضيض هذا الرجل ، فهو طريق يمكن ان يستخدمه ليربح المعركة ضد خصمه وحينئذ سينطبق عليه قال المسيح عمن يربح العالم ويخسر نفسه ،وستكونالخسارة في هذا المعنى خسارة دائمه وهو الذي ارد بمجينة الى هذا المكان نشدان الرفعة والسمو. انه يلوم نفسه لمجرد ان تمرق في خاطره افكار تتصل بالتهديد والانتقام ، ويعتبر مثل هذا الافكار اثم في حق نفسه وحق الاسلوب الذي ارتضاه في الحياة .

لا يدري في مثل هذه الظروف هل يلوم الفونسو على ضعفه وانهياره او لا يلومه ، ولكنه علي يقين الان ان

الحياة الزوجية لابنته بلغت طريقا مسدودا . ولعله ليس شيئا مزعجا ان يحدث مثل هذا الفراق بعد ما ابداه زوجها من سلوك سيء ازاءها ، حتى قبل ان يدخل الرجل البوليسي على الخط ، فهو ليس بالزوج الذي سوف تتأسف ابنته على فراقه او يتاسف هو على اختفائه من حياته وحياة اسرته ، فقد صدمت به انجيليكا منذ اليوم الاول لزواجها به، ثم هاهو يثبت بجبنه وتخاذله وانهياره انه ليس جديرا بها ، ولكنه ابدا لن يسمح للسردوك ان يضم انجيليكا الى حريمه . هناك اسباب كثيرة تبرر اعتراضه على مثل هذا الزواج ، يأتي على راسها اخلاق وسلوك وطبيعة الرجل الاجرامية ، وياتي بعدها انه متزوج وصاحب بيت مليء باولاده وبناته ، وياتي في المقام الثالث فارق السن بينه وبينها وهو فارق يجعلها بمثابة ابنة من بناته ، فكيف خطر له اساسا خاطر ان يكون زوجا لها حتى لو لم يسبقه الفونسو للزواج بها ، ثم هناك سبب رابع يدفعه للاعتراض هو الطريقة الابتزازية الاجرامية التي يستخدمها لتحقيق طلبه ، مما يجعله اكثر اصرارا على رفض ابتزازه واسلوبه الهمجي في التعامل مع مثل هذه القضايا التي لا يجوز

فيها أي نوع من التعامل غير التعامل الانساني القائم على التراضي والقبول والمودة بين كل الاطراف، وهو واثق ان ابنته نفسها سوف ترفض بقوة ان تحيل نفسها الى سلعة يشتريها السردوك بماله ومنصبه ونفوذه ، وهو باعتباره والدها ومصدر الحب والحنان والحماية لها في مضى من عمرها ، لن يتخلى اليوم عنها ، ولن يسمح للسردوك ان يفرض ارادته عليه او عليها . السردوك له رئيس ، هو البريجادير هيوز ، نائب الوالي في منطقة القبلة ، سيذهب اليه وسيسعى للحصول على دعمه ، طالبا الاستنجاد به في الحيلولة بينه وبين الشرور التي تاتي من رجل الامن في ادارته .

عند عودته الى البيت ، انتبه الى الطاولة الصغيرة الموجودة في ركن الصالون، وراى نفسه منساقا للجلوس فوقه ، وقد اخذ القلم وفتح الدرج الذي يضم المفكرة السوداء التي تعود ان يكتب فيها يومياته كلما عن له ذلك ، وغمس الريشة في المحبرة وكتب :

((لا لم يكن هذا ما جئت من اجله الى هذه الصحراء ، لم يكن هذا ما كنت اريده ، ولكن الاشياء يبدو انها تاخذ دائما مسارا بعيدا عما نخطط له ، ونجد انفسنا في مثل هذه الحالة ، مرغمين نمضي عبر ذاك المسار ، ولكن للارادة ايضا دورها ، او لابد ان يكون لها دور حتى ونحن نمضي في طريق لا نختاره ، ولا نريده ، ولا قدرة لنا على تفاديه ، نعم هناك دائما بجوار الحتمية الالهية مجال للفعل الانساني كما تقول تعاليم الانجيل لان الرب لم يمنحنا عقلا لنتركه عاطلا دون عمل ، ويبقى لدينا الاسلوب الذي ندير به الصراع ، اذ كان المسار صراعا ومجابهة ، حيث تتفاوت جهود البشر اعتمادا على ما اعطاهم الله من قدرات عقلية وموارد روحية وامكانيات ثقافية وعلمية ، فهناك دائما من له حكمة يستطيع توظيفها ، وعقل كرم به الانسان بني ادم ، نستطيع استخدامه ، فيما يعرض لنا من قضايا عبر هذا المسار المفروض علينا . هناك بالتاكيد مناطق يجب استكشافها ، وافكار يجب دراستها ، في اطار هذا الموضوع ، سابدا هذه الليلة بفتحها مع كاتيا اذا كانت لم تستغرق في النوم بعد ، وطبعا دون مبالغة او تهويل ، فانا لا

اريد ان اكون في مقام الرجل الذي حذرت منه تعليم الكنيسة والذي يتصور الخطر حيث لا وجود للخطر ، ويخاف من الضرر حيث لا وجود لهذا الضرر ، دون استباق للاحداث ، ودون اهمال لها حتى لا تاخذنا علي حين غفلة))

اقفل بانايوتي الكراس ، ودخل غرفة النوم ليجد زوجته تنتظر دخوله ، تضيء فنار الغاز وتقرأ صفحات من الانجيل . ابدل ملابسه ، واخذ مكانه بجوارها متمددا فوق السرير ويحكي لها باختصار عما وصله من اخبار المؤامرة التي يديرها السردوك ليطلق انجيليكا من زوجها ، وكيف اظهر الفونسو جبنا ونذالة تتيح للسردوك فرصة تمرير المؤامرة ، بيسر وسهولة ، ودون ان يلقى ادنى معارضة ، كان يجب ان يقوم بها الفونسو ، باعتباره الزوج المعني قبل غيره بالدفاع عن بيته وشرفه، ولكن السردوك ، كما اخبر بانايوتي زوجته ، لن يهنأ بتحقيق اغراضه ، ولن يقطف ثمار خسته ومؤامرته ، واذا كان الفونسو قد تخاذل وتراجع ، فانه شخصيا لن يتخاذل ولن يهرب من المواجهة وسيمضي في طريق التصدي لهذا الرجل الكريه ،

حتى النهاية ، واقترح على زوجته الا تفاتح ابنتها بشيء في هذه المرحلة ، فلا حاجة لازعاجها قبل الاوان ، بامل ان الفونسو ، قد ينتبه لنفسه قليلا ، ويتراجع عن المضي في طريق الهوان والمذلة ، ويجد في نفسه ذرة من رجوله ، تعينه على اتخاذ الموقف الصحيح ، ومن ناحية اخرى فقد لا يفلح السردوك في الوفاء بالوعود التي وعد بها الفونسو ، وتبدأ المؤامرة في الانهيار بفعل اصحابها انفسهم .

في اليوم التالي انتظر بانايوتي ان تأتي سيارة الشحن وقد دبر في نفسه امرا ، وانتظر ، بعد ان جاءت ، حتى اكملت اخذ حمولتها من رزم الحلفاء ، ثم دعا السائق ومساعده والعامل القادم معهما ، لتناول العشاء في بيته ، وهي دعوة تقع خارج الروتين اليومي لطاقم الشاحنة ، انها استثناء اراد ان يحقق به غرضا خاصا به ، وهو تاجيل رحلة الشاحنة حتى ساعة متقدمة من الليل ، لانه قرر ان يسافر بواسطتها الى عاصمة القبلة ، لمقابلة نائب الوالي هناك ، ويريد ان يصلها مع طلوع النهار ، لكي لا يجد نفسه هناك في اخر الليل دون ان يجد مكانا

يأويه ، في حالة سفره مع الشاحنة في موعدها ، وسيكون مناسبا بعد انتها مهمته هناك ، ان يعود مع الظهيرة في شاحنة الغد ، وهكذا رتب لرحلة الشاحنة بحيث وجد نفسه في مزده مع شروق الشمس ، ووصل الى مكتب نائب الوالي مبكرا وقبل وصول صاحبه ، فجلس في غرفة الانتظار ، حتى جاء من يبلغه بوصول السيد هيوز ، ويأذن له في الدخول ، فهو على سابق معرفة به ، منذ بداية التحضير لانشاء الوكالة ، ووجد نائب الوالي يستقبله بحفاوة وترحيب ، منوها بمشروع الوكالة ونجاحه في انقاذ عائلات كثيرة كانت تهددها المجاعة من هذا المصير لانه قدم لها مصدر رزق شريف كريم ، وقبل ان يطرح بانايوتي مشكلته على نائب الوالي ، وجده يشير الى موضوع يتصل بالقصة التي جاء من اجلها ويجعل مهمته في طرحها اكثر يسرا ، ففي اطار اشارته الى الوكالة ، وما فتحته من ابواب الرزق امام ابناء البادية وعائلاتها، اشار نائب الوالي الى حقيقة ان الله كان كريما مع منطقة القبلة ، بان حباها بوفرة هذا النوع من النبات المطلوب عالميا وهو الحلفاء ، وكشف له كيف ان هناك شعابا في الجنوب الغربي لمنطقة القبلة ،

وبمحاذاة قرية طبقة ، تتوفر على ثروة هائلة من الحلفاء مما استوجب الشروع في تاسيس وكالة جديدة لجمعها وتصديرها ، وهنا تدخل بانايوتي قائلا بانه قد نما الى علمه خبرهذه الوكالة الجديدة ، وعرف ان مدير الامن لديه السيد صالح السردوك ، يريد استغلال هذه الوكالة لتحقيق مآرب خاصة به ، على حساب بيوت يسعى لتدميرها ، وما وجوده اليوم في مكتبه الا للاستنجاد به من اجل انقاذ بيت ابنته انجيليكا وزوجها الفونسو الذي استهدفه السردوك بشروره ، مستخدما قوة منصبه ، لهذا الغرض وهو المنصب الذي اعطته له سلطة الحماية البريطانية لتسخيره في خدمة المواطنين وحمايتهم لا لارهابهم وتدمير بيوتهم ، وقد جاء اليه باعتباره رئيسه الذي يجب ان يعرف ان الرجل ليس امينا على هذه السلطة ولا نزيها في استخدامه لها . وللحظة بقى البريجادير هيوز صامتا لا ينطق باي تعليق ، ثم داس على زر فوق مكتبه ، فظهر عبر انفراجة الباب وجه احد موظفيه ، فسأله ان يهبط الى مكتب الرائد السردوك ويبلغه بسرعة الحضور الى مكتبه .

فوجيء بانايوتي بهذه المواجهة مع السردوك ، التي يفرضها عليه نائب الوالي فرضا ، دون ان يستشيره او يأخذ اذنه فيها ، وكان يتمني لو تدبر البريجادير معالجة الموضوع بينه وبين مرؤوسه ، في وقت اخر غير وقت وجوده في مكتبه ، وباسلوب آخر غير هذا الاسلوب الذي يسرع بتفجير الصراع بينه وبين السردوك ، ودون ان يعرف شيئا عن موقف البريجادير من الموضوع ، وهل حقا يستطيع تقديم ما يطالبه به من حماية ، اذا اراد السردوك ان يطلق عفاريت الشر التي يخبئها في مخازنه . انه مسار جانبي تتخذه الاحداث ، كما هو الحال مع المسار الاصلي ، دون اختياره ، فليكن ، لانه لن يملك الان الا ان يتعامل مع الامور حسب ورودها عليه ، وليس في امكانه الا ان ينتظر ما سوف يسفر عنه المسار الجديد ، ولم يمض طويل وقت حتى جاء السردوك مرتديا بزته العسكرية ، وبمجرد ان ولج المكتب ورأى بانايوتي، حتى تقدم منه بخطى سريعة ، يلهج بكلمات الترحيب ويفتح ذراعيه ليأخذه بالاحضان باعتباره صديقا قديما عزيزا ، وجلس يرفع بصره باتجاه البريجادير هيوز ، ليعرف سبب استدعائه للحضور الى

مكتبه ، ثم فتح فمه مستبقا ما سيقوله رئيسه ، بكلام يشيد فيه ببنايوتي وسعادته بان يراه في هذا الصباح الباكر بمكتب نائب الوالي ، مؤكدا عمق الصداقة التي تربطه به ، فانبرى البريجادير هيوز يقول له بان صديقه الصدوق السيد بانايوتي جاء في هذا الصباح متجشما مشقة السفر الليلي من محل اقامته في عمق الصحراء ، لغرض واحد هو ان يشتكي له من تصرفاته ، طالبا منه مساعدته في ردعه عما يريد ان يقوم به من اجتراء واعتداء على بيته واسرته ، ويبدي نائب الوالي استغرابه للسردوك كيف لم تشفع الصداقة التي يقول انها تربط بينه وبين بانايوتي من تجنيبه مثل هذا السلوك العدواني ضده ، وبلهجة شديدة الانفعال انكر السردوك ان يكون هناك اجتراء او اعتداء من طرفه على بيت واسرة صديق يحترمه ويقدره ولا يحمل له ولافراد اسرته الا الحب ، ولا في نيته اطلاقا مجرد النية القدوم على مثل هذا الاجتراء ، وان في الامر خطأ او سوء فهم سيقوم بتصحيحة عندما يعرف طبيعة هذه الشكوى ، فافصح له نائب الوالي عن طرف مما رواه بانايوتي ، طالبا من صاحب الشكوي ان يتولى بنفسه اكمال القصة ، وهو ما فعله

بانيوتي ذاكرا كل التفاصيل ، مبديا استغرابه ، ان يتعمد صديق مثله، اختاره ليكون شاهدا على عرس ابنته ، القيام بهدم بيتها ، ساعيا لتطليقها من زوجها، ليرغمها ويرغم اسرتها ، على القبول به هو زوجا لها ، وكان دفاع السردوك امام رئيسه ، الذي انبرى يقوله بحماس وعاطفة ، هو انه فعل مع بانايوتي ما يوجبه حق الصداقة والمحبة ، فلم تكن دوافعه ، الا انقاذ صديقه واسرته وابنته من ورطة اوقعوا انفسهم فيها عندما زوجوا ابنتهم العفيفة ، الجميلة ، الطاهرة ، من رجل بلطجي يسيء اليها ويشتمها ويضربها ولا يعرف قيمة جوهرة مثلها ، ولهذا سعى لانقاذها من براثن هذا الوحش البشري ، وهو نوع من الناس لا تنفع معه لغة الاحسان والفضل ، لانه لا يستجيب لها ، وانما يستجيب فقط للغة المنفعة وارضاء ما لديه من اطماع ، وقد رأى ان سابق تجربته في العمل بوكالة بانايوتي ، تؤهله للنجاح في افتتاح وتشغيل الوكالة الجديدة ، لفترة محدودة جدا ، وعند ارتكابه اول غلطة ، سوف يقوم بطرده منها ، وتقديم الوكالة لمن هو اكثر جدارة ، وليكن هذا الرجل الاقدر والاجدر هو السيد بانايوتي نفسه ، يضمها الى ادارة

وكالته الاولى في جنائن العرعار ، المهم هو تحقيق الانعتاق لانجيليكا الجميلة من حبائل هذا الرجل ، ودخل عامل البوفيه ، يحمل فناجين الشاي ، فتوقف السردوك عن الكلام ، ووجدها نائب الوالي فرصة يسأل بانايوتي ان كان قد فهم الان الدوافع النبيلة وراء تصرفات الرائد السردوك التي ظنها مؤامرة لتهديم بيت ابنته.

فبقى باناويوتي حائرا بين ان يرفع وتيرة المواجهة ، بتكذيب السردوك في كل كلمة تفوه بها،

او ان يجنح الى المهادنة وكسب شيء من السلام مع الرجل يعفيه من الخصومة والاحتراب، ولو لمرحلة مؤقته ، لانه يعرف ان السردوك لن يستطيع ان يخفي نواياه الحقيقية لفترة طوية،

ومحاولة منه للمواءمة بين الموقفين ، قرر الا يهادن السردوك الى حد التسليم بكل ما يقوله من افتراء ، ولا يصده الى حد التوتر والمواجهة ، فقال ردا على سؤال نائب الوالي ، بان صديقه السردوك اخطأ في تقدير الموقف الذي يتصل بعلاقة ابنته بزوجها ، لان ما حدث بينهما من اختلاف هو ما يحدث

بين كل زوجين ، ويتمنى منه ان يترك الفونسو يتفاهم مع انجيليكا دون تدخلاته التي تدفع الزوج لتطليقها ، حتى لو كان مبعث هذا التدخل الحرص على راحة وهناء ابنته ، وهو يعتذر منه اذا اساء تفسير افعاله وظن خطأ ان الدافع وراءها هو رغبته في الزواج من انجيليكا ، ربما لان هذا هو ما وقر في ذهن الفونسو نفسه ونقله اليه ، لانه يعرف ان الرائد السردوك اكثر عقلا من ايسعى هذا المسعى ويطلب الزواج من امرأة في سن ابنته، وله في بيته زوجة واولاد وبنات يملأون عليه حياته ."

واعتبر بانايوتي انه حصل على ما جاء من اجله عندما انتوى زيارة نائب الوالي، ويكفيه انه افصح للرائد السردوك عن رأيه الرافض والمستهجن لفكرة زواجه من ابنته ، وامام رئيسه الذي سيبقى شاهدا عليه فيما لو اظهر في الغد شيئا مخالفا لما قاله اليوم ، ولم يكن يفيده ان يتجاوز الحديث في مكتب البريجادير هيوز هذا الحد ، فقد يبدي الرائد السردوك بدهانه وخبثه شيئا ، او يقول كلاما مشوها ممسوخا ، يرد به على ما ابداه من استهجان ورفض لزواجه من ابنته ، ولهذا قام

يصافح نائب الوالي ، ويصافح السردوك ، ويستأذن في الخروج عائدا الى وكالته مع الشاحنة القادمة من طرابلس ، فوجد ان نائب الوالي يخرج لوداعه حتى باب المكتب قائلا له ان مكتبه مفتوح له معبرا عن حرصه بالا يرى احدا يتعرض له بالازعاج او الاذى ، وسعيدا بالنتيجة التي وصل اليها خرج يملا رئتيه بهواء جديد يزيل ثقل الاجواء التي كبست اياما على صدره ، ووجد ان هناك وقتا يفصله عن موعد مجيء الشاحنة يزيد على ثلاث ساعات ، فاتجه الى مضيفة شيخ اشياخ الصحراء السيد احمد قرزه ، الذي يملك بيتا يقيم فيه عند وجوده في مزده ، وقد نصبت امامه مجموعة خيام ، مفتوحة لضيوف الرحمن ، فذهب لقضاء فترة الانتظار في المضيفة، بدأها بالدخول على مجلس الشيخ لتقديم التحية له ، لانه سبق ان التقى به وسمع منه عاطر الثناء على انه فتح باب العمل لعدد من ابناء قبيلته ، ثم انتقل الى خيام الضيافة ليتناول الغذاء، جالسا في حلقة من خمسة انفار ، تاتيها قصعة الكسكسي مع خمس قطع صغيرة من القديد ، وجلس يدردش مع الناس ، مستمتعا مثلهم ، بالدورات الثلاث من الشاي

الاخضر التي تعقب الغذاء ، حان بعدها موعد انتقاله الى الطريق الذي يقود الى الصحراء ، لاعتراض سيارة الشحن ، وعندما لاحت له من بعيد ، وقف في منتصف الطريق ،يلوح بكلتا يديه ، لكي لا تعبره الشاحنة ، ظنا من سائقها انه مجرد مسافر يبحث عن وسيلة نقل ، حتى ارغمه على الوقوف ساخطا ، وتحول سخط السائق الى ضحك وابتهاج عندما وجد ان الرجل لم يكن الا بانايوتي صاحب الوكالة ، يريد ان يعود الى وكالته .

-17-

استشعرت الخطر ، وخاصمها النوم ، وهي ترى القلق في صوت زوجها قبل ان تراه في كلماته التي بدل جهدا في تخفيف حمولتها مما يعتمل في صدره من غضب وغيظ ، وفي بواكير اليوم التالي لذهابه مع سيارة الشحن الى مزده ، ذهبت كاتيا الى بيت ابنتها لايقظاها واصطحابها في رحلة الى خيمة العمة مريومة ، ترجوها ترتيب زيارة جديدة ، الى

الشيخة خديجة لان هناك امورا تلوح في الافق لا تطمئن اليها ، وقادتها العمة مريومة الى نفس الهضبة ، صاعدة بها الى ذات الشق عند ملتقى الصخرتين وعين الماء التي تنز ماء شحيحا تحتهما ، والشيخة خديجة ، التي تقبل على العمة مريومة ترحب بها في حماس ومحبة ، لحظة ان تسمعها وهي تلقى التحية ، فتظهر في سمتها المبارك الجميل ، وخضرة جلدها الزاهية تلمع تحت مسقط شمس الصباح، و لسانها الاحمر يواصل روتينه الدائم خروجا ودخولا ، متوافقا مع حركة عينيها المتلصصتان شمالا ويمينا ، وتكرر مع كاتيا وابنتها ما حدث لهما في المرة الاولى ، وعادتا بكمية جديدة من الاعشاب التي يتم نقعها في ماء ساخن ثم شربه ، او تحرقه وتتبخر انجيليكا بدخانه ، درءا لشر العين ، واتقاء لحسد الحاسدين ، وجاء الاب مساء يحمل كلاما مطمئنا الى حد ما ، ازال شيئا من القلق الذي ظل ملازما لها حتى بعد زيارة الشيخة خديجة ، ناقلا لزوجته ما حدث من هدنة في الصراع مع السردوك ، وعندما سالته عن مستقبل ابنتها مع زوجها ، اجابها بانه امر متروك للزوج ، وهو نوع من الاختبار للفونسو ، وامتحان لصلابته

وقوة معدنه ، فاذا نجح في الاختبار واستطاع ان يتخذ موقفا سليما يحافظ به على بيته وزوجته فاهلا وسهلا به ، واذا تخاذل وهرب من المواجهة فهو اذن لا يستحق ان يتأسف احد عليه ، او يحزن لفقدانه ، وسيأتي لابنتهما نصيبها لان لديها من جمالها ، والمستوى الاقتصادي لاسرتها ، ما يؤهلها للحصول على زوج افضل من هذا الزوج الذي ارغمتهم المأساة التي صنعها لها شقيقها على القبول به ، بل وصل الامر الى حد استجدانه ان يتزوج بها ، وطالما ان هذا الفصل الكريه قد انطوى ، فلا اسف ان ينطوي معه فصل اخر هو زواجها من الفونسو ، وعلقت الزوجة بان كل ما ترجوه من الله الان هو ان تخرج ابنتها من هذه الزيجة اذا خرجت دون حبل وانجاب ، لان وجود طفل في الطريق ، لن يزيد الامور الا تعقيدا.

واستيقظ بانايوتي في اليوم التالي ليراقب تطور الامور ، خاصة فيما يتصل بصهره الفونسو ، الذي واصل عمله كعادته كل يوم ، وواصل التردد على بيته في روتين طبيعي ، دون ان يبلغ انجيليكا باي شيء يخص مستقبل علاقتهما الزوجي ، مما اوحى لبانايوتي بان هناك تراجعا في الخطة من

طرف السردوك ، بعد ما حصل من حديث امام نائب الوالي ، وهو امر راى فيه علامات تبعث الطمانينة في قلبه ، الا انه طمانينة قصيرة العمر جدا ، اذ بددتها بعد يومين سيارة جيب حكومية اقتحمت الوكالة بازيزها وغبارها ودخان عادمها الذي كان معطوبا، تحمل لوحة شرطة القبلة ، مما يعني انها مبعوثة من الرائد السردوك ، لا تحمل الا سائقا له اذنان في حالة انتصاب، هبط يسأل عن الفونسو لنقله الى مزده ، وبقى واقفا بانتظاره حتى اكمل شغله في شحن سيارة النقل برزم الحلفاء، ثم ارتدى ملابسه وانتقل ليجلس بجوار السائق متحركا به صوب مزده ، ومع مساء اليوم التالي ، وفي موعد يتوافق مع وقت تحميله لرزم الحلفاء في الشاحنة ، اعادته نفس سيارة الجيب الى الوكالة واقفلت راجعة بعد ان تركته مغمورا بزوبعة الدخان الصادر عن عادمها المكسور، وانتظر بانايوتي ان يرى شيئا جديدا يحدث عقب هذا المشوار ، الا انه لا شيء جديد يحدث ، ولم يشأ ان يسأل الفونسو ، لكي لا يضفي اهمية على تحركاته يرضي به غروره ، ترك الامور تمضى وهو يراقبها من بعيد ، الى ان تظهر امامه نتائجها

فيتصرف عندند على اساسها. ثلاثة ايام مضت بعد رحلته الى مزده ، دون ان يخرج الفونسو عن روتينه ، وفي اليوم الرابع تكرر نفس المشهد ، واقتحمت الوكالة ذات السيارة ، تحيط بها زوبعة من الغبار وتتبعها زوبعة شديدة السواد من الدخان ، تحمل نفس اللوحة التي تكشف هويتها البوليسية ، ويقودها نفس السائق باذنيه المنتصبتين كاذني كلب ، وقد جاء في مهمة لا تختلف عن مهمته السابقة ، وهي استدعاء الفونسو من قبل مدير المنطقة الامنية السيد السردوك ، وذهب الفونسو وعاد ، كما في المرة السابقة ، ليواصل روتينه دون تغيير . لم يكن ممكنا ، ان تكون هذه الزيارات بلا سبب كما ينظر اليها بانايوتي ، ولكنه لا يراها قد جلبت لصاحبها اية نتيجة ، مع انه يتحرق فضولا لان يعرف من الفونسو ما يحدث ، ولكنه يقمع نفسه ، عارفا ان الفونسو لن يبوح له بالحقيقة ، فيجد ان من الافضل والاجدى بالنسبة له ، ان يترك الامور تكشف عن نفسها بنفسها في الوقت المناسب ، ومرت ايام عديدة بعد الزيارة الثانية ، لا يحدث اثناءها أي شيء ، وصلت الى اكثر من اسبوع ، بل عشرة ايام بالتمام والكمال قبل ان تاتي ذات

السيارة ، وقد اصلحت هذه المرة عادمها ، متحررة من زوبعة الدخان ، وان ظلت ترافقها كما هي العادة زوبعة الغبار، تحمل استدعاء جديدا لباه الفونسو ، الا انه عندما عاد ، رجع هذه المرة مهموما ، كسير البال ، كثير الشرود وغياب العقل ، الى حد ان اعوانه في رفع رزم الحلفاء بالرافعة ، ووضعها في الشاحنة ، صاروا يحذرونه من سرحاته التي تهدد بالكوارث ، لانه في اكثر من مرة كان يدفع بالرافعة للارتفاع دون حمولة ، ويديرها في اتجاه خاطيء كاد في احدى المرات يضرب بها راس احد العمال ، مما يؤكد انه مهموم بشيء يقلقه ويقض مضجعه دون ان يفصح عنه لاحد ، وبانايوتي يشتعل فضولا لان يعرف السبب ، الا انه لن يتنازل ويسأل الفونسو ، فقط قاطعه ، وامتنع عن تبادل أي حديث معه ، منذ تلك الليلة عندما عاد من مزده يرتعش فزعا وهو يخبره بما تلقاه من تهديد بالقتل ، وانهار معترفا بخضوعه لارادة السردوك، فقطع تلك الليلة حديثه معه ولن يعود لمخاطبته حتى تصل هذه القصة المؤسفة الى نهايتها، شرا او خيرا ، فهي قصة ما تزال تجر ذيولها ولن تنتهي الا بانتهاء هذه العلاقة المشبوهة القائمة بين

الفونسو والسردوك ، التي تركزت في المدة الاخيرة في سيارة جيب ترحل جينة وذهابا بين الوكالة وعاصمة المركز ، الا ان السيارة طال هذه المرة اختفاؤها الذي وجد فيه بانايوتي تفسيرا لشرود الفونسو وفقدانه لتوازنه ، فهو غياب ينبيء بحصول فشل في الخطة، او عدول عن قيام الوكالة ، وضيا ع امال الفونسو في الحصول على رخصتها ، مما يعني سقوط جانب الاغراء في مساومات السردوك معه ، وبقاء جانب التهديد فقط ، اذ انه انقضى اكثر من شهر الان على غياب السيارة ، وجاء موعد اقامة العرس المتفق عليه بين عائلة الاومباشي جبران وعائلة خليل مكاري ، وفي يوم سابق لبدء العرس ظهرت سيارة الجيب لاداء نفس المهمة ، اقلت الفونسو واعادته في اليوم التالي ولكنه هذه المرة لم يعد بمفرده ولكنه عاد في موكب مهول قوامه اربع سيارات بدلا من سيارة واحدة ، وجاء مصحوبا بالرائد السردوك ، ورجل اكثر اهمية ، لم يسبق له تشريف الوكالة هو البريجادير هيوز ، نائب الوالي في منطقة القبلة ، فقد نقل لهما الفونسو ان اليوم هو اليوم الاول في احتفالات العرس الذي يتزوج فيه ابن المكاري بابنة الاومباشي

، ولان نائب الوالي يعرفهما كما يعرفهما السردوك، فقد جاء الاثنان ، خاصة وان نائب الوالي ، حسب قوله ، كان يبحث عن اول فرصة يزور خلالها جنائن العرعار ، التي سمع وقرأ كثيرا من التقرير حولها ، وتفقد احوال الوكالة ، فجاء هذا العرس يعطيه سببا وجيها لاتمام زيارة طالما فكر في القيام بها ، وقد جاء كبار اهل النجع لاستقباله واستقبال قائده الامني ، وكانت احدى العربات تجر وراءها عربة الكارفان وهي غرفة مجهزة بسرير ودورة مياه وصالون صغير وركن للطبخ مزود بموقد الغاز ، كما تحمل جهازا للاضاءة بنفس المادة ، يستخدمها نائب الوالي في تنقلاته الى المديريات الصحراوية ، وقد هيأ اعوانه مكانا للكارفان على بعد مائتي متر من ابنية الوكالة ، وقاموا بتنظيف المدخل المؤدي اليها من الحجارة ونباتات العجرم ، وافصح نائب الوالي عن نيته البقاء الى يوم الخميس ، طالبا من بانايوتي ان يطلعه على اسرار هذا المكان الجميل الذي يجده مبهرا بما توفر له من تكوينات طبيعية ، وما يملكه من طابع خاص يجعله مختلفا ومتميزا عن بقية مناطق الصحراء التي تنقل كثيرا بينها ، قائلا بان هذه الجبال التي

تحيط به من كل جانب كما يحيط الخاتم بالاصبع ، تجعله مكانا محصورا ، محدد المعالم ، ومع ذلك لا يفقد ما يسميه بلغته الانجليزية Sense of space ، باحثا عن كلمات بلغته العربية تعبر عن عن معنى الاحساس بجمالية هذا الفضاء المحصور ، اذ ان شساعة الارض هنا ، كما يقول ، لا تشبه الشساعة المريبة والمخيفة للصحراء الكبرى التي لا حدود لها ولا نهاية على مدى ما يصل اليه البصر ، فهي هنا شساعة مستأنسة ، شساعة قابلة لان يتآلف معها الانسان ، ويحس انه قادر على التعامل معها دون خوف من التوهان فيها ، سشاعة هو الذي يسيطر عليها ، لا تلك التي ترعب الانسان عندما يكون بداخلها ، انها هي التي تسيطر عليه ، أي على حياته وحركته ، محاولا وهو يقول هذا الكلام ، ان يعوض باشارات اليدين ولغة الجسد ما لا تستطع نقله لغة الكلام ، فكان يفتح ذراعيه على وسعهما كانه يريد ان يحتوي هذا الفضاء بينهما ، ويرفع راسه يدير عينيه في مظاهر الطبيعة التي تحيط به ، ويعلو بصوته حتى يصل الى حلقة الرجال التي صارت تزداد ازدحاما حوله ، وقد شارك اكثر من نفر في

احضار الكراسي ، ووضعها قريبا من المكان الذي اختاره لتثبيت الكارفان ، لكي ينأوا بمجلسه عن الدائرة التي تدور فيها مناشط العرس ، فهو عرس كبير حافل بشتى انواع النشاط ، باعتباره يتم بين عائلتين من اكثر عائلات النجع عراقة ، وتجذرا في عاصمة المنطقة ، ولذلك فقد تم استدعاء اناس من مزدة ، خاصة رجال الخيالة ، الذين جاءوا يركبون ظهور جيادهم ، وباشروا فور وصولهم هذا المساء ، اجراء مباريات العدو بالجياد فيما بينهم ، واظهار مهاراتهم في مضمار السباق ، وسط زغاريد النساء وغناء المغنين ، واصوات البواريد تطلق رصاصها ، دون ان يحدد احد مصدرها ، وتوقف اطلاقها عندما وصلت سيارات الحكومة ، احتراما للضيوف الرسميين ، وربما خوفا منهم ، فهو رصاص بلا ترخيص ينطلق من بنادق لا ترخيص لها، الا ان الحكومة لا يخفى عليها مثل هذا السلاح في البادية ، وتغض الطرف عنه ، ولذلك فان باتايوتي عندما استأذن نائب الوالي في ان يستمر اهل العرس في اطلاق نيران بنادقهم استكمالا لمباهج وتقاليد الفرح اذن له ، وساهم السردوك في تنشيط هذا التقليد

بان امر مرافقيه من رجال الشرطة ، باطلاق بعض الاعيرة النارية في الهواء ، فرحا وابتهاجا ، كما استمر الملهاد او الميز كما يسمونه ، فهو يرافق ايام وليالي العرس التي سوف تمتد لاربعة ايام ، ختامها ليلة الدخلة ، وقد بدا مع بداية العرس نحر الشياه والجديان ، التي يتوزع لحمها مصحوبا بما تحتاجه ولانم العرس من مواد تموينية ، على عدد من عائلات النجع ، للمشاركة في تجهيز الطعام ، والذي يتكون غالبا من قصاع البازين والكسكس والمكرونة ، تحمل بعد تجهيزها واعدادها للخيام التي يجتمع فيها ضيوف العرس واهله من نساء رجال يتحلقون جالسين فوق الارض ، وقد افترشوا الاكلمة والحصران ، في حلقات قوامها خمسة اشخاص لكل حلقة ، وقد تم اعداد مجلس خاص لنائب الوالي ومرافقيه وكبار اهل النجع ، فرشت فيه افخر الابسطة وفوقها الوسائد والمراتب المحشوة بالاسفنج ، واثناء العشاء وضعت امام اعضاء هذا المجلس ثلاث قصاع من المكرونة تتميز عن بقية القصاع باحجام اللحم الذي وضع فوقها اكراما لهم ، وكانت هدية نائب الوالي وقائد المنطقة الامنية ، مجموعة خراف

نقلتها سيارة نصف نقل ، وتم انزالها وتزيعها مناصفة بين عائلتي العروس والعريس ، وكانت فرقة الشوشان للفن الشعبي يرافقها عاشور بمزماره الشعبي ، تتنقل بيه الخيام يتبعها الاطفال يشكلون حلقات كبيرة للرقص وترديد الغناء، ويتحركون مع حركة الفرقة ، وحان موعد خروج الموكب النساني الذي ينطلق من خيمة اهل العريس محملا بهداياه الى العروس في خيمة اهلها ، وهي الملابس والسلة التي تحتوي على العطور والكحل والسواك والشمع والحناء ، حيث يخرج نساء بيت العروس امام خيمتهم لاستقبال هذا المحمل كما يسمونه ، بالزغاريد وعزف الدفوف ، وغناء نساء الافراح او الزمزامات ، وباعتبار انه لا وجود في مثل هذا النجع لنساء الافراح المحترفات ، اللاتي يطلق عليهن الزمزامات ، فان نساء النجع يقمن بهذا الدور تطوعا ، ثم يتواصل بعد دخول الهدايا الى الخيمة غناء البوطويل، بينما تقوم فرقة الشوشان مع مزمار عاشور بمهمة الطواف بين الخيام .

تواصل في اليوم التالي لعب الفرسان بخيولهم عبر المضمار الذي صنعوه بين ابنية الوكالة وخيام النجع ، وعلى الجانبين يقف النساء والاطفال في صف ويقف الرجال في الصف المقابل ، يشاركون بالتصفيق وترديد الغناء وراء الفرقة ، وفي موقع بين صف الرجال ، تم تحضير مكان خاص لنائب الوالي ومرافقيه صفت فيه الكراسي ووضعت مظلة تظلل الروؤس وتقيها من اشعة الشمس ، لمشاهدة الملهاد ، ولم يتوقف الفرسان عن العدو الا عندما انتصف النهار واشتدت حرارة الشمس على بقية المشاهدين ممن لا وجود لمظلات فوق روؤسهم ، حيث انسحب الجميع الى الخيام لاستراحة الغذاء ، والاحتماء بها من قيظ القيلولة ، وظلوا بها حتى انكسرت حرارة الشمس ، قرب لحظات الاصيل ، فتفجر الفضاء من جديد غناء وعزفا للطبول والمقرونة واطلاقا للاعيرة النارية ، بينما اخذت حوافر الخيل تدق الارض بعنف وقوة وبايقاع سريع يكاد ان يحقق توافقا وانسجاما مع ايقاعات الطبول ، وكانت هذه الليلة هي ليلة الحناء ، وهي نفسها ليلة النجمة في اعراس البادية ، حيث تنتظر النساء

بزوغ قرص القمر، فيخرجن في موكب حاشد وبينهن العروس ، التي تكون قد ارتدت ملابس العرس التقليدية، فيما يسمى البذلة الكبيرة وهي بذلة موشاة بالفضة ، كما ترتدي ما توفر لديها من حلي اغلبها ايضا من الفضة ، وتكتمل في جلوتها وتمام زينتها ، وتتوافد نساء بيت العريس للتعرف عليها، قبل ان يشاركن هن ايضا في اصطحابها الى جزء من الخلاء الممتد بمحاذاة النجع دون ان يصطحبن معهن أي مصدر للضوء نارا او فنارا يولع بالغاز ، عدا القمر والنجوم ، وهناك في تلك البقعة المختارة من الخلاء ، تبدأ العروس بان تسفر عن وجهها كاملا وتتجه به الى اعلى ، شاخصة الى السماء ، وتتجه الى القمر تغسل وجهها بنوره ، وتفعل مثلها بقية الصبايا تبركا بهذا النور ، والسنتهن تلهج بالدعاء الى خالق الكون بتحقيق امانيهن وهن ينشدن الخير والهناء والسعادة في الزواج والحياة ، وكان اكثر الناس احساسا بالابتهاج والاثارة نائب الوالي ، الذي كان يقف على مسافة بعيدة من موكب النساء ، يراقبهن وهن يقمن بهذا الطقس ، دون ان يكون باستطاعته ان يتبين ملامح الوجوه التي رفعت الاغطية

شاخصة الى القمر ، كما لم يكن ممكنا وهو في حضرة رجال النجع ان يكون اكتر اقترابا ، مراعاة لما تفرضه التقاليد من الابقاء على مسافة بين الرجال والنساء ، الا انه مع ذلك كان سعيدا بان يرقب هذه المشاهد والمناشط ويسمع شرحا لها من بعض اهل الوكالة ، ويعود موكب العروس بعد مخاطبة قرص القمر بالدعاء وبثه الاشواق والامنيات ، الى الخيمة لاتمام طقوس الحنة ، وبالذات تحنية يدي وقدمي العروس من قبل احدى نساء النجع التي تقوم بدور الزيانة ، تحت مراقبة واشراف ام العروس ، التي كانت جاهزة باحضار المناديل الاربعة التي اشتغل فيها المقص تقطيعا لرسم تكوينات وتشكيلات تبقى على شكل ثقوب ، وتلف بها يدي وقدمي العروس قبل الصاق عجينة الحناء فوقها ، ليتحدد من خلال تلك الثقوب نوع الرسوم والزخارف التي سوف تنطبع فوق هذين اليدين والقدمين ، بعد ان تجف الحناء ويتم انتزاع المناديل ، وهي زخارف وتكوينات تتنوع في جماليتها وبهاء تخطيطها متوارثة في اشكلها التي تنتقل من جيل الى جيل ، وتشير اليها بعض العجائز باعتبارها تعاويذ مكتوبة بلغة

مجهولة ، تخدم بجوار الهدف الجمالي الذي يضيف زينة الى ما تتزين به العروس من مظاهر الزينة الاخرى في التزويق والحلي والملابس ، هدفا يتصل بمحاربة العين واتقاء شر الحسد، وغالبا ما تمتد الى يد الزيانة التي بيدها عجينة الحناء ، ايادي واقدام نساء اخريات يطلبن منها ان تشملهن بفنون حنانها ، ولكن ليس بالضرورة بذات الدقة والاتقان واستخدام المناديل المثقوبة ، فهذا امر يجب ان تتميز به العروس وحدها ، لا تنافسها فيه امراة اخرى، وتواصلت في اليوم الثالث الاحتفالات التي استهلها بداية فرسان الخيالة صباحا ومع المساء بدا االترتيب لتلك الليلة الكبيرة التي تسبق ليلة الدخلة ، وهي ليلة النخيخ ، الرقصة التي تقدمها صبايا النجع ، وقد تم اعداد مكان في الخلاء المحاذي للنجع ، تعاون الرجال على طرح ارضه وتنظيفها، وبعد ذلك فرشها بكل ما في النجع من اكلمة وبسط وحصران ، وتم تقسيم المكان الى جزنين ، جزء لجلوس النساء والاطفال ، ويقابله جزء لجلوس الرجال ، بينما خصصت المساحة الفاصلة بين الجزنين ، لنساء رقصة النخيخ ومن يتولى العزف والضرب على الطبلة وترديد الاهازيج

المشهورة في الافراح امامهن ، وقد تم الاهتمام بهذه المساحة ، باعتبارها البقعة المخصصة لتقديم العرض الفني لهذه الليلة الكبيرة وذلك بتركيز اكبر قد من الاضاءة فوقها بالاضافة الى النار التى توقد على مسافة من الحفل وتظل طوال الليل مشتعلة يغذونها بالاحطاب تصنع لهبا في حجم الجبل ، وتوضع في النار اكبر كمية من الاعشاب ذات الرائحة الزكية تفوح بعطرها في ارجاء المكان وفرش هذه المساحة من الارض بافضل الابسطة والمفارش , وتبخيرها بالبخور الزكي ، ورش المحيط الذي حولها بماء الورد ليكون مكانا مناسبا لجلوس العروس ترافقها مجموعة من الصبايا ونساء النجع ، ليقمن معها باداء هذه الرقصة البدوية التي يتم فيها الاعتماد كليا على حركة شعر الراس المتهدل فوق الوجه ، ويغطيه فلا تظهر ملامحه ، وتعتمد فيه المراة على تحريك رأسها ليغذو الشعر الطويل يتماوج ويتمايل في رحلة ذهاب وعودة من اليمين الى الشمال وبالعكس ، وهي جالسة على ركبتيها ، تصاحب حركة الشعر بحركات يديها ، ولهذا السبب فان الصبايا والنساء الشابات ، وتمهيدا واستعدادا لمثل هذه الليلة

، يعتنين بتربية شعر روؤسهن ، لتكون طويلة ويتعهدنها بالطيب والزيت لابقانها لامعة ناعمة ، ويعتنين بتمشيطها وتعطيرها قبل الحفل لتكون فانحة بالاريج الجميل ، تتهدل في انسياب ويسر ، وتأخذ العروس مكانها في منتصف الصف ورفيقاتها يجلسن عن يمينها وشمالها، لتتحرك الروؤس في حركة متناغمة ومتوافقة مع ايقاع الموسقى ، أي مزمار عاشور ودفوف فرقة الشوشان ونقرهم بالعصي فوق القصاع الخشبية ، والنساء خلف صف العروس ورفيقاتها يطلقن الزغاريد ويشاركن بالتصفيق وترديد الغناء ، وكذللك يفعل الرجال في الجانب المقابل ، وقد جلسوا على شكل حدوة حصان ، في الطرف الايمن من هذه الحدوة وضعت مجموعة من الكراسي ليجلس فوقها نائب الوالي والسردوك ومضيفهما باناپوتي وصهره الفونسو وثلاثة هم طاقم الشاحنة،وهم الذين اختلفت ملابسهم عن الاردية الليبية التقليدية التي يرتديها رجال النجع، وكلهم جلسوا على الارض ، وعاشور جالسا بين زملائه في العزف ، يملأ قربة المزمار بهواء انفاسه ثم

يترك لهذه القربة النفخ في قصبتيِ المزمار في حين يأخذ فرصته في الانشاد مستهلا انشاده بمدح الرسول

يارسول الله يا نعم الامين

يارسول النور والنصر المبين

وقبل ان يبدأ في ترديد قصائد الغزل الشعبية التي يحيي بها الافراح، وقبل ان تبدأ نساء النخيخ رفع الاغطية عن روؤسهن ، وصلت الى مكان النخيخ انجيليكا لتشارك في الرقص وتاخذ مكانها بين بقية النساء المصطفات لاداء دورهن في احياء ليلة العرس الكبيرة ، جاءت تتهادي ، وتتثنى في غنج ودلال ، وقد ارتدت هي ايضا هذه المرة لباسا بدويا ، مشابها لما ترتديه نساء النخيخ ، اختلفت عنهن في الحلي فقط ، فحليهن فضة تتالق تحت المصابيح وتنعكس فوقها السنة النار التي تستعر في مرتفع من الارض ليس ببعيد عن مكان الحفل، بينما الحلي التي جاءت انجيليكا ترتديها ، حلي من ذهب ، مما تشتهر بارتدانه نساء طرابلس، مثل قلادة الشجرة وهي قلادة ذهبية مصنوعة من الليرات التي تغطي الصدر كله وتتسلق الجزء الاعلى من الجسم مثل شجرة ممدة الاغصان ، والدمالح

والاقراط والبروش المرشوق في شكل تاج باعلى الرأس ، ومن تحته يتهدل الشعر في كراديس على الكتفين وخلف الظهر ، وقفت تتخير لها مكانا للجلوس بين بقية النساء ، وهي في تمام مجدها الانثوي، تتراقص السنة النار فوق وجهها السافر ، المكشوف للنجوم والبدر الساطع ، واعين حشود العرس من نساء ورجال تشخص اليها بانبهار، وكاظهار لما تتوفر عليه اسرتها من نعمة ويسار ، ارتدت في ساقيها فردتي خلخال من الذهب ، واحاطت خصرها بحزام من الذهب،علاوة على مجموعة من الخواتم الذهبية في اصابعها ترصعها الاحجار الكريمة ، وخطت بقدمين حافيتين لهما لون الذهب ايضا فوق الابسطة وقد افسحت لها الصبايا مكانا بجوار العروس ، ورفعن الاغطية على رؤوسهن، لتتبدى الشعور مسدولة امام وجوههن ، وارخت انجيليكا هي الاخرى جدائل شعرها الغزير الناعم الطويل الذي كان مفكوكا يتدلى حتى نصف جسمها ، وجعلته ينسدل امام وجهها ، وانطلق عاشور في موال طويل ، يعبر عما رأه، يخص بغنانه انجيليكا ، كانه مساق بطاقة سحرية يصف جمالها وهي تضع شالا كثير

الزخارف والالوان بين يديها ، تلعب به اثناء جلوسها على ركبتيها تباشر الرقص مع بقية النساء ، فمضى يقول ارتجالا :

يازين يا لابس الزين

يا جاي من بلاد بعيدة

على الصدر لابس ذهب

وفي الساق واليد والخصر

والجسم مصبوب صب

يللش في كسوة جديدة

ثم دفع بانفاس جديدة في القربة ، وانتقل الى الايقاع السريع وقد زادت حركة اصابعه فوق فتحات القصبتين كما زاد ايقاع الدفوف والنقر بالعصي سرعة وقوة

مرحب يا لاوي هالشال

اسمعني يا بو هدوب طوال

عليك الخاطر زايد حال

اعرف باقداره خلك زين

مرحب بيك ومرحبتين

يا زين ويا سيد الزينين

حيث بدا واضحا ان هذا المغني لم يعد يرى احدا في العرس الا انجيليكا ، وقد شرد قلبه وراءها ، وطار صوابه بسبب جمالها الذي تجلى في اكمل زينته ، ولم يعد يعزف ويغني الا لها، حتى العروس المعنية بهذا الفرح ، لم ينتبه الى مجاملتها بسطر واحد من كلمات الغناء التي يرتجلها ، الا ان احد اعضاء الفرقة همس في اذنه يذكره بالعروس ، فنظر خلفه ونظر شماله ويمينه كانه يعتذر للحاضرين ، وطفق يرتجل شينا من الغناء يخص العروس :

عرسك يا بنت لاجواد

جيناه من كل صوب

والصوب صوبين يا بنت لاجواد

صوب المحبة

وصوب البعاد

وصوب هاللي مفارق حبيبة

وجيناك من بلاد وبلاد

باغيين نفرحوا بيك

والفرح فرحين

فرح في القلب ياخذ مكانه
وفرح للناس السعيدة
والله يجعله عيد واعياد
وكل حد يتهنى بعيده
وهالنجع اللي ايجيه الميعاد
بركة ربي تنزل فيه
وايقويه على كل منه ايعاديه
وعرسك يا بنت الاجواد

وفي حين كانت نساء الرقص البدويات يحرصن على الا تظهر ملامح وجوههن من وراء قناع الشعر ، فان انجيليكا باعتبارها امرأة تخرج سافرة بحكم طبيعتها واسلوب تربيتها ونشأتها وعادات اهلها ، فانها وحدها بينهن من كانت تترك الشعر يتطوح بعيدا ليكشف للناظرين كامل وجهها ، يضيء ويبرق في ومضات اثناء رحلة الشعر ذهابا وعودة ، فكان وجهها الوجه الوحيد ، الذي يظهر بين بقية الراقصات ، كما انها لم تلتزم مثلهن بالبقاء جالسة طوال الوقت ، لان النخيخ بالنسبة اليهن ،

جلوس على الركبتين وحركة من النصف الاعلى للجسم ترافق حركة الرأس والكتفين مع رحلة الشعر ، بينما تمضي اليدين في رحلة موازية لحركة الشعر كما في الرقص الهندي الذي يعتمد على تحريك الذراعين واليدين والاصابع اكثر مما يعتمد على بقية الجسم ، ما عدا انجيليكا ، التي لم يكن يعنيها ان تلتزم بقواعد النخيخ في الجلوس الدائم على الركبتين، وان التزمت بالقواعد الاساسية للرقصة وهي الاعتماد على الشعر وتحريكه ،ون ان تكتفي به وحده ، ربما محتدية بذلك بما راته يحدث من تطوير لهذه الرقصة البدوية اثناء استخدامها في اعراس طرابلسية وتطويعها لانواع من الرقص تقوم به النساء في تلك الاعراس ، فنهضت من مجلسها واقفة وتحركت بكامل جسمها ، جاعلة الجسم يشارك الشعر في الحركة والاهتزاز والرقص ، وكانها عامدة متعمدة تريد اظهار المؤهلات الانثوية لهذا الجسد ، وتتركه يعبر عن نفسه افصح وابلغ تعبير في هذه الليلة الكبيرة من ليالي الفرح والطرب ، وتحت كثافة النجوم ورحابة هذا الضوء الحريري القادم من بدر كامل الاستدارة وعلى السنة اللهب الدائم الاستعار ، وعبير الاعشاب

الصحراوية التي تنتشر فوق الرووس وتصيبها بالانتشاء والخذر ، ووسط هذه الحلقة من الشعاب والهضاب التي كانت تتجاوب مع زغاريد هذا العرس وما يضج به من عزف وغناء وصخب بهيج ، اذ تعود الاصوات مع رجع الصدى تبعثه الهضاب وكانها قررت المشاركة بحماس مع اهل الفرح ، وكان نائب الوالي يصطحب معه الكاميرا منذ لحظة وصوله ، يعلقها على كتفه ولا يتركها ابدا تغادره ، ولم يكن اغلب اهل النجع يعرفون طبيعة عملها ، ولهذا لم يكونوا يحفلون بها عند تحريكه لها ، بينما كان يضعها فوق ركبتيه ويدوس على الزر الذي يلتقط الصور لحظة ان يعرف بان العدسة قد اتجهت الى المكان الذي يريد تصويره ، ويفعل ذلك بشكل عفوي ، وبدون ان يضطر الى وضعها على عينه ، لكي لا يثير حفيظة او تاثرة احد حتى ممن يعرفون مهمة وعمل هذه الالة ، واستمر يراقب الحفل والرقص والغناء حتى وصل الحفل الى نهايته في ساعة متقدمة من الليل ، وفي الصباح راى ان الايام التي خصصها لهذه الرحلة قد وصلت الى آخر ايامها دون ان يجوب كل المناطق في جنانن العرعار ، وقد جاء بغية ان يرى ما كان قد

طالعه في مراجعه من وجود بعض القبور الرومانية وبعض بقايا القصور والاشياء الاثرية والتاريخية الاخرى ، فقرر ان يخصص النهار بكامله لهذه الجولة ، وكان بانايوتي قد اقترح ان ينيب عنه المواطن الاول ، أي الراعي ابو فاس، باعتباره اكثر خبرة من غيره بهذه المنطقة، يرافق نائب الوالي في جولته ، ولهذا فقد اكتفى باصطحاب السردوك يقود به السيارة، وامامهما سائق يقود سيارة اخرى تحمل المرشد ابو فاس، وبدا السردوك مبتهجا لوجوده منفردا مع نائب الوالي ، ورای في ذلك فرصة يكرسها لكسب تعاطفه وتاييده في مشروعه ، بعد ان افهمه بوضوح انه واقع تحت سحر تلك المرأة التي استولت على مشاعره وسلبت لبه وصار اسير شباك مفاتنها ولن يشفى من الوجد الذي اصابه بالسهد والقلق الا بان يتحقق حلمه في الزواج منها، وقد جاء ذلك متاخرا قليلا وبعد ان اكتشفه نائب الوالي متلبسا بالتزوير اثناء القرعة التي جرت من اجل رخصة الوكالة لصالح الفونسو ، وظنه يفعل ذلك من اجل البحث عن صفقة او تحقيق ربح او قبول رشوة فافهمه ان دوافعه كانت دوافع من اجل العشق ولا شيء غيره ، ولكي

يفوز في معركة العشق لابد ان يفوز الفونسو بعقد الشركة هكذا افهمه ، وهكذا زور النتيجة لصالحة واوهم المقترعين انها قرعة عادلة عندما سالهم كتابة اسماءهم جميعا في الاوراق التي تم طيها وخلطها ووضعها في طبق وجلب رجل كفيف مشهور بالورع والتقوى ويعمل موذنا في مسجد البلدة لالتقاط واحدة منها ، فاذا بالورقة التي تم التقاطها هي ورقة الفونسو ، ليفوز بحكم هذه القرعة الامينة النزيهة ، بالعطاء ويصبح المالك لعقد الوكالة ، وقبل انتهاء الجلسة وخروج المشاركين في القرعة يفاجأ السردوك ببشكاتب المنطقة ياتي حاملا قرار نائب الوالي بالغاء النتيجة ، وامرا منه باحضار الطبق الذي يحتوي على اوراق القرعة ،واصطحب السردوك الباشكاتب وهو يحمل الطبق بين يديه الى نائب الوالي ودخل معه غاضبا يعبر عن احتجاجه لقرار الغاء القرعة ، فاذا بنائب الوالي ياخذ الطبق ويبدا في فتح الاوراق التي كانت كلها تحمل اسم الفونسو ، ويكشف عملية التزييف التي اجراها السردوك ، لانه عندما طلب من الحاضرين وضع الاوراق التي تحمل اسماءهم في الطبق ، كان قد اعد طبقا مشابها مليئا بالاوراق مثله ، هو

الذي تم وضعه مكان الطبق اثناء دورته على الحاضرين يرمون فيه باوراقهم ، وعندما جاء الشيخ الكفيف يلتقط الورقة كان يلتقطها من هذا الطبق يمتليء باوراق تحمل اسما واحدا مكتوبا في كل الاوراق هو الفونسو ، وانطلت الحيلة على الجميع ما عدا نائب الوالي الذي كان قد ارسل احد الحجاب يتجسس بل ويشارك في عملية التزييف وينقل له اخبار ما حصل، ولم يشأ نائب الوالي ان يفضح مدير الامن امام المشاركين في القرعة واكتفى باصدار قرار الالغاء لاسباب ادارية فنية وعدم اكتمال للشروط الواجب توفرها في اقامة هذه القرعة ، وستعاد في وقت لاحق ، بعد ايفاء الشروط الناقصة، وادرك السردوك اذ ذاك انه يواجه لحظة حاسمة في علاقته مع رئيسه ، ربما يتوقف عليها مستقبله الوظيفي ، وان أي رغبة في العناد والمكابرة والتحدي يجب ان يقمعها في نفسه لانها لن تنجده وهو في مثل هذا الموقف ، ومع رئيس استطاع الامساك به في حالة تلبس، ولا نجاة له الا ان يعترف بحقيقة مشاعره ونواياه ، فطريق الانكار صار الان مسدودا امامه ، وعليه ان يلتمس النجاة بالكشف عن حقيقة موقفه من انجيليكا ، ولم يجد طريقة

يستطيع ان يبرر بها ماحدث الا ان يجثو على ركبتيه اما رئيسه منهارا ، تتدفق العبرات من عينيه وتسيل فوق وجهه دون انقطاع ، قبل ان يتمكن من الكلام معترفا بحبه الجنوني لابنة باتايوتي ، هذا الحب الذي سيطر على جماع قلبه ، وجعله حائرا تائها لا يعرف ماذا يعمل ، وكيف يفكر تفكيرا سليما، ولهذا ارتكب هذه المخالفة ، وقام بتدبير هذه الحيلة ، لانه في حالة من التوهان والشرود، لا يعي شيئا ولا يرى شيئا غير صورة معبودته انجيليكا ولا يسمع الا صوتها ولا يملأ عقله ولا قلبه الا خيالها ، الذي يزوره ليلا ونهارا ويتركه مسهدا ساهرا يعاني لواعج الغرام ، ولا امل في ان يستمر على قيد الحياة ، فلا يموت ولها وصبابة وعشقا وسهدا وجوعا وعطشا ، الا بان يتزوج بها ، فيعيد له هذا الاقتران بمعبودة الفؤاد ، حياته المسروقة المخطوفة ، ويرجع له صحته التي صارت تعاني الاوصاب والعلل ، بسبب مكابدات الغرام ولوعته ، وهو يقول له هذا الكلام متمنيا ان يشفق عليه ويرحمه ويتركه يتدبر سبيلا لتحقيق الوصال بهذه المراة ، ويعاهده بانه سيعود بعد زواجه بانجيليكا، رجل الامن القوي الذي يعرفه ، سيعود الى

طبيعته وكفاءته والتزامه ونزاهته ، سيعود السردوك الذي استطاع ان يعيد الى الصحراء الامن والطمانينة ، بعد ان استباحها اللصوص وقطاع الطرق ، والبريجادير هيوز يعرف طبعا هذا السجل للقائد الامني لمنطقة القبلة ، وهو سجل يستحق عليه الثناء والتقدير، ولكنه لا يجوز ان يعطيه حصانة من المحاسبة او يكون سببا في التغاضي على ما يرتكبه من مخالفات ، الا انه الان وهو يراه في هذا الموقف ، منهارا بهذه الصورة المهينة ، جاثيا على ركبتيه يذرف الدموع ، لم يكن ممكنا الا ان يشفق لحاله ، وينهض من مكتبه ، يعينه على الوقوف والجلد ، طالبا منه ان يذهب ليرتاح بقية النهار في بيته لان حاله لا يسمح له بان يواصل العمل في مكتبه ، تاركا مناقشة الموضوع الى نهار الغد .

في صباح اليوم التالي كانت حالة الغضب التي اجتاحت البريجادير اثر اكتشافه لعملية التزوير قد غادرته ، وبدا اكثر استعداد لفهم الدوافع وراء فعلة التزوير ، واكثر تعاطفا مع ازمته التي رواها له اثر وقوعه في عشق ابنة بانايوتي ، وقرر بدلا من استدعائه الى مكتبه ، ان يهبط الدرج

الى الطابق الارضي حيث مكتب السردوك ، وسأله وهو يستفرد به ، بعد ان احضر عامل البوفيه القهوة ، عن كيف ومتى حصت له قصة الغرام مع هذه المرأة ، فافهمه انه في الحقيقة كان يراها منذ مجيئها مع والدها للاقامة في الوكالة ، دون ان تثير في نفسه غير مشاعر الاعجاب والغبطة ، الا انه عندما حضر العرس الذي اقاموه لها ، وخرجت امام الناس عروسا في جلوتها ، راى نفسه في حضرة جمال الهي فردوسي لا ينتمي الا الى عالم من النعيم المقيم ، ولا علاقة له بهذه الصحراء الغبراء الشعثاء ووجهها الكالح المتجهم ، فاثار هذه التعارض بين جمالها وبين اختفاء البهجة والجمال من ملامح العالم الذي يحيط به ، شيئا من النقمة على حياته وواقعه وراى نفسه يتصور كيف ستصبح حياته لو احتوت مثل هذا الجمال،

وعندما راى في زيارة تالية الى الوكالة ان هذه الحورية من حوريات الجنة ، تعاني من سوء معاملة زوجها لها، اشتعل غضبا وحقدا على الرجل الجلف الذي يعاملها مثل هذه المعاملة ، وغمرت قلبه مشاعر الاشفاق على هذا الملاك الرقيق القادم من بساتين السماء ، يتعرض لمحنة العيش مع

هذا الوحش من الوحوش البشرية ، وتحول الاشفاق الى حب جارف مؤلم ينمو بين ضلوعه ويزداد مع الايام نموا ، ومصدر الالم انه حب مستحيل ،يصعب ان يجد طريقا للتحقق والوصال ، طالما ان المرأة التي يحبها في عصمة رجل آخر ، وصار موضوع هذا الحب يشغل فكره ليلا ونهارا ، وطيف المرأة التي احبها يزوره في النوم واليقظة ،وسمع وهو ساهد في احدى الليالي صوتا ينبعث من رأسه يقول له ، ولماذا يعتبره حبا مستحيلا ، فهي ليست اول امرأة تفارق زوجها وتتزوج من رجل آخر ، بل ان هناك اسبابا ادعى لهذا الطلاق في حالة انجيليكا ، لان زوجها رجل لا يعرف النعمة التي حباه بها خالق الكون ، ولذلك فهو ليس جديرا بها ، ومن هنا بدأت تراوده الافكار التي يصل بها الى تحقيق هذا الهدف ، وهو تطليق انجيليكا من زوجها ليتزج هو بها.

ورغم الطريقة المسرفة في عاطفيتها التي يتكلم بها السردوك ، شارحا محنة عشقه لانجيليكا، فان هيوز لم يستطع ان يكون متجاوبا تمام التجاوب مع موقف صاحبه الذي رآه يحتوي على مفارقة مضحكة ، اذ كيف يمكن لرجل في عمر السردوك ،

يساوي عمره عمر انجيليكا ثلاث مرات ، ولديه اولاد وبنات اكبر منها ، ان يرى نفسه بديلا لشاب في مقتبل العمر هو الفونسو ، الذي يزيد عليه انه اجنبي مثلها ، ينتمي الى الدين المسيحي الذي تنتمي اليه، ولديه من الشباب والعافية والراتب ما يؤهله لان يكون رفيق عمر لها انسب كثيرا من رجل مثله، فأي انقاذ هذا الذي يرى نفسه يقوم به ، انه لا يستطيع الا ان يبتسم ساخرا ازاء هذا التدفق العاطفي القادم من صاحبه ، ويشعر بالحرج في الافصاح عن افكاره للسردوك ، او حتى مجرد ابداء النصيحة له بان ينسى الموضوع وينتبه لاسرته وتربية اولاده وبناته واداء المهمات الجسيمة التي تتطلبها وظيفته الامنية ، وهي مهمات كفيلة بان تنسيه هذا الحب العبثي الذي لا جدوى من ورائه ، الا انه لم يكن حبا عبثيا في نظر السردوك ، الذي مضى يشرح لرئيسه التضحيات التي سيقوم بها انصافا لانجيليكا وحرصا على سعادتها ، واولها انه سيقوم بفك ارتباطه بزوجته الحالية ، سيترك لها البيت والاولاد متكفلا بالانفاق عليها وعليهم،

وسينتقل الى بيت جديد يضمه مع انجيليكا ، وستبقى على دينها اذا شاءت لان الاسلام لا يشترط ان تتحول الزوجة عن دينها ، مضيفا انه اعد لكل شيء عدته ، وكل ما ينقصه هو ان يساعده البريجادير هيوز ، في مسعاه باتمام صفقة الوكالة مع زوجها الذي وافق على تطليقها فور استلامه رخصة الوكالة الجديدة .

وانسياقا مع هذا المزاج الساخر ، الضاحك ، الذي راى به المسألة ، لم يعترض البريجادير هيوز على ما قاله السردوك ، وفي ذات الوقت لم يوافقه على خطته ، وانما قال ينكافه ويثير مزيدا من انينه وشكواه:

ـ اذا كنت سادخل معك في ترتيب هذه الحيلة ، التي يطلق بها الرجل زوجته ، وينال مكافأته مقابل ذلك ، وهي كما تقول بهذا الجمال الاستثنائي ، الست انا احق بها منك ، وانت تراني هنا الرجل الاعزب الذي تجاوز حد الاربعين ، وقارب ان يغادر مرحلة الشباب ، ويكاد ان يفوته قطار الزواج ؟ لقد اشفقت على انجيليكا ، فليكن قلبك رحيما فيشملني بهذه الشفقة، وانا الذي لم يدخل من قبل دنيا الزواج التي دخلتموها ، ولم ينعم

بروية اطفال ينجبهم الى هذه الدنيا كما فعلت انت وامثالك ، ام تراني يجب ان اعيش محروما مما تتمتعون به؟

لم يكن خافيا على السردوك ان نائب الوالي يتكلم ساخرا، ولكنه مع ذلك خشى ان تكون سخرية ماكرة ، تغطى رغبة حقيقية في ان يخطف منه هذا الانجليزي الاحمر اللون ، حبيبة قلبه ، خاصة وانه اجنبيي مثلها ينتمي الى دينها وجنسها الرومي ، ولهذا ازداد استعطافا واستكانة وهو يقول لرئيسه ، بانه يستطيع وهو الحاكم العالي القدم ، ان يجلب من بلاده واحدة من جميلات هذا الكون ، ويبني بها اذا اراد ، فهو الذي يسافر الى بلاد العالم ويرى جميلاته ويختلط بهن ، ويعاشرهن معاشرة الازواج دون زواج ، لان هذا ما تبيحه شرائع وقوانين هذه البلاد التي يسافر اليها ، وينتمي لاقوام مثل اقوامها ، اما هو فان مصيره مربوط بهذه الارض الصفراء وعجاجها الاهوج وصحاريها الجرداء، التي لم يغادرها الى خارج البلاد منذ ان ولدته امه ، ولم ير وجها الا وجوه اهلها الكالحة التي اكتسبت من فقر الارض وجدبها ، فقرا وجدبا ، ولهذا فانه ما ان راى وجها قادما من الضفة

الشمالية للبحر ، غريبا عن هذه البيئة القاحلة الماحلة ، وهو وجه ابنة بانايوتي اليوناني ، حتى اصابه الخبل والهبل ، لانه لم ير وجها جميلا في قفص الرمال الذي يعيش فيه ، بينما هو بالتأكيد وجه عادي، بمقاييس الجمال في تلك البلاد ، قد لا يتميز عن أي وجه انثوي آخر ، من نساء قومها او الاقوام التي جاء منها السيد هيوز .

وضاحكا ، عاد نائب الوالي ، يمازحه ، مطالبا اياه الا يسحب كلامه عن جمال انجيليكا، وسحر هاروت وماروت في عينيها ، وداونر الفتنة في جسمها ، وملائكية صوتها ونور الابتسام على ثغرها ، ولهذا فهو الان في حيرة مما قاله ، ولا سبيل لان يحكم لهذه المرأة او عليها ، ينصف جمالها او يظلمه ، الا بان يراها ، ولا سبيل لان يعده بمعاونته ، اوالوقوف مع اوضد مشاريعه الا بعد ان يتحقق بنفسه من مستوى هذا الجمال ، عن طريق تدبير رحلة يقومان بها سويا الى وكالة بانايوتي ، ليقف على سر هذه المرأة ويعرف حقيقة سحرها وجاذبيتها ، ثم نهض يغادر مكتب السردوك ، تاركا له امر ترتيب هذه الزيارة بمثل ما تسمح به الظروف دون ان

يقترح عليه موعدا محددا ، ولم تمض سوى بضعة ايام ، حتى جاء السردوك بخبر العرس الذي سيتم بين عائلتي الاومباشي جبران وخليفة مكاري ، وكلاهما من معارف البريجادير ، وكلاهما يرسلان بدعوة اليه لحضور العرس ، وقد نقلها ، كما يقول السردوك ، له ولنائب الوالي ، الفونسو الذي وصل الى مزده في اطار المساعي التي يبذلها للفوز برخصة الوكالة ، وشرح له ان العرس يبدأ يوم الاتنين ، لينتهي بليلة الدخلة يوم الخميس ، وكلها ايام تصلح للسفر ، اذ يكون خلالها اهل العرس على استعداد لاستقبال الضيوف ، الا ان الواجب يقتضي لمن يسافر يوم الاثنين ان يبقى لاتمام كل ايا العرس ، والا فليكن الذهاب يوم الخميس والعودة في نفس اليوم ليلا او في اليوم التالي ، ولان البريجادير لم يكن قد زار سابقا جنائن العرعار ، وقد سمع عنها من زوار الوكالة ، وقرا بعض التقارير عنها ، بما اثار اهتمامه لرويتها وتفقد بعض معالمها الاثرية ، فقد ابدى استعداده لحضور كل ايام العرس ، ابتداء من يوم الاثنين ، وامر بصرف مبلغ من بند النثريات في ميزانية مكتبه بما يكفي لشراء هدايا العرس وهي اربعة كباش

وتجهيز سيارة الكارفان التي يستخدمها اثناء اقامته في الصحراء وعدد اخر من السيارات .

وهاهما الآن ، السردوك ونائب الوالي ، في سيارة الجيب بمفردهما ، بعد ان تحقق للبريجادير رؤية انجيليكا في صورة من المجد والجلال ، لم تظهر بها من قبل ، وباكثر فتنة ، واثارة من كل المرات التي راها فيها السردوك ، ولهذا فهو يمد بصره في فضول ، ويدير عينيه بين الطريق وبين وجه البريجادير هيوز ، يريد ان يعرف انطباعه عما رآه ، وجاء كلامه عندما فتح فمه لابداء رايه فيما رآه متوافقا مع ما كان ينتظره السردوك، فقد قال له انه الان يفهم بعمق وقوة كيف استطاع هذا الجمال ، ان يدفع بالسردوك الى حافة الجنون ، واضاف قائلا بان هناك نوعا من الجمال الانثوي له تأثير صواعق البرق التي تضرب جذور القلب فيحدث له ما يحدث لشجرة تعرضت لصاعقة اشعلت فيها النار اغصانا وجذورا ، وهو لا يقول هذا الكلام من فراغ وانما يقوله... وحل عليه نوع من الصمت جعله لا يكمل الجملة ، فاستحثه السردوك ان يكمل الجملة التي بداها ليعرف هذا الأساس الذي بنى عليه

انطباعه ، فاجابه بان هذا الاساس يرجع الى ما احس به شخصيا وهو يتلقى مثله صواعق الجمال كما تلقاها، معترفا بان مارآه اتلف لبه وسلب روحه ، واكمل قائلا يصف ما حدث له باقوى ما اسعفته به اللغة من تعبير :

ـ وها انت تراني اجلس الان بجوارك كائنا لا عقل له ولا روح ولا قلب ، فقد سلبني جمالها كل ذلك.

افصح نائب الوالي لرفيقه في السيارة بما احس به ، في هذه الكلمات التي راى الا يفسدها بمواصلة الكلام . بقى صامتا ، وقد انتقل يرقب التكوينات التي صنعتها الجبال ، والتي تكاد ان تتحول الى تماثيل لكائنات جسيمة عظيمة مثل دناصير تحجرت وهي تقف على قوائمها الخلفية ، رافعة رؤوسها التى لا ملامح لها ، تغرسها في زرقة الافق ، وترك صاحبه حائرا، يختلس اليه النظر ، يترقب بكثير من القلق والتوجس ، ان يعود رئيسه الى الكلام شارحا وموضحا ما يرمي اله بمثل هذا الكلام ، هل هو حقا ادراك لعمق ما احس به السردوك ، وفهم للدوافع التي كانت وراء تصرفاته للفور بهذه المرأة ، ام هو غريم جديد يكشف له اوراقه ، ويدخل

ساحة المنافسة على الفوز بهذه المرأة . اراد ان يتكلم مطالبا رئيسه بتوضيح الموقف، الا ان السيارة التي تسير امام سيارتهم وقفت ، وهبط منها الراعي ، فيما يعني انه وصل الى منطقة تقتضي ان يقدم لها شرحا لنائب الوالي ، فاوقف السردوك بدوره السيارة،

وهبط منها هو ونائب الوالي ، يدققان النظر فيما حولهما ويحاولان الاهتداء الى مواطن الاهمية لهذا الجزء من جنائن العرعار، الا ان الراعي ، اوضح لهما ، انه سيقصد بهما منطقة اخرى ، من قدم الجبل ، تحول الصخور دون بلوغها بالسيارة ، سيسيرون اليها على الاقدام، مسافة قصيرة ، ومضى وهما يتبعانه ، الى صخرة تقف على شكل عمود لا يزيد طوله عن متر واحد ، وطاف بهما حول العمود ، يريد ان يرى تاثيره فيهما ، وعندما وجد انه لم يحدث التأثير الذي توخاه ، ابان لهما انه ليس عمودا مصنوعا من صخر الجبل كما يبدو ، وانما هو شجرة عرعار ضاعت اوراقها واغصانها ولم يبق منها الا هذا الجذع ، الذي تحجر وبقى واقفا في هذا المكان ، وقفة طالت بعدد سنوات عمره التي تبلغ الملايين ،

والحكم بان هذا الجذع ينتمي لاشجار العرعار، لانها هي الاشجار التي اشتهر بها المكان ، ولان في الجذع انسيابية وخلو من النتوءات تشبه بما يشبه جذوع اشجار العرعار فبدا وكانه مصنوع من الرخام بينما اشجار متحجرة اخرى يقول ابو فاس انه راها في اماكن اخرى تختلف عن هذا الجذع ، ورغم معرفة ورؤية ضيفيه الاثنين لمثل هذه الاشجار المتحجرة في رحلاتهما الصحراوية ، الا ان قدرة هذه النباتات والكائنات الحية التي تحولت الى حجر تظل تفجر في الانسان عندما يراها مشاعر الاندهاش والاستغراب وتتركه واقفا في صمت وقفة تامل لاسرار الحياة والغازها وحقائقها الصادمة احيانا ، فهم هنا ، يلتقون بأثر لشجرة ، عمرها سابق ، لوجود الانسان فوق هذه الارض ، فبقوا لحظة يتاملون جذع الشجرة ، يتحسسونه ، ويتبادلون فيما بينهم نظرات الاستغراب .

تذكر هيوز انه قرأ في تقرير صحفي لزائر الاماني مر بارض القبلة منذ عقود مضت ، وتوقف لحظات في تقريره عند جنائن العرعار ، وتحدث عن شظية كبيرة من نيزك عمره من عمر المراحل الاولى للخلق ، سأل عنه الراعي ، قبل ان

يركب السيارة الى مكان جديد ، غير واثق من ان الاثر لا زال موجودا فعمر التقرير قديم جدا ، ولابد ان احدا من قراصنة الاثار في الصحراء قد عرف به عن طريق هذا التقرير وقام بالسطو عليه كما حدث لاثار كثيرة اخرى،

الا ان الراعي اخبره بانه على علم بوجود اثر يثير فضول الاجانب ، ربما يكون هو هذا الجزء من النيزك ، لانه ليس واثقا من طبيعته وحقيقة اهمية الاثرية ، وحرضه نائب الوالي على الذهاب اليه فركب السيارة يقودها السائق عثمان ، باتجاه ذلك الشيء الغامض، الذي ما ان اوقف السيارة واتجه اليه ، في مدخل احدى الشعاب ، حتى ادرك البريجادير انه فعلا هو ذلك الجزء من النيزك ، وكان يظنه شيئا في حجم جذع تلك الشجرة المتحجرة ، ولكنه وجد شيئا ضخما حجمه بحجم قبة من قباب القلاع او القصور ، مخروطي الشكل ، كانه تمثال مصنوع من البرونز ، ولكنه ليس برونزا ، وانما مادة نيزكية تصلبت وربما تحجرت تشبه ما شاهده في صور الافلام العلمية الوثائقية ، وعرف السبب في عدم اعتداء لصوص الاثار عليها ، لان هذه الشظية الكبيرة من النيزك الساقط من الفضاء

الكوني ، منذ ملايين الاعوام ، ارتطمت ارتطاما قويا بمنطقة صخرية من الجبل ، وهي في حالة اشتعال وغاصت غوصا في هذه الطبقة الصخرية ، واذابت بسبب اللهب بعض المعادن الموجودة في هذه الطبقة ، فالتحمت بها واطبقت عليها وصارت جزءا منها بحيث صار يستحيل فصلها من صخور الجبل الصوانية ، وزادت عوامل التعرية عبر تعاقب الازمنة ، من تاكيد هذا الالتحام ، ولن تستطيع غير تقنيات مهولة والات حفر جبارة ان تخترق هذه الطبقات من الصوان وتقوم بفك هذه التلاحم بين المادة النيزكية وصخور الجبل ، وقد تعجز هذه التقنيات عن القيام بمهمة كهذه ، دون اللجوء الى تفجير المنطقة بالديناميت الذي يقضي على الاثر نفسه ، ولولا هذا الاعجاز الذي صنعته الطبيعة لما امكن له او لغيره مشاهدة هذا الاثر المتبقى من عصور ما قبل التاريخ . انتقل بعدها الركب يجوب هذا الفضاء بين الجبال بحسب رؤية ابو فاس وما يقول انه يستحق المشاهدة ، مثل صهاريج الماء الرومانية ، التي كان انتباه نائب الوالي منصرفا الى ما ينمو قريبا منها من نباتات محاولا ان يجد عند الراعي اجوبة على

اسئلته حولها ، حتى انتصف النهار فقادهم الراعي قريبا من كوخه ، واحضر لهم وعاء جلديا مملوءا بحليب الماعز ، واحضر مع الحليب طبقا مليئا بالتمركما احضر كليما قام بفرشه لهما تحت ايكة من اشجار البطم قريبة من الكوخ ليجلسا وهو السائق معهما لتناول هذا الغذاء المكون من التمر والحليب مسكوبا في قدح خشبي كما احضر كانون الفحم وعالة الشاي واعد لهم ثلاث دورات من الشاي الاخضر ، وبعد قضاء استراحة القيلولة ، استأنف بضيفيه وسائقهما اكمال الجولةعبر الخلاء وتذكر بئر الغولة ، التي تنزوي في ركن بعيد وفوهتها المسدودة باسلاك شائكة صدئة تراكمت فوقها الاوحال حتى صارت اشبه بكدس من القمامة ، وفكر ان كانت على درجة من الاهمية تستحق ان يقود ضيفيه اليها ، ثم قرر ان ينسى الموضوع فهي بئر مهملة منسية ويجب ان تبقى كذلك واتجه يريهم ما تبقى من عروق متيبسة لاشجار العرعار المغدورة التي حصدتها محرقة القائد التركي ، ثم ابدى نائب الوالي استعداده لقطع مشوار على الاقدام متسلقا الجبل في عمق احدى الشعاب ليرى بنفسه كيف تنمو نباتات

الحلفاء التي من اجلها تأسست الوكالة ، واراه ابو فاس كيفية قلعها،وفي وقت يتوافق مع رحلة العروس على الهودج من خيمة اهلها الى خيمة زوجها ، اخذ الموكب طريقه راجعا الى مقر الوكالة ليشهد نائب الوالي هذا الملمح الاساسي من ملامح العرس البدوي ، والسردوك يقود به السيارة متلهفا لمواصلة الحديث حول انجيليكا الذي ابقاه رئيسه معلقا ، بامل ان ينتزع منه الموافقة على مساعيه للزواج منها، الا ان المسافة التي قطعتها السيارة الى موقع العرس ، لم تكن طويلة بحيث تتيح للحديث ان يأخذ المدى الذي يريده السردوك ، فاضطر مرغما ان يترك الموضوع دون حسم، ليعطي نائب الوالي فرصة ان يتفرج على هذا الجزء من طقوس العرس، ويتطوع بشرح ما يريد نائب الوالي فهمه حولها ، فالهودج هو كما اوضح له ليس الا محفة من الواح خشبية مشبوكة في بعضها البعض اشبه بكوخ صغير ، مغطى بالمفارش والاقمشة المزركشة ذات الالوان الزاهية ، تم تحميله فوق الجمل ، وفي الوسط مجلس مريح للعروس ، مفروش بالحشايا والوسائد ، واقترب به السردوك وهو يقود السيارة

من الهودج الذي كانت جلست فيه العروس لا يظهر منها أي شيء الا يدها المزخرفة بالحناء ، ترمي بها بعض القروش على سبيل العادة ، يلتقطها اطفال يتقافزون ويتعاركون للفوز بها ، وللجمل زمام يقوده فتى من اقارب العروس ، محفوفا باعضاء الجوق الفني في ايدي بعضهم الدفوف وعاشور مرتديا اللباس الوطني يمشي بينهم يضرب المزمار والنساء خلف الهودج يطلقن الزغاريد ويرفعن عقريتهن بالغناء ، وفي الملهاد علي يمين وشمال الهودج ، الفرسان يركضون جينة وذهابا ، ولان المسافة قصيرة بين خيمة اهل العروس وخيمة عريسها فلم يكن ممكنا ان ينتقل الهودج بها مباشرة الى الخيمة الاخرى ، وانما لابد لكي تكتمل للعرس بهجته ، ان يمضى الجمل وهو يحمل العروس في هودجها قاطعا دائرة كبيرة حول النجع تستغرق ما يقرب من ساعة ، والسيارة التي يقودها السردوك تسير متمهلة مع دورة الجمل ، وامام خيمة العريس كانت هناك مجموعة اخرى من النسوة من اقارب العريس وجيرانه يطلقن الاغنية الشهيرة في التراث الشعبي التي تغنى ترحيبا بالعروس وهي

يا مرحبا يا لا فية
انشاء الله تكوني عافية
يا مرحبا يا امراة اخوي
يا منورة حوش بوي
اهلا وسهلا ومرحبتين
اهلا اهلا ضوء العين
انت فوق الحاجب والعين
مرحبتين اهل بالجودة
مرحب يا صادق في وعودة
ليك انغني هالمجرودة

وفي حين دخلت العروس الى خيمتها محاطة بنساء من اهلها واهل العريس ، استمر الغناء واستمرت الزغاريد تحيط بها وتتعالى من حولها ، بينما كان العريس في هذا الوقت موجودا في خيمة العراسة ، التي كان قد دار فيها الفرح ، محاطا باصدقائه ، يغنون له ومعه الموشحات ، وقصائد المالوف الليبي ، مثل نص الحبيب ، ويا هلالا غاب عني واحتجب ،

ويا ليل الصب متى غده ، اقيام الساعة موعده ، وعندما جاء الليل وحان موعد العشاء وحضرت قصاع الطعام ، اخذ رفاق العريس هدنة من غناء الموشحات ، ليقوموا باساتننافها في موعد زفة العريس الى عروسه ، في حين اتخذ الرجال الكبار مكانا بعيدا عن الشباب لجلوسهم ، وقد اصر نائب الوالي ان يشاركهم الجلوس على الارض تاركا الكراسي التي اعدها باناپوتي لجلوسه هو وبعض رفاقه ليتناول طعامه مثلهم من قصاع الكسكس التي اعدوها لهم ، وفي انتظار العشاء تسلل السردوك يحوم حول الحانوت وحول بيت باناپوتي وبيت الفونسو بامل ان ينعم بتكحيل عينيه بحبيبة القلب ، الا ان الحانوت كان مقفلا ، ولم تنم اية حركة عن البيتين لان المرأتين كانتا في العرس ، فلم يفز بالنظرة الاخيرة التي كان يمني نفسه بها ، قبل مغادرة هذه الربوع ، ولانه كان متشوقا لان ياخذ المصادقة على خطته من رئيسه ، فقد اراد ان يقترح عليه العودة بعد العشاء ، وقبل ان يفعل ذلك راي الجاسوس الذي زرعه في النجع يشير اليه يرغب في الانفراد به ، فانتحى به جانبا ، يستمع الى ما لديه من اخبار صار ينقلها له

همسا ، مفادها انه قد تناهى الى سمعه ان الفونسو لم يكن راضيا عن سلوك زوجته وتصرفاتها اثناء رقصة النخيخ ، واستعراضها لجمالها وزينتها امام الناس ، خاصة وان بين الحضور ضيوفا من المركز ، يتطلعون لان تكون في حوزتهم ، وراى في ذلك استفزازا له ، واستهتارا بمشاعره ، وكلام آخر كثير اثارها وجعلها تخرج مغضبة الى بيت اهلها ، وتترك له البيت ، في آخر الليل .

ووجد السردوك ان كلام الجاسوس ، يحتوي على معلومات لن يستطيع ابقائها في طي الكتمان ،ولابد ان ينقلها للبريجادير هيوز ، فانتزعه انتزاعا من وسط المجموعة بعد انتهاء العشاء ، ليبلغه ان الفونسو عاد للتنكيل بانجيليكا وتعذيبها ، وهو لا يستطيع صبرا على هذا الاجتراء ، ولابد من انقاذها باية صورة واية وسيلة ، وقد استقبل البريجادير كلامه بابتسامة ساخرة ، لانه يدرك ان السردوك يحاول ان يلبس اغراضه الخبيثة لبوس الشهامة والفروسية والاستعداد النبيل لانقاذ امراة يعذبها زوجها ، واكتفى بالابتسام دون تعليق، كما نقل له السردوك اقتراحه بان يستفيدا من نور

القمر في الرحيل منذ الان ، ووافقه البريجادير على وجاهة العودة الى مزدة هذه الليلة ، ولكن ليس قبل ان يفرغ من مشاهدة ما بقي من طقوس الزفاف ، وعاد الى مكانه في حين ارسل السردوك العساكر المرافقين لهما في الرحلة لاتخاذ الترتيبات الخاصة بالسفر ، فمضوا يربطون الكارفان الى السيارة التي تجرها ، ويهيئون الركب للانطلاق ، في هذه اللحظة كان رفاق العريس قد اخذوه الى نقطة في الخلاء يبدأون منها مسيرتهم لزف العريس الى عرسه التي تنتظره في الخيمة المخصصة لهما ، ينطلق منها الان غناء البوطويل وتتصاعد منها الزغاريد، في حين بدا الشباب بترديد اهازيج المالوف ، ثم انشاد الاغنية الشهيرة في اعراس البادية المسماة رسول الهادي ، يرافقهم مزمار عاشور ، حتى وصلوا بالعريس الى خيمته ، فانطلق اكثر من عيار ناري ، وجاء احد الرجال بجرة صغيرة حطمها امام العريس حين لحظة اجتيازه عتبات الخيمة ، وقد اصطفت النساء على الجانبين يزغردن قبل ان يأخذن طريقهن الى خيمة اهل العريس في الجوار ، في حين عاد رفاق العريس الى خيمة الرجال .

اتجه البريجادير وبجواره السردوك الى السيارة يرافقهما اشياخ النجع يقومون بواجب توديعهما، وفي مقدمتهم كل من الاومباشي جبران وخليل مكاري ، يتلقيان منهما التهنئة مجددا ، وقبل ان يصعد الى السيارة ، سحب البريجادير هيوز بانايوتي بعيدا عن بقية المودعين ، يخاطبه بطريقة هامسة ، لكي لا يصل صوته الى اسماع الاخرين ، معبرا عن انزعاجه من تصرفات صهره وسلوكه المشين مع ابنته انجيليكا ، ورجاه الا يغضب اذا اتخذ صديقه السردوك بعض التدابير لابعاده عن هذا المكان ، ابعادا لا يؤذيه ولا يتسبب في قطع عيشه ، وانما يوفر له لقمة شريفة في مكان آخر ووكالة حلفاء جديدة ، تثمر فيها جهوده ، وتظهر فيها نتائج الدروس التي تعلمها من وكالة بانايوتي . واتجه بسرعة يركب السيارة ، دون ان يسمع ردا من بانايوتي ، لانه لم يكن يهمه ان يسمع هذا الرد ، وانما هي كلمات راى ان يتحلل فيها من الوعد الذي قطعه على نفسه امام بانايوتي بالا يترك السردوك يتدخل في شئون اسرته او يحشر نفسه في العلاقة بين ابنته وزوجها

الفونسو ، وقد خامره بعض الاحساس بالذنب وهو يرى وقع كلماته مرتسما على ملامح بانايوتي ، ولكنه كان لابد ان يفعل ذلك ليعطي نفسه حرية التصرف ازاء ما يطرا من تطورات على هذا الموضوع .

اختار السردوك ، حرصا على سرية الحديث بينه وبين رئيسه ، ان يقود السيارة بنفسه، طالبا من السائق ، ان يلتحق باحدى السيارات الاخرى ، ولم يتركه رئيسه ينتظر كثيرا ، فقد فتح معه الموضوع فور ان تحركت عجلات السيارة مبتعدة عن الوكالة ، معيدا امامه قوة انبهاره بما رآه من جمال انجيليكا ، قائلا ان اسمها الملائكي ، حسب اعتقاده ، لا يعبر الا عن نصف الحقيقة ، لان لديها في شخصيتها ، بمحاذاة هذا الشق الملائكي ، شقا آخر ابليسيا ، يعذب ويدمر وسحق الرجل الذي يقع في دائرة سحرها وفتنتها ، ولذلك فهو يلتمس له العذر فيما حدث له من وله ، ويعطيه الحق في ان يلجأ لكل حيلة من اجل الفوز بها ، خاصة انه صار واضحا امامه الان ، ان انجيليكا وقعت في شباك زوج لا يعرف قيمتها ، ولا يقدر جمالها، ويقتضي العدل الالهي ، ان يتم تخليصها منه ، الا ان

هناك مسألة يريد ان يصارح به صديقه وزميله ، وهي انه صار مثله ضحية من ضحايا هذا الجمال المهلك، غارقا الى حد الاختناق في لجج غرامها ، ولا يريد شيئا من الدنيا الا ان يجد نفسه بين احضانها ، وهو عشق هبط عليه فجأة ، وبشكل مباغت ودون توقع او انتظار ، فقد عاش طوال عمره زاهدا في النساء ، وكان يستهجن الزواج من اجل ان يرضى الانسان شهواته الترابية ، ويرى ان رجلا يتزوج من اجل هذا الغرض كمن يشتري بقرة ويضعها في غرفة من غرف البيت ، من اجل ان يشرب كوبا من الحليب كل صباح ، وهناك حل اسهل ، هو ذات الحل الذي نفعله مع حليب الصباح ، اي نشتريه من السوق دون حاجة لابتياع وتربية الابقار ، وكان يحصل على كاس الحليب الذي يريده ، عبر اجازات يقوم بها الى جزيرة مالطا كل عدة اسابيع ، حيث ينزل هناك ضيفا على صديق ضابط من ابناء دفعته ، يعيش اعزبا مثله ومثله محبا للتنويع والتبديل في علاقاته النسائية ، ناويا ان يستمر طوال عمره على هذا الحال ، يشتري الكأس بدلا من البقرة ، الا ان هذه القناعة ضربها زلزال عنيف دمرها دمارا كاملا ، وايقن بعد ان

راى انجيليكا ان هناك مناسبات لا يتحقق فيها ارضاء هذا الجانب الا بالزواج ، خاصة اذا كان حبا معجونا بالشهوة ، كما في حالة عشقه لانجيليكا ، لانه لا وجود ولا سبيل لتحقيق رغبته الا عبر امتلاكها بعقد الزواج ، وهو يرى ان ما اصابه هو نفسه ما اصاب صاحبه السردوك ، وان حال كل منهما مثل حال الآخر ، وهو لا يقول هذا الكلام ليصنع من موضوع عشقه لانجيليكا لغزا مقفلا لا وجود لحل له ، ولا يطلب من السردوك ان يتخلى له عن مكانه ، ليحتله هو في لعبة الفوز بها ، لان انجيلكيا كما يراها كنز هو من عثر عليه وهو من تفضل واطلعه عليه ،وتبقى له الاولوية في الفوز بهذا الكنز وامتلاكه ، وهو لا يطلب في مثل هذه الحالة من صديقه السردوك الا ان يتكرم ويتعطف ويتنازل عن حصة صغيرة من هذا الكنز لرنيسه ، وان يفعل ذلك بروح رياضية اخوية ، لانه بغير هذه الروح ، لن يقبل هذه الحصة الصغيرة ، ولن يرضى ان يأخذها عسفا ، وكرها ، من غير رضاه ، وهو لا يملك في هذه اللحظة صيغة محددة ، للتعامل مع الحالة ، ولكنه يعترف بان السردوك يسبقه في الاحقية بالانتفاع بهذا الكنز ،

وسيعتبر نفسه مجرد ضيف على موائد فضله ، ولا مانع في ان يضع نفسه موضع المتسول لشيء من الاحسان يقدمه له .

ظل السردوك يستمع الى مايقوله رئيسه في حالة ذهول ، صامتا ، لا يتفوه بشيء ، كأن ما سمعه اصابه بداء الخرس لانه لا يعرف تفسيرا لما يقوله الرجل ، وكيف يريد ان يقاسمه في حصة من انجيليكا ، هو بالتأكيد امر جائز لو انها راقصة اخرجها من ملهى الموكامبو في طرابلس ، وتقاسمها بواقع ليلة لكل منهما ، ولكنها امرأة متزوجة ، وابنة عائلة محترمة ، ولا سبيل للفوز بها والاستمتاع بكنز جمالها الا عن طريق الزواج ، وعندما يتزوج الرجل امراة تصير حرما له ، وتصير شرفا وعرضا ، ربما كان اكثر منطقا لو قال انه يريدها لنفسه، ويمكن ان يسوق من المبررات ما يشاء ، كما سبق ان تحدث مازحا ذات مرة عن عزوبيته التي تمنحه احقية في الزواج عن رجل مثله قضى عقودا وهو في حالة زواج ، اما حديثه الغامض عن الحصص كبيرة او صغيرة في انجيليكا التي يقول انه لا يملك لها صيغة او شكلا، فهو حديث لا يستطيع استيعابه

، وينتظر ان يسمع منه مزيدا من الشرح ، تاركا له فرصة الاسترسال من جانبه دون تعليق ، وقد واصل كلامه قائلا :

ـ دعني اتحدث اليك بطريقة عملية ، فانا رجل عملي ، واحب ان اتصرف مع القضايا التي تعرض لي باسلوب عملي ، فانتبه لما اقوله لك .

ـ كلني اذان صاغية .

ـ هناك بالتأكيد ثمن ستدفعه لزوجها لكي تمكنه من شراء رخصة الوكالة ، اليس كذلك؟ ثمن كبير ، سيكلفك ثمن ما تملكه من ابل واغنام ، وستدفع هذا الثمن راضيا باعتباره جزءا من مهر انجيليكا ، هنيئا لك ، ولن اعترض طريقك ، ولك حرية القيام بالترتيبات التي تضمن وصول الوكالة الى الفونسو بالطريقة التي تشاء ، وربما اساعدك في التوسط لدى والدها باناليوتي ، للحصول على موافقته في اعطائك يد ابنته المطلقة ، واضمن لك انك ستفوز بها ، فانعم بما ملكت يداك ، ولا تتهاون دقيقة واحدة في الاستمتاع بها , خذ ما تشاء من وقت لاطفاء نار الشوق من هذه المرأة ، التي سكنت حنايا صدرك ، ولانه حب معجون بالشهوة الحمراء ، فستقضي

لبانتك منها ، وتروي شهوتك ، وستفكر عندئذ في طريقة تتخلص بها منها ، وهنا اقول لك ارجوك لا تفعل معها ما فعله زوجها الاول من تنكيل بها ، او توجيه الاهانات اليها والى جمالها ، او الانتقام منها بالضرب والتعذيب لانها باعدت بينك وبين اولادك وبناتك ، لن تحتاج لان تفعل ذلك ، لان هناك انسانا هو الرجل الجالس بجوارك ، والذي لن يتوانى عن عونك في الوصول الى هدفك ، مستعدا لان يراك تطلقها ، ليأخذ فرصته في الزواج منها ، وسيدفع لك مهرا يعادل خمسة اضعاف المهر الذي دفعته لها ، ربما تبيع عشرين ناقة وجملا ، فلا تندم ، سيكون هناك مائة ناقة وجمل بانتظار اليوم الذي تفرغ فيه منها ، مع ملاحظة صغيرة واحدة ، ولا اقول شرطا ، هي انني باق في هذه البلاد مدة بقاء الادارة البريطانية التي تنتهي رخصة حمايتها للبلاد بعد عامين ، فليكن نصيبك من هذه القسمة عاما كاملا ، وسيكون امامي بعد انتهاء هذا العام ، عام اقضيه معها ، ثم اودعها بما تستحقه من مؤخر الصداق الذي سيضمن لها ولاسرتها حياة رغيدة مدى العمر ، لانني اعرف قيمة الجمال واعرف كيف اعطيه حقه .

رغم غرابة العرض ورغم ضيق السردوك من هذا التدخل الذي فرض به الرجل نفسه على الموضوع كله ، فان امر التعويض المالي الذي يقترحه ، تعويض يسيل له لعاب كل انسان ، لانه تعويض كبير بكل المقاييس، والرجل قادر عليه ، ليس فقط بسبب الموارد المتاحة لمن كان في منصبه وما يحصل عليه من علاوات ومكافآت ومخصصات للمصاريف السريه ، وانما ايضا لانه ينتمي الى اسرة من الطبقة الراقية في لندن ، وله املاك وقصور وحدائق تحيط بهذه القصور ، وعقارات يستطيع ان يشتري باموالها ، اذا باعها او وضعها في اسواق الاستثمار ، مدنا باكملها بمن فيها من نساء ورجال ، لا ان يخصص مهرا مجزيا لامراة مثل انجيليكا يعرف انه لن يتنازل له عنها بسهولة ، نعم سيبيع بعض قطيع الابل الذي يملكه ، وسيبلغ نائب الوالي انه باعه باكمله ، وزاد عليه اغناما ، لكي يجزل له العطاء ، ولابد ان ما يقوله عن الاشباع الذي يصيب الرجل ، بعد ان ان تصبح المرأة التي يتعشقها ، ملك يمينه وطوع امره ، قول صحيح ، ولن يضيره عندند ان يأخذ الثمن الذي دفعه مهرا ، مضروبا في خمسة اضعاف ،

سيجتهد ان يجعلها عشرة اضعاف ، ثم انه عام بطوله وعرضه ، يموت خلاله اناس ويحيا اناس ، وتتغير فيه مصائر شعوب ، وتبدأ حروب وتنتهي اخرى ، ولا احد يدري ، الا خالق الكون ، ما يمكن ان تجيء به الايام ، ليقل له نعم ، ويشترط عليه ان يعطيه خلال هذا العام كل ما تراكم من اجازاته ، ووسيبحث له عن مساعد يقوم بالمهمة بدلا منه، ليستمتع بوقته مع امرأته الجديدة ، وبدلا من قضاء شهر واحد كما يفعل الاجانب الذين يسمونه شهر العسل ، سيقضي ستة او سبعة اشهر عسلية ، متفرغا لها ، لان حجم الاجازات المتراكمة التي يستحقا تزيد عن عدد هذه الاشهر ، ويستطيع ان يؤجر بستان تين في اخصب مناطق الجبل الغربي بين هضابه واوديته الخضراء في منطقة مسكة حيث له اخوال يستانس بهم ويعيش قريبا منهم وفي حمايتهم وعزوتهم ، بدلا من البقاء بها في هذه الصحارى المجذبة وارضها العجفاء الميتة ، ويبعد عن مزده حيث تقيم اسرته القديمة ، وحيث يقيم البريجادير ، وحيث اجواء العمل التي ستلاحقه وهو يقضي اجازته فيها ، نعم ، سيهيء نفسه لما يقرب من عام

من البطالة والكسل والتقلب فوق سرير الحب ، ثم ليات بعد هذا العام ما يأتي ، سيترك الامر للظروف والمزاج ، ولهذا فسيقول لنائب الوالي انه يوافق على الخطة التي يقترحها ، منتظرا منه ان يبدأ في تنفيذها والوصول بها الى نتائجها بسرعة وفعالية ، لكي لا يضيع جزء من العام ، سيكون بالتأكيد خصما من حصة البريجادير في انجيليكا وليس من حصته هو ، لان ما كان اوله شرط عاقبته السلامة دائما كما يقولون في الامثال .

طارقي فوق المهري ، يخب خبا ، جزء من لثامه تعبث به الريح وتعبث بفانض القماش من اكمام قميصه الازرق ، ينسدل واسعا هفهافا على جسمه ، من خلفه امرأة سافرة الوجه ترتدي جبة ذات لون وردي ، تنتهي بغطاء للرأس ، وبشرة برونزية اكثر انفتاحا من لون بشرة الرجل كما اسفر عنها ما ظهر من وجهه ومن ذراعيه الاسمرين ، وقد اعطى التباين بين الوان لباسهما ولون المهري الابيض وسواد القماش الذي يغطي القتب الذي يجلسان فوقه مندمجا في قماش خيمة سوداء وسط شبكة الامتعة المتدلية على جانبي المهري ، مع بقعتان سوداوتان وهما قربتا ماء تتدليان قرب الشبكة قريبا من عنق المهري ، اظهرت هذه التشكيلة اللونية التي تبرق تحت اشعة شمس شديدة السطوع ، مظهرا جميلا لهذا الرجل الطارقي والمرأة الطارقية فوق ظهر هذا الحيوان الانيق الرشيق ، وقد اوقفته الكلاب الكثيرة التي خرجت لاستقباله في المحيط القريب من النجع في وكالة

بانايوتي . لم يفعل الرجل شيئا ولم يقل كلاما ينهر به الكلاب لانه يعرف انها لن تستطيع ان تصل اليه او للمرأة التي معه في مكانهما العالي فوق المهري ، وقف يجيل راسه فيما حوله ، كما وقف المهري يرفع هو ايضا عنقه في كبرياء وينظر من علو الى الكلاب التي مضت تنبح ، حتى خرج على صوت نباحها زنجي عجوز من احد الاكواخ يتكيء على عصاه ، ومضى ة باتجاه الرجل الجالس فوق المهري ينهر الكلاب ويأمرها بان تنصرف عنه ، ملوحا لها بعصاه حتى غادرت المكان ، وتوقف امام المهري يرد على صاحبه التحية ، ويتبع تحيته بسؤال عما يريد الرجل الطارقي من مجينه الى هذا النجع ، فاجابه بانه قادم من جنوب الحمادة الحمراء ، ومعه زوجته ، لكي يلتقط رزقه بالعمل في جني نبات الحلفاء ، ويريد ان يبني خيمته في هذا الجوار ، كما يفعل أي قادم جديد للوكالة ، ويتمني ان يعرف منه ما اذا كان هناك اي نظام يجب ان يتبعه القادم الجديد فيما يخص المكان الذي يبني فيه خيمته ، فاجابه الشيخ الزنجي ، بانه يستطيع ان يبني خيمته في أي مكان يشاء في هذا الفضاء ، فارض الله لاهل الله ، مجرد ان

يترك مسافة عشرين مترا ، حرما لاخر خيمة في صف الخيام الموجودة قبله ، سائلا اياه ان يذهب فور الانتهاء من بناء خيمته ، لتقديم نفسه الى السيد بانايوتي صاحب الوكالة ليعرف منه ما يحتاجه عن جمع الحلفاء ونظام البيع والشراء في الوكالة ، واشار بعصاه الى حيث توجد ادارة الوكالة ، فاستبقاه الرجل الطارقي طالبا ان يعينه فقط على التآلف مع كلاب النجع ، فابلغه بانه ليس محتاجا بعد الان لان يخاف منها ، لانها ما ان تراه قد تم استقباله من احد قاطني النجع ، حتى تتغير معاملتها له من الصد الى الترحيب ، ثم مشى بضع خطوات يريه المكان الذي يمكن ان يبني فيه خيمته ، وظل واقفا حتى راه يامر المهري بان يبرك ، عندها فقط مضى ساحبا نفسه الى الخيمة التي خرج منها . باشر الرجل الطارقي في انزال الادباش ، بمشاركة زوجته ، ومتعاونين قاما بنصب الخيمة ووضع كل قطعة من الادباش في المكان الخاص بها ، ثم ترك المهري باركا ، وترك المرأة تقوم بازاحة الاحجا ر وقطع نبتات العجرم وتنظيف المكان الذي بنيت فيه الخيمة والارض المحيطة بها ، وانطلق باتجاه مبنى الادارة حسب ما

ارشده الرجل ، ليقدم نفسه الى صاحب الوكالة ، حيث وجده جالسا ينظر في سجلات وكالته ، فحياه وذكر له انه من ابناء منطقة القبلة ، يريد الاستفادة مما تقدمه الوكالة من فرص العمل الشريف لابناء المنطقة ، وانه ينتمي الى طوارق الحمادة الحمراء ، واسمه اوسادن وقد تزوج حديثا من ابنة قبيلته تانيرت ، ويريد ان يستقل بحياته ويسعى للحصول على رزقه بجهده الشخصى دون اعتماد على اسرته او قبيلته ، فرحب به بانايوتي ، واخرج سجلا كتب فيه اسمه واسم زوجته ، واضاف سطرا يتعهد فيه القادم الجديد بالاستقامة ومراعاة الاخلاق العامة واحترام جيرانه في الوكالة والا يفعل شيئا يسيء الى الوكالة او يخالف القانون ، وهو اجراء قام بانايوتي باعتماده بعد ان ثار اشكال العائلات الزنجية القادمة من مناطق اوزو ، وقرأ عليه الكلمات التي كتبها وسأله ان كان يريد التوقيع او وضع بصمته تحتها ، فقال انه حصل على نصيب من التعليم وحفظ جزئين من القرآن ، واخذ منه القلم فوضع توقيعه في السجل ، وشرح له بانايوتي طبيعة العمل في الوكالة ، وابلغه ان كل جامعي الحلفاء موجودون الان في

الشعاب ، فهم يقومون بعمل يستغرق النهار كله ويعودون في آخر النهار بما جمعوه ولا يتخلف عن الخروج الا من يقتضى عمله البقاء في الوكالة مثله او العجز مرضا او هرما مثل العجوز الذي راه عند اول وصوله ، ودعاه ان يعود بعد رجوع الناس من الشعاب عند الغروب ، ليقوم بتقديمه لبعض شباب الوكالة وشيوخها ، تسهيلا لاندماجه في مجتمع الوكالة ، وعلى عادة اهل النجع في احاطة كل قادم جديد برعايتهم وارشاده الى اسلوبهم في العمل ، واعانته في التآلف معهم ، التفوا حوله يجاذبونه الحديث كانه صديق قديم ، وياخذونه الى المقهى يشركونه في لعب الورق ، وارسلوا نساءهم الى زوجته يتعرفن عليها ، وفي صباح اليوم التالي اخذوه هو وزوجته الى التقاط الحلفاء ، ووجداهما لا يعرفان كيفة اقتلاعها ، فصرفوا وقتا وجهدا لتعليمهما ، هو مع الرجال و زوجته مع النساء ، حتى تيسر لهما جمع محصول يعودان به مع العائدين في المساء ، وهكذا فعلا في اليوم الثاني ، مما اتاح لهما شراء ما يحتاجانه من مؤونة عن طريق الكوبونات كبقية اهل النجع ، وقد حققا بسرعة اندماجهما في حياة

ومجتمع الوكالة ، وقبل ان يمضى على وجودهما في الوكالة اربعة ايام ، داهمت الوكالة في ضحى هذا اليوم الرابع كوكبة من رجال الطوارق الملثمين ، يركبون المهاري ، لا يحملون فوقها ادباشا، ولا شباكا ، غير انفسهم وبنادقهم ، يسألون عن صاحب الوكالة ، ويصلون الى مكتب باتايوتي ، فينزلون عن اظهر المهاري، ويفاجئونه بالسؤال عن الطارقي الذي انضم الى وكالته منذ يومين يركب مهريه الابيض ، ويردف امرأته خلفه ، فاخرج السجل يذكر لهم اسمه واسم زوجته ، فابلغوه ان هذا هو اسم الرجل الذي جاءوا لقتله وقتل المرأة التي معه، لانها ليست زوجته كما ادعى ، وانما ابنة شيخ من شيوخهم استدرجها واوقعها في غرامه وهرب بها ، وهو لم يتزوجها ولن يستطيع الزواج بها ، لانه لا احد من اهلها يوافق على ذلك، وان مجلس القبيلة في الهروج السود اقصى الجنوب من الحمادة الحمراء احل دمه ودمها وارسلهم لتنفيذ هذا الحكم الذي لا راد له ، ودون تعليق منه على كلامهم ، خرج من مكتبه ينادي علي ، عامل المقهى ان يحضر لهؤلاء الضيوف الشاي والمشروب المصنوع من عصير البرتقال وبعض

البسكويت ، ويبلغهم بان الوقت وقت غذاء ، وقد امر باعداد الطعام لهم ، ولن يخوض معهم في أي حديث الا بعد قبول ضيافته ، وبسرعة جاء علي بالطلبات فانشغل الفرسان الطوارق بتناول هذا الافطار الذي يسبق الغذاء ، ولم يكن لبانيوتي من هدف غير كسب الوقت ، حيث اسرع يرسل عليا الى الشعبة ، طالبا منه ان يمضى باقصى ما يستطيع من سرعة فيبلغ اوسادن بعدم العودة هو وزوجته الى الوكالة لان هناك مجموعة ارسلتها قبيلة الفتاة تريد قتلهما ، وان يبلغ شيوخ النجع وهم الاومباشي جبران والحاج رضوان والفقي عمار وخليل مكاري والسيرجينتي خليفة بالمجيء الى الوكالة في الحال ، وامر عامل الوكالة بان يذبح جديا وينقل لحمه الى البيت لتتولى زوجته وابنته تحضيره ليكون جاهزا كوجبة غذاء لهؤلاء الضيوف ، ورآهم يتبادلون النظرات كانهم يتدبرون امرا ، وخمن ان هذا الامر يتصل بالرغبة في تنفيذ المهمة التي جاءوا من اجلها ، فقد بدت وجوههم عابسة وكان جلوسهم في ضيافة صاحب الوكالة ينتظرون وليمة الغذاء ، امر لا يتفق مع خطورة المهمة بكل ما تحتاجه من حسم وعزم

وانجاز ، ولهذا اسرع يلح عليهم في البقاء، متوسلا اليهم ارجاء المسألة الى عودة الناس من الشعاب ، لانهم يتوغلون في شعاب ليس من السهل الوصول اليها ، ثم عرج نحو حديث يعرف انهم يحبونه ، وهو الاشادة بنبل وعراقة قومهم ، وابلغهم ان مؤرخا من بلاده اليونان ، اسمه هيرودوت ، ويسمونه ابو التاريخ لانه صاحب اقدم كتاب في هذا المجال زار ليبيا قبل الفين وخمسمانة عام ، تحدث عن الجرامنت باعتبارهم اصل الطوارق واشاد ببطولاتهم وحبهم للحرية الذي يجعلهم يتصدون لكل غزو اجنبي لبلادهم ، ورد احدهم بان هذا ما ظلوا يفعلونه في العصور الحديثه عندما قاوموا الغزو الفرنسي ثم الغزو الايطالي ، وصمت باناپوتي عن قول الاضافة التي كان يريد ان يقولها للرجل ، بان حربهم لا تقتصر فقط على مجابهة الغزاة ، وانما اشعلوا حروبا مع بعضهم البعض ، وهاهم الان يريدون قتل ابن عم وابنة عم لهم ، بدل التصالح معهما ، وهو سلوك همجي لا يتفق مع نبل وعراقة ما يقوله التاريخ عنهم. كانوا سبعة رجال يضعون الالثمة فوق وجوهم ، فلا تظهر الا العيون تبرق في محاجرها

، كانها تبحث عن شيء داخل الخيمة التي انتقل بهم اليها بعد ان عاد علي من مهمته ، ليبدأ مهمة تحضير مزيد من الشاي وتعبئته في اكواب يطوف بها عليهم دون التزام بالدورات الثلاث ، لان هناك وقتا يجب ان تملأه كثرة الاكواب قبل ان يتم تجهيز الغذاء ، وقبل ان يصل الرجال الذين ارسل علي اليهم ، الا انهم رجال كبار في السن لا يستطيعون مسايرة علي في ركضه ذهابا وعودة ، الا انهم فعلا وصولوا ، وسمع اصواتهم قادمين قبل دخولهم الى خيمة المقهى ، فحمدا لله انه تمكن من الابقاء على هؤلاء الفرسان القادمين في مهمة للقتل ، هادنن ، جالسين في اماكنهم حتى جاء شيوخ النجع ، وهم من اهل البادية مثلهم ، ويعرفون التواصل معهم ، بمفردات البدو وتقاليدهم التي يفهمونها اكثر منه، ويمكنهم الاعتراض على الجريمة التي يريدون ارتكابها بالمنطق الذي يدركه اهل البادية والنواميس التي يحتكمون اليها ، دخل الرجال الخمسة ، يصافحون فرسان الطوارق ويرحبون بهم في نجعهم ، مؤجلين افتتاح أي حديث معهم الى ما بعد الغذاء، حيث تكون النفوس قد هدأت ، ويكون الطعام قد فعل مفعوله

في اخراج هو الرجال من حالة التوتر والعصبية والتهيج التي جاءوا بها ، وادخلهم في حالة الاسترخاء والراحة ، وكان جزءا من تقنيات بانايوتي ان يجعله غذاء دسما ، مليئا بقطع اللحم الكبيرة ، وصحون المكرونة التي يحبها اهل هذه البلاد بدوا وحضرا ، لانه يعرف ما لهذه الوليمة من قدرة على التخذير على هؤلاء الرجال المتأهبين للقتل الى حد لو ان رئيسهم عرض عليهم خيارا بين النوم في هذه القيلولة ، وبين الانطلاق في اداء مهمة القتل ، لاختاروا جميعهم غفوة القيلولة، الا ان رئيسم لن يعرض عليهم خيارا كهذا ، وسيحاولون بكل قوة ان يقاوموا الاسترخاء والرغبة في النوم ، لانجاز المهمة التي تتصل بشرف القبيلة وكرامة شيخها .

كان يجلس في خيمة المقهى سبعة من ابناء الجنس الازرق ، في عباءاتهم الزرقاء ، ضد سبعة هم الليبيون الخمسة وبانايوتي الاغريقي وصهره الايطالي ، واستهل بانايوتي الحديث بعد انتهاء الطعام ورفع الاطباق قائلا لزملائه شيوخ النجع ، ان هؤلاء الاضياف الاشراف ، جاءوا الى الوكالة في مهمة كلفتهم بها قبيلتهم هي غسل العار واسترداد الشرف

وتنفيذ حكم مجلس القبيلة في اهدار دم اوسادن ، الشاب الطارقي الذي انضم قبل اربعة ايام الى الوكالة وزوجته ابنة شيخ القبيلة المسماة تانيرت . وهنا رد احد الفرسان الطوارق بعصبية وتشنج بانها ليست زوجته ، وانه اختطفها اختطافا وهرب بها تحت جنح الظلام ، بعد رفض اهلها تزويجها منه .

كانت الاحجبة بعد ان ارتاحوا في جلستهم ، قد بدت واضحة تتارجح في خيوط من اعناقهم، وهي احجبة يرتديها الطوارق لتحميهم من القتل ، فخطر للسيرجينتي خليفة الذي يحمل حجابا مثل هذه الاحجبة ، ان يشارك بتعليق من وحي هذه الاحجبة ، فقال متوجها لهم بالحديث :

ـ ولكنكم لن تستطيعوا قتله او قتلها .

فقفز اكبرهم سنا يضع يده على بندقيته ، التي يسندها بجوارها قائلا :

ـ ولماذا لا نستطيع ؟ من تراه يمكنه ان يمنعنا ؟

ـ سيمنعكم الحراس الذين يحرسونه من اهل الخفاء ، فهو يرتدي مثلكم حجابا يقيه الضربات القاتلة ، وكذلك زوجته .

فرد الرجل بنفس اللهجة العصبية :

ـ قلنا انها ليست زوجته .

فتدخل هنا الفقي عمار قائلا :

ـ ومن ادراك انه لم يتزوج ؟

ـ ولماذا يخطفها اذا كان يملك موافقة اهلها على الزواج ؟

ـ اليس اهل الفتاة مسلمون ؟ اذن فان الشرع يبيح لها ان تزوجه نفسها طالما وصلت سن البلوغ ، ويستطيع هو ان يعقد عليها ، على سنة الله ورسوله ، طلما توفر الشاهدان والشيخ الذي يكتب عقد النكاح .

تبادل الرجال السبعة النظرات ، كانهم لم يعملوا حسابا الى ان اوسادن يستطيع ان يفعل مثل هذا الامر ، وان تانيرت يمكن ان تزوج له نفسها دون حاجة لموافقة والدها .

ـ ولكن هذا لم يحدث .

ـ وماذا تقول لو انه حدث حقا؟

ـ اقول انهما مارقان عاصيان ، اختارا الذهاب مع طريق ابليس ، بدلا من طريق الله .

ـ اذن فتعلم ان السيد اوسادن تزوج السيدة تانيرت ابنة شيخكم على سنة الله ورسوله ، وبعقد كامل الشروط ، موجود

فيه مقدم ومؤخر الصداق ، وبحضور الشهود ، وبتوقيع الفقيه الذي كتب العقد ، ولمن يستطيع منكم القراءة ، اقول ، بان هؤلاء الشيوخ الذين امامكم ، قرروا احضار العقد معهم دفعا للشر والبلاء وتغليب العقل والمنطق والعدل على الظلم والافتراء والقتل .

ودفع لهم بالعقد ، الذي صاروا يتبادونه ويدققون فيه النظر ، قبل اعادته للفقيه ، وقد اوقعهم العقد في حيرة جعلتهم يدسون رؤوسهم في بعضها البعض ويتناقشون بلغتهم الطارقية التي لم يكن احد من الحاضرين يعرفها .

وما حدث هو انه ما ان وصل مبعوث باناياتي الى الشعبة وعرف الرجال الخمسة حقيقة الموقف، حتى احاطوا اوسادن علما بما يتهدده من مصير، وعرفوا انه فعلا لم يكن قد عقد قرانه على المرأة التي هرب بها ، ولم يصل الى حل فيما يجب ان يفعله ، غير ان يختبي بها في هذا المكان الذي يستطيع ان يجد فيه عملا يؤمن به قوته وقوت المرأة التي يريد ان يبني بها ، فقرروا كتابة العقد في تلك اللحظة

لمواجهة حالة الطواري التي تنبيء بالخطر، واستخدام هذا العقد لانقاذه من القتل ، وطالبوه بان يختبي مع امراته ، والا يعود الى النجع ، وسيبقى ابو فاس معهما ليكون الدليل الذي يريهما اين يختبنان وكيف يتصرفان ويتولى جلب ما يحتاجانه من طعام وشراب حتى يأتيهما الخبر بزوال الخطر ، وتنازل السيرجينتي خليفة عن بندقيته نوع الموزر مع ثلاث اطلاقات، فاعطاها لاوسادن ، للدفاع بها عن نفسه فيما اذا اضطرته الظروف الى ذلك ، ووعده اوسادن بان يعيدها له فور عودته الى خيمته لان لديه بندقية ام حربية ورثها عن والده جاء الى الوكالة متسلحا بها ، وابقاها مخبأة داخل الخيمة مع صندوق من الذخيرة .

اوقع في ايدي الطوارق السبعة ، فالتعليمات واضحة صريحة بالقتل ، ولا سبيل لاستشارة احد من كبراء القبيلة ، فيما يجب عمله ازاء هذا الوضع الذي لم يكن متوقعا ، لقد قطعوا سبعة ايام يتقصون اثر المهري الذي يحمل المارق والمارقة ، ومعهم اكثر رجال الطوارق خبرة بقص الاثر ، وهو

الاكبر سنا ، وربما اصرارا على اداء المهمة التي تم تكليفهم بها ، انضم اليهم رجل له مكانة عالية في قومه ، هو السيد يوبا ، الذي يستمد مكانته من انتمائه الى عائلة من سلاطين الطوارق ، ولهذا فقد علق الرجال بصرهم برئيسهم يوبا ينتظرون كلمته ، والذي بدا وكأن العقد الذي قدموه له ، والزواج الذي ابلغوه بانه حدث ، امر لا يعنيه، ولا يعتد به ، لان الزواج في عرف قبيلته لا يكون زواجا الا بموافقة العائلتين وعن طريقهما ، وبشكل اكثر شدة وصرامة فيما يخص الفتاة ، وهي في هذه الحالة ليست اية فتاة ، وانما ابنة الشيخ الذي يأتمر بامره الجميع ، ويطيعون كلمته ، فكيف يكون الحال عندما تخرج ابنته عن طوعه ، تعصى اوامره ، وتهرب مع الرجل الذي رفضه اباها زوجا لها ، فهل عندما يتزوج بها يكون هذا الزواج قد برأ ساحتها وساحته ، ام هو امعان في العصيان والتمرد والتحدي ، وفي هذه الحالة يجب ان يدفعا الثمن غاليا ، ويدفعاه بحياتهما ، هكذا هو المنطق القبلي الذي يعرف السيد يوبا ، وكانت وسيلة الفقي عمار لاقناعه هي الدين ، فما يريدون فعله هو جريمة في حق الدين

، لانهم يسعون لقتل رجل بريء وامرأة بريئة ، ولكن اصرار الرجل الذي يتزعم المجموعة ، ويتكلم باسمها ، اظهره وكأنه يرى ان اوامر شيخ القبيلة ، وتقاليد الشرف التي يحتكم اليها قومه ، اقوى واكثر سيطرة على عقله وقلبه من الدين ، ومن كلام خالق الكون ، فتركه الفقي عمار لبقية اشياخ النجع ، يحاولون معه بمنطق القانون ، فالبلاد لها حكومة ، تحتكم الى قانون ، تستطيع تنفيذه بقوة السلطة وسلاح الشرطة ، وهذا القانون فوق العادات والتقاليد التي تحتكم اليها القبائل ، لان الحكومة تحكم كل الناس ، ومثل هذا العمل الاجرامي يجعلهم في مواجهة الحكومة بسلاحها وشرطتها ، وسيعرضون انفسهم للسجن والمحاكمة ، بل والاعدام في حالة تنفيذ جريمتهم ، افلا يجعلهم هذا الامر يعيدون النظر في قرارهم ؟

وعندما رأى باتايوتي اصرارهم ، توجه اليهم برجاء واحد ، هو العودة الى شيخ قبيلتهم ، وابلاغه بهذه المستجدات التي اخبرهم بها شيوخ النجع ، وحقيقة ان هناك عقد زواج يربط بين اوسادن وابنته مكتوب بالطريقة الشرعية وعلى سنة الله ورسوله ، فاذا اصر الشيخ ومجلس قبيلته على ان الفتاة

مارقة ، وزوجها مارق رغم الزواج ، ويستحق القتل ، فسيكون لهم عندئذ العذر في العودة والاصرار على تنفيذ المهمة . الا ان الاعتراض على الاقتراح جاء من كونهم لا يضمنون العثور عليهما بعد هذه المرة ، وجاء رد المكاري ساخرا بانه من قال انهم حقا ضمنوا العثور عليهما ، وكان هذا التعليق الساخر حافزا لبدء جولة من الكلام الساخن هذه المرة ، الا انه كلام انتهى منذ بدايته ، لان رجلا يحمل مسدسا دخل خيمة المقهى ، وطالب الطوارق السبعة ، وهم مازالوا متكئين تاركين سلاحهم ملقى بجوارهم في اهمال ، بان يمتنع أي احد منهم عن مد يده الى سلاحه والا اطلق عليه النار ، فبقوا متجمدين في اماكنهم ينظرون الى بنادقهم بدون ان يمدوا ايديهم اليهما . كان الذي دخل هو رشيد، العون الامني الذي زرعه السردوك في الوكالة ، ليكون عينا على اهلها . لم يكن ما فعله رشيد بهذه المداهمة للجماعة يلقى الارتياح من صاحب الوكالة وشيوخ النجع ، ولهذا فعندما اطلق رئيس جماعة الطوارق صوتا كانه الصراخ ، يتهم مضيفيه بالخديعة ، طلب بانايوتي ، وايده في طلبه شيوخ النجع ، ان يخرج

رشيد من الخيمة ويتركهم يتفاهمون بطريقة ودية مع الفريق الطارقي ، وتردد الرجل كثيرا قبل ان يستجيب لندائهم بالانسحاب ، لكنهم الحوا عليه ، وغمز له بانايوتي من طريق خفي ، ان هذا اسلم وانجح لخطته ، فقد عرف انه خابر السردوك في مزده ، وان هناك قوة قد تحركت من هناك ، وتحتاج لوقت حتى تصل ، وان رشيد ما جاء شاهرا سلاحه الا بعد ان اطمأن ان رجال الطوارق في حالة راحة واسترخاء ، لكي يؤخر مغادرتهم الوكالة ، حتى وصول قوة الشرطة ، وكانت وسيلة بانايوتي لابقائهم ، هي الظلام ، فقد بدا الضوء يتراجع امام عتمة المساء ، ولا سبيل امام الفريق الطارقي ان يعرف طريقا او يتقصى اثرا او يسير باي اتجاه يقوده الى غرضة في الوصول الى اوسادن ، في مثل هذا الليل ، لان اوسادن وامرأته سيقضيان الليل هاربين في الشعاب ، بانتظار ان يشفع لهما عقد الزواج بالنجاة من القتل ، وطالما انه لم ينفع ، فلا سبيل امامهما الا الاختفاء، استعدادا للهروب فيما بعد ، وسيبقيان يختفيان في الشعاب الى ان تزول هذه الشدة ، وكان اهل النجع قد باشروا عودتهم من الشعاب ، وعرفوا

باخبار ما يحدث ، ووجود المهاري السبعة باركة امام مباني الوكالة ، وقد بدأ بانايوتي يامر عماله بان يهينوا مكانا لنوم الضيوف ، وبدأوا بان اوقدوا نارا في الخلاء المواجه لخيمة المقهى لكي تدفيء المكان وتطرد امواج البرد الليلي ، وبدأ جماعة الطوارق يالفون المكان ويأنسون لاهله ، خاصة بعد ان امر الشيوخ بانسحاب رشيد ، الذي عرفوا انه شرطي سري يرعى الامن في الوكالة وان الامر ليس سائبا فيها ، فهناك ضبط وربط وامن ، وعالم يختلف عن عالم النجوع في الصحراء ، وكان الشاي الاحمر الذي لم تنقطع كؤوسه عن الدوران ، قد ساعد في تعميق هذه الالفة مع المكان وانهاء حالة التوتر ، وجاءت الوجبة الشعبية التي يصنعها اهل المراكز الصحراوية من رقانق الخبز المغموس في مرق اللحم وفوقها قطع من ذبيحة هذا الصباح ، تشكل عشاء شهيا ودسما يزيد من حالة الاسترخاء ، وربما الاستلام للنوم قبل الاوان ، في هذه المهاجع التي هيأها لهم العمال قريبا من النار وافرشوا المفارش ووضعوا الوسائد والاغطية ، ودعوهم اليها قبل تناول العشاء ، ليستمر بقاءهم فيها بعد الانتهاء من

الطعام ، خاصة وانهم وصلوا هذا الضحى الى الوكالة بعد ان قطعوا مفازات صحراوية استغرقت منهم سبعة ايام ، لم يكن ممكنا النوم خلالها الا قليلا ، ولم يكن لهم خلالها اكل الا حفنات من الشعير المحمص، وباعتبارهم قد وصلوا محطتهم الاخيرة فلابد ان النوم سيتسلل بيسر وسهولة الى عيونهم ، وهو ما بدت علامات تظهر في شكل تثاوب اصابت عدواه كل المجموعة ، الا ان ما أطار هذا النوم من عيونهم واعادهم جميعا الى حالة من التوتر واليقظة والاستنفار ، هو هذه السيارات التي اقتحمت ليل الوكالة بكشافات انوارها ، وهدير محركاتها وزوابع الغبار التي تنطلق من عجلاتها ، حتى توقفت اما ابنية الوكالة ، وهبط منها اعضاء قوة الامن ، بزيهم الرسمي ، وقوامهم عشرون شخصا ، يقودهم القائد الامني للمنطقة الرائد صالح السردوك بنفسه ، وانتظموا في حلقة حاصرت المكان وهم يقفون في حالة استعداد ، وبنادقهم في ايديهم يشهرونها امامهم ، وتقدم رئيسهم ، يسال عن هؤلاء الرجال الذين يهددون الامن ، فاحاط به باانايوتي وشيوخ النجع يصافحونه ويرحبون به ، قبل ان يتحرك لياخذ

مكانه جالسا فوق كرسي قدمه له عامل المقهى ، قريبا من المكان الذي تناولوا فيه الطعام وهيأوا جزءا منه لنوم الفريق الطارقي ، وقد نهضوا جميعا واقفين في اماكنهم وهم يرون الرائد السردوك يقوم ويمد لهم يده بالتحية وبجواره صاحب الوكالة يقوم بواجب تقديمه ذاكرا للجماعة اسمه ورتبته قبل ان ينتقل لتقديمهم له بادنا برنيسم الذي ذكر بانه ينتمي لسلاطين الطوارق جنوب الحمادة الحمراء، وعاد السردوك للجلوس طالبا من اعضاء الفريق الطارقي العودة الى الجلوس ، وهو ما فعله ايضا بقية رجال النجع الذين رجعوا الى اماكنهم فوق الابسطة بينما بقى السردوك وحده جالسا على الكرسى وقد اخذ وضعا اكثر ارتفاعا وموقعا اكثر هيبة وهيمنة على الجلسة ، وبادر بالقول متجها بالحديث الى رنيس المجموعة

ـ ارك تحمل سلاحا كما يحمله بقية رفاقك ، فهل هذه اسلحة مرخص بها ؟

اجاب يوبا بثقة ودون وجل ولا تردد:

ـ هناك اتفاقيات تحكم العلاقة بين السلطة الفرنسية في الجنوب وبين قبائل الطوارق تبيح لنا حمل السلاح .

فرد عليه السردوك :

ـ نعم ، ولكن ليس في كل الاوقات ولا في كل الامكنة ، فحملها لا يتعدى المنطقة التي تسكنها القبيلة لاغراض دفاعية ، وانتم هذه المرة لم تخرجوا بها فقط عن حدود ارض القبيلة ، بل والدخول بها الى ارض خارج الحماية الفرنسية كلها ، فانت هنا في ارض الحماية البريطانية ، وفي دائرة اختصاص الشخص الذي امامك ، هل فهمت ؟

ـ نعم

ـ اذن فان وجودكم بهذا السلاح اختراق صريح للقانون .

ثم صاح ينادي احد اعوانه

ـ شاويش عمر ، تعالوا اجمعوا هذه البنادق .

وبسرعة ، وباسلوب المداهمة والمباغثة ، انقض الشاويش عمر وخمسة من عساكره يجمعون بنادق الطوارق ، بينما وقف رشيد خلف المكان الذي يجلسون فيه ، شاهرا مسدسه في حركة احترازية فيما لو راودت احد منهم نفسه بالمقاومة ، بينما استمر السردوك في حديثه الهاديء ، المطمنن ، بطريقة ودية عن الحدود الوهمية التي تفصل بين منطقة واحدة مثل

الحمادة الحمراء فيصبح جزء منها تحت ادارة دولة وجزء تحت ادارة دولة اخرى ، باعتبار ان هذه كلها اجراءات طارئة ومؤقتة ستزول ليفرض الواقع نفسه ، وهو حديث يستهدف ان يخلق تاثيرا معاكسا للاستفزاز الذي يحمله سلبه لاسلحتهم .

ـ سنعيد اليكم بنادقكم وسنساعدكم في العودة الى اهلكم ، ولكن بعد ان نطمئن الى ان الامن مستتب ، وكما تعلمون فان استتباب الامن هو من مصلحة الناس جميعا بمن فيهم انتم .

سألهم عن القبائل التي ينتمون اليها ،

وعرف انهم لا ينتمون لتلك التي يشكل بعض افرادها عصابات ترهب الصحراء ، ثم القضاء على بعضها ، وما زالت الشرطة على جانبي الحدود بين فزان وطرابلس تطارد فريقا صعب المراس ، لانه ينتمي الى قبائل الهجار التي تسكن جبالا تسمى بهذا الاسم داخل التراب الجزائري، تخرج منها للغزو وتنسحب اليها بعده ، وعرف ان قبائل الهروج التي ينتمون اليها ، وهي قبائل طارقية ليبية ، كثيرا ما دخلت في صراع مع

قبائل الهجار ، واراد ان يستخدم هذه المعلومات التي يعرفها عن قبائلهم ، لترطيب خواطرهم ، بسبب ما هم فيه من محنة ، وما يعتقد انه يراودهم من احساس بالعار لانهم وقعوا في ايدي الحكومة ، وقد فشلوا في المهمة التي تعهدوا بانجازها امام شيوخ قبيلتهم، فاثنى على قبائل الهروج ، وافهمهم ان امثالهم ممن وقعوا سابقا في يد الحكومة ، ثم برأت ساحتهم، عادوا الى قبائلهم التي اقامت الاحتفالات تستقبلهم بالفرح والغناء والزغاريد، لانهم عادوا يحملون هذه الشهادة من الحكومة بحسن سلوكهم وخلو سجلهم من السوابق ، وهو ما سيحدث لهم ، بل ان هناك احتمالا كبيرا ، كما افادهم ، بان يعودوا الى قبيلتهم باخبار تدعو الى الغبطة ، اذ ان حكومة الولاية في طرابلس تدرس اقتراحا ارسلته لها المنطقة الامنية في القبلة ، يقضي بانشاء فرقة للهجانة ، تحفظ الامن في المعابر الصحراوية ، ولا سبيل الى وجود احد في البلاد ، ينافس الطوارق في القيام بهذه المهمة ، ومعنى ذلك وجود خمسين وظيفة بمرتب شهري مجز ، ولا مانع لديه من ان تكون هذه المجموعة التي امامه من فرسان الطوارق ، هي

نواة هذه الفرقة ، فهاهم رجال لا يحتاجون الى تدريب ، لانهم متدربون على القتال ، بل لا يحتاجون الى سلاح لان بنادقهم موجودة ، ومهاريهم ايضا موجودة ، وسيمنحهم فرصة للتفكير والعودة الى قبيلتهم واستشارتهم في الامر ، بانتظار ان يكون قرار الوالي بتشكيل فرق الهجانة قد وصل من طرابلس للبدء في تنفيذه ، واستأذن منهم في اتخاذ اجراء امني احترازي ، باعتبار ان هناك تهمة موجهة اليهم بالتهديد بالقتل ، سيتم استيضاحها عن طريق كتابة محضر ، يتم فيه اخذ تعهد منهم بالامتناع عن القيام بمثل هذا العمل مستقبلا ، واعطاء الامان للرجل وزوجته ، قبل اطلاق سراحهم ، والعودة الى ديارهم.

ثم نهض من الكرسى مستأذنا بانايوتي في الذهاب الى الحانوت لامكانية العثور على نوع من الانواع التي يفضل تدخينها من السجائر ، بينما يعرف بانايوتي ان الهدف شيء آخر غير البحث عن السجائر ، وطالبه بان يعتني بضيوفه حتى يعود ، ولم يكن الضيوف يحتاجون الا لهذه الاستراحة التي اتاحها لهم السردوك ، ليدسوا رؤوسهم في

بعضها البعض ، يتحدثون في همس ، بلغتهم التي لا يفهمها احد من الحاضرين ، حتى لو التقط كلمة او عبارة ، وقد اكتست وجوههم علامات الحنق ، ينظرون حولهم في شك وريبة وحذر ، مما بدا واضحا من خلاله للحاضرين ، ان هناك مؤامرة صغيرة ينسجونها ، الا ان احدا لا يستطيع التكهن بها ، لان الحصار محكم عليهم بحيث يصعب وجود منفذ فيه ، الا ان المؤامرة سرعان ما اتضحت خيوطها ، بعد دقائق قليلة ، وتكشفت واضحة امام الجميع ، وعرفوا سر ما كانوا يهمسون به، فقد عرفوا انهم وقعوا بين براثن الحكومة ، وان لا امان لها ولا لشرطتها ، ولا مصداقية للكلام المعسول الذي يقوله صاحب هذه الشرطة ، ولانهم لا يستطيعو الافلات من هذه القبضة مجتمعين ، فقد قرروا ان يتيحوا الفرصة لواحد منهم وليكن اصغرهم ، لينفذ من هذه القبضة هاربا على قدميه ، ليستطيع ابلاغ القبيلة بما حدث ، بدلا من ابقانهم في الظلام ، لا يدرون شينا عما حدث لهم ، وفعلا تكلم الفتى الذي وقع اختيارهم عليه ، يستأذن بانايوتي ان يذهب الى الحمام ، فامر بانايوتي واحدا من عماله ان يقوده الى مكان دورة المياه ،

الذي نهض يسير امامه يحمل الفنار ، ودون ان يثير هذا الخروج اهتمام احد من الشرطة ، وما ان اقترب الرجل من دورة المياه ، مبتعدا عن المكان الذي يحتشد فيه رجال الشرطة ، حتى اطلق ساقيه للريح ، داخلا في الخلاء ، مختفيا خلف سجف الظلام ، قبل ان ينتبه احد من رجال الشرطة الى هروبة ومحاولة اللحاق به ، او تسليط اضواء السيارات الى حيث هرب دون فائدة ، بينما كان السردوك يقضي وقته في الحانوت ، متحدثا للسيدة كاتيا وابنتها، يبشرهما بانتهاء معاناة انجيليكا مع الفونسو ، فقد افلح اخيرا في ارغامه على تطليقها ، وسيكون يوم الغد هو موعد تحررها من هذا الزوج البائس وانعتاقها من اغلال زواجها الفاشل ، لينفتح المستقبل امامها باذن الله وتوفيقه زاهيا مشرقا يعد باحلى المنى واجمل الوعود ، واول علامات اشراقه هو هذا الطاقم الذهبي الذي يحتوي عقدا واقراطا وخاتما ، سوف يتلألأ فوق صدرها ، ويزين اصابعها، ويتأرجع عنقود نور من اذنها ، وفتح صندوقا اخضر ، مفروش وسطه بقماش الدانتيلا ، فظهر الطاقم باجزائه المتوزعه توزيعا جميلا فوق المخمل اللامع

الاحمرار الذي يمثل بطانة الصندوق ، اذ ان هذه هي هدية السردوك لانجيليكا بمناسبة انتهاء عهد الظلم والاستعباد بالنسبة لها ، وتركهما بعد ان وضع الصندوق بين يدي كاتيا ، وقبل ان يسمع تعليقهما او يتيح لهما فرصة ان يعتذرا عن قبول الهدية ، رجع مهينا نفسه لاخذ الطوارق السبعة مخفورين الى مزدة ، وقد هيأ للقبض عليهم سيارة البوكس السوداء ، المعدة بصندوقها الحديدي لهذا الغرض ، واصدر اوامره لافراد الشرطة ، فاحاطوا بمجموعة الطوارق، يقودونهم الى ركوب البوكس ، تاركا المهاري في عهدة معاونه رشيد ليتولى احضارها فيما بعد الى عاصمة الاقليم ، اما بالنسبة للطارقي الهارب ، فلم يكن هناك مجال لايقاف هروبه ، ولكن لابد من تدابير احترازية لحماية اوسادن وزوجته ، يكلف بها الشاويش عمر الذي ابقاه مع احدى السيارات واربعة افراد من الشرطة ، وامره بان يتولى بمساعدة اهل النجع ، استدعاء اوسادن وزوجته الى الوكالة ، وابلاغه بان الخطر لم ينته بالنسبة له ، لان الطارقي الهارب سوف يعود الى القبيلة ، التي قد تستنفر مجموعة اخرى ،

وتستخدم اسلوبا اكثر مباغتة وخداعا لمداهمته وقتله ، ولهذا فهو ينصحه بوضع نفسه تحت حماية الشرطة في مزده ، وهناك سوف يجد مكانا آمنا لاقامته هو وزوجته بعيدا عن الخطر الذي يتهدده. ولم ينس السردوك قبل مغادرة الوكالة ان يبلغ الفونسو بان كل شيء جاهز بالنسبة له ، لكي يأتي مع الشاويش عمر يوم الغد ، لاستلام رخصة الوكالة ، التي ستكون تلويحة وداع للفقر وبداية الطريق الى الثراء ، وسيلمع اسمه باعتباره صاحب الوكالة التي سيعرفها الناس باسم وكالة الفونسو .

19

بكفاءة واتقان بدأ الشاويش عمر منذ فجر اليوم التالي انجاز المهمة التي كلفه بها رئيسه السردوك ، ارسل رشيد الشرطي السري المقيم بالوكالة برفقة المهاري السبعة ، الى مزده يعينه واحدا من عناصر الشرطة الذين بقوا معه ، وارسل عنصرا آخر الى الشعبة مع دليل من اهل النجع لجلب اوسادن من هناك على وجه السرعة ، وكان هو جاهزا فور وصول اوسادن وزوجته للانطلاق بهما الى مزده ، وكانت المفاجأة التي تلقاها من اوسادن ، هي رفضه مغادرة الوكالة ، قائلا بانه قادر على حماية نفسه وزوجته ، ولا يطلب عونا او

مساعدة من الحكومة في هذا الموضوع ، شاكرا لمدير الامن قدومه الى الوكالة لنصرته والقبض على المجموعة التي جاءت تلاحقه ، ولكنه ليس خائفا من الرجل الذي فر هاربا خلف الجبال ، ولا من اية مجموعة اخرى يرسلها شيخ القبيلة ، لانه لا يشكو ضعفا في التصويب ، ولا احتياجا للسلاح فبندقية ام حريبة التي يملكها ، رغم انها تنتمي لنوع من السلاح انقرض من العالم ، الا انه يملك لها مخزونا من الذخيرة لا ينفذ ويعرف في مدينة غات عائلة تتخصص في صنع نوع من البارود لتعمير هذا النوع الذي مازال متداولا لدى اهل المنطقة هناك، يستطيع في اي وقت الحصول عليه ، وهناك فقيه طارقي من اهل تمبكتو ، التقى به عند زيارته لاقارب له في الحمادة الحمراء ، قرأ على هذه البندقية من الاوراد ودعا عليها من الدعاء ما يجعلها بندقية مباركة ، تصيب اهدافها وتحمي صاحبها ، وكل ما يطلبه لكي لا يكون حملها مخالفا للقانون، هو استصدار ترخيص له بحملها ، بالنظر الى ما تعرض له من تهديد بالقتل ، كما تعلم الحكومة ، لكي يستطيع ان يدافع عن نفسه وعن زوجته بهذه البندقية.

حاول الشاويش عمر ان يثنيه عن رأيه ، الا انه استسلم في النهاية لمشيئة اوسادن ، عائدا الى رئيسه السردوك ، بالرد الذي سمعه ، وتاكيده على انه قادر على حماية نفسه .

كان باتايوتي قد عرف من زوجته ما قاله السردوك ، عن الطلاق الوشيك بين ابنته وزوجها، ووقف يراقب الفونسو وهو يأخذ مكانه بجوار الشاويش عنتر ، في السيارة التي ستقله الى مزده ، وهو يشعر بكثير من الاسف والاسى ، فهذا هو الفتى الذي تعشم ان يكون ابنا له يحل مكان ابنه الهارب ، المارق ، وقد انساق هو ايضا وراء اطماعه وضعفه ، وهذا الانسياق لن يجلب الخير له ، مهما كانت الوعود المعسولة التي يعده بها السردوك ، كما لن يجلب خيرا لاحد غيره ، وبالنسبة لباتايوتي فما فعله سيكون مصدر للعناء ، وبابا جديدا للمشاكل سيفتحه هذا التهور من الفونسو ، وسيضعه في مواجهات مع رجال يركبون جياد السلطة ويحاربون بسلاحها . رفع الشاويش يده مودعا وهو يغادر الوكالة ، وردا عليه رفع باتايوتي يده بالتحية، وكأنه ليس هو الذي يرفعها . كأن هناك يدا غير مرئية هي التي تولت رفع هذه اليد وهذا

الذراع ، بالرغم منه . ودون ان يلتفت لاحد ممن كانوا حوله ، بمن فيهم شيوخ النجع الذين تخلفوا عن مرافقة عائلاتهم الى الشعبة لاكمال ما بدأوه بالامس ، تركهم ومضى باتجاه الحانوت ، لان هناك معركة مؤجلة مع زوجته ، استحث الخطى لحسمها ، واطل من باب الحانوت يسألها ان تتبعه ، فسارت خلفه حتى دخل البيت ، يريد ان يعرف منها كيف قبلت وكيف تركت ابنتها تقبل الهدية الذهبية التي قدمها اليهما السردوك ، فقد سألها هذا السؤال على عجل عنما سمع منها حكايته ، وتواترت الاحداث التي منعته من فتح هذا التحقيق معها مساء الامس ، ورجع الى البيت متأخرا وكانت مستغرقة في النوم فلم يوقظها، واستيقظ صباحا قبلها ، ليكون بجوار الشاويش عمر وهو يباشر تنفيذ مهماته ، ولم يكن امامه وقت لفتح الموضوع الا الآن ، بعد ان انصرف اخر افراد الشرطة هذا الضحى ، وافهمته زوجته انها لم تكن تريد ان تقبل العقد ، ولم تكن انجيليكا ايضا في مزاج يسمح بقبوله ، الا ان الرجل لم يترك لهما مجالا لابداء الرأي ، اذ رمى الطقم بين ايديهما ، وغادر الحانوت في خطوات عسكرية سريعة ، ولم تستطع ان

تركض وراءه لارجاع الطقم اليه ، او رميه امام قدميه اذا رفض استلامه ، لكي لا تصنع مشهدا فضائحيا امام الحشود التي كانت موجودة في الجوار من شرطة وطوارق واهل النجع وشيوخه ، والطقم موجود في الحانوت ، فهي لم تعد به الى البيت ، وابنته لم تأخذه معها ، ورغم انه ثمين يمكنه ان يغري اي انسان بسرقته ، فقد تركته في درج من الادراج المفتوحة ، قائلة لزوجها بانه يستطيع ان يعيده اليه اذا اراد ، فابلغها بان هذا ما كان سيفعله لو عرف بامره والرجل موجود في الوكالة ، اما الان فان من الصعب ارساله له مع اي مرسول ، لان الامر قد يزداد تعقيدا ، وتنشأ حوله اشاعات واقوال لا حاجة لاحد بها ، وطلما ان احدا لم يكن شاهدا على تقديمه للعقد ، فلا احد يجب ان يكون شاهدا على اعادته اليه ، وبتثاقل غادر البيت قائلا انه يريد مهلة للتفكير فيما يجب فعله ازاء هذا الموضوع ، وعاد الى مكتبه ليشغل نفسه بالعمل على ما فاته تحريره من اوراق وما تعطل عن نقله في سجلاته من معاملات، وظل حتى انقضى ما بقى من النهار ، مكتفيا بفنجان القهوة او قطعة بسكويت يحضرها له علي من خيمة المقهى ،

وبمجر ان راى العتمة تكتم انفاس ضوء النهار ، خرج الى الخلاء ، بامل ان يجد في وحدته مع نفسه متلفعا بالظلام ، فرصة لاستعادة شيء من سلامه الداخلي ، لعله كان مخطئا ـ قال في نفسه ـ عندما ظن ان فرصة ان يقيم في مكان يقع في عمق الصحراء ، محاطا بحلقة مقفلة من الجبال السامقة التي تغرس رؤوسها في زرقة السماء ، سيعصمه من مشاكل العصر التي يربطها الناس بالمدن والضجيج والزحام وتشابك العلاقات وتعقدها في المجتمات المدنية ، لانه يكتشف الان ، حقيقة انه ليس للمشاكل حواجز ولا عوازل ولا موانع تحول بينها بين الوصول الى صاحبها ، في اكثر الاماكن بعدا عن العمران مثل هذا المكان ، اذن ليس المكان وحده ، وانما شيء اخر ، هو الذي عرف اهل التبتل والرهبنة الحصول عليه ، حين اعتزالهم بين الجبال ، لعله موجود في نفوسهم ، تعززت بالعزلة والاعتكاف ، موهبة اعطاها الله لهم ولم يعطها له ، ولهذا فهو لن يحصل على ما حصلوا عليه حتى لو وضع نفسه في اقصى نقطة في الكون وابعدها عن الناس وصخب الحياة ، او لعلهم حين انسحبوا الى مثل هذه البقعة بين الجبال ، كانوا

قد فكوا الارتباطات كلها ، وقطعوا الخيوط كلها ، التي تشدهم الى عالمهم القديم ، فاعطاهم العالم الجديد ، في ارض العزلة والفراغ و الصمت ، نفسه ، وصار لهم حق ان يتواصلوا معه ، فيفهمهم ويفهمونه ، ويستطيع الواحد منهم عندئذ ، الانصات الى نبض الصخور التي تغطي الجبال ، وانين الاشجار التي تضربها الرياح ، ويفهم لغة الجنادب والخنافس والديدان والتي تعيش في مثل هذه الشعاب والقفار ، ثم انه ، وليكن صريحا مع نفسه ، جاء لاغراض دنيوية، يحاول ان يشتري خدمة من بشر مثله ، ويصنع معهم عمرانا ويبني مجتمعا ويجلب لهم ولنفسه رزقا ، ويكون راندا لمرحلة من مراحل التحول التي تشهدها مناطق بدوية كهذه المنطقة ، املا ايضا ،وهو يصنع ما يصنعه ، الا يكون في ذلك ما يتعارض مع حقه في ان يجد شيئا يمنحه له هذا المكان ، الذي احبه منذ اول مرة رآه فيها ، ربما شكله المكعب ، المربع ، لدائري ، هو سر جاذبيته ، بكل ما يملكه هذا الشكل الملتبس من اسرار الجمال ، نعم ، هناك دائما دوائر ، في حياة البشر جميعا تلقى بلمستها الجمالية على الكون ، كمثل تلك التي يصنعها الافق

ويبني بها خيمته فوق رأس الانسان اينما كان ، في البحر ، في الحقل ، في المدينة ، في البادية ، وهناك هذا الكون الدائري وكوكب الارض الدائري الذي نشعر به ونشعر بوجودنا فوقه حتى وان لم نكن نرى له صورة امامنا ، فهناك صورة له في عقولنا، صورة له في خيالنا ، ثم هذه الدائرة هنا التى تشكل دائرة داخل دائرة الكون والارض ، ورغم انها الدائرة الاصغر التي قد يشكل صغرها ضغطا على الوجدان ، الا انها ليست كذلك في حقيقة الامر ، فهي رغم قوتها ،
وقوة الحدود المصنوعة من جبال ضخمة كانه حيطان بناء كوني الهي جسيم عظيم ، يبدو رغم شكل المربع الذي تبني به حيطان المعابد فهو محاط بدائرة الافق تحتظنه ، وهي دائرة رحيمة ، ورحمتها تنبع من هذا الاتساع ، فهي تحيط بالبناء وتحيط بك كانسان وسط هذا البناء ، وتمنحك احساسا بالحماية ، ودون ان تشعر معها بما يكن ان تشعر به مع الدوائر ذات الضيق ، والحواجز المرتفعة ، التي قد توحي بنوع من الحصار ، فالدائرة هنا ليست حصارا وانما حرية ، وهذا الاتساع وهذه الحرية ، يشعر بهما الان ، وهو لا يرى الدائرة

في وضوحها واكتمالها كما هي في النهار ، فقد حجب الليل ، رغم الشهب المضيئة،هذا الوضوح ، ولا يرى الجبال الان الا روية شبحية ، ويرى الفضاء ملينا بالكتل السوداء ، التي لا يستطيع رغم وجودها ورغم ثقلها ان يلمسها ، هكذا هو الظلام كيان مرعب ثقيل قوي ، وتمد يدك لتلمسه فتجد انه لا وجود له ، انه الفراغ ، فهل يكون للفراغ كل هذا الثقل ، كل هذه القوة ، كل هذا الكيان الذي يبدو مهولا عظيما ، ولكنه لا يشعر باي رعب او خوف ، ربم العكس هو الصحيح ، فالاحساس بالحرية ولاتساع رغم ظلال العتمة وكثل الظلام لا يفارقه .

يخامره احيانا احساس بالذنب ، لانه اقتحم هذه البادية ، بمشروعه الذي يغير طبيعتها ، ويلوث نقاء الهواء فيها ، ويبدل بعض نواميسها بنواميس جديدة مجلوبة من عالم العمران ومجتمعاته ، ولكنه يعود ويقول في نفسه اليست هي رسالة البشر منذ ان خلقهم الله ، اي تعمير الارض وتغيير وجه الطبيعة وتحويلها الى بيئة مسخرة لخدمة الانسان وتحسين معيشته، اليس فيما يفعله شينا يتفق والمهة التي كلف الله بني آدم عندما استخلفهم في الارض ، الا انه يرى ان

حجم المشاكل بدلا من ان يتضاءل وهو ينسحب من المدينة الى الصحراء ، يتزايد بدل ان يتناقص ، وكأنه يجني حصاد شيء زرعه ، اثما او خطيئة ، وعملا لم يكن مفروضا ان يعمله ، ويبحث في حياته عن شيء قام به يخرج عن روتين حياته العادي، فلم يجد الا افتتاحه لهذه الوكالة وانتقاله للعمل في الصحراء ، فهل هو حقا يتقاضى عقابا على مثل هذا التحول في حياته ، وهاهي فصول المعاناة التي بدأت مع حياته الجديدة في البادية ، تتبع بعضها بعضا ، فهي لم تنقطع منذ ان وطات قدماه هذا المكان ، واخر حلقاتها هي هذه الصفقة التي عقدها الفونسو مع السردوك ، راضيا ان يقايض زوجته بوكالة حلفاء يشترون له رخصتها ، ويتكلفون باعطائه مالا كثيرا يبدأ به مشروعه ، فهو يعرف ثمن الرخصة لانه دفع مثله في رخصة هذه الوكالة ، الفرق بينه وبين صهره انه كان راندا في هذا المجال فلم يكن هناك منافسون له ، بينما هو فاز على منافسيه بالتزييف والغش ، ويعرف ان كبار موظفي الدولة ، خاصة عندما يستفردون بالمناصب في الارياف ، وفي عزلة الحكومة المركزية ، تضيع لديهم الحدود بين جيوبهم

الخاصة وبين خزينة الدولة ، بدءا من نائب الوالي الى السردوك الى مدراء النواحي ، جميعهم يستبيحون المال العام ، ويحيلونه الى مالهم الخاص ، لا فرق بين هيوز الانجليزي وبين السردوك الليبي ، وبين المدير البدوي في نقطة من نقاط الصحراء . انه لا يعرف ما الذي يجعل نائب الوالي يرجع في كلامه ، ويأتي ليقول الكلام الذي يردده مدير الامن ، مع انه شرح له كل ما ما يدبره الرجل مما هو مخالف للقانون ومخالف للاخلاق ومخالف للاعتبارات الانسانية ، فلمن يستطيع ان يشتكي الرجل ، بعد ان اشتكاه لنائب الوالي الانجليزي ، الذي هو اكثر ثقافة ومعرفة وتمدنا من السردوك ، ويملك المنصب الاول والاعلى في المنطقة الذي يتقدم كل المناصب ، فهو رئيسه الذي يستطيع ردعه ، ووضع حد لانحرافاته ، فهل يحاول الوصول الى الوالي في طرابلس للاستعانة به على مقاومة هذا الحال الشائه الممسوخ ، ولكن كيف للوالي ، ان يترك كلام نائبه ، ويأخذ كلامه هو ، اليس مناقضا للمنطق ان يصدقه وينبذ كلام نائبه ، على الاقل بالنسبة للمنطق الحكومي ، الذي يقتضي ان يستقى الوالى

معلوماته من نائبه لا من خصوم هذا النائب ، ومعنى ذلك ان وضعه سيزداد سوءا ، خاصة اذا تحول الوالي ونائبه بالضرورة الى خصوم له ، فمن تراه يقدر ان يواجه حاكما في موقع نائب الملك ، مستخدما الشعار الامبراطوري لبريطانيا شعارا له ، ان مثل هذه الخصومة ، غالبا ما تحمل معها شرفا يعادلها جسامة وخطورة ، فمن تراه يبلغ هذه المرتبة العالية ، مرتبة ان يكون ندا لنائب الملك في ليبيا يواجهه ويضع راسه براسه .

حملت انسام الليل الباردة صوت ذئب يعوي ، بين الشعاب يرد على ذئب في مكان اخر، فبدا له ان العواء الاخير يأتي من مكان قريب ، وانه اوغل ماضيا في الخلاء الى حد الاقتراب من قدم الجبل حيث تتكاثف اشجار السدر، يتصاعد منها صرير الجنادب التي تحتمي بها ، ومن فوقها الشعاب بكهوفها التي تأوي اليها الضباع والذئاب ، بينما تراجعت اصوات حيوانات النجع الاليفة ، ثغاء شياهها ونباح كلابها ، كما تلاشت اضواؤها وترجعت فلم يعد يظهر لها اي بصيص

خلف الظلام ، فعاد ادراجه متمهل الخطى ، وهو يحس انه اقل انفعالا وهياجا مما كان عليه امره قبل ان يغادر اجواء البيت والمكتب . ولحظة ان دخل صالون بيته ، راى انه عاد من جولته بحصيلة من الافكار التي لن يضيره تقييدها في كتاب اليوميات .

((لعل اهم ما كانت تقوله هذه الانسام الباردة التي تحمل معها عواء ذئب في الشعاب القريبة، يرد عليه عواء ذئب في شعاب ابعد ، او هذه العتمة التي تسبل استارها فوق جسدي عندما اسير عبرها فاحس بانني احتمي بها من نفسي ، واخبي عندها جزءا من ذاتي يريد ان يبقى مختفيا ولا مرنيا لجزء اخر من ذاتي ، او هذه الصفوف من الجبال التي تتحول ليلا الى اشباح تجمدت منذ مليار عام ، هو ان لاشيء جديد ، حتى المشاكل التي تطل برأسها وكأنها تعبر عن معطى جديد من معطيات الواقع والحياة ، هي مشاكل ليست جديدة ابدا ، بمعنى انها مهما كانت جديدة فهي جزء من روتين قديم ، يجري بين ضفتي حياتنا ، كما يجري ماء النهر في النهر الذي نراه اليوم فلا نرى جديدا عما رايناه من عام مضى ، ولا نشعر بشيء

غير مألوف طرأ عليه وجعله يختلف عما ألفناه منه وعنه ، رغم انه يتدفق بماء جديد في كل ثانية ، فهو بالنسبة لنا نفس المشهد ونفس الماء يجري بين ضفتيه ، هكذا هي احداث حياتنا ، مهما جاءت بجديد ، فهي في الحقيقة ليست جديدة ، ولهذا فان هذه التطورات اذا اعتبرناها كذلك ، مثل كلام نائب الوالي الجديد وهو يسحب كلاما قاله مناقضا لكلام السردوك ، او ما قالته كاتيا عن طلاق انجيليكا الوشيك ، او ما سوف تسفر عنه مؤامرات السردوك ، واستجابة الفونسو له ، وامتلاكه لعقد الوكالة الجديدة ، وغير ذلك من احداث تاخذ قالب التطورات الجديدة ، يجب التعامل معها باعتبارها جزءا من روتين قديم ، حالها حال احداث مرت عليها بضعة اعوام ، دون فزع ولا رعب ولا خوف ، ومواجهتها باعصاب هادئة ، دون ان يفقد الانسان توازنه وثباته، وكا عبرت تلك الاحداث التي مرت عليها اعوام واعوام ، فستعبر هذه الاحداث وسوف نعبرها ، تدور حولنا او ندور حولها ، وهي نفسها سوف تصنع جدلية للتعامل معها ، ستعتني بنفسها او تعتني بكلمات اخرى بخلق الحالة التي تستجيب لها وتبعث في النفس

الحيوية والقوة التي تجابهها ، كالفعل الذي يستدعي رد فعله والتحدي الذي يخلق في النفس تحديا موازيا له في القوة . لا ليس هناك اي سبب للفزع ، او حتى الانزعاج ، لان الفزع او الانزعاج انما هما خصم وانتقاص من قوة الانسان ، خاصة في حالة الاستنفار المادي والمعنوي التي تفرضها عليه ملابسات الحياة ويكون محتاجا معها لكل ما لديه من قوة))

في الصباح عندما صحا بانايوتي وخرج من بيته الى مكتبه، وجد ان الفونسو يعود مبكرا يحمل معه ورقة طلاقه من انجيليكا ، مصدقا عليها من القسم البلدي لاحوال المدنية في بلدية مزده ، ولم يفاجأ اطلاقا بهذه التطورات ، وعندما جاءه في المكتب يحمل صرة صغيرة من الليرات الذهبية باعتبارها مؤخر الصداق الذى نص عليه عقد القران ، لم يفتح الصرة ولم يعبأ بعد الليرات ، ولم يجد كلاما يعلق به على ما قاله الرجل ، مجرد انه استلم الصرة ورمى بها في درج مكتبه ، وكان قد جاء مصطحبا معه شابا ممن يعملون ملتحقين بالشاحنات معاونين وعتالين ، وقال لبانايوتي ، مشيرا للرجل

، بانه من اولاد باب البحر ، اسمه شكري ، وانه سيأخذ مكانه في العمل ، وقد هيأ لنفسه مكانا لنومه في ذات المكان الذي كان يقيم فيه الفونسو قبل الزواج ، وقد قام بتدريبه استباقا ليوم يغادر فيه الوكالة ، وهو ما سيفعله بعد لحظات ، طالبا الاذن من بانايوتي في هذه المغادرة ، ليواصل العمل في وكالة يكون هو صاحبها ، وعندما لم يسمع ردا من بانايوتي ، انحنى على يده يقبلها ، ويقبل راسه ويسأله السماح ، ثم تركه وقد امر شكري ان يعود الى هانجر الحلفاء ، وذهب الى كاتيا في الحانوت ففعل معها نفس ما فعله مع زوجها ،واكتفي بان مد يده لانجيليكا مودعا ، فرفضت ان تمد يدها له وانخرطت في البكاء ، وقد وضعت رأسها بين يديها ثم انكفأت به على احدى ارفف الحانوت .

كان الفونسو قد جاء في سيارة حكومية ، وهي التي عاد بها حاملا ملابسه واغراضه ، ولم يكن اهل النجع قد حضروا هذا المشهد ، لانهم كانوا جميعا قد انطلقوا لعملهم في الشعاب.

ورآها باتايوتي فرصة ان يذهب في هذه اللحظات لزوجته وابنته في غياب الزبائن ، ليرى رد فعلهما ، ودخل الحانوت قائلا ، محاولا ان يخفف من اهمية ما حدث :

ـ لم استطع ان اثق في هذا الولد ، حتى بعد ان اصبح صهرا لي ، ولهذا لم يفاجئني سلوكه الدنيء.

ـ لم يكن منذ البداية كفأ لانجيليكا ، ولولا ما حدث من هجوم اخيها عليها ، ومحاولة انزال ستار على ذلك الهجوم ، ما كان هذا الوغد لينال ظفرا واحدا منها .

ـ هذا نوع من الناس يعطيك فرحتين ، فرحة عندما صار زوجا لابنتنا ، في ذلك الوقت الصعب، وفرحة عند خلاصنا منه ، فارجوك يا انجيليكا لا تعتبرينها مناسبة للبكاء ، وانما مناسبة للفرح كما قلت .

كانت انجيليكا مازالت تتكفيء برأسها فوق الرف ، وقد تحول بكاؤها الى مجرد همهمة تشبه البكاء ، فاضافت الام تشجعها على التجلد:

ـ صدق والدك فيما قال ، انه رجل لا يستحق ان يبكي احد لفراقه .

ـ انني لا ابكيه يا امي ، وانما ابكي حالنا وحال غربتنا في هذه البلاد.

فاسرع الاب بالرد قائلا:

ـ لا تقولي هذا الكلام ، انها بلادنها ، وهنا مورد رزقنا ، وهو مكان لا يختلف في شكله ومناخه عن تلك البادية اليونانية التي جاء منها اجدادنا .

ـ انهم يونانيون هناك

ـ ونحن يونانيون هنا ، والناس هم الناس ، هنا وهناك ، الفرق في وجود السيء والجيد منهم ، وهي تكاد ان تكون نسبة واحدة في العالم كله

وتدخلت الام لتطمنن ابنتها

ـ ها انت هنا ، في هذه اللحظة ، في هذا المكان ، بين ابيك وامك ، اليس هذا كافيا لان يطرد اي احساس بالغربة في حياتك ؟ هيا تعالى ندخل البيت ، سوف تغسلين وجهك ، وترتاحين قليلا بينما اعد لكما الغذاء ، وسيتولى والدك امر الدكان.

كان بانايوتي يعرف ان الامر لن ينتهي عند هذه الورقة التي جاء بها الفونسو ، او عند مغادرته الوكالة بلا عودة ، وانما هناك تطورات يتوقع حدوثها مع كل لحظة تأتي ، يجب ان يهيء نفسه للتعامل معها ، وبينما كان يتطلع في اليوم التالي الى المنفذ في الجبل الذي تأتي منه السيارات ، ليكون مستعدا لاستقبال هذه التطورات ، اذا به ينتبه الى شيء يحدث في اتجاه غير الاتجاه الذي تأتي من السيارات ، وانما من اتجاه الشعبة التي يقتلع فيها الناس اعواد الحلفاء ، فمع الضحى ، وفي وقت لا يتفق اطلاقا مع وقت عودة الناس من الشعاب ، راى افواج اهل النجع تتدافع قادمة باتجاه الوكالة ، يسرعون الخطى ويصنعون ضجيجا بما يصدر عنهم من اصوات ، ولا يحملون معهم حزم الحلفاء ،و لا يسوقون امامهم حميرا ، فقد تركوا ذلك في الشعبة ، وجاءوا وكأن امرا جللا دعاهم للمجيء ، تاركين كل شيء وراءهم ، وعرف فور وصولهم ، طبيعة هذا الامر الجلل ، وهو وجود رجل قتيل مرمي في احدى الحفر، وارتال النمل والخنافس والديدان تزحف فوق بقايا جسمه لان الذناب والضباع يبدو انها نهشت

مقدارا من جسمه ،حيث وجدوه في مشهد هربت من رؤيته النساء وجعلت الاباء يدفعون بالاطفال بعيدا عنه كي لا يورثهم الكوابيس اثناء نومهم ، وقد اهتدى بعضهم الى ان القتيل ليس الا ذلك الطارقي الهارب من الجماعة التي اخذتها الشرطة للتحقيق وذلك من خلال الحجاب الذي ظل موجودا والذي كان يرتديه كل اعضاء الفريق الطارقي، ويبدو انه مضروب باطلاقة في صدره ، منذ مساء الامس فيما يبدو ، وقد نزف كثيرا حتى تكونت بحيرة سوداء متخثرة من الدم تحت جسمه ، وقد تركوه حيث هو ، الى حين ترتيب وسيلة لنقله ودفنه .
وبسرعة سأل بانايوتي شيوخ النجع عند اكتمال عودتهم لعقد اجتماع في صالون بيته ، وكان اول ما سألهم عنه باعتبارهم جميعا كانوا في الشعبة ، عما اذا كان احد منهم قد رأى اوسادن، فعرف منهم ان اوسادن لم يظهر في الشعبة هذا الصباح ، لانه كما اخبرهم احد جيرانه ، لم يغادر خيمته ، وان زوجته اخبرت هذا الجار بان زوجها يمر بوعكة صحية ، وقد بقيت هي ايضا للاعتناء به ، وصارح بانايوتي الجماعة ، بانه يشعر بان لاوسادن علاقة بمقتل الرجل الطارقي ، ويحسن قبل

النظرفي اي شيء يتصل بهذا الموضوع ، ارسال مرسول الى خيمته لامكانية ان يتحامل على نفسه ويأتي لحضور طرف من الاجتماع ، وعندما ذهب الولد الذي ارسله باتايوتي اليه ، وجده مرتديا ملابس الخروج ، مستعدا للمجيء معه في التو، وحال وصوله ، لم يكن محتاجا لكي يسمع اسئلة باتايوتي عما حدث ، فقد اخبر الرجال المجتمعين ، بان ما توقعه جماعة الامن كان توقعا صائبا، وهو ما كان واثقا من حدوثه ، وهو ان الرجل الهارب سيحاول قبل عودته الى شيخ القبيلة ان ينفذ المهمة ، بالانابة عن رفاقه الذين تم القبض عليهم ، لان مثل هذا التنفيذ سيغطي الفشل ، ويمسح الاحساس بالعار الذي سيلاحقهم ، ولهذا بقى اوسادن في حالة استعداد لملاقاته ، واحس به يترصد له منذ وصوله الى الشعبة ، ويتبعه من بعيد دون ان يستطيع ان يتبع زوجته لانها كانت ترتدي رداء بدويا يحجب شعرها ووجهها ، وقد اتخذ الرجل الهارب مخبأ بين الصخور في مكان مرتفع ، يحاول ان يجد فرصة لاقتناصة بمجموعة سهام صغيرة ذات رؤوس مطلية بمادة سامة ، يعرف ان بعض فرسان القبيلة يستعملونها ويخبئونها داخل

ملابسهم ، كبديل للبندقية اذا حدث وان سلبتها السلطة من الفارس ، ولانه كان موجودا وسط مجموعة من اهل النجع يجمعون الحلفاء فلم يكن سهلا اقتناصه ، الا اذا ابتعد عنهم ، ولانه كان واعيا بان هناك من يرصد حركته ظل ملتصقا بالجماعة ، حتى حان موعد انتهاء جمع الحلفاء ومغادرة الناس للشعبة ، اختار اوسادن ان يتخلف عنهم تاركا زوجته تعود مع نساء النجع ، وسعى لاستدراج الرجل ، منتقلا بين الصخور في محاولة لخداعه واشعاره بانه يستطيع ان يستفرد به ويرمي نحوه بالسهم القاتل ، واخذا في نفس الوقت حذره منه ، صاعدا الى منطقة اكثر ارتفاعا من موقع اختبائه ، محتميا بالصخور ، بحيث يستطيع ان يرى الرجل وهو يعطيه احساسا بانه لا يراه ، ولا يعرف بوجوده ، وعندما باغته باول سهم رماه به ، كان في حالة انتباه وحذر ، فاستطاع ان يتفاداه ، ويزحف بين الصخور متقدما منه ، وعندما رآه يرفع يده بالسهم الثاني ، باغته باطلاقة في راسه ، من بندقية ام حربية ، وهي بندقية لا يصدر عنها دوي كبير عند اطلاق الرصاصة على هدف قريب، وكان قاصدا ان يصنع اقل قدر من الدوي ،

لكي لا يجلب انتباه الناس اليه ، رغم ان اهل النجع كانوا قد غادروا الشعبة ، والعتمة بدأت في زحفها الحثيث تطوق المكان ، ولم يكن في حالة نفسية تسمح بالبقاء لدفنه بكل ما يقتضيه ذلك من جهد لحفر القبر ، وكل ما فعله ان جره الى اقرب حفرة وتركه هناك ، عائدا الى خيمته ، وهو يشعر بالاسف لانه كان مرغما على قتل رجل جاء يتربص به لقتله وقتل زوجته لو وجد اليها سبيلا، فهو لم يفعل ما فعله الا دفاعا عن نفسه ، ولهذا فانه ينقل لهم الحادث كما حصل ، وقد احضر السهم الصغير الذي كان بحجم السكين يريهم اياه وقد وضعه في محفظة جلدية ، ممسكا به في غاية الحذر بسبب نسبة السم الموجودة في راسه المدبب ، قائلا بانه على ثقة من ان اية محكمة سوف تحكم عليه بالبراءة ، اذا مثل امامها ، مستعدا لتسليم نفسه الى الحكومة لو جاء من يطلب منه ذلك ، وكان رأي بانايوتي الذي افضى به للحاضرين ، انه لا حاجة لابلاغ الحكومة بما حدث ، او انتظارها لكي تأتي بشرطتها وسياراتها واجراءات التحقيق التي ستقوم بها ، واخذ جثة القتيل لتشريحها ، فهم سيقومون بدفنه في المكان الذي

وجدوه فيه ، وان يتم التكتم على الموضوع فلا يأتي على ذكره احد ، ووافقه الجميع على ما قاله لانهم مقتنعون بما قاله اوسادن ، ولا حاجة لادخاله في سلسلة من التحقيقات والمحاكمات التي لا يدري احد بما تسفر عنه ، غير انه لا احد يستطيع ان يضمن رشيد ، الشرطي السري التابع للسردوك ، الا ان خليفة مكاري ، الذي تربطه به قرابة بعيدة ، ابلغهم انه لم يعد من رحلته مع المهاري الى مزده ، المهم ان يتم التنبيه على كل من رأى القتيل من اهل النجع ، بان يتكتموا على الخبر ولا يأتي احد على ذكره له عندما يعود ، ولا لاحد غيره ، اذ لا يجب ان يصل مثل هذا الخبر لاهله في جنوب الحمادة الحمراء ، لانهم لو عرفوا به ، لارسلوا بدل سبعة انفار جيشا يركب المهاري للانتقام له وتنفيذ رغبة شيوخ الطوارق بقتل اوسادن وزوجته ، وقتل كل من يعترضهم او يقف في طريقهم حتى لو كان فريقا من الشرطة ، وبدلا من قتيل واحد ، ستمتليء هذه البراري بجثث القتلى .

وتم الاتفاق على ارسال عدد من شباب النجع يتولون حفر قبر للرجل القتيل ودفنه ، الا ان الفقي عمار افتى بان الرجل مهما كان مخطئا ومهما كان قتله مبررا ، فانه مسلم لابد من اكرامه اكرام الرجل المسلم الذي لا يجوز دفنه الا بعد تغسيله واقامة صلاة الجنازة عليه ، وحاول الاومباشي جبران ان يتصدى له قائلا بان اموات المسلمين يموتون في الحروب ويهيلون عليهم التراب في مقابر جماعية ، فقال بان ما يجوز في الحرب لا يجوز في السلم ، وهذا النوع من الدفن هو من المحضورات التي تبيحها الضرورات ، وحسما للنقاش تم تكليف نفس المجموعة باحضار القتيل الى الوكالة ، بعد تدبير خشبة يستخدمونها كمحفة ، وتوفير مواد مطهرة ذات رائحة عطرية ، تساعدهم في قتل الحشرات التي خالطتها وازالة الرائحة الصادرة عنها ، وخلف ستار من الكتان داخل هانجر الحلفاء ، بعيدا عن اعين الناس وفضولهم ، قام الفقيه عمار بمساعدة السيرجينتي خليفة باداء طقس الغسل لما تبقى من الجثة ووضعها في الكفن مع ما توفر من حنوط يدخل فيه الزعفران واعشاب برية زكية الرائحة ، ولف الجثمان بجلباب

رجالي ووحمله فوق النقالة التي استخدمت بمثابة الثابوت ، وساروا به ، يشيعونه الى مثواه الاخير ، حيث حفروا له قبرا في ذات المكان الذي تم اختياره ليكون مقبرة للراحلين من قاطني الوكالة ، منذ ان رحل رجل وامرأة طاعنين في السن من جماعة اوزو ، وهو مكان يقع خلف تلة صغيرة ، ليكون خارج مرمى النظر ، وهناك صلوا عليه صلاة الجنازة ، وحفروا له قبرا عميقا سدوه بالصخور واهالوا فوقه ترابا ممزوجا بالطين والحجارة لكي لا تجد الذئاب والضباع والكلاب طريقا الى حفره واخراج جثته .

مهما كان القتيل انسانا مجهولا ، لا يمت بصلى الصداقة او القرابة لاحد من اهل الوكالة وقاطنيها ، فان مجرد موت الرجل قتيلا بينهم ، مشاركين في تشييع جنازته واداء الصلاة على جثمانه ، ودفنه قريبا من اماكن اقامتهم ، يثير بينهم احساسا بالاسى ، وينشر فوق اجواء الوكالة غلالة من الحزن تجعل النهار يجر قدميه في تثاقل وبطء وحزن ، والمساء يأتي بعتمته بالغ الكآبة ، يزرع في القلوب وحشة

وانكسارا ، وقد اختفى جو المرح واللعب الذي كان يسود المكان في مثل هذه الاماسي سابقا ، خاصة في خيمة المقهى والمناطق المحيطة بها ، وحل مكانه الصمت ، وكان الناس فقدوا حاسة النطق .

الموت زائر عابر ، والحياة هي الابقى ، وكذلك الاحياء ، فهم ابقى من الموتى ، ولهذا فقد كان لابد للحياة ان تواصل طريقها بعد وقفة قصيرة اجلالا للموت ، ففي اليوم التالى عاد اهل النجع الى الشعاب ينتزعون مع انتزاع اوراق الحلفاء لقمة عيشهم ، ومعهم عاد اوسادن وزوجته تانيرت ، يتعلمان بسرعة واجتهاد ، افضل طريقة لانتزاع اكبر قدر من الحلفاء كل يوم ، بينما يتركان للمهري حرية ان يرعى خارج الشعبة ، يتغذى بالعوسج والعجرم والقزاح والصبار ، وصاحب الوكالة ماض في روتينه اليومي ، جالسا في مكتبه يراجع سجلاته ، او جالسا تحت المظلة امامه يقرأ صفحات الانجيل ، ويرفع راسه احيانا ويمد بصره الى المعبر الذي تدخل منه السيارات الى جنانن العرعار ، متوقعا مجيء الشر في صورة الرائد السردوك في اية لحظة ، ولكن اليوم مضى دون ان يأتي ، ولا

تأتي مع المساء الا سيارة شحن الحلفاء، بسانقها واثنين من مساعديه ، يقضون جزءا من الليل ويحملون عبوءة السيارة ، ثم يأخذون طريقهم عاندين الى عاصمة البلاد، ووقد استغرب بانايوتي ان يمر يوم ويومان وثلاثة بل اربعة ايام دون ان يحدث شيء على جبهة السردوك ، مما يؤكد ان خبر موت الرجل الطارقي، قد مضى في صمت وتكتم ولم يصل خبره الى احد في مزده ، والا كان هذا الاحد هو السردوك نفسه ، وقد اسرع بالمجيء ، جاهزا لاثبات سلطته وسطوته . انه يتعاطف مع اوسادن ، ويرى فيه فتى ، شجاعا ، قويا ، نبيلا ، ويشعر بمسئولية ازاء حمايته واعفانه من اي عناء يحصل له من وراء حمايته لنفسه ، بقتل رجل يتعقبه لقتله وقتل زوجته ، ولهذا فهو مرتاح لما حدث ، مبتهج لقفل هذه الصفحة التي تنتنج عنها متاعب للرجل لا يستحقها، وقد ذهب اليه يزوره في خيمته مصطحبا زوجته وابنته لمواساة الزوجة الصغيرة الهاربة من قمع اهلها، لانه يحس انها ربما تكون اكثر عرضة لاحاسيس الخوف والاسى من زوجها ، لانها بالتأكيد الطرف الاضعف ، وقد راى ان ابنته انست اليها ، ودعتها بعد الزيارة

لان تزورها في بيتها ، وتقضى جزءا من المساء معها ، لانها مازالت لم تألف المجتمع النساني لاهل النجع، ولم تصبح عضوا في حلقاته الى لا تنفض الا لتنعقد من جديد حول عالة الشاي ، وبعد انتهاء الزيارة تحدثت انجيليكا لوالدها باعجاب عن تانيرت وجمالها وقوة شخصيتها وكيف استطاعت ان تتحدى تقاليد القبيلة ، ورفضت الزواج من الرجل الذي اختارته اسرتها لها ، وهو نفسه الرجل الذي جاء يقود مجموعة الفرسان لتنفيذ مهمة قتلها وقتل اوسادن ، وابت الا ان تتزوج حسب هوى قلبها ، هاربة مع الرجل الذي احبها واحبته ، وكانت المفاجأة لابنته عندما ردت تانيرت لها الزيارة واستمعت منها الى نوع من الغناء الطارقي الشجي الجميل ، تؤديه بصوت بالغ الجمال ، وتعزف عزفا بارعا على الى الطوارق التى تشبه الساندوري اليونانية ، ويسميها الطوارق امزاد ، وتملك واحدة جاءت للعزف عليها في بيت انجيليكا ، وافهمتها انه من تقاليد البيوت الكبيرة مثل بيوت السلاطين والشيوخ تعليم بناتهم العزف على هذه الالة ، والغناء معها حفظا للتراث الفني للقبيلة ، كما اسهمت في اعداد طعام

العشاء ، وقامت بتحضير طبق من اللحم المحفوظ بالتجفيف ، والمخلوط بالخبيز واللبن الحامض ، واحتفظت له ابنته بجزء منه ، وجده لذيذا وتمنى على ابنته ان تقوم تانيرت بتحضيره مرة ثانية فاقترحت ان يتم ترتيب جلسة عائلية تحضرها تانيرت صحبة زوجها مع كل اسرة بانايوتي، وتكون فرصة لتحضير مثل هذا الطبق ، والاستماع لغنائها وعزفها على الة امزاد .

نعم ، انه يستغرب لعدم ظهور السردوك في الوكالة كل هذا الوقت ، حتى لو لم يكن سمع بخبر مقتل الرجل الطارقي ، فان لديه موضوعا اكثر اهمية من هذا الخبر ، يتصل بمؤامراته الشخصية ومراميه الخسيسة ، فقد اكمل صفقته مع الفونسو ، واخذ مصادقة رئيسه هيوز على صفقاته ومشاريعه ، ولم يعد هناك ما يمنعه من مواصلة السعي لتحقيق الرغبات التي صارح بها ابنته وصارح بها زوجته ، رغم انه انكرها في زمن سابق امامه وامام البريجادير هيوز ، ولكنه واصل العمل سرا من اجل تحقيقها ، ولابد ان هذا التاخير في المجيء الى الوكالة ليس بسبب عدوله عن الفكرة ، ولا دليلا على وجود

مشاكل تواجهه في مساعيه ، وانما هي ترتيبات يعيد بها بناء الاسس الجديدة لحياته في المرحلة القادمة ، فهو رجل له زوجة واولاد واسرة كبيرة قد لا تكون في حالة توافق مع اهدافه ، ولابد ان يجد طريقة لتحييد هذه الاسرة وتنحيتها من طريقه باسلوب لا يجلب له المشاكل ، ولعله يسعى لتملك بيت جديد، سيكون عن طريق السلب والنهب لواحد من المساكن الحكومية ، ولكن كل مخططاته ، في النهاية ، تحتاج الى موقف رادع صامد منه هو ، يضع به حدا لرغبات هذا الرجل المريضة ، وهو موقف لابد ان تساعده فيه كل من ابنته وزوجته ، لانه بدونهما لن يستطيع ان يواجه الرجل مواجهة فعالة تبطل مشاريعه ، واهلا بعد ذلك باي عون ياتي من خارج الاسرة ، ومن اي مصدر من المصادر . واتخذ بينه وبين نفسه قرارا ، هو ان يجلس جلسة مصارحة مع زوجته وابنته ، ويسعى لتبصيرهما بالخطط التي يرسمها السردوك ، والمعركة المفتوحة معه التي ستخوضها الاسرة بكل اعضائها ، وايضا التبعات الناجمة عن هذا الموقف ، وانتظر حتى عاد اهل النجع من الشعبة محملين بما جمعوه من حلفاء لوزنه ، واخذ

بطاقاتهم الى الحانوت واستلام ما يحتاجونه من بضاعة مقابله او نقود فائضة عادت اليهم ، وحضر قليلا مع الشيوخ جلستهم ، ثم استأذن معتذرا بالنعاس الذي يداعب عيونه ، وكان قد اعطى خبرا مسبقا لزوجته ، بانه يريد مفاتحتها وفي حضور ابنتها في موضوع عائلي اثناء العشاء، وعندما انفرد بهما في حجرة الجلوس داخل البيت ، قال لها انه يتوقع في اي لحظة مجي الرائد السردوك ، طالبا يد انجيليكا للزواج ، لان هذا كان هدفه الذي جعله يعقد صفقته الشيطانية مع الفونسو ويغريه بالمال ويشترى له رخصة الوكالة لكي يتخلى له عن زوجته انجيليكا ، ولابد من افهامه ان انجيليكا ليست بضاعة تباع وتشترى ، هذا اولا ، وثانيا فالسردوك رجل له زوجة وله واولاد وبنات ، سيعمد مؤقتا الى تطليق هذه الزوجة وتخصيص بيت لها ولاولادها غير البيت الذي سيخصصه لزوجته الجديدة ، لكن لا احد يدري ماذا سيفعل بعد ذلك ، وثالثا فهو رجل بدوي ، لن يتيح اية درجة من الحرية لزوجته كتلك التي كان يتيحها لها الفونسو ، رغم غيرته الشديدة ، فهو مثلا لن يسمح لها ان تخرج سافرة الوجه او تقف لتبيع

البضائع لزبائن الحانوت ، ولن تستطيع ان ترى احدا خارج المجتمع النسائي المزداوي المحاصر وراء جدران البيوت ، وستمضى حياتها وفق هذا الروتين الذي لن تتحرر منه الا لفترات قليلة عند زيارتها للوكالة او ذهابها مع اسرتها الى طرابلس لحضور مناسبة اجتماعية لاقارب واصدقاء ، او قضاء اجازة كل بضعة اعوام مع اهلها في اليونان ، تستطيع بطبيعة الحال ان تحتفظ بدينها المسيحي لان الاسلام لا يمنع زوجة الرجل المسلم من ذلك ، ولكن رجلا بدويا ، شديد التزمت مثل السردوك ، صاحب عقلية عسكرية بوليسية ، سوف يحاول الضغط عليها بكل قوة للتحول للاسلام ، اما ما تنجبه من ابناء فلا سبيل لاتباعهم دينا غير دين والدهم ، طبعا هناك من الفوارق في العادات والتقاليد واساليب اللباس والطعام وقضاء اوقات الفراغ ، ما لا حد له ، ويحتاج من زوجة اجنبية ترضى بمثل هذه الزيجة جهدا خارقا للتوافق مع عادات وتقاليد اسرة الزوج ومجتمعه، ولهذا فهو مع رفض عرضه بالزواج، عارف ايضا ان امها مع هذا الرأي ، تاركا الحرية لابنته اذا كان لها رأي اخر ان تفصح عنه ، اما اذا كان

رايها من رأي والديها ، فان على الاسرة ان تتوقع الدخول في معركة قاسية مع الرجل ، فهو صاحب سلطان في المنطقة ، وهو صاحب الشرطة فيها ، وتحت يده العساكر والسلاح والسجون ، وقد افلح للاسف الشديد ان ياخذ في صفه الحاكم الانجليزي لمنطقة القبلة ، ومعنى ذلك انه سيسعى بداية لتحقيق غرضه بالاغراء، ولن يكون صعبا عليه دفع اي مبلغ يطلب منه ، واذا عجز عن تحقيق غرضه بهذه الوسيلة ، فسيلجأ الى التهديد ، الا ان بانايوتي ، كما اخبر زوجته وابنته ، لا يستطيع في هذه المرحلة ان يتنبأ ، بنوع هذا التهديد ، ربما يسعى لتدبير قضية يسجنه بها ، او مشكلة يقفل بها الوكالة ، او مشكلة ثالثة تنتج عنها خسائر فادحة للوكالة ، كل ذلك سيهدد به ، ولكن الى اي مدى يقدر على تنفيذ تهديده ، هذا ما يبقى محل تخمين وتكهن ، لانه ليس واثقا انه يستطيع حقا تنفيذ ما يهدد به ، وكان كل ما قالته الام، هو انه قرارثقيل على ابنتها ، وانها تريد ان تمهلها بعض الوقت حتى تقول رأيها ، فهي صاحبة الشأن في الموضوع قبل امها ووالدها ، وكان رد بانايوتي على كلام زوجته ، هو ان رفض انجيليكا

لزوج مثل السردوك لا يحتاج لاي تفكير، ولكن اذا كان لابد من هذا الوقت ، فانه وقت ضيق جدا جدا ، لان الرجل سيداهم الوكالة في اي لحظة ، فهو لا محالة قادم ، ان لم يكن هذه الليلة ، ففي الغد صباحا اومساء ، راجيا الا تكون زوجته قد طلبت مهلة لتفكير ابنتها للتدبر في المخاطر الناجمة عن الرفض ، لانه لا يريد لانجيلكا ان ترهن حياتها له بسبب المخاطر ، فاذا كان الامر كذلك فلترفضه وليذهب خاسئا مدحورا تلاحقه لعنة السماء، وكل ما يستطيع ان يقوله لها انه سيقف معها بكل انفاسه، ولن يستطيع ان يفرض عليها نفسه حتى لو جاء يحمل مسدسه بين يديه .

وحدث ما تنبا به بانايوتي ، ففي صباح اليوم التالي وصل السردوك ، الا انه جاء بشكل لم يتوقعه بانايوتي ولا احد غيره ، فقد جاء برتل من السيارات الحكومية الصحراوية يكاد يوازي الرتل الذي دخل به الانجليز البلاد عقب فوزهم على قوات المحور ،جاء في تل يبلغ عشرين سيارة ، لا تملكها قوات الامن في المنطقة ، ومعنى ذلك ان استعان بقوة تاتيه من غريان عاصمة اقليم الجبل الغربي ، والسبب كما اوضح

لصاحب الوكالة ، ان هناك هجوما يخطط له سلطان الطوارق بعد حبس فرسانه الذين وقعوا في الاسر ، فقد تبين ان لهم سوابق اجرامية ، وان طلبا قد تم تعميمه بشأنهم من السلطان الامنية الفرنسية في فزان ، وقد تم بشأنهم تطبيق الميثاق الذي يحكم العلاقة بين الشرطة في طرابلس والاخرى الفرنسية في فزان ، لتسليمهم اليها لمواجهة القضاء ، وانتقاما من اهل الوكالة الذين قبضوا عليهم ، واوسادن الذي كان سبب محنتهم ، قرر السلطان تانان ، سلطان الطوارق في الهروج السود ، تجريد حملة من مائة فارس لمهاجمة الوكالة ، وما ان سمع الراند السردوك الخبر، حتى راى ، حسب قوله ، ان يسرع باستنفارهذه القوة ، رغبة في دفع الاذى عن اهله في الوكالة ، واصر على ان يتم تزويده بقوة من الشرطة لا يقل عددها عن افراد القوة المهاجمة، الا ان قوة الشرطة تتميز عن المهاجمين ، بان لديها من قوة النيران ما لا تملكه حملة الطوارق، ومع وفرة الذخيرة ، وحداثة وفعالية البنادق والمدى البعيد للتصويب الذي لا تجاريه بنادق الموزر وام حريبة التي يملكونها ، فانه جاء معه بمدفع جاهز لابادة المهاجمين لو

تجراوا على الاقتراب من الوكالة ، وهناك من القنابل اليدوية ما يكفي لشل حركتهم وضمان هزيمتهم، في بضعة دقائق بدلا من بضعة ايام ، لو اقتصرت المواجهة على البنادق فقط .

واختار السردوك موقعا في الخلاء يبعد مسافة كيلو متر عن الوكالة ، تجاه الجنوب ، وهي الجهة التي يتوقع ان تأتي منها حملة الطوارق ، وامر ان يكون موقعا للمخيم العسكري ، حيث بدأ افراد قوته ينصبون خيامهم ويقيمون المتاريس امامها وهي اشولة مليئة بالتراب ، يصفونها فوق بعضها البعض امام الخيم تشبه الجدران ، وفي يوم واحد اكملوا نصب الخيام وتشييد المتاريس وبدأوا في حفر الخنادق واقامة الدشن ووضعوا قاعدة للمدفع ، وارسل السردوك بعضا من العساكر كفرقة استطلاع ترصد المشارف التي يمكن ان يأتي منها العدو ، وعاد اهل النجع مساء بحصيلتهم من الحلفاء ، ليجدوا الوكالة تحولت الى هذه الاجواء الحربية ، وسمعوا هذا الصخب الذي يصنعه الجنود وفؤوسهم التي تحفر الارض لاقامة الخنادق والدشن ، بينما بدأت كلاب النجع معزوفة النباح ، التي تواصلت بشكل يزداد

حدة ، وذهب في اذهان كبار السن من اهل النجع ، ممن لم يعرفوا سببا لكل هذه القوات ، ان الحرب العالمية قد تجددت معاركها ، وان طرفا من اطراف هذه الحرب جاء ليجعل من مكان اقامتهم ميدانا للمعركة ، وكان السردوك جاهزا باعطاء البنادق لمن يجيد استخدامها، مثل الاومباشي جبران ، او السيرجينتي خليفة ، اما اوسادن فقد طلب ان يستعين به في فرقة الاستطلاع ، وانتظر واحدا من عساكره كان قد ارسله من مزده متطيا المهري ، وصل مع الليل ، فاشار الى اوسادن ان يأخذ هو ايضا المهري الذي يملكه ، وان ينطلق الاثنان مع الفجر، فيخترقا احدى الشعاب الجنوبية ، ويمضيا باتجاه الطريق الذي يتوقع ان تأتي منه الحملة الطارقية القادمة من الهروج السود ، لاستطلاع اخبارها ، والعودة بسرعة في حالة ظهور ادنى اشارة تنبيء بقدومها ، وقد تم تزويده بمنظار مكبر يتبادل استعماله مع رفيقه في المهمة لرصد فرسان الحملة .

واحدث ما رآه الناس من استعدادات حربية ، حالة من الفزع بين اهل النجع ، فتجمع عدد كبير منهم ، رجالا

ونساء واطفالا ، امام خيمة المقهى يتسقطون الاخبار ، مما دعا الرائد السردوك بان يعتلي كرسيا لكي يراه الجميع ، ووقف خطيبا فيهم ، قائلا لهم بان ما ما يرونه يحدث امامهم من استعدادات عسكرية ، مجرد خطوة احتياطية لابطال وتعطيل اي خطر يتهدد الوكالة واهلها وقاطنيها ، وانه يطمئنهم بان هناك قوة قادرة على ردع اية عصابة من قطاع الطرق ، مهما كثر عدد افرادها ، وهذه القوة الموجودة تحت قيادته ، لم تحشد من اجل استخدامها ، وانما لتكون بديلا لهذا الاستخدام ،اذ ان مجرد وجودها يشكل مانعا ورادعا لقيام العدوان ، لانه لا احد يجرؤ على ان يضع نفسه في طريق قوة قادرة على سحقه ومحقه ومسحه من الوجود ، وهو لا يشك بان الاخبار عن وجود هذه القوة قد وصلت الى اصحاب العصابة ، وانها رجعت على اعقابها ، ولن يحدث شيء بعد الان ، وهو يرجو من الجميع ان يعودو الى خيامهم وينامو هانئين في مضاجعهم ، فعين الحكومة ساهرة لا تنام من اجل ضمان راحتهم وامنهم وسلامتهم .

وعندما راى حشد النساء والاطفال والصبيان ما زال موجودا ، استخدم صوتا اكثر غضبا وانفعالا ، ولهجة حاسمة ساخطة ، في نهرهم وزجرهم والصراخ في وجوههم بان ينصرفوا الى خيامهم واكواخهم ، موحا في الهواء بالهراوة الغليظة التي لا تفارقه ، فركضوا جميعا هاربين ، عندند جلس في طاولة امام خيمة المقهى ومن حوله شيوخ النجع يتبسط معهم في الحديث ويشرب الشاي ، قائلا لبانايوتي وهو يراه يتحرك في قلق بين الناس ، بالا يكلف نفسه القيام باي شيء يتصل بالضيافة او توفير شيء له او لمن معه من عساكر ، لان القوة جاءت بتموينها معها ، ولديها طباخ وادوات طهي ، وانه شخصيا سيتناول طعامه مع عساكره ، وهناك خيمة مخصصة لمبيته ، ولا يريده ان يشغل نفسه او اهله بشيء مما يتصل بهذه الحملة .

ولم يكن بانايوتي في سره مطمننا لهذا الحشد من العساكر والسيارات والخيام والسلاح ، ويراها قضية يفتعلها السردوك ، لياتيه في هذا الموكب المخيف لارهابه ، ويقضي في هذا الجوار بضعة ايام ، يفرض خلالها سلطانه ، ويضع البشر

والشجر والحجر تحت سيطرته ، ومن هذا الموقع المتعالي ، والمكان المتميز المهيمن على من حله وتحته ، يطن رغبته لواحد صغير ضنيل من رعاياه اسمه بانايوتي ، تعطف وتلطف وتنازل وتواضع يخاطبه ، ويطلب منه الزواج من ابنته انجيلكا ، تشريفا لها وتكريما لاهلها ، وعليه ان يتلقى الامر حامدا شاكرا ، ويلبيه مسرعا متحمسا ، لانه لا مجال للتعاطي مع صاحب مثل هذه القوة ، الا بالطاعة والاذعان ، لكي لا تظهر منه شبه تمرد وعصيان ، لامر قادم من تلك المشارف السامية فتناله اللعنة ويحل به اقسى انواع العقاب . نعم ، انه لا يظن بان هناك مثل هذه الحملة الطارقية ، التي يبلغ مقدارها مائة فارس ، وماهي الا قصة ملفقة ، املاها عليه خياله المصاب بداء العظمة الكاذبة ، لظنه انها الطريقة الناجعة لتحقيق اغراضه.

وتعبيرا عن احساسه بالطمأنية وسط هذه الاجواء المشحونة بالتوتر والاستعداد للقتل ، تعمد السردوك ان يأخذ الحديث بعيدا عن المظاهر العسكرية التي جاء يقيمها فوق ارض الوكالة ، وبدأ يتحدث عن بهاء وجمال

الحياة في البادية ، كما يعيشونها في جنائن العرعار، ضاربا المثل بهذه الجلسة ، في هذا الهواء المضمخ بعبير الاشجار ، وهذا المكان الذي تغطيه سماء مرصعة بالنجوم ، وانه شخصيا لو صح له ان يختار نوعا من الحياة ومكانا يعيش فيه لما وجد افضل من حياتهم في هذه الوكالة ، ولكنه ، كما قال بشيء من المباهاة ، ليس حرا في نفسه ، ولا في المكان الذي يختاره لحياته ، وان ما يقوم به من عمل كقائد امني ، لا يقوم به باعتباره وظيفة يتقاضى منها مرتبا ، وانما كرسالة يؤديها لصالح وطن يتهيأ لبناء دولته الحرة المستقلة باذن الله ، ويشارك في العبور بالبلاد ، من مرحلة ما قبل الاستقلال ، الى ما بعد انجازه ، وهي مرحلة دقيقة ، صعبة ، تحتاج الى اقصى حد من البراعة والحيلة والخبرة، لكي لا تنتكس المسيرة لا سمح الله .

ولم يكن الاومباشي جبران ليرضى بتمرير هذا الكلام دون وضع جملة اعتراضية ، تضعه في سياق ، يخرج به من التميز الذي يعطيه السردوك لنفسه ، فقال مؤمنا على كلام السردوك، مصادقا على صحته ، مضيفا اليه بان

هناك مسئولية مشتركة تفرضها المرحلة على جميع المنتمين لهذه البلاد ، ليبيين وغير ليبيين ، ضاربا المثل بهذه الوكالة ، معتبرا ان العمل الذي يقومون به من خلها ، عمل وطني من الطراز الاول ، يقودها رجل ليبي بالاقامة ، هو بانايوتي ، الذي جلب عملا لكثير من العاطلين من اهل القبلة ، واتاح لهم الانخراط في هذا العمل الوطني ، الذي لا يقتصر خيره عليهم وعلى عائلاتهم فقط ، ولكنه يفيض على الوطن كله ، باعتبار ان الحلفاء هي المصدر الاول للعملة الصعبة للبلاد ، وهي تحمل الرد الناجع على دعاوى قوى الاحتلال التي تريد تعطيل استقلال البلاد بحجة انها بلاد عاجزة عن تدبير موارد تعيش بها ، بينما الحقائق تؤكد ان ادارة الاحتلال نفسها تعتمد على مثل هذه الموارد ، فلولا وكالة بانايوتي وما تدره من عملة صعبة ما استطاعت الادارة شراء مثل هذه السيارت الهادرة ، ولا هذه البنادق الحديثه .

واثبت حديث الاومباشي جبران ، ان هذه المحطة التي اختارها السردوك للحديث ، لم تستطع ان تبتعد طويلا عن موضوع الساعة وهو هذه القوة الرابضة فوق

ارض الوكالة ، وبنادقها وسياراتها التي اشار اليها الاومباشي ، واخذ الحاج رضوان خيط الحديث مبديا استغرابه من ذلك السلطان الطارقي الذي بلغت به الغشامة ، والجهالة ، ان يتصور ان باستطاعته ان يتحدى الحكومة بمجموعة فرسان من قبيلته مهما كان عددهم ، فشرح له السردوك ان السلطان تانان لم يكن يهدف لمواجهة الحكومة ، وانما لتنفيذ اوامره وتاكيد سلطته بين قومه ، والقيام بهذه المهمة في غفلة من اعين الحكومة ، ناسين ان للحكومة اعينا ترى وترقب وتصل الى مدى يغطى اقصى ركن في صحراء الوطن " اذ كنت شخصيا اضع هذا السلطان تحت نظري بسبب ما حدث لرجاله وبسبب معرفتي بردود افعال رجال مثله، وصدق حدسي عندما وصلتني اخبار ما يريد القيام به من اخلال بالامن ، فاستنفرت هذه القوة لتدمير خطته "

وانصت الحاج رضوان لكلام السردوك ، وعندما انتهى اتجه بسؤاله الى خليفة مكاري ، باعتباره صاحب سوابق في التعامل مع شيوخ الطوارق ، عما اذا كان السلطان تانان هو الذي سبق ان تعامل معه ، وهو يبيع بضائع يحملها من

طرابلس الى شيوخ جنوب الصحراء ، فاجابه بانه فعلا تعامل مع الشيخ تانان ، وتعرف عليه ، ويستغرب الان وهو يعرف انه هو الذي ارسل المجموعة الاولى ، لانه راى فيه شيخا حكيما ، يستخدم العقل في معاملاته وقراراته ، وليس العصبية والغشامة كما يفعل غيره ، اذ انه رجل يحفظ كتاب الله ، وسبق ان تلقى تعليمه على شيوخ كبار من اهل الدين ، ب يـنهم الولي الصالح الذي جرب اهل الصحراء بركاته واسراره ، وجعلوا ضريحه بعد ان مات مزارا تؤمه القوافل ، ويستنجدون باسمه في وقت الشدة قائلين ، ياسيدي عمران يا ساكن في درمان ، وهو الجبل الذي تسمى به المنطقة حيث دفن ، فياتي سيدي عمران لنجدته وانقاذه واغاثة كل من يستنجد به .

ولهذا يضيف المكاري ، بانه يبدو غريبا ان يرسل هذا الشيخ العالم الصالح مثل هذه الحملة التي تريد الانتقام من بشر ابرياء يسكنون هذه الوكالة ، حتى وهم يحمون فتى من فتيان قبيلته ، اعتبره عاصيا مارقا خطف ابنته ، لانه يعرف ان حماية المستجير انما هي شرف في عرف اهل الصحراء وليس جريمة ، كما ان المكاري على ثقى من ان السلطان

تانان لو علم حقا بان الفتى بنى بالفتاة على سنة الله ورسوله لسامحه وعفى عنه .

الا ان هذا الكلام لم يكن ليعجب السردوك ، الذي اعترض على اطراء المكاري لسلطان الطوارق ، قائلا بان هؤلاء السلاطين جميعا يشبهون بعضهم بعضا ، ولا يغير التعليم وحفظ القرآن الكريم في طبيعتهم شيئا ، لان هذا العلم يبقى حاضرا في القشرة الخارجية للشخص ، فيراها المكاري الذي التقى بالسلطان ليوم او يومين ، اما الذين عاشروه وعاشوا تحت سلطته، يعرفون كيف يتصرف كل واحد من هؤلاء السلاطين بقسوة ووحشية مع اهله ، بحجة الضبط والربط ، ومنع الانشقاق داخل القبيلة او الخروج على صفها ، فهو مستعد لان يقوم بتعذيب الناس وحبسهم ، ويصل الامر الى قتلهم ، وارساله لهذه الحملة المكونة من مائة فارس ، ليس في الحقيقة قتلا لرجل واحد هو اوسادن الذي صدر الامر بقتله ، وانما هو قتل لكل هؤلاء الفرسان المائة الذين ارسلهم ، لان هذا بالضبط ما سيحدث لهم ، في حالة وصولهم الى هذا المكان ، فاين العقل والحكمة لدى مثل

هذا الرجل . وكانت دورة ثالثة من الشاي الاخضر ، المعطر بالنعناع ، والمخلوط بالفستق السوداني المحمص ، قد حان ، فشرب كاسه في جرعة واحدة ، وبفم مليء بالفستق ، استاذن في العودة الى عساكره ، ليتناول العشاء معهم ثم ينام .

وكان لابد ان تأتي تلك الحظة التي ينتظرها باتايوتي ويخشاها ، لحظة ان دخل السردوك عليه المكتب في صباح اليوم التالي ، يفاتحه في موضوع رغبته الاقتران بابنته ، واعدا بانه سيلبي كل طلباتها ، وسيضع نفسه تحت امرها ، وسيسخر ما في حوزته من مكانة اجتماعية وقوة سياسية ، ورتبة قيادية في الامن ، لتوفير اقصى درجات الراحة والسعادة والهناء لزوجته، وانه لن يمانع بل سيكون سعيدا سعادة بالغة اذا ارادت امها ان تعيش معها لموانستها ، وربما الاعتناء في وقت لاحق باطفالها ، بل وليته يرى صديقه باتايوتي ، يترك عناء العمل في الوكالة لمن ينوب عنه ، وياتي هو الآخر ليعيش معه ويسكن في عاصمة القبلة ، وسيجد دارة كبيرة لها فناء واسع ، وترتفع طابقين فوق الارض ، تصلح للم الشمل ، وهو بيت قديم من بيوت العائلة ،

اشترى حصة الاخرين الذين يشتركون في حق هذا الارث، واعاد تجديده وتأثيثه فصار بيتا حديثا تتوفر فيه كل الخدمات ، واستطرد شارحا المزايا التي ستستفيدها الزجة ويستفيد بها اهلها من هذا الزواج ، بما في ذلك ثلاثين نفرا من الشرطة، مستنفرين لخدمته وتلبية اوامره وسيجعلهم في ذات الوقت بمثابة خدم لها ولاسرتها ، فهو رئيسهم الذي لا يستطيع الواحد منهم ان يخالف له امرا . وللحظات بعد ان اكمل السردوك كلامه ، ظل بانايوتي صامتا ، وعيني الرجل الذي يجلس على كرسي امامه معلقتان به ، تنتظران في لهفة وترقب ما سيقوله ، الى ان استغرب السردوك هذا الجمود ، فقال متسائلا في اندهاش عن السبب وراء صمت بانايوتي ، فبادره الرجل بجملة قصيرة اجاب بها على سؤاله اتخذت شكل سؤال استنكاري ، عاد بعدها الى الصمت ، هي:

ـ وماذا تريدني ان اقول ؟

وظنه السردوك سيواصل الكلام ، الا ان بانايوتي ، عاد الى جمود التماثيل ، فاستفزه السردوك قائلا :

ـ اريدك ان تقول على بركة الله ، وتضع يدك في يدي ، وتدعني اقرأ الفاتحة شكرا لله على الفوز بالزوجة التي يريدها القلب .

وهنا تحركت ملامح باناپوتي ، فبدت اكثر قسوة مما كانت عليه وهو صامت لا يتكلم ، فهي ارتعاشة غمرت ملامح الوجه متوافقة مع حركة شفتيه وهو يقول :

ـ ولكنك قلت ، وبحضور نائب الوالي ، وفي مكتبه ، ان هذا لم يكن هدفك في يوم من الايام ، وصدقتك فيما قلت ، فكيف تأتي اليوم لتقول كلاما يناقض ذلك الكلام .

ـ لا وجود لاي تناقض فيما قلته ، كل ما حدث ان الظروف تغيرت ، فقد كانت ابنتك في عصمة رجل آخر ،وكان الحديث عن اي خطبة او زواج حديث سابق لاوانه ، مخالف للذوق السليم ، اما اليوم وهي امرأة حرة من اي ارتباط ، فانني اتقدم بكل اعتزاز لطلب يدها منك.

ـ الم تكن انت الذي سعى لتطليقها من زوجها ؟

ـ كان الفونسو رجلا لا يستحق ان تأتمنه على هذه الجوهرة المكنونة ، المسماة انجيليكا، هذا ما قلته سابقا ، وما اقوله الان بعد ان تخلصتم منه ، وانا لم ارغمه على تطليقها ، انما هو الذي كان مصلحجيا انتهازيا وهو يتزوجها وكان كذلك وهو يطلقها ، فارجوك ان تحمد الله او ان تصلي له شكرا وعرفانا لجميل نعمانه لانه اكرم ابنتك بتخليصها من هذا الزواج ، وانه ساق اليها رجلا يعرف قيمتها ، موجود الان امامك .

ــ الا ترى ان زواجك من ابنتي زواجا ينقصه التكافؤ ؟

ــ لماذا لا سمح الله ؟ هل لانني رجل سبق له الزواج ؟ ان انجيليكا الان امرأة سبق لها الزواج ايضا . هل لانني اكبر منها سنا ؟ نعم ، فالمساواة في السن ليست ميزة ، وانظر الى زوجها الاول ومعاملته الدنيئة لها رغم انه في سنها ، المهم هو انني احبها واعرف مقدارها وسارعاها كانها اثمن جوهرة في العالم ، احرسها واصونها بين اهذابي ، واعطيك عهدا بذلك، ولك حق ان تأتي وتأخذ ابنتك لو خالفت هذا العهد. اما عن السن فانظر كتب السماء ومسيرة الانبياء من سيدنا

ابراهيم ابو الانبياء الى سيدنا محمد آخرهم ، لتجد انهم جميعا يقرون بسلوكهم وسيرتهم وجود هذا الفرق في السن بين الازواج والزوجات .

وفي النهاية ، عندما وجد بانايوتي ان السردوك ، لا يريد ان يرضى باجابته التي تعارض وترفض طلبه ، ارجأ الموضوع قائلا ان صاحبة الشأن لم تقل رأيها بعد ، وسيلتقي به بعد ان ينقل اليها رغبته ، ويعرف ما ستقوله له حول هذا العرض الذي تقدم به .

انتهز السردوك فرصة دخول احد عمال الوكالة لاستشارة صاحبا في شأن من شئون العمل، فقفز خارجا من المكتب متجها الى الحانوت حيث يعرف انه سيجد انجيليكا هناك، ورأى امرأة عجوز من اهل النجع تلتحف بردائها داخل الدكان ، وعندما رأت رجلا غريبا يدخل اليه ، اسرعت الى الخروج مؤجلة شراء ما تريده الى وقت آخر ، وصافح هو المرأتين، متمنيا ان يكون الطقم الذي اهداه الى انجيليكا قد اعجبها . وفي صمت اتجهت كاتيا الى احد الادراج تفتحه وتخرج الصندوق الاخضر الوبري ، وتمد يدها به الى

السردوك دون كلام ، وقف هو مبهوتا لا يمد يده ، فتكلمت كاتيا قائلة

ـ ارجوك ان تأخذ هديتك معك ، لقد اعطيتني الصندوق وخرجت مسرعا دن ان تبقى دقيقة لتعرف رأيي ، ولم اشا ان اركض خلفك خارج الحانوت لاعيده اليك ، وسط الحشود التي كانت تملأ المكان ، فشكرا لانك جئت هذه المرة ، لكي اقول لك ، وتقول لك انجيليكا ،شكرا للهدية التي لا نستطيع قبولها .

اقتربت منه ودفعت الصندوق بين يديه بقوة وحزم الى حد لم يجد معه الا ان يفتح يديه ويأخذه منها ، وظل ممسكا به ، مبديا استغرابه لهذا الموقف قائلا انه يقدم الطقم هدية يعبر بها عن المحبة التى تجمعه بعائلة بانايوتي والصلة التي ترطه بها ، لكنه لم يجد استجابة من كلا المرأتين ، فالمحبة محفوظة ، والصلة ، كما قالت له كاتيا ، موضع تقدير واحترام دون حاجة لدخول الاطقم الذهبية بينهم وبينه . وهنا اضطر السردوك الى استباق الاحداث ونقل للمرأتين ما كان يجب ان يتركه للأب ينقله اليهما في الوقت الذي يناسبه ، وهو

موضوع مفاتحته في طلب يد ابنته ، وقال لهما ان الهدية لم تكن الا مقدمة وعربونا لهذه الخطبة ، التي فاتح بشأنها صديقه بانايوتي ، وهو باعتباره ابا محبا لابنته ، لم يكن يريد ان يتورط في قول شيء قبل ان ينقل اليها الخبر السعيد ، ويعرف رأيها ، لانها هي صاحبة الشأن قبل اي احد آخر.

وارادت كاتيا ان تتكلم بطريقتها الهادئة الدبلوماسية ، خوفا من رد ابنتها باسلوبها العصبي وطريقتها المتشنجة ، الا ان انجيليكا سبقت امها الى الكلام ، ولكن ليس بما توقعته الام من عصبية وغضب ، وانما بصوت هادىء ، وباسلوب مهذب رزين ، قالت له بانها تشكره على حسن ظنه بها، واختياره لها لتنال شرف ان تكون شريكة حياة رجل عظيم المقام مثله ، ولكنها كما يعرف خرجت لتوها من تجربة زواج فاشلة و ....

وقاطعها السردوك قائلا :

ـ طبعا سننتظر انقضاء ايام العدة الستين ، فهو امر طبيعي تقول به الشرائع والاعراف .

وعادت انجيليكا تواصل ما انقطع من كلامها :

ـ لا اتحدث عن العدة يا سيادة الميجور ، اتحدث عن امرأة مثلي خرجت من تجربة زواج

انتهت نهاية مؤسفة ، وتجد نفسها في حالة نفور من الزواج ، غير قادرة على ان ترد على اي طلب للزواج ، ومهما كان صاحب الطلب رجلا عظيما مثلكم ،بغير جملة واحدة ، هي لا سبيل الى ذلك مع الاسف الشديد .

فوجيء السردوك بهذا الرفض الواضح الصريح يأتيه من صاحبة الشأن مباشرة ، وباعتباره رجلا لا ينقصه الذكاء والدهاء، اراد اللعب على الوقت ، قائلا:

ـ ارجوك ياسيدة انجيليكا ، ان تاخذي وقتا في الرد ، فلا حاجة للاستعجال ، ولقد دار حديث بيني وبين ابيك ارجوك ان تستمعي اليه كاملا منه ، لان به شرحا لشروط وظروف الحياة التي اعددتها لك ، يستحق منك النظر والتفكير ، وساترك هذا العقد لانه خرج من ذمتي ولن يعود اليها ، اما الرد فنتركه الى ما بعد ان يعرض عليك والدك الموضوع .

ترك الطقم فوق البنك ، امام كاتيا ، وخرج عائدا الى خيمته ، ضمن خيام المعسكر الذي اقامه الجنود . غاب اليوم كله ، دون خروج من موقعه العسكري ، حيث تلقى تقارير فرق الاستطلاع ، متمترسا بخيمة القيادة التي يستعمل شقا منها لنومه ، لا يرى الا اعضاء بعثته العسكرية ، وفي اليوم التالي ، وفي ساعة الضحى التي يعرف ان بانايوتي سيكون فيها بمفرده في مكتبه ، اتجه اليه ليسمع منه الكلمة الاخيرة التي تحمل الرد على طلبه يد ابنته ، وافهمه بانايوتي فور دخوله الى المكتب ، انه لم يطرأ اي تغيير على الموقف كما سمعه بنفسه من صاحبة الشأن ، وانه حاول ان يضع امامها المزايا التي ذكرها له بالامس، الا ان عذرها كان هو نفس العذر الذي ابلغته به ، وهو انها لا تريد ان تخوض تجربة الزواج في المستقبل القريب ، لا اعتراضا عليه ، ولكن هذا ما كانت ستقوله لاي انسان في الدنيا حتى لو كان ابن ملك اليونان نفسه ، ولهذا يريده ان يقتنع بصدق ما تقوله انجيليكا ، ولا فائدة من ارغام امرأة على الزواج الذي يجب ان تقبل عليه برغبة وحب وسعادة، ولعلها ، كما اخبره بانايوتي ، الا

تكون هذه هي كلمتها النهائية في الزواج منه ، وسيكون هناك رأي آخر بعد اجتياز هذه المرحلة الانتقالية ، فلماذا ، تساءل بانايوتي يهديء من غضب السردوك الذي تحول وجهه الى صفحة سوداء كالظلام ، لا يعطيها شيئا من الوقت حتى تهدا نفسها وترضى بمعاودة تجربة الزواج من جديد . كان يعرف انه لا يقول هذا الكلام الا تحايلا على رد فعل السردوك الذي يدرك انه سيكون عنيفا سخيفا ، ولكن السردوك الذى احتقنت الدماء في وجهه وامتلأت ملامحه بالغضون ، لم يقل شيئا ، خرج مغضبا بخطواته العسكرية السريعة ، يصرخ صائحا باسم الشاويش الذي يتبعه مثل ظله ، وكان واقفا ينتظره في الشمس خارج المكتب.

ـ شاويش عمر .

سمع بانايوتي صوت الشاويش عمر الذي جاء لصاحبه مهرولا ، وهو يضرب الارض بقدمه لاداء التحية العسكرية قائلا :

ـ نعم سيدي.

وسمع السردوك يرمي بالامر في وجه الشاويش عمر صارخا :

ـ هيا ابلغ الجميع بالاستعداد للسفر ، لقد انتهت المهمة .

ثم رآه باتايوتي يعود الى المكتب بنفس الخطوات العسكرية السريعة ، وبنفس الوجه الذي احتقن بالدماء السوداء ، قائلا بلغة صارمة ، لا صراخ فيها ، ولكنها تقترب من فحيح الافاعي، فتبدو اكثر خطورة ، محملة بنذر الشؤم ، اكثر من لغة الصراخ :

ـ تعودت ان اسعى في طلب حاجاتي من الناس بالحسنى والمعروف ، ولكن عندما لا يأتياني بنتيجة ، فهناك دائما سبل أخرى يا سيد باتايوتي .

وسكت قليلا قبل ان يضيف :

ـ قد لا تعرف انهم يسمونني في انحاء القبلة بطائر الشر ، وهو اسم لم يأت من فراغ .

وبنفس الخطوات الغاضبة ، ذات الطابع العسكري ، خرج يضرب الارض بايقاع صاخب مضى يتابعه باتايوتي حتى تلاشى .

ودون ان يكون هناك رابط مباشر بين رفض بانايوتي لطلبه يد ابنته ، وبين المهمة التى جاءت هذه القوة العسكرية لادائها ، فانه بمجرد ان ان تلقى السردوك هذا الرد السلبي على طلبه ، حتى انهك اعضاء القوة في تقويض الخيام وفك التدابير الخاصة بالمتاريس والدشم وردم الخنادق وحمل الاسلحة وصناديق الذخيرة ووضعها في السيارات ، وانضمت بعد قليل سيارتا الاستطلاع ، مما بدا واضحا انهما توصلا باشارة انتهاء المهمة ، وفي منتصف النهار تماما كانت زوبعة من الغبار، يثيرها في الفضاء هذا الرتل الطويل من السيارات متجها الى المنفذ الموذى الى خارج جنائن العرعار . انتهى ذلك الجو الحربي الذي اشاعه رجال الشرطة وسياراتهم وطرقات نعالهم العسكرية فوق الارض، وقد كان اهل الوكالة يتوقعون ان تستمر مهمتهم اسبوعا او اكثر ، خاصة بسبب الاسلوب الذي استخدمه السردوك في تصوير الخطر الداهم الذي يهدد الوكالة ، وقد كان استغرابهم كبيرا وهم يعودون من الشعاب ليجدوا ان تلك القوة قد غادرت الوكالة ، دون ان يترك السردوك بعضا من اعضاء هذه القوة ، احترازا وتحوطا

لامكانية ان يظل الخطر قائما ما يزال ، وكان على بانايوتي الذي عرف الناس انه الوحيد الذي استفرد بلقاء القائد الامني خلال يومين متتالين ،ان يواجه سيلا من الاسئلة يأتيه من اهل النجع ، عن سبب عودة القوة بهذه السرعة ، وهل حقا انتهى الخطر ، وماذا كان تبرير قائد القوة لانسحابه السريع المفاجيء ، ولم يكن يستطيع ان يصارحهم بالافكار التي كانت تراوده منذ البداية عن حقيقة ان الخطر كان مفتعلا كاذبا من اساسه ، اختلقه الرائد السردوك لاسباب لا علاقة لها بسلطان الطوارق وهجومه ، كما لم يكن ممكنا ان يفصح عن معرفته بان الخطر الذي يتهدده ويتهدد وكالته لم يكن اصلا من فرسان الطوارق ، ولكنه من ذات الرجل الذي جاء بادعاء حمايته من هجوم الطوارق ، الرجل الذي ذكر له ان له اسما لم يعطه له الناس من فراغ وهو طائر الشر ، هذا هو الشر ، وهذا هو الخطر ، الذي يعرفه بانايوتي ويصلي لخالق الكون ان يقيه منه .

في مساء اليوم التالي عاد اوسادن من مهمته الاستطلاعية ، عاد دون ان يكون على علم مسبق بانتهاء مهمة القوة الامنية القادمة برناسة السردوك ، عاد مع صاحبة استجابة لطبيعة المهمة التي تقتضى العودة كل ثلاثة ايام لابلاغ قاند الحملة بنتانج الاستطلاع ، وعندما لم يجد قاندا ولا حملة ، بسبب الغاء العملية ، رجع الى خيمته للاغتسال واخذ قسطا من الراحة قبل ان ينضم في اول الليل الى مجلس شيوخ النجع ، في حين اتجه رفيقه في المهمة عاندا الى قواعده في مزده ، وكان شيوخ النجع ينتظرون قدومه بكثير من الفضول لسماع تعليقه على ماحدث ، باعتباره معنيا اكثر من غيره بما جاءت من اجله هذه الحملة، وقادرا على فرز الباطل من الحق فيما قيل عن هذا الخطر القادم من جنوب الحمادة الحمراء وهروجها السوداء، فاخبرهم بانه ذهب في هذه المهمة وهو غير قادر على تصديق ما قاله قاند المنطقة الامنية ، لانه ادرى من غيره بقوة اهل قبيلته ، اذ انه ينتمي الى نجع صغير من نجوع الطوارق لا يملك مانة رجل مسلح ، ويعرف ان السلطان تانان غير قادر على تجهيز مثل هذه الحملة ، ولا

وجود لاسباب وجيهة تجعله يسعى للتحالف مع نجوع قبائل اخرى لتجهيزها ، فهو ليس في حرب مع احد ، ثم انه كان غاضبا لما حدث مع ابنته، وفي غمرة الغضب استجاب لتحريض عدد من فرسان القبيلة على راسهم رجل هو يوبا ، كان يسعى للزواج من تانيرت ، ورفضته ، فكيف وقد انتهت لحظات الغضب وزال تحريض يوبا ، يلجأ هذا السلطان الحكيم الى ارتكاب مغامرة كهذه ، وتجريد حملة من مائة فارس لا وجود لهم تحت سيطرته ، لمجرد الانتقام من رجل تزوج من ابنته ، ولكنه مع ذلك ، لم يستطع ان يواجه قائد المنطقة الامنية بشكوكه ، بل وحاول اقناع نفسه بان الرجل ما كان لياتي بكل هذه القوة الا لان هناك خطرا تغيب عنه دوافعه ، وربما لديه معلومات لم يفصح عنها ، جعلت هذا الخطر محتملا ، الا انه يقول لشيوخ النجع ، انه ذهب لتحويم هذه الارض ، والتقى ببعض الرعاة ، واحدهم راعيا لابل جاء يسوقها من مسافات بعيدة في عمق الجنوب ، لم ير ولم يسمع ولم يتناهى الى علمه اي خبر اواية كلمة عن قوة انطلقت من نجع السلطان تانان ، وقد ازداد اوسادن اقتناعا بعدم وجود

مثل هذه القوة عندما تبادل حديثا على مدى ثلاثة ايام مع زميله في المهمة الاستطلاعية ، وهو رجل صاحب فهم وادراك ويعرف ما يدور في كواليس ادارة الامن في مزده ، بانه لا وجود في رأيه لمثل هذا الخطر ، وانما هي قوة استنفرها الرائد السردوك ، لاستعراض العضلات امام زعماء قبائل القبلة ، واظهار نفوذه وقوته ، وترهيب من يستهين بقوة الحكومة وقلة افراد الشرطة وفقرها في السيارات والسلاح ، في هذه المنطقة الامنية بالذات ، ليقول انه قادر في لمح البصر على تحضير قوة ضاربة كالتي احضرها ، وقد جاء بها هنا لخدمة غرض آخر غير الغرض الذي اعلن عنه ، والذي لم يكن الا تمويها وستارا وتغطية لعقد الاستعراض التي تتحكم في سلوكه، ولكنه سيواصل من باب الاحتياط فقط ، الذهاب في مهمته الاستطلاعية ، لثلاثة ايام اخرى ، ومع ذلك يقول ، لكل قاطني هذه المنطقة ، بان لديه كامل اليقين ، وكامل القناعة ، بعدم وجود اي خطر على الاطلاق ، طالبا ان ينام جميع الناس هانئين ، وانه يذهب في مهمته الاستطلاعية لا بهدف اثبات العكس ، لانه ثابت لديه ، ولا ليقطع الشك باليقين لانه لا شك

يراوده ، وانما فقط ، لاحتمال ان يكون هناك بعض الشك لدى بعض الناس ، ممن اساءهم هذا القطع المفاجي لمهة القوة الامنية ، ليثبت لهم ماهو ثابت لديه ، وهو ان لا وجود لمثل ذلك الخطر ، ولا سبب لمثل ذلك الخوف الذي اثاره في النفوس الرائد صالح السردوك .

لم يبق في ذهن بانايوتي من هذا الصخب ، الا تلك الكلمة ، او الكنية التي وصف بها السردوك نفسه ، والتي قال ان الاخرين يصفونه بها ، وهي "طائر الشر" ، والتساؤل بينه وبين نفسه عن هذا الشر كيف سيأتي ، واي شكل سيأخذ ، وكم يحتاج من وقت لوصوله اليه ، وما هي الذريعة او الذرائع الي سيستخدمها السردوك لاطلاق شره عليه ، فهو يعرف مدى ما احس به الرجل من جرح لكبريائه ، وما اصابه من صدمة في عواطفه ، ويعرف ايضا ما يملكه من قوة لارتكاب الشر ، وما يقع تحت يده من مصادره ، وما يستطيع ان يبرهن به على جدارته بالاسم الذي اعطاه له الناس ، طائر الشر . ورأى ان اليات الدفاع في عقله ، تضع في مواجهة طائر الشر ، واسمه الذي يبعث شحنات التوتر والقلق في نفسه ، اسما اخر يستطيع ان يسميه طائر الخير ، ويراه مصدرا للراحة والطمأنية هو اسم "اوسادن" ، الذي يستطيع ان يصنع به قوة ايجاب تمثل ما يمكن ان يكون مضادا لما يمثل السردوك من قوة سلب، انه يرتاح للرجل ، وسعى فعلا لتوثيق العلاقة به ، وتوثيق العلاقة بين ابنته انجيليكا

وزوجة اوسادن تانيرت ، وخلال الايام الثلاثة الاولى التي غاب فيها تطوعا للقيام بالمهة الاستطلاعية ، انتقلت زوجته للاقامة مع ابنته في بيتها ، واستمرت عندما عاد لمواصلة المهمة الاستطلاعية لايام اخر ، وهاهو الان ، وهو يجلس في مكتبه ، يسمع جملة اصوات تتناهى اليه ، يغلب عليها ارتفاع بعض الاصوات الانثوية ، يستطيع تمييز صوت ابنته انجيليكا من بينها ، واثقا ان تانيرت موجودة معها ، وفعلا هذا ما حدث ، فقد خرج يستطلع الامر ، وراى شلومو التاجر اليهودي ،المتجول ببغلته بين نجوع البادية ، قد وصل الى الوكالة , واستقطب فور وصوله عددا من الاطفال والنساء ، وشلومو لا ياتي الا في فترات متباعدة ، لانه يعرف ان الوكالة تملك متجرا كبيرا لا مجال للدخول في منافسة معه بما يحمله من بضائع داخل عديلتين فوق ظهر بغلته ، فيترك الوكالة للتجول بين بقية النجوع ، لانها لا تملك متاجر مثلها ، ومع ذلك فان حنكته وتجاربه تجعله يستطيع جلب اشياء في عديلتيه ، قد لا تجدها النساء في الحانوت ، فجمهوره دائما من النساء ، وبضاعته تخصهن وتخص اطفالهن اكثر من الرجال ، وهو

يبيع خلطة متنوعة مما يحتجنه لانفسهن وبيوتهن ، يبيع العطور والمرايا والحناء والامشاط وانواع الكحل والمراود والمكاحل والسواك ، كما يبيع اشكالا من الصابون والمراهم التي تستخدم في ترطيب البشرة ، ومعالجة الشقوق في القدم او في الجلد ، وانواعا من العود والمباخر والبخور والوشق والجاوي والحلتيت واللوبان والعلكة ، واحيانا انواعا من الحلي الرخيصة الزجاجية والخزفية والخشبية ، والملابس الداخلية والمراهم الخاصة بالاطفال الرضع ومراضعهم ، وغالبا ما تجد النساء لديه شيئا مثيرا او جديدا لم يصل الى حانوت الوكالة ، بل يمكن ان يجدن بدائل لبعض ما هو موجود في الحانوت اكثر جاذبية ورخصا ، فهاهي زوجته كاتيا نفسها موجودة مع النساء تساوم على اشياء لتشتريها منه ، ولاشك انه ان هناك زحاما ينتظره عند عودة العائلات من الشعاب ، ولم يستعجل بانايوتي الذهاب لتحية بانايوتي ، عاد الى مكتبه ، لانه يعرف انه باق ، فهو كلما وصل الوكالة اقام فيها ليلته ، وجاء لقضاء جزء من الليل معه ، وهذا ما حدث فعلا ، فقبل ان يكتمل حضور شيوخ النجع في موعدهم الليلي ، وصل

شلومو ليكون مع بانايوتي في انتظارهم ، ليزودهم بشيء من اخبار النجوع ، وما يدور في البادية التي تحيط بهم من احداث وما يشغل اهلها من مشاكل ، وهو يقيم بعائلته في مزده ، لكن عمله هو هذه السلع التي يشحنها فوق بغلته ويجوب بها الصحراء ، فيكمل بيعها خلال اسبوعين ليعود للراحة مع الاسرة بضعة ايام ، ويشحن العديلتين ببضائع جديدة لجولته التاليه ، ويستغرب الناس دائما لهذه المساحات التي يقطعها صحبة بغلته ، فهو يصل احيانا الى المناطق الحدودية في غدامس ، ويعود بدل الحمولة التي ذهب بها بحمولة من سلع تشتهر بها المنطقة مثل صناعاتها التقليدية من الاطباق الملونة والسجاد المصنوع من السعف وحقائب وعلب مصنوعة من نفس المادة ، وخناجر لها مقابض خشبية عليها زخارف جميلة ذات الوان ، ثم يذهب في مشوار اخر الى فزان فيجلب منها انواعا نادرة من التمور ، ويتجنب دائما المناطق التي يحتدم فيها الصراع بين العشائر ، والاخرى التي تتحكم في معابرها عصابات الصحراء ، فلا يتجه ببغلته الا الى المناطق الامنة، التي صار له فيها اصدقاء يحبونه ويرحبون

به ، ويقدمون له الحماية اذا احتاج اليها ، وكان اكثر ما استثارهم من الاخبار التي جاء بها ،ان السلطات الفرنسية في فزان ، اجلت الطوارق من جنوب الحمادة الحمراء ، في سعيها للسيطرةعلى الجريمة القضاء على مصادرها ، وملاحقة طوارق الهجار والاستفراد بهم ، قبل اختلاطهم مع اقوام من طوارق البادية ، وتم ترحيل قاطني جنوب الحمادة والهروج السود الى منطقة نائية قريبة من الحدود مع تشاد ، هي منطقة القطرون ، وصادرت كل اسلحتهم ووضعتهم تحت الرقابة الدائمة ، تحت ذريعة الاستيطان بوعد ان تفتح مدارس ومستوصفات لهم وتخلق فرص عمل لرجالهم، وحرمت عليهم الاقتراب من منطقة الوسط حيث المعابر التي تشق الحمادة الحمراء ، ومن اراد السفر في تجارة او رعي او غيره ، اتجه وجهة جنوبة فقط حيث النيجر وتشاد ، تامينا للمعبر الصحراوي الرئيسي المسمى معبر الحجيج ، الذي يسلكه اهل الحماية الفرنسية القادمين من الجزائر والمغرب والساقية الحمراء وشنقيط ووادي الذهب ، وما كان يهم اهل الوكالة من مثل هذه الاحداث ، التي نقلها لهم شلومو ويتداولها اهل

النجوع في الصحراء ، هو ان خبر الحملة التي جردها السلطان ثانان لغزو الوكالة خبر لا صحة له ، حتى اذا تصور الناس افتراضا ان لها اصلا صحيحا ، وان هناك نية مبيتة من ذلك السلطان للقيام بمثل هذه الملاحقة ، وبمثل هذا العدد من الفرسان ، وصل نباها لاهل حكومة القبلة ، فان التدابير الفرنسية جعلت قيام تلك الحملة مستحيلا ، لان هذا الاجراء بتوطين الطوارق بعيدا عن الحمادة الحمراء ومنع ارتيادها اجراء جديد لم يحدث الا منذ اسبوعين ، وهو كلام يهم ان يعرفه اوسادن ، لكي لا يواصل هذا الجهد الزائد عن الحاجة ، لان ما يقوله شلومو كلا م موثوق به ، فهو لم يحصل على معلوماته من مصدر واحد وانما ينقل ما يتداوله الناس في كل ما يمر به من نجوع الحمادة الحمراء ، وهي نجوع لها قوافل وتواصل مع الجنوب ، ويهمها ما ترتب عن هذا الاجراء من تأمين للطرق ، واستئناف لتدفق القوافل التي تاثرت بالاختراقات الامنية .

شلومو لا يشرب الخمر اثناء تجواله بين النجوع ، لانه يحتاج لان يكون في كامل يقظته خوفا من التعرض للسطو ،

وخوفا من وقوعه ضحية لذنب او ضبع من ذئاب وضباع الصحراء ، التي تباغت ضحاياها وتهاجمهم غدرا، اذا ما مرت به لحظة غاب فيها عن الوعي بسبب الخمر ، الا انه هنا في حماية الوكالة وصاحبها ، فلا وجود لمثل هذا الخطر ولا حاجة لمثل هذا الحذر ، ولهذا ياخذ فرصته في الاستمتاع بجرعات من السائل السحري الذي ينسى الانسان مشاكله ، معتمدا على بانايوتي في اعطائه زجاجة نصف ليتر من الاوزو ، يمزجها بالماء ، ويستعين على استساغة طعمها ، بجبنة الحلوم اليونانية ، يعبر بها الليلة التي يقيمها في الوكالة ، في ركن خيمة الضيافة أي خيمة القهوة، والعديلتين المحملتين ببضائعه تحت رأسه ، وبغلته مقيدة الى وتد امامه تأكل ما يجود به اهل الوكالة من بقايا الخبز .

في اليوم التالي عندما رأى بانايوتي سيارة جيب تقترب من مقر الوكالة ، ملفوفة في غلالة حمراء من غبار الطريق ، خلال الساعات الاولى من الصباح ،استعاذ بالله من الشيطان، فقد ظن انها بشائر الشر التي توعده بها طائر الشر قد اهلت

، باعتبارها سيارة تنتمي هي ايضا للادارة التي يعمل السردوك قاندا لامنها ، الا انها لم تكن كذلك ، فقد عرف بمجرد ان وقفت ونزل منها سائق مدني ، يتقدم اليه بتحية الصباح بشوشا مبسوط الملامح ، حتى تيقن انها لا تحمل شرا ، فقد جاء الرجل يحمل امرا من نائب الوالي بالاحتفال يوم الجمعة القادم بعيد الجلوس على العرش لملك بريطانيا صاحب الجلالة جورج السادس، وهو يوم لم يكن قد جرى العرف على الاحتفال به خارج الاطر الرسمية للدولة ، ولكن الحكومة قررت هذه المرة جعل الاحتفال رسميا وشعبيا ، لانه ياتي بعد ان ابل الملك من مرض خطير الم به ، وجاء ايضا بعد ان خرجت بريطانيا من محنة الحرب منتصرة على اعدائها دول المحور ، ولذلك فقد ارسل نائب الوالي مبلغا من المال لتغطية نفقات الاحتفال في الوكالة يتساوى مع المبلغ الذي ارسله لكل نجع من نجوع القبائل البدوية الكبيرة ، وهو ثلاثة الاف فرنك ، طالبا من الرجل تسليمه لبانايوتي واخذ توقيع يفيد باستلامه في السجل الذي يحمله معه ، ثم انطلق السائق بسيارته قاصدا نقاطا اخرى ، ورای بانايوتي ان يضع الامر بين يدي بقية الشيوخ

وحال انعقاد مجلسهم نقل اليهم تعليمات نائب الوالي واتفق معهم على اسلوب الاحتفال الذي قرروا ان يكون مسانيا لكي يتمكن الناس من مباشرة عملهم في التقاط الحلفاء ، ثم يؤدي الرجال صلاة الجمعة ، ليباشروا بعذ ذلك التحضير للحفل ، فالمبلغ يكفي لشراء خمس خراف ، سيتدبر ابوفاس الراعي ايجادها لهم ، شرط منحه ثمنها منذ الآن لانه قد يحتاج لشرائها من رعاة آخرين من خارج هذه المنطقة ، مع شراء ما يكفي من الحانوت من ارز ومكرونة وخضار ، وما يحتاجه الحفل من مشروبات ، وستتعاون عائلات النجع كما جرت العادة على طهي الطعام ، وستقوم جماعة الشوشان باحياء الحفل الذي سيقتصر على الغناء والعزف والعاب ورقصات يؤديها الشباب ويشارك فيها الاطفال ، ولا مجال لرقص نسائي مثل رقصة النخيخ التي يقتصر تقديمها على حفلات الاعراس ، ورغم ان جماعة الشوشان تشارك في احتفالات اهل النجع واصحاب الوكالة تطوعا ، الا انها جديرة في مثل هذا الحفل الذي ترعاه وتنفق عليه الحكومة ، كما راى بانايوتي وايده في ذلك شيوخ النجع ، بان تنال مكافاة مالية على سبيل الهدية

مقابل هذه المشاركة ، ومبلغ اخر صغير لمن يستطيع ان يقوم بتأليف قصيدة شعبية بالمناسبة يكون حافزا له على ابداعها ، وقد وقع الاختيار على العمة مريومة، لما لها من باع في هذا المجال ، على ان يقوم بانايوتي بمهمة افهامها اسباب الحفل وابعاد المناسبة ومن هو الملك جورج السادس وماهو العرش ، وما هو الاحتفال بالجلوس عليه ، لتكون القصيدة عملا فنيا يليق بالمناسبة ، يستطيع ان يقوم بانايوتي فيما بعد بتقديمها مكتوبة لنائب الوالي ، لكي يستطيع بدوره رفعها لاعلى سلطة في البلاد ، بل يمكن ترجمتها والوصول بها الى الملك جورج السادس نفسه ليعرف ان هناك في جنائن العرعار ، اناسا قاموا بواجبهم كاملا في الاحتفال بعيد جلوسه على العرش ، الذي يأتي متوافقا مع الاحتفال باعياد النصر على الطليان .

وجاء يوم الاحتفال ، وكان من اسباب بهجة بانايوتي ان اوسادن كان قد عاد من جولته الاستطلاعية ، فشارك بالغناء والرقص على المهري ، كما استخدم الاومباشي جبران حصانا استحضره خصيصا من مزده ، لكي يستعرض به بعض مهاراته في الفروسية ، وكان بانايوتي قد

اوصى اهل الشاحنة على جلب الة ماندولينا ، كان يسلي بها نفسه في طرابلس ، وتركها في بيته بباب البحر ، فاحضروها له في جراب قديم ، وقد تسلل الغبار الى مفاتيحها واوتارها ووجدها بعد تنظيفها ودوزنة اوتارها صالحة للعزف ، فقرر ان تكون مساهمته في الحفل بدقائق من العزف عليها ، بينما ملأت فرقة الشوشان بعزفها وغنائها للاغاني الشعبية كل ساعات اليوم بمشاركة فاعلة من عاشور ومزماره البلدي المقرونة ، وكانت المفاجأة التي اذهلت اهل النجع هي تانيرت التي ارتدت ملابس نساء السلاطين ، واحضرت الة امزاد ، ذات الوتر الواحد ، وقامت بالعزف عليها بمصاحبة الغناء الطارقي الذي تجيده ولفترة تزيد على نصف ساعة ، انسحبت بعدها رغم اصوات الاعجاب التي تطالب استمرارها في العزف والغناء، وكان اكثر الحاضرين اعجابا بها ، اعضاء الجوق الموسيقى الشعبي ،مبدين اندهاشهم كيف لالة موسيقية بوتر واحد ان تنتج هذا التنوع اللحني الحافل بالزخارف والالوان، وجاء دور الاهزوجة التي اجادت العمة مريومة نظمها ، واملتها على واحد من شباب النجع قام بالقائها، وقد زادت عن

خمسين بيتا، تشيد بمآثر الملك ، الذي تحتفل البشرية ، في مشارق الارض ومغاربها ، بعيد تنصيبه ملكا ، وتشكره باسم كل امرأة ليبية، فقدت اخا او زوجا او ابنا علي ايدي المستعمرين الايطاليين، لانه انتقم لها وازال كابوسهم من ارضها.

وكانت مهمة بانايوتي في الايام التي تلت الحفل هي ان يبحث عن مرسول يحمل هذه الاهزوجة الى نائب الملك ، ثم رأى عندما تأخر الوقت قليلا دون ان يمر احد يليق ان يرسلها معه ، ان يذهب بنفسه ويحظى بشرف لقائه ، وينقل له صورة عما تم في الوكالة من احتفال واحتفاء بالمناسبة ، الا انه وقبل ان يحدد يوم السفر ، وجد نائب الوالي يعفيه من مثل هذه المهمة ، ويقرر على غير توقع ، ان ياتي الى زيارة الوكالة . كان الوقت قبل منتصف النهار، وهو مازال في مكتبه وامامه اكثر من سجل من سجلات وكالته والحانوت التابع لها ، لتوثيق ما تم دفعه من نقود في اليوم الفارط وما تم صرفه من بضائع ، عندما تناهى اليه صوت سيارة قادمة الى الوكالة ، فخرج تراوده المخاوف التي لا

تغادرعقله بسبب تهديدات السردوك ، ليجد ان القادم ليس سيارة واحدة وانما سيارتين ، وكانت المفاجأة كبيرة لحظة ان راى نائب الوالي بحده وقده البريجادير هيوز نفسه ، يرتجل من اول السيارتين ، ثم يهبط بعده السردوك ، ليشعر بان سببا جللا هو الذي جاء بهما معا ، الا انه لم ينزعج ، كما كان سيفعل لو ان السردوك جاء بمفرده ، لانه مع حضور نائب الوالي فان شرور السردوك ، ستبقى محبوسة في قمقمها ، غير قادر على اطلاقها امام رئيسه ، ولم يستطع بانايوتي تأدبا ان يساله عن سبب الزيارة ، ولكنه رأى نائب الوالي يتكلم مزهوا عن عيد العرش ، الذي احتفلت به البلاد ، وشاركت فيه منطقة القبلة مشاركة فعالة، فانصت اليه وهو يقول انه بعث برسالة عن هذه الاحتفالات الى صحف لندن التي نشرت اخبارا عنها ، وانه يسعده ان ينقل لبانايوتي ومن خلاله الى قاطني الوكالة ، ان الملك جورج السادس ، القى خطابا تم نقله عن طريق الهواء مباشرة ، متجها به الى كافة رعاياه في الكرة الارضية ، يشكرهم على احتفالهم بمناسبة ذكرى جلوسه على عرش اجداده ، ويتمنى لهم دوام السعادة والهناء ، وامر كل

ممثليه في المحميات والمستعمرات نقل رسالة الشكر الملكية اليهم ، وكان رد بانايوتي هو تلك القصيدة التي صاغتها قريحة العمة مريومة ، مكتوبة في ورق مصقول بالخط الجميل الذي يجيد رسمه الفقي عمار .

لم يكن هناك احد موجود من شيوخ النجع وعائلاتهم ، فجميعهم يمارسون عملهم اليومي في الشعاب ، ولم يكن هناك الا بعض العمال الذين امرهم بالبقاء لخدمة الضيفين الكبيرين ، واحضار ما يقتضيه واجب الضيافة من قهوة وشاي ومشروب ، لاهجا طوال الوقت بكلمات الترحيب بضيفه نائب الوالي ، متمنيا عليه ان يبقى للغذاء، فيقبل الوالى مشترطا ان تكون الوجبة يونانية ، فامر بانايوتي احد عماله بنحر جدي ومباشرة القيام بشواء لحمه ، فاجمل موائد اليونانيين كما اخبر نائب الوالي تبدأ باللحم المشوي ، مصحوبا بالسلطة الخضراء المخلوطة بجبنة الحلوم وزيت الزيتون مع شراب الاوزو ، ولم يكن هناك مانع لدى نائب الوالي ان يبدأ منذ الان بشراب الاوزو ، مع مازة الجبنة والخيار والزيتون ، فيما اعتبره نخبا يشربه معه ، لسبب

سيعرفه بانايوتي بعد لحظات ، وطبعا لم يكن يستطيع السردوك ان يشارك في شراب الاوزو ، مكتفيا بعصير البرتقال المحفوظ ، الذي قدم له ، وسأل الوالي بانايوتي ان يجلس بجواره ، ويتوقف عن الانشغال باعداد الغذاء ، لانه يحتاجه لان ينصت لما سيقوله له من كلام ، مكررا ما اشار اليه من سبب لشرب الانخاب ، مفضلا ان يتم هذا الكلام قبل ان تزدحم الوكالة باهل النجع المنشغلين في الشعاب ، وهو يعرف ان زميله السردوك قد سبق وتقدم لطلب يد ابنته انجيليكا ، ويعرف ايضا ان طلبه لم يجد الاستجابة منه ومن ابنته وامها ، وهو يريد الا ان يعيد عرض الموضوع في ضوء جديد ، هو ضوء معرفته بالسردوك وقناعته بعمق المحبة التي يحملها لانجيليكا ، وحرصه على ان يضع بين يديها كل اسباب السعادة ، مع استعداد لازالة كل شيء يشكل عقبة في سبيل اسعادها عند اقترانها به ، فقد فك ارتباطه مع زوجته الاولى ، وهيأ لها ولاولاده منها بيتا خاصا بهم ، كما خصص بيتا واسعا انيقا جميلا لزوجته الموعودة التي سيتفرغ لخدمتها ، متيحا لها فرصة ان تقضي الوقت التي تريده مع اسرتها والذهاب في

الاجازات الدورية الى اثينا معها ، وقد فكر الراند السردوك في المهر الذي يليق بابنته ، ويتيح لبانايوتي الانتفاع به ، كثمن لتنشئته وتربيته لهذه الابنة ، حتى وصلت سن الاكتمال والنضج والانثوي ، وقد استشاره فيما قرر تقديمه، ورآه فعلا ، مهرا لانقا ثمينا ، لا يجوز لبانايوتي ان يرفضه ، ثم مد البريجادير هيوز يده بكأس الاوزو ، يقرع به كأس بانايوتي ، طالبا منه ان ينهض ويمضى معه ليريه هذا المهر ، ولم يكتف بالكلام ، بل رشق ذراعه في ذراع بانايوتي يسحبه معه ، ويقوده يتبعه السردوك، الى السيارة الصحراوية المرافقه ، وسال احد اعوانه ان يرفع القماش الشمعي الذي يغطي باب صندوق السيارة، فاذا بوجود جواد جميل يلمع سواد شعره رغم عتمة المكان ، والسيد هيوز يثني على جمال الجواد ، قائلا بان الراند السردوك ، راى ان تقاليد البادية تعتبر امتلاك الجواد شرطا من شروط الوجاهة والقيادة ووسيلة للاستمتاع بهذه الفضاءات التي تتيح لصاحب الجواد ان يركض به عبرها ، ويرجو ان يقبل هذا الجزء الاول من المهر ، اما الجزء الثاني ، وهو اكثر اهمية وقيمة ، ويكمل مهمة الجواد

ويتجاوزها ، لانه ينفع ان يسمى جواد العصر الحديث ، باعتباره قادرا على قطع مسافات تعجز الجياد عن قطعها ، ويهديه اليه ، عارفا انه رجل حضري ، يحتاج الى وسيلة حضرية حديثة للنقل ، تزاوج بين حياة الصحراء التي يعيش فيها السيد باناپوتي ، والمدينة التي لا يستغنى عنها ، وهذا الجزء من الهدية هوهذه السيارة الصحراوية التي تحمل الجواد وهي سيارة جديدة المانية الصنع دفعت بها المانيا الى السوق من نوع الفولكس لتنافس الجيب وتتفوق عليها وهذه احدى سيارات الدفعة الاولى ذات الطابع المدني لانها لم تستخدم سابقا الا في المجال العسكري ، يقدمها اليه لتكون اداة للتحرر من ربقة المكان ، يستطيع اذا اراد ان ينقل بها اسرته لقضاء عطلة الاسبوع في طرابلس والعودة في اليوم التالي ، ويرضي فضوله للاغتراف من المعرفة بكنوز الصحراء ومعارضها الاثرية المفتوحة ، عن طريق الطواف عبرها بهذه السيارة ، وهي سيارة جديدة ، مجهزة باحدث وسائل الراحة ، كلفت السردوك اموالا كثيرة ، وباع من اجلها قطيعا من الابل، وهو يرى ان كل شيء يهون في سبيل

ارضائك وارضاء العائلة ، وسيوفر بعد ذلك الالبسة والحلي ، بما لا يستطيع ان ينافسه فيه اي رجل آخر ، او يقدمه عريس لعروسه في هذا الجزء من العالم ، ثم قال وهو يعود ليستأنف جلوسه ومواصلة الشراب ، بانه لم يرض بالقيام بهذه الوساطة ، والمجيء الى بانايوتي في وكالته ، الا بعد ان رأى صديقه الرائد السردوك ، يتقدم بهذا المهر المشرف الذي يعبر عن مدى تقديره لاصهاره ، وللسيدة التي يريد ان يبني بها "راجيا ان اسمع منك ما يفرحني ويفرح هذا الصديق ".

وببالغ التأثر ، وبصوت متهدج يلونه الانفعال ، تكلم بانايوتي معبرا عن اكباره وتقديره لهذا التكريم الذي يشرفه به نائب الوالي ، وهو يحضر اليه في مكان عمله واقامته ، ولن يكون بامكانه اطلاقا ان يتأخر في تلبية اي طلب ياتي من اجله ، لو ان هذا الطلب خاصا به، ولكنه طلب يخص شخصا آخر لا يملك لا شرعا ولا قانونا ولا دينيا ولا مدنيا ، ان يفرض عليه شيئا كهذا ، يتصل باخص خصوصيات حياته ، دون رضاه ، ولا وجود لغير معنى واحد لتفسير قبوله بالمهر ، اذا قال انه يقبل به ، هو فرض هذه الزيجة على ابنته ، وهو ما لا يرضاه

الخاطب نفسه ، ولا يرضاه نائب الوالي ، وكل ما يقوله هو ان يتناول ثلاثهم الغذاء، ثم يسال زوجته وابنته ان تتفرغا للانصات للكلام الذي يحب ان يقوله لهما ، ويعاهده بانه سيكتفي بالصمت والاستماع لما تقوله صاحبة الشأن ردا على كلامه ، دون تدخل منه ، ودون ابداء كلمة اعتراض واحدة ، بل ودون اي تعليق ، فان وافقت فهو سيكون سعيدا بهذه الموافقة ، مرحبا بقبول الهديتين الثمينتين واثقا انه ستكون فيهما الكفاية عن تقديم اي شيء سواء كان ذلك حليا اوثيابا ، لان ما تبقى سيكون واجبا هو الذي يتولاه ، وسيجهز ابنته بما تحتاجه من مصاغ ولباس ، وتزف اليه بكل بهجة وفرح ، وان لم توافق ، فلا يملك عندئذ الا الاعتذار عن قبول الهدية او المهر ، مبديا اسفه لنائب الوالي لما تكبده من تعب المشوار.

ونهض بعد ان قال هذا الكلام مدعيا ان لديه شيئا يستوجب عمله ، وحقيقة الامر انه يريد للحديث ان ينتهي عند هذا الحد ، فلا مجال للمط والاطالة في موضوع يعرف انه محسوم بالنسبة له ولاسرته ، الا انه سيلتزم بما قاله لنائب الوالي ، ولا حاجة في هذه اللحظات ان يخبر ابنته

وزوجته بما حدث ، وسيترك الموقف يسفر عن نفسه ، ولابنته ان تعبر عن نفسها في حضور الضيفين ، تاركا لها حرية الاختيار، والرد سلبا او ايجابا . انه يعرف رأيها ، ويوافقها عليه ، ويتمناها ان تتشبث به ، ولكنها ان رأت في الامر شيئا جديدا يستوجب اعادة النظر ، فليعطها هذا الحق ، وسيحافظ على وعده ، بالا يتدخل فيما تريده وترضاه.

غاب عن ضيفيه دون احساس بالحرج او الاثم لانه يتركهما بمفردهما ، فهما يعرفان ان لديه عملا ، اضافا هم اليه عملا آخر بتحضير مأدبة لغذائهما ، فليواصل السيد هيوز ، استهلاك الاوزو ، الذي لن يجده في اي مكان في هذه الصحراء ، غير هذا المكان ، وليشرب حتى الثمالة اذا شاء ، لقد ترك امامه زجاجة عبوءتها ليترا كاملا ، تصبح باضافة الماء ثلاثة ليترات ، اذا كان لديه جوف لاستيعابها ، لانه لم يشاركه الا بكأس واحد مجاملة ، فعلاقته بالاوزو ، ليست علاقة نهارية ، انما ليلية ولكنها ليست علاقة معاقرة تتواصل كل ليلة ، بل مرة يهزه فيها الشوق اليها بعد مسافة من الابتعاد ، ثم انهما يستفردان به في وقت لا وجود فيه لاحد من

شيوخ مجلسه ، وهذا الاستفراد لا يرتاح اليه ، وهو استفراد سيستمر اثناء الغذاء ، وبعد الغذاء عندما يأخذهما الى بيته للقاء زوجته وابنته ، راجيا بينه وبين نفسه ، الا يكون في هذه المواجهة اية قسوة بالنسبة للمرأتين ، فهي مواجهة لا تخلو من حرج ، وقرار احالة الامر اليهما ، قد يحمل شبهة انه يهرب من المسئولية ، الا ان هذا ما اقتضاه الموقف ولا يستطيع الان ان يتراجع عما قاله لنائب الوالي، الا انه راى وهو يرفع بصره نحو الافق، باحثا عن ذريعة ينشغل بها عن مصاحبة الرجلين ، شيئا يحمل بصيص امل في وجود من ينقذه من عبء ان يستفردا به ، راى اوسادن يركب المهري عائدا من الشعاب يرفد زوجته من خلفه ، وارسل مسرعا القهواجي علي ، الذي كان منهمكا في تحضير الشواء ، ليعرف ما يحدث ووقف محل الولد يرقب النار ويقلب الاسياخ التي تحمل اللحم ، ويتابع من مكانه البعيد ما يحدث لاوسادن وزوجته ، فقد رآه يأخذ زوجته بين ذراعيه بعد ان يبرك المهري ، ويتجه بها الى الخيمة ، وانتظر واقفا امام خيمة المقهى يتلقى صهد النار ، ما ياتي به علي من اخبار ، فعرف

منه ان تانيرت اصيبت بضربة شمس ، الى حد الاغماء، فانتظر زوجها حتى استعادت وعيها واركبها على المهري وعاد بها الى الخيمة ، فذهب بانايوتي مسرعا الى امراته يسألها ان تبحث عما يمكن ان تجده في الحانوت من اسعاف تاخذه الى خيمة اوسادن ، لانقاذ تانيرت، وبالذات بعض حبات الاسبرين التي يعالجون بها ارتفاع درجة الحرارة ، وتترك لابنتها ما تبقى من مهمات اعداد الاطباق المرافقة للشواء ، فاصرت ابنته ايضا على الذهاب مع امها ، فصديقتها تانيرت اولى بالخدمة من هؤلاء الضيوف ، خاصة ان الطبق الرئيسي وهو الشواء ، هناك من يتولى تجهيزه ، كما سبق اعداد طبق السلطة ، واذا احتاج الضيفان الى قهوة فليعدها لهم علي بعد الانتهاء من الشواء ، وسمع زوجته تتساءل بشيء من التذمر عما جاء بهما ، فلم يشأ ان يخفي عنها سبب مجيئهما قائلا ان الرجل الذي رفضته انجيليكا جاء هذه المرة معاودا الكرة مستعينا بنائب الوالي كي يتوسط له ، متصورا ان جلب مهر كبير هو عبارة عن جواد وسيارة صحراوية سيقنعان انجيلكا

بتغيير رأيها ، ودون تعليق اخذت الام يد ابنتها تجرها خلفها وكانها تهرب بها من مشهد هذين الضيفين.

تركهما الاب تذهبان للاعتناء بالمرأة المريضة , وعاد ليباشر بنفسه تقديم الغذاء لضيفيه ، فامر علي بتحضير الاطباق والشوك والسكاكين ، وقام بوضع الفراش الشمعي على احدى الطاولات واخرج من البيت طبق السلطة اليونانية المغطاة بالجبنة والزيت ، وبدأ علي يملأ الصحون باسياخ الشواء الذي اعطاه خليط البهارات والاعشاب المجلوبة من اليونان نكهة بلاد الاغريق ، ولونا اجنبيا يختلف عن طعام اهل هذه المناطق ، كما اضافت المسطردة ذات اللون الاصفر المجلوبة من الخارج ، زخما الى هذا اللون الاجنبي ، وجلس بمحاذاة ضيفيه وقد سكب لنفسه من زجاجة الاوزو كاسا ثانيا مسايرة لضيفه نائب الوالي ، واستسلم الضيفان لالتهام اللحم المشوي بشراهة ونهم ، ووضع لهما طبقين من الحلوى اليونانية المغموسة في العسب باعتبارها الجزء الحلو من هذه الوجبة اليونانية ، واكملها بالقهوة التركية التي يصر اليونانيون على تسميتها باليونانية ، ولم يبق بعد اكتمال

الوليمة الا اداء المهمة التى جاء الضيفان من اجلها ، فنهض البريجادير هيوز واقفا طالبا من بانايوتي ان يقوده الى البيت لمواصلة الحديث في حضور صاحبة الشأن ، واقناعها بما جاء من اجله ، الا ان بانايوتي افهمه ان هناك مشكلة صغيرة هي وجود المرأتين في بيت اوسادن لاسعاف زوجته المريضة مرضا طارئا ، لكنه لم يستطع ان يسأل نائب الوالي ان يعود للجلوس وقد نهض من مكانه وسار بضع خطوات في اتجاه البيت ، فسار يقوده الى هناك، قائلا له ولصاحبه السردوك ، ان البيت بيتهما ، يستطيعان الجلوس فيه ، وسيبعث وراء زوجته وابنته يسألهما سرعة الحضور، الا ان التي جاءت هي الام ، قائلة ان ابنتها لم تستطع ان تترك صديقتها في هذه الحالة الحرجة ، وراى عليا واقفا بالباب ينتظر الامر بتقديم اي خدمة يريدها الضيفان ، فصاح به بانايوتي ان يذهب حالا الى خيمة اوسادن ، ويطلب من انجيليكا ان تأتي فورا لان هناك امرا عاجلا وكثير الاهمية يتطلب وجودها ، ولتترك المرأة المريضة في رعاية زوجها، وهو قادر على الاهتمام بها اكثر منها ، غاب علي ، وجلس بانايوتي في صالون البيت مع

ضيفيه ، ينتظر على قلق مجيء ابنته، وزوجته تختفي في المطبخ بحجة انها تعد شيئا لضيفيها ، دون ان تعد اي شيء ، وبدلا من حضور انجيليكا ، جاء اوسادن يطرق الباب ويدخل مستاذنا باسلوبه المهذب ، مرفقا حديثه ، بانحناءة من راسه ، ومد يده وقد رفع اللثام عن وجهه، يسلم بحرارة عن الضيفين الجالسين في الصالون ، وقد فوجئنا بوجوده ، باعتبارها جلسة خاصة ، حول موضوع خاص ، يقتضي ان يتم التداول فيه في اطار العائلة فقط ، ولا مكان لوجود هذا الرجل الغريب عن الطرفين . رآهما اوسادن ينظران اليه باستغراب واستنكار ، فاعتذر عن مجيئه غير المتوقع ، قائلا بانه ليس الا رسولا ، جاء يبلغهما رسالة من انجيليكا ، التي ارادت تحت اصرار زوجته ان تبقى برفقتها ، كما لم تشأ ان تترك نائب الوالي ينتظرها ، وهي لا تستطيع الحضور ، وتقديرا له ولمكانته الرفيعة اصرت على ان يحمل عنها هذه الرسالة التي تقول ، مع تبجيلها الكامل له ، واحترامها للمساعي التي يبذلها والتي من اجلها جاء الى بيت ابيها ، فانها لا تملك كلاما تقوله له ، الا ما سبق ان قالته بوضوح

للسيد السردوك ، عندما افهمته انها لا تقول ذلك رفضا لخطبته لها او اعتراضا على شخصه ، لانها لا تملك له هو ايضا الا الاحترام والتقدير ، وانما هو شيء يتصل بها ، ويخص طبيعتها وشخصيتها ، جعلها نافرة من الزواج ، لا تفكر فيه ،ولا تصبو اليه ، ولا تحس باذنى رغبة للارتباط باي رجل ، ولن ترغم نفسها مهما كان الثمن على الزواج لانه ليس امرا يخضع للبيع والشراء ويتأثر بالسعر ان كان غاليا او منخفضا ، وهي تأسف للسيد نائب الوالي ، وتشعر بالخجل منه ، ولا تجد القوة على مواجهته ، فارادت ارساله ،اي اوسادن ، ليقول هذه الرسالة ، ويرجو ان يعطيه نائب الوالي الاذن في الانصراف، بعد ان ادى هذه المهمة التي كلفته بها السيدة انجيليكا.

خرج اوسادن

ولم يكن هناك مجال لاي كلام يقوله احد لاحد من الموجودين في صالون البيت . تبادلوا نظرات يصحبها الصمت . في تثاقل نهض نائب الوالي ماشيا باتجاه الباب ، ولحق به صاحبه

السردوك ، وخلفهما نهض صاحب البيت ، وفي صمت سار ثلاثتهم في طابور بنفس الترتيب الى حيث تقف السيارتان.

في صمت ركب السيد هيوز ، وركب بجواره السردوك امام عجلة القيادة ، وانطلقت بهما السيارة ، تتبعهما السيارة التي تحمل الحصان والاعوان ، وقد علا غبار السيارتين ، ودخل جزء منه في فم بانايوتي ، فصار يسعل وقد شرق بهذا الغبار ، مستغربا لانه شارك في توديع مواكب من السيارات الصغيرة والشاحنات الضخمة التي تجر احيانا المقطورات ، بكل ما ينتج عن حركتها من غبار ودخان ، دون ان تترك ايا منها ترابا او دخانا تسرب الى حلقه وبقى طعمه الماسخ في فمه ، مثل هذه المرة ، وتكون سببا في مثل هذه النوبة الحادة المؤلمة من السعال .

نعم ، لعل السبب ، في دخول التراب الى فمه ، انه لم يأخذ حذره ، وابقى فمه مفتوحا ، فقد كان مازال مندهشا لما حدث ، لانه توقع ان تكون الامور قد تغيرت ، ورأي ابنته ايضا قد تغير بسبب هذه الوساطة التي يقوم بها نائب الوالي ، وان هاتين الهديتين ، جعلا بصرها وبصر امها يزيغان ، وتخضع

المرأتان للاغراء والطمع ، حمدا لله ان هذا لم يحدث ، وهو راض بما حدث ، وراض عن نفسه لانه استطاع ان يصمد في مواجهة هذه الموجة الكاسحة، العاتية التي حركها ضده السردوك ، بدءا من الحملة البوليسة التي استنفرها بشكل غير مسبوق في المنطقة ، ثم تحريكه لنائب الوالي ، واحضاره الى هذه الوكالة للوساطة ، ثم تدبيره لهذه الاموال الطائلة التي اشترى بها حصانا من اجمل انواع الخيول ، وسيارة لا تملكها الا الحكومات . وقف في وجه الاغراء ، كما ايضا في وجه التهديد الصريح ، الذي بدا واضحا ان السردوك ارجأه الى يقوم باستنفاذ كل الوسائل السلمية ، وهو سعيد لان ابنته اظهرت هذه الشخصية القوية ، وهذاالمعدن الاصيل الذي افلح في ان يغرسه فيها ، معدن ان يحترم الفرد نفسه ، والا يفرط في جوهره الانساني ، الا يخضع لاي اغراء يجعله يخسر نفسه مهما كان المكسب الذي سيكسبه ، لانه لا وجود لاي ارباح وخسائر ، فالامر لن تكون الا خسارة وخسارة ، وهو سوق اذا دخله الانسان فلا مجال فيه للربح ابدا . ولهذا فهو

يعد نفسه كاسبا ، وهو كسب لابنته وكسب لاسرته ، مهما كانت خطورة ما ستأتي به الايام .

يطمننه قليلا ، ان كل شيء تم امام شاهد ، هو اكبر شخصية حكومية في المنطقة ، فلا مجال لاي لبس فيما حصل ، ولا فرصة امام السردوك للتزييف او الادعاء بشيء لم يحدث ، واي انتقام ينوي القيام به ، او مؤامرة ينوي تدبيرها ، فانها ستكون الان واضحة ومكشوفة امام نائب الوالي ، معروفة لديه اسبابها ودوافعها.

طبعا ، لابد لرجل يحمل اسم "طائرالشر" ويتباهى به ،ان يكون على خبرة ودراية ، باساليب رسم الخطط التي يتحايل بها على شهادة الوالي ، والالتفاف حولها ، ومحاولة النفاذ منها الى تحقيق انتقامه ، ولكن ليس بالكيفية التي يمكن ان يقوم بها في غياب هذه الوساطة التي قام بها نائب الوالي ، لان الامر سيكون اكثر مشقة وصعوبة ، وقد تعزز هذا الحضور لنائب الوالي ، بحضور آخر يراه لا يقل اهمية في مؤازرته وتأييده ودفع الاذى عنه ، هو حضور اوسادن ، لقد كان هو ايضا موجودا ، ويقوم باداء مهمة معاكسة لمهمة

نائب الوالي، وبالانابة عن الطرف الثاني في المعادلة ، انجيليكا ، وهما الاثنان بهذه الصفة يشكلان بالنسبة له سياجا ، يساعد على الاحتماء من طائر الشر ، وتدابيره ومؤامراته .

اكتشف انه رغم الوليمة التي اولمها للضيفين ، ولذة الطعام الذي نال اعجابهما ، لم يكن يجد شهية للاكل ، وتظاهر مجرد تظاهر بمشاركتهما الطعام ، ويجد نفسه الان في حالة جوع ، وقد تفتحت شهيته واشتدت رغبته للاكل ، فقرر ان تستمر الوليمة ليلا ، وان يكون ضيفيه على العشاء اوسادن وزوجته ، خاصة وان هناك لحما متبقيا من الجدي المذبوح ، لابد ان يشوى ويؤكل اليوم طازجا ، ولا حاجة لتجفيفه وتحويله الى قديد ، وهي وليمة تتوافق مع الوعكة التي تعرضت لها تانيرت ، ومنعتها بلاشك من اعداد الطعام لنفسها ولزوجها ، وارسل من فوره يبلغ اوسادن بالدعوة ، واتجه الى الحانوت يبلغ زوجته كي تقوم بالتحضير للعشاء بمعاونة ابنتها ، لكي يتفرغ علي للقهوة التي ستزحم بالزبائن فور عودة اهل النجع من الشعاب.

وسيكون عشاء الليلة فرصة لان يضع اوسادن في الصورة ، لقد عرف جزءا منها ، وقام بدور صغير فيها ، ولكن ليس على علم بكل التفاصيل التي يجب الا تغيب عنه ، لكي يهيئه فيما بعد لدور اكبر في شن اي عدوان يشنه طانر الشر ، فالسردوك رجل لا أمان له ، ولا احد يمكن ان يتنبأ من اين ستأتي الضربة التي يوجهها اليه ، وعليه ان يكون على حذر.

عندما جاء شيوخ النجع ، اعطاهم فكرة عن الزيارة السريعة التي قام بها البريجادير هيوز الى الوكالة ، وما بلغه به من شكر الملك لرعاياه بسبب الاحتفال بعيد العرش ، وافهمهم ايضا انه جاء يصحب السردوك متوسطا له في طلب يد ابنته ، الا انه احال الموضوع الى صاحبة الشأن ، التي رفضت الخطبة ولم تقبل الوساطة .

وظنوا جميعا في البداية ان السردوك يطلب ابنة باتايوتي لابنه البكر الذي وصل سن النضج والزواج ، ولكنهم فوجئوا ان الرجل المتقدم في السن يريدها لنفسه ، فاستنكروا طلبه،

واعطوا الحق لابنة بانايوتي فيما ابدته من رفض ، متفهمين موقف بانايوتي عندما ترك الامر لابنته ، لانه في حالة تقاليدهم البدوية ، يبادر الاب بالرفض دون حاجة في مثل هذه الحالة الواضحة لعرض الامر على بقية الاسرة ، والامر الذي كان موضوع استغرابهم ، هو وساطة نائب الوالي في مثل هذه الزيجة غير المتكافئة ، التي يرفضها اي صاحب عقل سليم ، اذ كيف يرضى ان يسوقه رجل حاد عن طريق الصواب الى السير في هذا النهج الخاطيء ، لقد كان اولى به ، ان يعيد الى الرجل عقله الغائب ، ويثنيه عن السعي في هذا المقصد الخائب ، ثم انه رجل اعزب ، مازال في مقتبل العمر ، فمن باب اولى ، واكثر منطقا ان يأتي ليخطب انجيليكا لنفسه ، عندها سيكون بانايوتي محقا اذا رحب به ، ونصح ابنته ان تعدل عن موقفها الرافض للزواج ، وتقبل بحاكم المنطقة زوجا لها ، وتشرط عليه اسرتها المهر الذي تريد ، ومقدم الصداق اللائق به وبها ، ومؤخره الذي يضمن مستقبل ابنتهم اذا حدث خطأ او طلاق ، سيكون رجلا كبير المقام مثله ، قادرا بالتأكيد على الاستجابة لهذه الشروط . ولم يقل لهم بانايوتي شيئا عن

سوابق الموضوع ، ولا عن توابعه التي يتوقعها ، لانه لم يكن يريد ان يسبب قلقا لاحد منهم ، داعيا الله ان ينتهي الامر عند هذا الحد ، واذا لم ينته ، واحتاج لاهل الوكلة يصطفون معه في مواجهة اي طارىء فان لكل حادث حديث .

وكعادته عندما تكون له انشغالات عائلية ، استأذن من شيوخ النجع عائدا الى بيته ، حيث التأم شمل عائلته مع ضيفيهم اوسادن وزوجته حول مائدة العشاء، وقد تعافت تانيرت تماما من وعكتها وتناولت بشهية طيبة عشاءها واسهبت اثناء العشاء وبعده ، في الحديث عن زوجها وكيف انتزع اهتمامها به منذ بضع سنوات قبل ان تقرر الهروب معه ، اذ انه كان محور احاديث القبيلة كفارس بارع في القتال ،رات تانيرت في سلوكه تجسيدا وتمثيلا حقيقيا لسلوك الفرسان ، اذ هو يعفو احيانا عن خصم تعمد ان يؤذيه ، ساعة ان يكون تحت سيطرته، ودائم الفوز بالمكان الاول في المباريات التي يجريها شباب القبيلة كنوع من التدريب مثل المبارزة بالسيف واستخدام الرمح وسباق الهجن ، الامر الذي اكسبه محبة واعجاب نساء ورجال القبيلة ، لا ينافسهم في

محبتهم له ، الا الاطفال الذين يهرعون للتحلق حوله عندما يكون عائدا من سفر ، لانهم يجدونه وقد جلب لهم الهدايا على استعداد دائم للعب معهم ، زد على ذلك ان له صفة عرف بها في الصحراء ، هي قدرته على انشاء علاقة مع الغزلان والظباء ، فهي لا تجفل منه ، وتبقى تاكل العشب من يديه ، كما تفعل الطير التى لا تفر بعيدا عندما يقترب منها ، بل تقبل عليه وتحط على كتفيه وتلتقط الحبوب وفتات الخبز من كفيه ، الى حد ان بعض الناس اعتبروه ساحرا ، بينما تعرف هي ان الامر لا يعود لاي تعاويذ والعاب سحرية وانما الى ما في شخصيته من نبل وشجاعة ، وقد حافظ على عهده مع الوعول والظباء والغزلان والطيور ، فلا يذهب لاصطيادها و لا يشارك في اكل لحمها ، وعندما تقدم اوسادن يطلب يدها متوافقا مع رجل اخر هو يوبا ، رفض والدها اوسادن لانه لا ينتمي لسلالة ملكية مثل يوبا الذي نال موافقة والدها ، وكانت هي تعرف ان لا فائدة من محاولة اقناع اهلها باختيارها لاوسادن بدلا من يوبا ، فلم يكن امامها الا الهروب معه ، وقد عرضت عليه الفكرة فحذرها من مشقة المشوار ووعورة الطريق ، فالمطر

كان يهطل بغزارة عندما قررا الهروب ، فاصرت على رايها ، واستطاع اوسادن ان يعبر مسافات من البيد تغرقها المياه وتتحول فيها الرمال الى ارض موحلة تسوخ فيها خفاف الابل ، الا ان خبرته بالارض وعلاقته الحميمة بالمهري مكنته من ان يقطع تلك المسافات ليلا ، واستطاع عندما شعشع نور الفجر ان يبتعد مسافة كبيرة عن النجع ، لا يستطيع قطعها فرسان القبيلة بنفس السرعة ، وهم الذين لم يكن بامكانهم معرفة هذا الهروب الا في ضحى اليوم التالي ، وكان الله كريما معهما عندما وضع امامهما ، بعد مسافة من المشي زادت عن ثلاثة ايام ، البائع المتجول شلومو ، يقضى قيلولته تحت شجرة اثل ، فانضما اليه وشاركاه وجبة الغذاء ، واشار عليهما عندما عرف قصة هروبهما ، بوكالة باناليوتي ، " التي نستطيع الاحتماء بها ، ووجود عمل نكسب منه رزقا "

كان حديث تانيرت بهذه الفصاحة وهذه اللهجة المحبة الصادقة ، مثاراعجاب افراد العائلة اليونانية ، رأوا فيه دليلا ساطعا على حقيقة ما يقال عن قوة وحيوية المرأة الطارقية ودورها القيادي الذي تتميز به على الرجل في مجتمعات

الجنس الازرق ، الى حد ان الرجل في تلك المجتمعات ينسب لامه بدل ابيه ، وكانت انجيليكا اكثر افراد العائلة تجاوبا وانفعالا مع ما تقوله تانيرت ، بينما بقي اوسادن صامتا ، مشغولا بتناول الطعام من تحت لثامه وعيناه تبرقان حبا واعجابا بزوجته ، وهو يتابع حديثها عنه ، وارادت تانيرت ان تحفزه على الكلام فقالت بشيء من الفضول الممزوج بالاندهاش :

ـ هل حقا تعرف لغة الطير وتستطيع ان تخاطب الغزلان كما يقلول عنك اطفال العشيرة؟

فاجابها وهم ينتقلون من طاولة الطعام الصغيرة داخل المطبخ ، الى الجلوس في الصالون يشربون شاي النعناع الذي اعدته الام :

ـ هذا كلام جدير بان يكون مصدره الاطفال ، لانه يتفق مع عالم البراءة والدهشة ، وحقيقته ان الامر لا يتصل بمعرفة اللغة بقدر ما هو حاسة تنمو مع الانسان منذ طفولته ، وربما تكون جبلة فيه وحاسة مولودة معه ، بالقدرة على التواصل مع كائنات الارض الاخرى من غير البشر . وبطريقة ما فان

هذه الكائنات ، بدورها تشعر بهذه الحاسة لديه فتتجاوب معها ، وتستجيب لما يريده منها ، بمثل ما يكون هو على استعداد لما تطلبه منه ، وفي حالتي بدأ هذا التجاوب بالطيور اثناء فترة الطفولة ، وعندما كبرت وصرت اجوب البراري ، نمت علاقة خاصة بيني وبين الغزلان .

وتدخلت انجيليكا قائلة :

ـ الغزلان كائنات جميلة ، لا ادري كيف يجرؤ الناس على اقتناصها ووقتلها واكلها.

ـ فعلا ، كان بدء العلاقة رحلة صيد لاقتناص الغزلان ، ولكنني فجأة وجدت ان قطيع الغزلان الذي عثرنا عليه وتهيأنا لاصطياده يقبل نحوي ، ورايت غزالة من بين غزالاته تتجه نحوي وكأنها تريد احتضاني ، كانت تلك الغزالة كائنا جميلا يختلط في جلدها اللون الذهبي مع اللون الابيض كانها ترتدي وشاحا ، فراودني احساس بالاثم لانني كنت ساقتل مثل هذا المخلوق البريء البالغ الجمال . لم اكتف ذلك اليوم بالامتناع عن صيد الغزلان ، بل منعت كل من كانوا معي بالقيام بالمهمة التي جئنا من اجلها . ومنذ ذلك اليوم توثقت علاقتي بعالم

الغزلان وصرت صديقا لها لا يشارك في اي عمل يسبب لها الاذى .

واضاف وهو يخص زوجته بنظرة حب:

ـ ربما بسبب هذه العلاقة التي جمعت بيني وبين الطيور والغزلان ،احببت تانيرت ، لان فيها شيئا ينتمي للطيور في انطلاقها وتحليقها ونعومة ورشاقة وحرية الحركة لديها ، وبهاء وبراءة هذه الكائنات التي تعاشر السماء ، وكذلك فان لعينيها شبها عظيما بعيون غزلان الصحراء .

ثم قالت تانيرت وهي ترسل ضحكة ذات جرس لذيذ ، تخاطب انجيليكا وتطلب منها ان تسأل اوسادن بان يغني لها قصيدة الغزل التي صاغ فيها بعض الكلام الذي يقوله الان شعرا وانشده لها في اول موعد غرامي بينهما .

فانضم الاب والام الى انجيليكا يدعوانه الى القاء قصيدته ، بينما بادر هو فانكر ان يكون شاعرا ، الا انه عندما اشرق قلبه بحب تانيرت وجد نفسه ودون قصد وتصميم ، يقول عددا من القصائد ، بدءا بهذه القصيدة التي قال انه صاغها بلغة الطوارق ، وغناها على وزن الالحان الصحراوية الطارقية

واستأذن في ان يقولها اولا بلغتها الاصلية ثم يترجمها لهم ، وفاجاتهم تانيرت بان اخرجت من جراب كان معها الة امزاد ، وبدأت تعزف على ذلك الوتر الوحيد ذي الصوت الشجي ، عزفا يتوافق وينسجم مع الشكل الذي يؤدي به اوسادن كلماته ، ووقع اللحن في آذانهم مشابها للغناء الذي يقوله الجمالون وهم يسوقن ابلهم في الصحراء او يوردونها على الماء ، المسمى الحداء ، وعندما انتهى صفقوا بحماس معبرين عن افتتانهم بغنائه دون معرفتهم بالكلمات التي سرعان ما نقل لهم ترجمة لمعانيها على النحو التالي :

هناك تحت ظل طويل يصنعه كثيب الرمل الذهبي
ساعة الاصيل
جلست انتظر ان يحين موعد لقاني بك
رايت طائر هدهد يزهو بالوانه
وتاج الجمال فوق رأسه
يسبح في الفضاء الازرق فوق راسي
فتفاءلت بطائر الهدهد ذاك
لان جماله ذكرني بجمالك

وجناحاه يخفقان

تماما مثل خفقان قلبي بحبك

وبعيدا فوق الكثيب المقابل

انطلقت غزالة تركض برشاقة وكبرياء

فرأيت في عينيها شيئا من سحر عينيك

ورايت انها استعارت رشاقة ركضها منك

فمتى يهل طيفك الجميل

وأرى ذهب الرمل من حولي

يرقص ترحيبا بالكائن الذهبي الذي يحبه قلبي

21

جلس الرائد السردوك يقود السيارة بجوار البريجاد هيوز، غارقين في صمت استمر لعدة دقائق، كانت السيارة قد غادرت خلالها وكالة باتايوتي ، وعبرت الشعبة التي تشكل مدخلا لجنائن العرعار، وصولا الى الطريق

الرئيسي الذي يقود الى مزده ، دون ان يجرؤ اي منهما على اختراقه ، تاثرا وانفعالا عقب تلك الصدمة التي لم يكونا يتوقعانها ، الرفض الذي ارسلته اليهما انجيليكا مما يعني ضربة قاضية اطاحت بكل مخططاتهما .

مرق امامهما غراب يطير على انخفاض ، كاد يصطدم بزجاج السيارة ، فحرك بشكله الاسود رغبة السردوك للكلام ، وهو يتطير من شكله :

ـ رأيت غرابا مثله في الصباح ، قبل وصولنا الى الوكالة ، فاثار في نفسي احساسا بالتشاؤم، وجعلني متطيرا اتعوذ بالله من بؤس هذا النهار.

فرد عليه البريجادير هيوز ، بشيء من المواساة ، بحكم انه يعرف حجم الصدمة بالنسبة لزميله ، التي كانت اكثر قوة مما حدث له ، فهو صاحب الجزء العاجل من الخطة ، التي جاء مستعدا لتنفيذها فوجد الطريق مسدودا ، بينما هو صاحب الجزء المؤجل من الخطة ، الذي قد يكون قابلا للمراجعة واعادة النظر .

ـ ليس هذا هو نهاية الطريق .

ـ وهل هناك حقا طريق ؟ انه طريق مسدود منذ البداية ، ورفض اليوم لم يكن جديدا فقد سمعته من قبل .

ـ وقد تسمعه مرة ثالثة ورابعة وخامسة ، دون ان يكون سببا لليأس، وما اهمية العقل اذن ان لم يكن لاختراع السبل وجلب الحلول للمواقف الصعبة والحالات المستعصية مثل هذه الحالة. فلنعط الموضوع وقتا ، ولنعمل فيه تفكيرا وتدبيرا ، وحيث هناك ارادة ، فهناك دائما طريق، كما يقول المثل الانجليزي .

ـ لا ادري ان كانت امثال الانجليز ، تنفع ايها البريجادير في مثل هذه الصحراء .

ـ لا تنس ان الرجل وابنته والعائلة التي تتعامل معها ذات اصول اوروبية ، ولن نجد مفاتيح لشخصياتهم هنا ، وانما في تراث الضفة الاخرى للبحر.

ـ الا ترى فيما حدث اهانة لك ولي .

ـ ليس بالضرورة اهانه ، ولكنه سلوك يخلو من فضيلتي الذوق والمجاملة .

ـ ربما لانه امر يخصني، اجد فيه اهانة شخصية ، تستحق ان انتقم لها .

ـ ممن تريد ان تنتقم ؟
ـ وهل هناك غيره ؟ باتايوتي .
ـ ولكنك رايت كيف جاء الرجل مرحبا ، مبديا استعداده للتفاهم ، وقام بما لابد ان يقوم به اي اب في مثل هذا الموقف ، بان احال الامر الى ابنته المعنية بالامر.
ـ وهل تصدق ايها البريجادير هيوز ، ان هناك ابنة معنية بالامر وحدها ، انه مجرد توزيع ادوار ، واسلوب للتخلص من الحرج بشيء من الحيلة والخداع.
ـ ارى ان هناك فيما تقوله تصارع قيم وتقاليد بين المفاهيم البدوية ، والمفاهيم الاجنبية ، لان ما تقوله عن الحيلة يصلح في حالة ما اذا كان باتايوتي بدويا من ليبيا ، ويخضع اولاده وبناته لسيطرته ، ويأتمرون بامره ، لكنه رجل اجنبي ، واب مسيحي يوناني ، ليس في ثقافته، ولا في ديانته ، ان يفرض زوجا على ابنته .
ـ انه يلعب بالتقاليد كما يريد، فحين يناسبه ان يكون بدويا ، يستطيع ان يكون ، واذا اراد ان يقلب السترة ويرتديها على الوجه الاخر، يفعل ذلك ويظهر بمظهر جديد له لون اوروبي ،

كانه ارتدى بذلة غير الاولى ، بينما هي نفس البذلة ونفس السترة.

ـ ارجوك ان تتمهل قبل التفكير في اية حماقة تندم عليها .

ـ ليكن هو اجنبيا او غير اجنبي ، من شمال البحر او من جنوبه ، فانا اعرف نفسي ، رجل بدوي ، لا يقبل ان يداس له طرف ، ولا ان تخدشه ذرة اهانة ، وساعتبر الموضوع معركة شخصية بيني وبينه ، وانا شاكر لما قمت به من معاونة لي حتى الان ، ولن احرجك بان تقف معي في اية معركة اخوضها ثأرا لكرامتي .

ـ مازلت انصح بالتريث وعدم الاستعجال والتفكير في حلول اجدى من الانتقام .

رأى صاحبه صامتا فأضاف :

ـ انها تقول كلاما يستحق التفكير ، وتعتذر عن عدم الرغبة في الزواج بسبب ما عانته من خيبة في زواجها الاول، فلماذا لا نصدق انها حقا مازالت تعاني غصصا من ذلك الزواج وتحتاج الى وقت حتى تتعافى من هذه الغصص وتنساها ،

لتكون مهيأة بعد فترة من الزمان للتفكير في الزواج من جديد .

ـ انها في نظري مجرد اعذار .

ـ اعطها وقتا لتختبر ان كانت اعذارا حقيقية او زائفة ، اليس هذا ما يقتضيه العقل ؟

ـ اتبعنا طريق العقل طويلا ، وحان ان نجرب شيئا من الجنون.

اعتبرها باتايوتي دعابة ضحك لها ، وانتظر حتى مرت شاحنة في طريقها الى الوكالة ، فقال بعد ان اختفى زنير محركها:

ـ اعود فاقول لا تفقد عقلك وانت تتعامل مع هذا الموضوع ، ثم لا تفقد صداقتك لباتايوتي ، لان هذا هو طريقك لاستعادة الامل في الزواج من ابنته.

ـ ما يحز في نفسي هو ما قمت به من تضحيات ، فقد بعت كل ما املك من ابل ، وفارقت زوجتي وتنازلت لها عن حق رعاية اولادي ، لكي اتفرغ للعروس الجديدة، وها انا عود بلا امل في العروس ، وارجع الى بيت جديد بلا عائلة ولا زوجة ولا اولاد ، ولا يستقبلني فيه الا الصمت والفراغ.

ـ لن يضيرك ان تجرب حياة العزوبية والتحرر من قيود الزوجية واعباء الاولاد لبعض الوقت، كنوع من الاجازة ، وها انت تراني اعيش مثل هذه الحياة وانا في هذا العمر ، دون ان اعرف زوجة ولا اولاد ، وتجدني امامك لم افقد حاسة من حواسي ، واحتفظ بكامل قواي العقلية ، فلا تأسف لشيء يمكن ان تحيله الى مصدر راحة وهناء ، واموالك لا زالت معك ، فانت تستطيع ان تجد ثمنا مناسبا للسيارة والجواد يوازي ما دفعته فيهما .

عاد السردوك الى صمته

وادار نائب الوالي دفة الحديث الى مواضيع اخرى تتصل بعملهما المشترك في شئون المنطقة، استغرق منهما كل ما تبقى من وقت الرحلة وصولا الى محطتهما النهائية .

وفي مزده كان على السردوك ان يتآلف مع روتينه الجديد في حياته خارج المكتب ، فهو الان يسكن بيتا بلا عائلة ولا زوجة ولا اطفال ، ولم يكن ممكنا ان يتراجع عما انتهت اليه الامور من طلاق لزوجته وتخليه عن رعاية الاولاد القاصرين لها مقابل ما يقدمه لها من نفقة، وكل ما استطاع ان

يقوم به من ترتيب هو ان اختا له متقدمة في العمر ، لها بيت وعائلة ، اقتطعت من وقتها وقتا لا يزيد عن ساعة صباح كل يوم ، تأتي لرعاية البيت واعداد وجبة له ، يجدها في انتظاره جاهزة عندما ياتي ظهرا لا تحتاج الا لتسخينها ، وتحضر معها مرة كل اسبوع امراة تعينها على غسل الملابس والاواني وتنظيف ارضية البيت مقابل اجر ، وكان شريكه في صفقة الزواج الذي لم يتحقق من انجيليكا ، الفونسو ، مازال يباشر الاشراف على تجهيز وكالة الحلفاء ، يهيء بالتعاون مع الشركة الرئيسية ما تحتاجه الوكالة من ابنية ومرافق استعدادا لافتتاحها في غضون بضعة اشهر ، وكان في اثناء هذه الفترة التحضيرية يسافر الى طرابلس ويمر في طريقه بمزده ، فيستضيفه السردوك ، لقضاء وقت معه ، يستغله في الحديث حول موضوع الاتفاق بينهما ومدى امكانية ان يساعده الفونسو في وضع خطة للمرحلة القادمة .

اعطاه في آخر مرة جاء اليه ، فكرة عن الرحلة التي قام بها الى الوكالة ، وفشل نائب الوالي ، الذي اصطحبه الى هناك، في الوساطة التي قام بها من اجله ، ونقل له ما احس به من

صدمة وهو يتلقى هذه الاجابة بالرفض ، مع انه قدم لها مهرا لم يسبق لرجل في مناطق القبلة ان قدمه لامراة ، وكان نائب الوالي هو من حرضه على ان يكون المهر بهذه الفخامة ، بل جعل فخامة المهر وقيمته العالية شرطا لدخوله في الوساطة ، ومع ذلك عاد الاثنان خائبين ، وهو يسأله باعتباره شريكه في الخطة ان ينصحه كيف يواجه الموقف ، باعتباره ايضا الزوج السابق للمرأة الذي خبر سلوكها وعرف اسلوب تفكيرها ، ليدله على افضل السبل للحصول على موافقتها .

واجه الفونسو الموقف بشيء من الحذر والتحفظ والخوف من ان يكون للسردوك نية الرجوع عما وعده به ، واعطاه له ، قائلا بانه اوفى بكل التزاماته نحوه ، واكمل ما يخصه من الصفقة ، وما تبقى فانه لم يعد مسئوليته ، وافهمه السردوك ان ما وصل الى ملكه متمثلا في عقد الوكالة والثمن الذي تم دفعه في الحصول على العقد ، صار حلالا بلالا له ، لا ينازعه احد في ملكيته ، ولا يقدر احد على انتزاعه منه ، وما فاتحه الان في الموضوع الا باعتباره صديقا ،يطلب المشورة من صديقه ، ويريده ان يخبره بصدق

وامانة وصراحة ، عما يراه من فرص في المستقبل ان تعود انجيليكا عن رفضها له ، وقبولها به زوجا ، وما هو هذا الشيء الذي يمكن ان يدفع بها للعدول عن موقفها الرافض منه ، فافهمه الفونسو ، ان انجيليكا امراة عنيده، وانه لو طلب من ابيها ان يرغمها على الزواج فلن يستطيع ، لانها تربت مستقلة الرأي ، قوية الشخصية ، ولن ينفع معها اي ضغط ، تمارسه العائلة. وبشيء من الاسى سأله السردوك ان كان ذلك يعني ان يستسلم لمصيره ويفقد اي امل في الفوز بها زوجة له ، وعندما سكت الفونسو ، ولم يرد ، اعتبر السردوك ان سكوته هذا ردا يقصد بانه فعلا لا امل له ، فانتابته نوبة من الهياج والغضب ، ونهض من جلسته في صالون بيته ، وصار يتحرك بخطوات متشنجة ، عصبية ، جنة وذهابا ، ويضرب الحائط بقبضة يده ، قائلا بانه لن يستسلم لمثل هذا المصير ، فهو نوع من البشر لا يقبل بكلمة لا اجابة على ما يطلبه ،وسيجد طريقة للفوز بها ، ان لم يكن بالرضا فبغيره ، عارضا بعض الخطط الانتقامية ، التي يريد من الفونسو ان يعطيه رايه عن اكثرها قابلية للنجاح ، قائلا ان هذا المهر

الثمين الذي عرضه عليها ، يستطيع ان يشتري به فتى ضانعا في عمر انجيليكا ، كانت قد قبضت عليه شرطة الاداب يعمل قوادا، قضى مدة حكمه في السجن وخرج ، يعمل في المدينة وله اصول بدوية في هذه المنطقة ، يجيد الحيل التي يخدع بها الفتيات ، سيأتي به ليمارس خبرته في الايقاع بانجيليكا وسيجعله في هذه المرة يتزوجها ، لا ليكون زوجا حقيقيا لها ، ولكنه زوج رمزي صوري ، لانه سيترك فراشها له ، ولن تستطيع في هذه الحالة الا ان تستجيب له لا كزوجة ولكن كمومس، ، يتاجر بها زوجها . الخطة الثانية ، ستأتي ايضا بنفس النتيجة " فقد سعى والدها لتزيجها بك ، هروبا من فضيحتها مع اخيها ، دعنا نتكلم بصراحة ، واستطيع انا ايضا ان اجعل والدها يسعها لتزويجها لي ، عندما العب بشاب بلطجي من مدمني الدخول في السجن ، اطلق سراحه ، واعطيه حريته ، مقابل ان يتربص بها ويقوم باغتصابها ولا يتركها ، الا وهي عارية مفضوحة ، ممتهنة ، منتهكة العرض والشرف، امام كل اهل الوكالة، فهل يستطيع والدها بعد ذلك الا ان يأتي راكعا طالبا ان اتزوجها تغطية لفضيحته ، عندئذ

ساتزوجها وساعاملها باعتبارها جارية لا زوجة لانها ارادت المهانة لنفسها ، الفظها بعد ان اطفيء بها نار الشهوة "

وعاد للجلوس قائلا لصاحبه ان هذا ما جاءه عفو الخاطر ، ولكنه سيفكر في مزيد من مثل هذه الخطط الانتقامية " لانها طالما رفضتني وانا اتقدم لها بامانة وشرف ، وباكثر الاساليب لطفا ، فلتجرب اذن رؤية الوجه الثاني عندما اتقدم للفوز بها ارغاما وغصبا ، وباكثر الاساليب مهانة ومذلة لها ولاسرتها ، فما رأيك؟"

كان قد واجه بالصمت السؤال الاول عن كيفية ان تعدل انجيليكا عن رفضها ، لا عن عجز في وجود الاجابة ، ولكن عن رغبة في الا يكون شريكا في ايذاء العائلة التي صاهرها بالمعروف ، وانهى المصاهرة بالمعروف ، لان لديه ردا ، هو الذي صار مرغما الان على الافصاح عنه ، بعد ان ادرك ان للسردوك بدائل اكثر سوءا وضررا ، فعاد الى الكلام قائلا للسردوك بان ما قاله عن معرفته بطبيعة زوجته السابقة واسلوب تفكيرها قول صحيح ، ومن واقع هذه الخبرة ، يستطيع ان يقول بانها مرتبطة ارتباطا وثيقا بوالديها ،

ومستعدة لان تفديهما بحياتها ، وقد يكون حبها القوي لهما ، سبيلا يستخدمه السردوك للنفاذ اليها والحصول على ما يريده منها . هنا برقت عينا السردوك ، وظهرت علامات الاهتمام على وجهه. انتصبت اذناه ، وركز بصره في وجه صاحبه ، وقد بقي متجمدا في مكانه ينصت بكل جوارحه لما سيقوله الفونسو من شرح للخطة

التي يقترحها ، وملخصها ان يسعى السردوك لوضع والدها باتايوتي في محنة وكرب ، وانه لا سبيل لخروجه من هذه المحنة القاسية التي ستنعكس اثارها بالضرورة على زوجته قلقا وحزنا ، الا بان تتقدم ابنته لعونه ومساعدته وانقاذه من ورطته ، بالموافقة على زواجها من السردوك ، عندها لن تتردد انجيليكا اطلاقا، اذا عرفت حقا ان هذا الزواج وحده ما سوف يضمن الخلاص لوالدها من محنته ،بالقبول به زوجا.

لم يكن لدى الفونسو خطة واضحة

عن ما هي هذه المحنة وكيف يمكن صناعتها ، بل هو لم يكن يريد اساسا تقديم مثل هذا الاقتراح المؤذي لصهره السابق اونكل باتايوتي كما يحب ان يسميه ، الا بعد ان رأى الخطط

الجهنمية الاخرى التي يذخرها السردوك له، حيث ان خطته ربما تكو اقل ايذاء ، وتقدم بديلا اقل ضررا من تلك الخطط ، وهو لن يتطوع بالبحث عن وسيلة لتنفيذ هذه الخطة ، فهي مهمة السردوك ، اذا وجد لذلك سبيلا ، وهو يتمنى صادقا الا يجد اي سبيل لوضع باتايوتي في مثل هذه الورطة او المحنة ، بل لا يراه حقا قادرا على فعل ذلك حتى لو اراد ، فالسردوك يستطيع بما يمارسه من انحراف وفساد ان يكسب مالا يقدمه مهرا ، ويستطيع ان يسعى لتزوير رخصة مثل رخصة الوكالة ، لكنه لا يتصور انه يبلغ من القوة والسلطان حدا يجعله يدبر بلوى يرمى بها في طريق باتايوتي ، وينجو من العقاب ، بل ويخرج من هذه المؤامرة ، كاسبا ، قابضا على يد انجيليكا كعروس له . انه برغم الاقتراح الذي ابداه ، فانه واثق من ان السردوك لن ينجح في تنفيذه ، ولعله يستطيع ، خدمة لصهره السابق ، ان يعطيه فكرة عما يحاول السردوك تدبيره له في الظلام ليأخذ حذره منه . انه لن يقف صامتا ازاء ما سمعه من خطط انتقامية يتفنن في حبكها ، وسيقترح خططا ينفذها

باتايوتي لمواجهة مخططات السردوك ، لكي لا يأخذه على حين غفلة .

وجدت الكلمات التي قالها الفونسو، صدى في نفس السردوك ، ورآها تقدم له القاعدة التي يبني عليها خطته في الفوز بانجيليكا ، وصار محور تفكيره الان هو هذه المحنة التي يجب ان يضع فيها باتايوتي ، وكيف يستطيع رسمها وتنفيذها في اسلوب محكم يضمن لها النجاح. ليس افضل من استغلال اي جريمة قتل تحدث في المنطقة ، ليضعه بين متهميها ، يزيف له دليلا او شاهدا ، يستطيع اذا ما جاءت ابنته صاغرة ، تتوسل ان يتزوجها مقابل اطلاق سراحه ، ان يقوم بسحب شهادة الشاهد او بطلان الدليل ، فينقذه من التهمة ويعيده بريئا الى بيته ، ولكن المشكلة طبعا في جريمة القتل ، لانه قد تمضى الاعوام دون حدوثها، وعندما تحدث عبر هذه الرقعة الواسعة من ارض القبلة ، فلا ضمان لوجود باتايوتي قريبا من مسرحها ، او وجود الجريمة قريبا منه ، وهو الرجل الملتزم بالعمل الدائم في وكالته ، قد يمضى العام دون ان يغادرها ، والسردوك طبعا لن يتورط في تدبير جريمة قتل في

الوكالة او في اي مكان اخر ، قد ترتد عليه ، ولهذا فقد يسعى لتوريطه في شيء سياسي ، يسهل ادخاله فيه ، ويسهل اخراجه منه ، ويسهل المبالغة في خطورته ، كما يسهل نزع الخطورة عنه ، ولاشك ان التهمة السياسية قد تكو اكثر امانا بالنسبة لمدبرها ، الا ان الصعوبة هي ان الرجل المستهدف بالتهمة ليس مواطنا من اهل المنطقة ، وليس مواطنا من اهل البلاد ، يخضع لسلطة ضابط امن ليبي مثله ، وانما لسلطة اعلى ، هي سلطة ضابط من جيش الاحتلال ، فلا سبيل للقبض عليه وسجنه الا بامر يصدر من الوالي او من احد نوابه ، ولهذا راى ان يشرك البريجادير هيوز معه ، في وضع خطته ، وكان نائب الوالي هو الذي جاء عرضا على هذا الموضوع اثناء مروره به في مكتبه لامر يتصل بالعمل ، قال بعد ان فرغ من مناقشة الموضوع الذي جاء من اجله :

ـ لا تقل انك مازلت تفكر في الانتقام .

ـ ليس انتقاما يا سيادة البريجادير ، وانما البحث عن حل ، وفقا لنصيحتك .

ـ وهل وجدت سبيلا الى هذا الحل ؟

ـ قد لا تصدق ان الفونسو الزوج السابق لانجيليكا ، هو الذي اشار الى هذا السبيل ، باعتباره اكثر الناس خبرة بزوجته السابقة ؟

ـ ماذا قال السنيور الفونسو ؟

ـ قال انها اذا رات والدها يعاني من مشكلة ما ،وان لا سبيل الى خروجه من هذه المشكلة الا بموافقتها على الزواج ، وافقت من اجل انقاذ والدها الذي تتفانى في حبه .

ـ وهل حقا تريد ان تصنع للرجل مشكلة من الهواء ؟

ـ دعابة ، نريدها ان تكون مجرد دعابة للرجل ، نقبض عليه ونضعه يوما في السجن ، ثم نفرج عليه .

ـ وهل نفعل معه هذا ، جزاء والولائم الكثيرة التي اقامها لنا عندما كنا في ضيافته؟

ـ نستطيع ان نكرمه ، ونقدم له ولائم اكثر بذخا اثناء وجوده في الحجز .

ـ وماهي التهمة التي ستتوجه بها اليه ؟

ـ لست انا ، ولكنها الحكومة ، فهي تهمة سياسية سيخرج منها باذن الله، مثل الشعرة من العجين .

ـ وهل لديك دقيق صالح لصنع مثل هذا العجين ؟

ـ ما اكثر الدقيق ، والعجانن في مثل هذه القضايا السياسية ، الاتصال بدولة اجنبية ،او بحزب من الاحزاب المحضورة ، او التخابر لحساب هذه الدولة او هذا الحزب .

ـ تتحدث عن اتهام كهذا وكانه شيء يسير ، لا ، انت بالتأكيد لا تتكلم جادا .

ـ هذا صحيح ، لا اتكلم جادا ، وانما اتكلم مازحا ، فهي مزحة ، ودعابة نريد ان نضغط بها على صديقنا ، وليس بالضرورة ان تصل الى السلطات العليا ، مجرد اشتباه ، واعتمادا عليه نرسل سيارة الشرطة لتقبض عليه ، وتحضره الى هنا في تكتم وسرية ، لنضعه في الحجز لمدة يوم ، ثم تعيده ذات السيارة الى وكالته.

ـ الامر ليس هينا كما تريد تصويره ، ومسئوليته تقع بكاملها على شخصي ، لانني وحدي المخول اصدار امر يتصل بواحد مثله من الرعايا الاجانب ، ثم انه حتى وان بدأ الامر بالطريقة التي تقولها ، فقد لا ينتهي بالسهولة ذاتها ، لانه لا ضمان لان تأتي ابنته صارخة مستنجدة بك لتمنح نفسها لك ، ولا

تتصورها لن تذهب او يذهب واحد من اسرتها الى جمعية الجالية اليونانية ، فترفع الامر الى الوالي وتكبر المسألة ، ولهذا اقول لك منذ الان ، وقبل ان تخطو اية خطوة في تنفيذ حماقة كهذه، ان تنسى الموضوع .

وتركه ، عائدا الى مكتبه بالطابق الاعلى ، عارفا ان السردوك لن ينسى الموضوع ، وسيظل يحاول العثور على طريقة للايقاع بخصمه ، الا ان سلطانه في مثل هذا المجال محدود ، ويحتاج لاي اجراء امني يتصل بباتايوتي الى عونه ، وهو لن يقدم له هذا العون.

رأى صدفة وهو يصعد درجات السلم ، الفونسو خارجا باوراق تخصه من احد المكاتب ، فناداه ، جاء مهرولا يصافحه ، فدعاه الى الصعود معه الى مكتبه ، وهناك تبسط معه في الحديث ، وطلب له القهوة ، ثم ساله باستغراب عن حقيقة ما قاله السردوك بانه وراء هذا الاقتراح الذي يقضى باختلاق مشكلة تؤدي الى سجن باتايوتي ، لكي تأتي ابنته مستنجدة لاطلاق سراحه ، فيفرض عليها السردوك شروطه ،فقال ان اقتراحه لم يكن بمثل هذه الصيغة ، وان كان يشبهه

في المحتوى ، وهو لم يكن يريد ان يشير على الرائد السردوك بمثل هذه الاستشارة ، لولا ان رأى الرجل يفكر بوسائل وطرق عنيفة للانتقام ، يصل الى حد ارتكاب الجرائم وانتهاك الاعراض ، فرأى نفسه يقترح عليه شيئا اقل تطرفا في معالجة الموضوع الذي صار هاجسا يسيطر على عقله ، فحذره نائب الوالي من مغبة الانزلاق مع السردوك في تفكيره الاجرامي ، لا حرصا على سلامة وشرف باتايوتي فقط ، ولكن حرصا ايضا على سلامة السردوك نفسه ، الذي قد يتهور بارتكاب حماقة تحطم حياته المهنية . ورد الفونسو بان ما سمعه من الرائد السردوك من افكار اثارت الرعب في نفسه وجعلته يفكر في ان يذهب في اقرب فرصة تتاح له الى اونكل باتايوتي في وكالته ويطلب منه ان يأخذ حذره منه، ويعطيه فكرة عما يدبره له من خطط . فطمأنه البريجادير هيوز ، بانه سيكون شخصيا بالمرصاد للسردوك ولن يجعله يتمادى في هذا التفكير الذي يجلب الاذى لاي انسان سواء كان باتايوتي او غيره ، انطلاقا من حرصه على شرف الوظيفة التي يؤديها كحاكم عسكري لهذه المنطقة ، واجبه حماية المواطنين لا

الايقاع بهم وتدبير التهم المزورة وتوريطهم فيها، واية خطوة يقوم بها السردوك في هذا الاتجاه لن يكتفي بكشفها وابطالها ، وانما سيعمل على ملاحقته اداريا وقانونيا حتى يدفع ثمن انحرافه . ورجاه ان يستمر في تنفيذ فكرة الزيارة التي ينوي القيام بها الى باتايوتي ، واطلاعه على الخطط التي يحاول السردوك وضعها لايذائه ، لا بغرض تحذير باتايوتي منها، ولكن بغرض تطمينه بانه لن يستطيع تنفيذها، لان هناك مسئولا اكبر منه يقف له بالمرصاد " وابلاغه تحياتي ورجاني بضرورة ان يطلعني شخصيا على اية مضايقات يتعرض لها من قبل الرائد السردوك لاقوم بايقافه عند حده "

وهنا ابان الفونسو لنائب الوالي حقيقة ما يجهله من تفاصيل العلاقة بينه وبين الرائد السردوك ، قائلا انه تعامل مرغما معه ، وخضع مجبرا لتهديده ، فقد وازن بين التهديد بايذائه بل تصفيته جسديا اذا رفض ، ووعده بالمكافأة اذا استجاب ، واختار الحل الثاني ، لانه مع الرفض سيخسر كل شي ولن يربح شيئا ، اما مع الحل الثاني فسيسخر استقراره وحياته الزوجية وسيربح الاحتفاظ بحياته وحريته ، وسيتوفر

على عمل يحميه من البطالة ، وقد يجلب له رزقا اوسع من رزقه السابق ، ولهذا فهو يرى نفسه ضحية من ضحايا هذا الرجل ، وسواء مضى في خطة ايذاء باتايوتي واسرته او لم يمض، بسبب علم نائب الوالي بهذه الخطط وتعطيلها ، فهناك بالتأكيد اناس آخرون ، يؤذيهم وجود الرائد السردوك في هذا المنصب ، امس واليوم وغدا، وهو واحد من هؤلاء الناس ، فبأسمهم ومن اجلهم جميعا يتوسل اليه ان يعمل جهده على تخليص المنطقة من شروره ، ولن يعدم نائب الوالي وجود عنصر امني ، له من الامانة والنزاهة والشرف ، ما يؤهله لملء هذا المنصب وتعويض الفراغ الذي سيتركه غياب الرائد السردوك . بقي البريجادير هيوز صامتا ، كأنه يتأمل كلمات الفونسو ، الذ ي نهض واقفا ، ومد يده الى صاحب المكتب مصافحا ، قائلا انه لن يستغل كرمه فيأخذ وقتا اكثر مما اخذ ، وخطا نحو الباب حيث تمهل وهو يفتحه وعاد الى الكلام متوسلا نائب الوالي ان يفكر جديا فيما قاله له ، وسيشكر له الناس هذا الصنيع ، راجيا اياه الا يصل ما قاله له الى اذن الرائد السردوك لانه عندئذ لن يسلم من شره وانتقامه .

خرج الفونسو وبقى البريجادير هيوزر

مع فكرة ان يتخلص من السردوك كما اقترح الضيف الايطالي، نعم، نعم ، ماذا تراه سيحدث لو وجد السردوك بعيدا عن طريقه ، الن يكون هذا الطريق سانحا ، سالكا امامه في رحلة الفوز بانجيليكا زوجة له ، لقد سقط حقه في اولوية الاستمتاع بها ، باعتبار ما حدث من رفض له، وهو رفض لا يعنيه ، لانه جاء يتوسط في خطبتها له ، وليس خاطبا اياها لنفسه ، وهو ما يمكن ان يفعله في مشوار قادم .

ابعاد السردوك عن الطريق ، قبل ان يتحول من رجل يحفظ الامن ، الى رجل يخترق الامن ويصنع له المشاكل ، ومن مسئول يعينه على القيام بواجب ادارة هذه المنطقة التي تبلغ حجم المملكة المتحدة مرتين، الى عبء يعيق ويعرقل ادارته لها. نعم ، انه موضوع وجيه دون شك ، يجب ان يفكر فيه بروية ودون استعجال ، لان في مقدور السردوك ، اذا تسرب اليه شيء عنه ، ان يفعل اي شيء لاعاقته ، ولو فجر حربا اهلية في المنطقة ، او اثار شغبا يشعل الحرائق في مبنى الادارة ، ولهذا فان الاجراء بازاحته

يجب ان يكون اجراء اكيدا حاسما سريعا ، لا تردد فيه ، والتدابير التي تسبق استصدار قرار الوالي بلاكلي بعزله ، او نقله ، يجب ان تتم في صمت وتكتم ، وتعزيز هذه التدابير الادارية بما يمكن جمعه من البراهين والادلة على فساده وانحرافه ، بحيث لا تترك فرصة امام الوالي للتردد في استصدار القرار المطلوب .

هناك محاذير تحيط بالكشف عن فساده ، خاصة اذا ساق ادلة قديمة على هذا الفساد، واهمها انه سيلحقه اللوم لانه تأخر في الكشف عن هذا الفساد وتستر عليه كل هذا الوقت ، ومن اجل هذا فسيكتفي بعملية واحدة ، يستطيع ان يقول انه لم يعرف بها الا الان ، وهي العلاقة التي تربطه بجماعة من قطاع الطرق كان وراء انشائها ، وكان رئيسها شرطيا ترك الخدمة بعد ان عمل اعواما تحت امرته ، امده السردوك بالسلاح وقدم له الحماية ، وهويسطو على قافلة قادمة من حاسي مسعود ، خارج الحدود ،وداخل التراب الجزائري الذي يسيطر عليه الفرنسيون ، وقد عرف اخيرا ان واحدا من اعضاء تلك العصابة موجود بسجن بورتا بينيتو ،

في طرابلس ويستطيع الوصول اليه عن طريق ضابط من رفاقه هو مدير ادارة السجون ، وانتزاع اعتراف منه بضلوع السردوك في تلك العملية ، ربما مقابل وعد باستصدار عفو عنه باعتباره شاهد ملك ، وهو تدبير سيلجا اليه في حالة وجود صعوبة لاقناع الوالي بازاحته لان مثل هذا التورط في العمل الاجرامي قد يقود الى عزل السردوك ومحاكمته وهو لا يريد له مثل هذا المصير .

لم يكن من عادة المستر هيوز ان يشرب الخمر بمفرده ، وهو لا يجد احدا يشربها معه في البلدة ، الا اذا جاء زائر اجنبي اليها ، كما حدث منذ ايام مع خبير اثري انجليزي جاء مع احدى القوافل الاثرية ، استضافه لليلة في بيته وشاركه الشراب ، عدا ذلك فهو يكتفي بالشراب في المهمات التي يذهب فيها الى طرابلس ، والاقامة في فندق الجراند هوتيل ، يستقبل اصدقاءه هناك ويشاركهم الشراب مساء ، وكذلك اثناء اجازاته المتكررة الى مالطا ، او المتباعدة الى لندن ، الا انه اليوم وهو مشغول بفكرة الاستغناء عن خدمات السردوك، احس بحاجته الى كاس بعد ان قام خادمه

مرزوق ، الجنوبي الاسمر ، وزوجته حواء ، وهما يقيمان في غرفة بمنافعها في الحديقة قريبا من البوابة الرئيسية ويشرفان على تنظيف البيت وحراسته واعداد الطعام له ولضيوفه والاعتناء بالحديقة ، فاخرج من الدولاب زجاجة الويسكي التي استهلك نصفها مع الخبير الاثري ، وامر مرزوق باحضار الصودا والثلج من البراد ، وجلس يشرب وقد وضع بجواره الراديو ، واستقر بالمؤشر على محطة تذيع الموسيقى الكلاسيكية وبدا في شرب اول قدح ، وقد سرح بفكره يتأمل العلاقة التي تربطه بزميله الرائد السردوك ، ويفتش في داخل نفسه، عن كنه المشاعر التي يحملها له،هل يخامرها شيء من الود ؟ او الاعجاب بقدراته التي يملكها ؟ ومنها مهارته في التحايل ، ورسم الخطط للايقاع بخصوم الامن ، مما يجعله رغم ضعفه الاخلاقي ، ناجح في مهمته كمسئول عن الامن في هذه المنطقة ، ام هي الغيرة ، ام هي حقا الكراهية ، حتى اذا قال ان مشاعره نحو السردوك تحتوي على مزيج من هذا كله ، فهل حقا هناك كمية من الكراهية تخالط هذا المزيج ، تجعله يرغب في ايذائه وازاحته من

طريقه ؟ ام هي مجرد عمليات ربح وخسارة ، يقيسها بمقاييس حسابية باردة ، هي مقاييس المصلحة التي تعود عليه بابقائه او ابعاده ؟ ام انه استجابة لحس بالمسئولية والواجب يقضى بان يبتعد هذا الرجل عن منصبه حرصا على الصالح العام ؟

انه يعرف الفوارق في التكوين والثقافة والعوامل التراثية التي ينتمي اليها كل منهما ، والفوارق في التربية ، بل الفوارق في المبادي التي يؤمن بها كل منهما ، الا انه تعود الا يجعل هذه الفوارق عائقا يعوق التواصل والتفاعل والاندماج مع الناس في البلاد التي ساقته اليها خدمته العسكرية ، فقد خرج من بلاده منذ ان كان ضابطا صغيرا حديث التخرج في العشرين من عمره ، وامضى الان ربع قرن يعيش مع اقوام تفصل بينه وبينهم هذه المسافة الثقافية والاثنية والدينية والتربوية دون ان تعيق انشاء علاقة سوية بهم ، سواء في صحارى العراق و الاردن ، اوفي مناطق الصحراء الغربية المصرية ، او عندما جاء منذ خمسة اعوام الى ليبيا ، وبعد مرحلة اعداد بسيطة في مكتب الوالي ، استلم

منصبه في مزده ، ووجد السردوك يعمل بالانابة في هذا المنصب ، بعد ان انتقال المسئول السابق ، بناء على طلبه وخوفا من تهديدات كانت تصله من بعض العصابات ، حيث كانت الحالة تعاني من انهيارات امنية خطيرة في منطقة القبلة ، تعاونت قوات الامن الفرنسية والبريطانية ، وسلاح الحدود على الجانبين ، في معالجة الحالة ، وتم ترسيم السردوك مديرا لامن المنطقة ، مكافاة على الجهد الذي بذله في اعادة استتباب الامن في المنطقة التي يديرها، واظهر حكمة وحنكة في التعامل مع القبائل الصحراوية ، وهي التي كان زعماء العصابات يستمدون منها الحماية ، وجاء بشيوخ هذه القبائل الى عاصمة الصحراء ، مزده ، وجعل كل المعونات القادمة من الحكومة ، الى اهالي المنطقة ، تذهب عن طريق هؤلاء الشيوخ ، فضمن ولاءهم وتعاونهم وزرع بين بقايا العصابات ، عصابة انشأها بعلم الحكومة ، وقام بتسليحها ايضا بعلم الحكومة ، ويتقاضى افرادها مرتبات من خزينة الحكومة ، لتقوم بمعرفة بقايا تلك العصابات ورصد حركتها وكشف مخططاتها وفعلا كان عملها حاسما في قطع دابر الجريمة في

الصحراء ، ولعله استفاد من عمليات قامت بها تلك العصابة ، بعيدا عن مناطق عملها ، ومن وراء ظهر الحكومة ، قل ان تنتهي مهمتها ويعود افرادها للانخراط في الاجهزة السرية في عاصمة البلاد ، وربما تجربته تلك هي التي شجعته في الاونة الاخيرة ، ورغبة في الحصول على اموال كثيرة يواجه بها الموقف المستجد بعد وقوعه في غرام انجيكليكا ، الى تاسيس هذه العصابة التي تعمل لحسابه الخاص، ويختار مسرحا لها في المناطق الحدودية ، بعيدا عن منطقة القبلة التي تقع تحت مسئوليته، وفيما يبدو فقد زود العصابة بتعليماته التي تمنع العصابة من التورط في جرائم القتل والاكتفاء بالسطو ، وهذا ما حدث مع قافلة حاسي مسعود ، حيث لم تحدث خسائر في الارواح ، بل وصل خبر لاحدى نقاط الحدود يدلهم على مكان القافلة المنهوبة لكي لا يتعرض افراداها للضياع في الصحراء والموت عطشا ، فكان انقاذهم واعادتهم الى بلادهم سببا في قفل ملف تلك الحادثة ، وفي سجل انحرافات السردوك حادثة اخرى يمكن ان يدفع بها ، دون ان يكون لها تبعات يخشاها ، وهي تعود الى فترة قديمة عندما قاد حملة لتجريد بعض

النجوع من السلاح غير المرخص به ، فلم يقم بتسليمه كله الى الحكومة ، وخبأ بعضه ليقوم ببيعه عن طريق احد اعوانه خارج الحدود ، ولعله استخدم بعضا منه لتسليح هذه العصابة التي قام اخيرا بتشكيلها ، وهو يعرف ان هذه ليست معلومات جديدة بالنسبة له ، فقد عرف بها في حينها وتغاضى عنها تغليبا لما كان يدركه من سجل متميز للسردوك في توفير الامن للمنطقة راى انه يغفر بعض ما سعى اليه من تربح عن طريق الوظيفة، الا انه اذا احتاج لاستخدامه اليوم فانه يستطيع ان يدعي انها معلومة لم تصل الى علمه الا اخيرا.

احس وهو يتناول الشراب بمفرده ، لغياب النديم الذي تعود على وجوده في مثل هذه اللحظات ، بضرورة ان يقوم بعمل لتعويض هذه الغياب ، هو كتابة الرسائل ، فقد مضى زمن لم يمارس هذه الهواية ، التي صار في الاعوام الاخيرة لا يجد احدا الا عمته ساماتتا، يمارس معها هذه الهواية ، ودون تواتر وانتظام،باعتبارها اخر من تبقى من الدائرة الاولى من اقاربه ، بعد ان غادر والداه الحياة ، دون ان يتركا له اخوة واخوات ، او اعمام وعمات وخالات ، غير

هذه العمة ، التي يثق في مستواها العقلي والثقافي ، وكانت اثناء الحرب رئيسة الجمعية النسائية لرعاية الارامل ، كما كانت عضوا في المجلس المحلي للمدينة ، معنية بالشأن الثقافي ، يدخل في اختصاصها اقامة الحفلات المساندة للمجهود الحربي ،والاشراف على المكتبات وغير ذلك مما يتصل بالشأن الثقافي المحلي ، الا ان الرسائل تباعدت بينه وبينها ، بحيث يمضى احيانا شهر وشهران دون ان يكتب لها ، ومن جانبها فلم تكن تتأخر في الرد على كل رسالة يبعث بها اليها ، فقام من مكانه واحضر الورق والقلم ، وواصل جلسته على كرسي الصالون ، دون ان يرى حاجة للانتقال الى مكتبه :

عمتي سامانتا

كم مضى من الوقت لم اكتب لك ، شهر ، شهران ، ثلاثة اشهر ؟ ربما اكثر قليلا ، الا ان هذا لا يعني انني لا احملك في قلبي ، وافكر فيك ، واتطلع للكتابة اليك

والتواصل معك ، وارنو الى تلك اللحظة الجميلة ، السعيدة، التي استلم فيها ردك ، المشكلة حقا ، او السبب في هذا التأخير ، هو ان الزمن في مثل هذه البيئة الصحراوية يفقد اهميته ، او ان الانسان يفقد الاحساس به ، فلا يشعر بمرور وحداته التي تعودت المجتمعات الحضرية ان تحسبها بالدقيقة والساعة واليوم والاسبوع والشهر والسنة ، واخترعوا اجهزة لقياسه بدقة تصل الى تقسيم الدقيقة الى ستين وحدة ، وهي التي نضعها في معاصمنا ونعلقها على حوائط بيوتنا ، ونصنع لها ابراجا في الميادين الرئيسية في المدن ونسميها ساعات ، ورغم انني اضع واحدة منها في معصمي ، فهي لا تعني شيئا ، فالزمن هنا يفقد حدوده ، ويصير اشبه بماء في حالة سيولة ، وهو كالماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، وليس له شكل بابعاد مفهومة ومعروفة ، تتشابه ايامه ولياليه ، بل الطقس نفسه، بثباته وروتينه ، يضيف الى حالة الرتابة المكرورة المضجرة ، فهو ايضا لا يتغير الا

تغيرا خفيفا مع حركة الفصول صيفا وخريفا و شتاء وربيعا ، وليس مثل الطقس في كورنويل ، الذي يختلف من يوم الى آخر ، واحيانا من ساعة الى اخرى ، وهو هنا في اغلبه طقس معتدل يشتد قيظه في نهارات الصيف ، ويستده برده في ليل الشتاء ، واحيانا تتحرك مع القيظ عواصف الرمل تهب من عمق الصحراء ، ويسمونها القبلي ، نسبة الى هذه المنطقة ، التي اتشرف بمسئوليتها الادارية والعسكرية ، والتي تبعث بهذا القبلي لسائر البلاد ، بل تتفضل احيانا بارساله الى الشاطيء الاخر من البحر الابيض المتوسط ، فيتلقاه الناس في بلدان اوروبية مثل ايطاليا واليونان ، وجزر مثل مالطا وصقلية ، وهذه العواصف ، عادة ما تكون شديدة الشراسة والعنف ، الى حد يشعر الانسان معها الى انه سيموت مردوما تحتها ، ليس فقط اثناء التقائه بها في طريق صحراوي يركب السيارة ،حيث يكون الخطر عظيما كما حدث معي في عدة مرات ، ولكن حتى في البيت

عندما احس بها تهز جذور الحيطان وانها ستردم
البيت تحت ركام اتربتها ، ولا تسأليني عما يفعله بدو
الصحراء ، في خيامهم ، فلعلهم تعودوا عليها وهي
تقذف بهم وبخيامهم في التيه والفراغ . ولا يعادل هذا
الطقس في بؤسه ورتابته وشراسته احيانا ، الا رتابة
الحياة الاجتماعية وبؤسها وقسوتها احيانا ، وهي
تخلو من ادنى تسلية ، ولا تتيح أي تنوع ، اذ لا شيء
يشبه ما لدينا هناك في كورنويل من حفلات يقيمها
الناس في البيوت كاعياد الميلاد والزواج ، ولا
مراقص عامة ولا حانات ولا مطاعم ولا مسارح ولا
عروض موسيقية وغنائية ، حتى عندما يحين موعد
عيد ميلادي في الثامن من ابريل ، فانني غالبا لا اجد
احدا اتبادل معه نخبا في صحتي او اتقاسم معه كعكة
عيد ميلادي ، او يسهم معي في اطفاء الشموع ،
ولهذا اهرب دائما بهذا العيد الى خارج هذه البوادي ،
واضعه دائما ـ ما عدا استثناءات قليلة بسبب العمل ـ
في مخطط الاجازات القصيرة التي اقضيها في مالطا ،

حيث صديقي وابن دفعتي في العسكرية روجر ، الذي سبق ان اخبرتك عنه ، رئيسا لقسم التشريفات العسكرية ، بارع - ربما بحكم وظيفته - في اقامة الحفلات ، ومن خلاله وعبر اقامتي معه خلال هذه الاجازات ، اجدد صلتي بالحياة الاجتماعية على النمط الغربي ، والجزيرة كما تعليمين لا تبعد غير نصف ساعة بالطائرة عن طرابلس ، وساذكر استثناء وحيدا لبؤس الحياة الاجتماعية في نواحي القبلة ، وهو عندما خرجت للتنزه في البوادي القريبة من مقر ادارتي ، وقضيت ثلاثة ايام في وكالة للحلفاء ، اقام بعض عمالها عرسا ، استمتعت حقا باجوانه وتعرفت اثناء حضوره على الوان من الفنون البدوية من رقص وغناء وسباقات للخيول وعادات وتقاليد ، لم اكن على معرفة بها او على علم بما تحتويه من تنوع وعمق وجمال . وعلى ذكر هذا العرس فانني اريد ان اعبر لك ياعمتي العزيزة عن عميق شكري لانك لازلت تذكرين لي بعض الانسات الفاضلات اللاتي ترشحيهن من

طرفك ، ربما منذ عشرين عاما ، ثم اصبحن الان امهات بلغ اولادهن سن الدراسة الجامعية ، لانني كما سبق ان شرحت لك ، لا استطيع الزواج بهذه الطريقة ، اسافر الى كورنويل ، لاسبوعين او ثلاثة اسابيع ، واتعرف خلال هذه المدة القصيرة على احداهن ، اتزوجها واعود بها الى مقر عملي الصحراوي ، ليس في ذلك انصاف لي او لها ، لانني لن اتزوج الا عن حب ، ولن اجني على امراة انجليزية باحضارها الى هذه الصحراء ، الا اذا كان ذلك عن اقتناع منها ، راضية بالحياة معي بدافع الحب الذي يسبق أي اعتبار اخر بما في ذلك المكان الذي تعيش فيه ، ولهذا فقد لا يكون امامي امل في زواج قريب ، الا اذا انتقلت ببصري وفكري من عالم كورنويل ، الى عالم الصحراء ، ابحث فيه عن المرأة التي اقترن بها ، وهذا ما كنت سافعله منذ سنوات مضت ، لولا انعدام فرصة التعرف على مثل هذه المرأة ، فهي بيئة مغلقة ، شديدة المحافظة والتحفظ على نسائها ، وتفصل

فصلا كاملا بينهن وبين الرجال ، ولا سبيل الى ان يرى رجل مثلي وجه امرأة الا اذا كانت في مرحلة متقدمة من العمر او في سن الاطفال ، اخيرا فقط حدثت المعجزة ورأيت وجه امرأة ، تعيش في هذا الجزء من البلاد ، رغم انها اجنبية عن هذه البيئة ، تعيش هنا مع اسرة مهاجرة ذات اصول يونانية ، مسيحية الدين ، لها تجربة قصيرة سابقة في الزواج ، ومع ذلك لن اتردد في الزواج بها ، لو وجدت منها تجاوبا وحبا، الا انه امر لم يتعدى بعد مرحلة التفكير ، وسابلغك في رسالة قادمة باي تطورات تحدث فيما يخص علاقتي بانجيليكا، هذا هو اسمها ، اقول لك هذا الكلام ، لانني مقتنع مثلك ، بواجاهة الفكرة ، فكرة الزواج ، باعتبارها علاجا لحالة الوحدة والاحساس بالغربة ، والقضاء على فراغ الحياة ووحشتها في هذه البلاد ، وهذا الجزء الصحراوي البدوي منها ، الذي لا يصلح الا ان يكون منفي . المهم ان الحرب قد انتهت ، وهي التي كانت عائقا للتفكير في أي شيء خارج

محافظة العسكري مثلي على راسه بين كتفيه وجسمه في قطعة واحدة ، وحل السلام في العالم ، ورغم ما تحتاجه البشرية من جهود لازالة اثارها الا انه حق للناس ان يقولوا في اعياد الكريسماس ما لم يكونوا قادرين على قوله لمدة ست سنوات الحرب ، وهي عبارة " في القلوب المحبة وعلى الارض السلام " لانه لم يكن في القلوب غير الحقد والالم والكراهية ، ولم يكن فوق الارض غير الحرب والاقتتال .

مقر عملي في صحراء الحمادة الحمراء ، حتى وان كان اشبه بالمنفى ، فهو افضل حالا من ارض المعارك ، خلال السنوات التي سبقت مجيئ اليه ، عشت خلالها تحت احتمالات الموت بسبب قصف طائرات هتلر وقذائف مدافعه ، وانا اعمل على خطوط التماس بين الجيوش المتحاربة ، ولعل هذه البيئة الصحراوية ستكون مقرا دائما لي لانني خرجت من سنوات الحرب والمبيت في الخنادق الرطبة اتقاء

للغارات ، ببرد في العظام ، لا يصلح له الا الجو الحار .

والى رسالة قادمة تقبلي محبتي ايتها العمة العزيزة الجميلة ساماثناوانقلي تحياتي حفيدك اللذيذ اندرو وحفيدتك الجميلة ليز وامهما ماجي ، وتاكدي ان لك موقعا في قلبي لا تغادرينه ، وبتعطش وشوق سانتظر الرسالة القادمة منك . المخلص المحب

جو

انتهى من كتابة الرسالة ، فرفع هامته واستند بظهره الى مسند الكرسي ، بعد ان كان في حالة انكفاء فوق طاولة الصالون يكتب الرسالة ، وقد احس بالارتياح لانه ازاح عن صدره بعض ما يشغله من هواجس وافكار ، انتزعها من بين اضلعه ، والقى بها في صدر المرأة التي كانت حضنا دافئا يلجأ اليه عندما ان كان طفلا ، يخرج من بيت والديه غاضبا لان والده عاتبه

او نهره ، فيذهب اليها في بيتها المجاور ، ويلحق به والده ، فيجد لوما وعتابا من اخته ساماتنا ، مهددة اياه بانه استمر في معاملة جو بهذه القسوة فسوف تستبقيه لديها ولن تعيده اليه ، ثم تتجه اليه تساله وهو ابن التاسعة او العاشرة ان كان يفضل البقاء معها او مع ابيه وامه ، فيرتمي في حضنها ملتصقا بها قائلا انه لا يريد ان يغادر بيت عمته ساماتنا ، وبعد ان غادر والده الحياة وهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره ، ثم امه بعد ثلاثة اعوام من رحيل ابيه ، اصبحت العمة ساماتنا هي الام وهي الاب بالنسبة له ، ثم فقدت هي ايضا زوجها متأثرا بجراح عاد بها من الحرب العالمية الاولى ، فصار الاثنان اكثر احتياجا لبعضهما ، وقد اقام معها لعام او عامين حيث كانت ابنتها مارجريت في التاسعة من عمرها ، قبل ان يلتحق بمدرسة سانت هيرست طالبا في قسمها الداخلي حتى تخرج منها ضابطا ، وشغلت العمة ساماتنا نفسها بمهمات اجتماعية وثقافية عازفة عن

معاودة الزواج بعد رحيل زوجها متفرغة لتربية ابنتها التي تزوجت منذ اعوام عشرة اعوام وانجبت ابنا هو اندرو وابنة هي اليزابيت ، وبقيت عمته سامنتا تحيا بمفردها في البيت الواسع ، وترعى البيت الذي ورثه هيوز عن والديه ، وقامت بتأتجيره للبلدية كمقر للجمعية التي تتولى هي الاشراف عليها ، والتي ترعى شئون ارامل الحروب .

كان مهما ان يفصح لها في هذه الرسالة عن رغبته في الزواج من انجيليكا ، تلك الجوهرة المدفونة بين شعاب جنائن العرعار ، لعل الطريق صار حقا سالكا نحو الفوز بها ، بعد رفضها لعرض السردوك ، وهو رفض اغضبه للوهلة الاولي بسبب الكبرياء ، لانه الوسيط الذي وضع اسمه ومنصبه في الميزان لصالح هذه الخطبة ، متوهما ان نصيبه في الصفقة سيتضرر ايضا ،الا انه الان ، بعد مضي بضعة ايام على ما حدث ، يشعر ان هذا الرفض كان يحمل له سببا للفرح وليس الغضب ، اذ لا حرج الان من ان

يتقدم يطلب يدها لنفسه ، سواء بقي السردوك في وظيفته او لم يبق ، فلا سبب للحرج ، المشكلة فقط انه رجل لا امان له ، واستمراره في وظيفته قد يتيح له فرصة استغلالها لافساد زواجه من انجيليكا ،لو وجد حقا قبولا منها ، وقد يلجأ في لحظة يأس الى ارتكاب اية حماقة لمنع هذا الزواج ، وسيجد في الاتفاق الذي عقده معه باعطائه اولوية الزواج بها، ذريعة ، ولو بينه وبين نفسه ، تبرر له شن حرب عليه وعلى انجيليكا ، وهو ما يجعل ابعاده من الطريق ، واستصدار قرار من الوالي بنقله الى جهة نائية ، ودون صلاحيات ، عمل يصب في صالحه ، ويزيل عقبة في طريق وصوله الى هدفه في الزواج من افروديت وكالة الحلفاء.

البريجادير هيوز لم يكن غريبا على عالم الصراعات منذ بواكير حياته العسكرية ، متخرجا من سانت هيرست ، ضابطا في المشاة ، كتيبة البنادق ، وبعد فترة اعداد وتدريب استمرت لمدة عامين داخل

مناطق مختلفة من بريطانيا ، باشر مهماته في الفيلق الصحرواي الذي اسندت رئاسته الى الضابط جون جلوب الذي صار فيما بعد جلوب باشا ، حيث كان واحدا من اعوانه المسئولين على اخماد عمليات التمرد القبلية ضد العرش العراقي ، وشارك معه في اجتماعاته ومخالطته لاهل البادية وما عقده من اتفاقيات معهم ، حتى صار هو ايضا خبيرا بالحياة البدوية عارفا بلغة وثقافة البدو وتقاليدهم ، التي لا تختلف كثيرا من قطر عربي الى اخر ، وقد اهلته هذه الخبرة وهذه المعرفة للانتقال عشية الحرب العالمية الثانية الى المناطق الحدودية في اقصى الجنوب بين مصر وليبيا ، لوضع تحركات الجيش الايطالي في تلك المناطق تحت المراقبة ، وهناك تعامل مع القبائل البدوية علي الجانبين ، وصار له اعوان وجواسيس ، ينقلون له اخبارا من داخل ليبيا ، عن تحركات الوحدات العسكرية الايطالية ، وقد اثار اختراقه لصفوف الايطاليين ونجاحه في مهماته ذات الطابع

السري ، غيرة ضابط انجليزي من حرس الحدود اكبر منه رتبة ، وعندما تسببت تلك الغيرة في نقله الى المناطق الساخنة من الجبهة ، لم يقاوم هذا النقل ولم يصدر عنه أي رد فعل لكشف مؤامرة زميله الضابط ، لانه جاء متوافقا مع رغبته ، في الانتقال من تلك المنطقة ، التي كانت تثير ضجره برتابتها وبطء الحياة فيها ، رغم ما كان يحققه من نجاح ، راغبا في ان يكون في وسط عواصف النار والدخان التي تشهدها الجبهة ، وتم تنسيبه الى الخطوط الخلفية ، المعنية بعمليات الامداد وشئون الدعم المادي والمعنوي لقوات المجابهة ، متمركزا في سيدي البراني ، التي كانت محطة مؤقة لقيادة جيش يتحرك ويتقدم ويامل ان ينتقل بقياداته الى مواقع يكتسبها من ارض العدو ، وهو ماحدث في مراحل الحرب الاولى عندما انهزم جيش جرسياني الى ان وصل الى مشارف بنغازي ، الا ان الفيلق الافريقي ، القادم من المانيا بقيادة رومل ، اعاد جيش المحور ، الى مركز الحدود ، وتراجعت

القيادة الى برج العرب ، التي اكتظت بالمدنيين والعسكريين وحشود العمال المؤقتين ، الذين تحتاجهم المخازن ومحطات القطار والمستشفيات ، , وقد خلق هذا التزاحم ، تنافسا ومماحكات بين الضباط انفسهم ، تصل الى حد الغضب من بعضهم بعض ، وهو طرف فيها ، الا ان جو المجابهة ، واحتمالات الموت على الجبهة ، او تحت قصف الغارات المعادية ، وتغليب الهدف الوطني ، كانت تذيب هذه الخلافات والنزاعات ، كما كان ايقاع الحرب ، يجعل للحياة نفسها ايقاعا سريعا ، بالغ الشدة والعنف في تقلباته وتبدلاته ، بالاضافة الى ان حركة الجنود والضباط الصاخبة جيئة وذهابا وحضورا وغيابا ، تجعل الخلافات بين الناس لا تدوم ، لان الناس ينتقلون من مكان الى آخر ، ولا يبقون مع بعضهم في مكان واحد الا لمدد قليلة ، خاصة بعد اشتداد حدة الحرب ، عندما وصل الصراع المسلح الى اقصى درجاته قوة وعنفا ، وشهدت تلك المواقع معارك وصل فيها عدد القتلى والجرحى

والاسرى عشرات الالاف في اليوم الواحد ، مثل مواقع سيدي البراني والعلمين، ورغم استمراره في البقاء فترة طويلة في برج العرب كواحد من ضباط الامداد المسئولين عن مخازن الذخيرة والتموين وحماية مستودعات الوقود ، الا ان الزملاء من حوله كانوا يتغيرون ، لا سفرا ورحيلا فقط ، وانما موت ووقوع في الاسر وغياب في الستشفيات بسبب الاصابات والجروح ، فما اكثر ما رأى ضابطا يتفجر صحة وشبابا وحيوية وهو يتناول معه العشاء في ميز الضباط ، ثم يذهب ويعود في اليوم التالي مجرد اشلاء ، لان وحدات عسكرية موجودة في برج العرب، هي التي كانت تتولى استقبال جثث القتلى من الضباط واشلاءهم الممزقة لوضعها في اكفان وتوابيت قبل دفن الضابط ملفوفا في علم البلاد . ولان احتلال ليبيا ودخولها من قبل الجيش الثامن بقيادة مونتوجمري حدث قبل ما يقرب من عامين ونصف قبل نهاية الحرب ، فقد دخل مع قوات رئيسه مونتي الى

طرابلس ، وتم توزيع المهمات التي كان من بينها تعيين عدد من الضباط نوابا للوالي في عشر مقاطعات من منطقة طرابلس ، وكانت اكبر هذه المقاطعات هي مقاطقة القبلة ، ليكون هو الضابط المسئول عن تسييرها الاداري والعسكري ، ونائب الوالي فيها.

كان وجوده في هذا المنصب سابقا لتعيين الجنرال بلاكلي ، واليا على طرابلس ، الا ان علاقته به توثقت بعد مجيئه ، من خلال الاجتماعات الدورية التي يعقدها مع نوابه ، واللقاءات التي تحدث على انفراد معه ، ووجد الوالي عسكريا محنكا ، واسع المعلومات ، شديد التواضع ، تمتزج لديه الشدة بالحزم، مع طيبة القلب ، خدم مدة طويلة في العالم العربي ، وبالذات في السودان ، محب للغة العربية شغوف في البحث في قواميسها ، وهو ما جعله يعقد مقارنة بينه وبين رئيسه العقيد جلوب باشا ، الذي يشاركه الجنرال بلاكلي هذا الشغف باللغة بما في ذلك البحث في لهجاتها العامية، كانت احدى ميزاته

انه يترك لنوابه هامشا كبيرا للعمل ، ولا يتدخل الا عند الضرورة القصوى في الامور التي تحدث في مناطقهم ، ولهذا فهو واثق من انه سيجد منه الاستجابة والقبول لحظة ان يفاتحه في ضرورة نقل ضابط الامن لديه الى جهة اخرى ، وابعاده عن مركز المسئولية ، لعدم اهليته لها ، الا انه لابد ان يضع اقتراحه للوالي ، في قالب شديد المصداقية ، مدعوم بالشواهد التي لا تترك أي شك لدى الوالي في وجاهة الاقتراح.

22

رمضان على الابواب

وهو ياتي بعد ان انكسرت حدة الحر بوصول الصيف الى آخر ايامه،

وفي مثل هذه الحالة لن يتسبب الصوم في عرقلة الناس عن العمل كامل اليوم ومواصلة جمع الحلفاء في

الشعاب كما كانوا يفعلون سابقا ، لان الصيام والعمل في ايام القيظ الشديد ، شيئان لا يلتقيان ، نعم ، ستبطيء وتيرة العمل قليلا ، وهو ما يحدث مع الصيام في أكثر الفصول اعتدالا، بسبب الجوع والعطش ، ولكن ليس الى حد الامتناع عن العمل خوفا من الانهيار والسقوط عطشا تحت ضغط الحر وضربة الشمس. بانايوتي يشعر بالارتياح لمجرد رمضان ، لا لانه معني بصومه ، فقد اعفاه دينه من ممارسة هذا الطقس الذي يحرص المسلمون في وكالته على القيام به ، وانما بسبب انه شهر يأمن فيه الناس شر اعدائهم، باعتبار ان اغلب اهل البلاد ، ان لم يكن جميعهم ، يمتنعون في هذا الشهر عن ارتكاب افعال تخالف السلوك القويم ، فهو شهر تصل فيه الجرائم الى اقل معدلاتها ، ويتوقف خلاله الاحتراب بين القبائل واعمال الغزو واخذ الثارات وتصفية الحسابات ، ولا يتم استئنافها الا بعد انقضائه وايام العيد التي تليه،وياخذ محترفو الاجرام والنهب وقطاع الطرق اجازةتدوم بعدد ايامه ، ومعنى ذلك ان بانايوتي يستطيع ان يهنأ في نومه خلال ليالي هذا الشهر الكريم ، مطمئنا الى ان التدابير التي يمكن لطائر الشر ،

السردوك ، ان يقوم بها ضده، ستبقى مؤجلة او مجمدة ، الى ما بعد عيد الفطر ، ولكن الفونسو ، اختار اليوم الثالث من بدء شهر الصيام، وقد بدأت الحياة تأخذ روتينا مختلفا ، فتتغير مواعيد النوم والصحو، والعمل والراحة ، وتحلو ساعات السهر، وتمتد الى ساعة متأخرة من الليل وينشط الناس في ابتكار وسائل للعب وتزجية اوقات الفراغ ، في هذا الوقت، جاء الفونسو راكبا شاحنة نقل الحلفاء ، التي تأتي في موعد متوافق مع موائد الافطار ، حيث لا يترك اهل النجع ، سائق الشاحنة ومرافقيه ، يباشرون طهي وتدبير عشائهم ، وانما يحضرونه لهم جاهزا، وفق برنامج تناوبي بين العائلات يغطي كل ايام الصوم ، وقد استغرب باتايوتي مجيء صهره السابق ، فقد كانت مغادرته للوكالة مغادرة نهائية لا عودة بعدها ، باعتبار ان له عملا جديدا وحياة جديدة يتطلبان منه تفرغا والتزاما وجهدا متواصلا لا يترك له وقتا للالتفات الى الوراء ، خاصة مع مكان واصهار تركهم ترك قطيعة وليس ترك توق للتواصل وتجدد العلاقات ، وكان هو نفسه الذي قال عن نفسه انه يريد ان يعيش في المستقبل وليس في الماضي ، ناظرا الى

الامام وليس الى الخلف ، فما الذي استوجب هذه الزيارة الى الماضي اذن ، هكذا تساءل باناوتي ، وهكذا نقل ما دار في نفسه من تساؤل ودون حرج الى الفونسو ، الذي اجاب ، بانه جاء للحديث في شأن خاص ، الا ان المغرب كان قريبا ، ووجبة العشاء كانت جاهزة ، فشارك اهل الشاحنة طعامهم ، كما شاركهم شرب الشاي بدوراته الثلاثة ، ووجد بعد ذلك باناوتي ينتظره ليتمشى معه بضع خطوات على انفراد ، يعرف منه فحوى الحديث الخاص الذي اعاده الى هذه البقاع ، فاخبره بانه جاء لانه لم تهن عليه عشرة الايام الماضية ، وقد سمع كلاما من السردوك ، يريد ان يرفعه اليه، ملخصه انه يبحث عن ورطة يضعه فيها لمجرد الضغط على ابنته لكي تطلب التضحية بنفسها وترضى بالزواج منه انقاذا لوالدها ، دون ان يفصح له عن حقيقة انه اعطى هذه الفكرة للسردوك ، لانه لم يجد داعيا لذلك ولا لذكر دوافعه التي قد يصعب على باناوتي فهمهما ، واضاف شيئا جديدا لم يكن قاله السردوك ، وانما هي توقعات خطرت على ذهنه من وحي كلام السردوك ، وهي انه منذ الآن لن تكون للشرطي السري رشيد ، الذي

زرعه السردوك في الوكالة ، مهمة اخرى ، غير محاولة الايقاع بباتايوتي ، وربما سرقة شيء من بيته او مكتبه ، يمكن ان يستفيد السردوك بزرعه في موقع احدى الجرائم ، لكي يرمي التهمة جزافا وظلما عليه ، فهو بالتأكيد يحاول ان يجد بطاقة او جواز سفر او ساعة او خاتما او مسبحة او شيئا آخر يدل على شخصيته ، ويحمل بصماته ، ليعطيه للسردوك ، ولهذا فهو يحذره من رشيد ، ثم بعد ان سرد عليه ما اعتبره تحذيرا وتذكيرا بخطورة عدوه ، والاساليب الحقيرة التي ينوي اتباعها ، نقل اليه رسالة طمأنينة من البريجادير هيوز ، يقول له فيها انه واقف بالمرصاد للرجل ، وسيعمل على ايقافه عند حده ، ويطالب باتايوتي ان يعلمه باي اجراء عداني يسمع بان السردوك باشره ضده ، او اية حركة شرع في القيام بها للانتقام منه ، لكي يتحرك بسرعة لردعه وابطال عمله .

شكر باتايوتي الفونسو على اخلاصه الذي دفعه اليوم للمجيء الى الوكالة لتحذيره ، وابلغه بنقل تحياته وتقديره لنائب الوالي ، الذي يثبت بهذا الكلام انه رجل على مستوى المسئولية ، وابلغ الفونسو بانه لا يشعر بادنى خوف من

السردوك ، ولا يستطيع ان يتصور الجريمة او الورطة التي يستطيع تلفيقها له ، ويشك في انه قادر على صنعها من الهواء ، حيث انه رجل لا يغادر بيته وحانوته الا مرة كل عام او عامين ، ومع ذلك فانه سيعمل جاهدا الا يكون صيدا سهلا لمكانده والاعيبه . وبعد ان غادر الفونسو الوكالة ، مع السيارة التي تحركت ليلا ، حاول باتايوتي ان ينسى السردوك ومؤامراته ، وان يمضي مع تيار الحياة في الوكالة وروتينها الرمضاني الجديد الذي بدأ مع اول يوم من ايام الشهر ولن ينتهي الا بانتهائه .

وبصدق واخلاص يحاول باتايوتي ان يتواصل مع الاجواء الروحانية التي يعيشها رفاقه المسلمون في الوكالة ، وان يندمج مع اجواء الشهر الكريم الذي يقدسونه ،حتى وان كان الشهر لا يعنيه من جانبه الديني الاجرائي ، ولا تكليف عليه بصيامه كما المسلمين ، فانه معني بالنواحي الاخرى التي تتصل بمحتواه الانساني وجوانبه الاجتماعية والاقتصادية والنفسية ، ولا يتواني عن الامتناع خلال ساعات النهار عن الاكل والشراب لتعميق احساسه به

كما لو انه مسلم كنوع من التمرين الروحي ، وحرصا على المشاركة في الترفيه على قاطني الوكالة ، اضاف ساعتين الى الساعات المخصصة لاضاءة الوكالة ليلا ، فصارت تسبح في انوار الكهرباء الى ما بعد منتصف الليل ، ومد اكثر من سلك يحمل عددا من المصابيح لتصل الاضاءة الى كل الفراغات والطرقات المعتمة ، وعلى المستوى العائلي ، فقد التزم بيته بطهي وجبة واحدة وهي وجبة العشاء تتناولها الاسرة في موعد افطار المسلمين ساعة ان ينطلق صوت الفقي عامر يرفع اذان المغرب ، ويندمج بعد العشاء مع اهل النجع في الحياة الاجتماعية الليلة التي تبدأ عادة بخروج الاطفال فور الانتهاء من وجبة الافطار الى الساحة التي تفصل بين خيام النجع وابنية الوكالة ، يباشرون بناتا وذكورا العابا مثل القفز على الحبل والاستغماية وكرة اليد و كرة القدم ، كما تنشأ تجمعات للكبار ، للنساء على حدة وللرجال على حدة ، للصبايا والشابات تجمع ، ولكبار النساء تجمع ، يقمنها في المساحات الفارغة امام الخيام ، كما للشباب تجمع يتخذ موقعه في خيمة المقهى والبراح الذي امامها ، يلعبون الورق ويتبارون احيانا

في لعب كرة القدم او يتجمعون حول مزمار عاشور ، بينما يتأخر تجمع الرجال الكبار الى ما بعد الانتهاء من صلاة التراويح ، وينعقد اما مكتب الادارة ، مع عدد من اطباق الحلوى تاتي من تجمعات النساء ، ويستمر عامرا بحديث الذكريات والقصص المستوحاة من التاريخ الى الدقائق الاخيرة التي ينطفيء فيها محرك الكهراء ، وقد تعود العامل ان يقدم لهم انذارا هو لحظة اظلام لا تستغرق الا بضع ثوان ، تسبق اطفاء المحرك بربع ساعة كافية لايصال كل واحد من اهل النجع الى مهجعه. وبطبيعة الحال ، فاجواء السهر والمرح ليلا ، تجعل الاستيقاظ يتأخر موعده نهارا عن مواعيد سائر اشهر العام ، باستثناء الشيوخ الحريصين على صلاة الفجر في موعده ، فيستيقظون لصلاته ويعودون لاكمال نومهم ،كما تزداد فترة القيلولة وتمتد ضعف معدلاتها في ايام الافطار، يقضونها نياما تحت اشجار الاثل والبطم والعرعار ، وتسبق النساء ازواجهن في العودة الى النجع للقيام باعداد وجبة الافطار .

ولم يفعل باتايوتي شيئا ازاء تحذيرات الفونسو عدا انه احضر اوسادن ، واخبره ان هناك شرطيا سريا زرعه السردوك ، داخل مجتمع الوكالة ، ويريد ان يكون حاضرا وشاهدا على ما سيقوله له لحظة استدعائه الى مكتب الادارة ، لان اخبارا وصلت اليه تقول بان السردوك يريد استخدامه في نسج مؤامرة له، وهو يريد ان يتدبر لقاء معه ، فاجابه اوسادن بانه قادر على ان يحكم الرقابة عليه ، بحيث يجعل من الصعب ان يقوم باي عمل ينفع السردوك في مؤامراته ، الا ان باتايوتي اثر ان يتحدث اليه مباشرة بحضوره ، ولم يشر عندما التقى بالرجل الى أي شيء يتصل بالسردوك ومؤامراته، بل جدد الترحيب بوجود رشيد في الوكالة، لان وجود شرطي مثله يجب ان يمنح الناس جميعا احساسا بالامان ، فهو يمثل الحكومة ، ويستطيع ان يكون عينها التي تراقب وتحرس ، وتمنع الانحراف، الا انه رجل اعزب ، واجواء رمضان الليلية ، اجوء تتيح للناس فرصة السمر والسهر والاختلاط البري، بين الرجال والنساء في احيان كثيرة ، ويريد ان ينقل اليه تحفظات بعض اهل النجع

على وجوده بينهم دون عائلته ، وخاصة في هذا الشهر الكريم ، ويتمنون عليه ان يقوم بعمل احدى الخيارين ، احضار اسرته لتقضي هذا الشهر معه وتكون جزءا من مجتمع الوكالة ، او ان يذهب الى عائلته في مزده لقضاء الشهر معهم ، فهو حرام ان يبقى بعيدا عن اسرته ، وبعيدا عمن يقوم بتجهيز افطاره وسحوره ، ويرجوه ان يأخذ خلال هذا الشهر اجازة لقضائها مع عائلته ، ومرحبا به بعد انقضاء الشهر الكريم ، حيث تكون قد انقضت بانقضائه اجواء الاختلاط اثناء السهر ليلا . ولم يستطع ان يقول شيئا يعارض به اللهجة الودودة المهذبة التي خاطبه بها بانايوتي ، ودون ان يلتزم في ذات الوقت بتنفيذ احد الخيارين ، فقد اعتذر بان ظروفه العائلية لا تسمح له بجلب الاسرة من مزده ، فزوجته ترعى امه الطاعنة في السن الى حد العجز عن الحركة ، ومن الناحية الثانية وهي قضاء الشهر في مزده ، فهو ليس حرا في نفسه يأخذ اجازته متى يشاء، مع انه يحبذ فعلا ان يفعل ذلك ، لكنه لابد ان يستشير رئيسه في العمل اولا ، وهذا ما وعد به ، قبل ان يغادر مكتب الادارة ، وبعد مضي يومين على هذا اللقاء

طوى خيمته ونقلها عائدا الى مزده فوق ظهر الشاحنة ، ولم يعد الا بعد انقضاء اجازة العيد ، وعندها رأى باتايوتي ان عودته ربما تكون اشارة الى ان السردوك بدأ يباشر وضع خططه التآمرية موقع التنفيذ ، فقد صح ما توقعه باتايوتي بان يكون شهر رمضان شهر هدنة وتجميد لاعمال الشر ، فلم تصل اليه ادنى مضايقة من خصمه ، الا ان عودة الرجل الان ، تثير توجسه ، الذي ما كان ليثيره بنفس الدرجة لو استمر موجودا في الوكالة ، فقد بدت هذه الاجازة ، او كان يجب ان تكون ، نهاية طبيعية لعمله السري في الوكالة ، فقد جاء تحت ذريعة الكشف عن مجرم تسلل الى الوكالة ، واتضح بعد مرور اشهر من وجوده ان لا اثر لمثل هذا المجرم ، فما الذي يستوجب هذا الاصرار على وجوده في الوكالة ، ان لم يكن مخططا يريد ان يمضى السردوك في تنفيذه للوقيعة به ، وهو مجبر الان ان يقوم بخطوة معاكسة ضده ، ولم يجد في نفسه أي حرج عندما عمد الى معاودة احضار الرجل ليلا الى مكتبه ، وامام صديقه اوسادن مرة اخرى ، قائلا له انه يعرف المهمة التي جاء ليقوم بها هذه المرة ، فلا يظنه جاهلا او غافلا عنها

، وبشيء من الاندهاش المفتعل ، ابدى رشيد جهله بوجود اية مهمة اخرى غير المهمة التى جاء ليواصل القيام بها بعد انقضاء اجازته ، فافهمه بانايوتي بصراحة ان تلك المهمة لم يعد لها وجود ، حتى لو كان لديه حقا او لدى رؤسائه شبهة لوجود ذاك المجرم ، فقد تأكد الان بعد انقضاء كل هذه المدة ان لا وجود اصلا له ، وباعتبار بانايوتي مسئولا عن هذه الوكالة ، فلابد ان هناك هدفا جديدا ، بعد ان سقط العذر القديم ، يجب ان يعرفه ، فهو هنا ليس لاقتلاع الحلفاء ، لان لديه وظيفة تجلب له مرتبا هي وظيفته كشرطي في الخدمة السرية ، وعليه اذا اراد قبولا من اهل الوكالة وتعاونا منهم ان يتكلم بوضوح ودون تورية او تمويه او غموض عن هذه المهمة ، وهنا ابدى رشيد شيئا من العناد والتحدي عندما قال ان الرجل الذي يعمل مثله في الشرطة السرية ليس مطالبا دائما بالكشف عن اسرار مهمته ، بل ليس مخولا من رؤسائه بالتحدث لعموم الناس عن طبيعة عمله ، وعند هذا الحد راى بانايوتي انه في حل من المحافظة على اسلوبه المهذب مع هذا الرجل، طالما انه ابدى مثل هذا المكر والعناد ، فقال مستمدا بعض الشجاعة

من وجود اوسادن بجواره ، موجها كلامه لرشيد ، بانه جاء الى هذه الوكالة صحبة رئيسه الرائد السردوك " وسمعت كيف ان هذا الرئيس اوصاني بك خيرا ، وقدم لي شرحا وافيا عن المهمة التي جئت من اجلها ، وقد اتضح ان المهمة لم يعد لها وجود ، ولذلك اقول لك ان وجودك هنا لم يعد له ما يبرره " وافهمه بصريح العبارة انه طالما يريد ان يلعب دور الرجل الغامض ، ويحيط عمله بالسرية ، ويقول انه ليس مجبرا على كشف اسراره له ، فان باتايوتي ايضا ليس مجبرا على القبول به ، ولا مجبرا على التعاون معه ، بل انه والحال كذلك فلن يتعامل معه اطلاقا علي أي مستوى من المستويات ، انه لا يملك هذه الارض ، فهو حر في البقاء فيها ، ولكنه يملك الوكالة التي تشتري الحلفاء ، وهو لن يشتري منه بعد اليوم أي حلفاء يقتلعها ، ويملك الدكان الذي يبيع السلع للعاملين بالوكالة ، وهو لن يبيع له شيئا من الدكان ، ويملك بيته ومكتبه ومخازن الوكالة وملحقاتها كالمقهى وغيره ، وهو لا يريد وجوده في أي مكان من هذه الاماكن التابعة له ،

وصارحه بانه سمع كلاما عنه يقول ان وجوده هنا من اجل

البحث عن ورطة يقوم بتلبيسها له ، وهو لن ينتظر ليتأكد من صحة هذه المعلومة ، اوعدم صحتها ، ومن حقه ان يتجنبه ويأخذ حذره منه ، فليتفضل يبني خيمته اينما شاء في النجع ،ويذهب مع الناس الى الشعاب ، فهو لا سيطرة له الا على ما يملكه ، ويقول له الان بحضور هذا الرجل الطارقي بانه لن يأمن ما يحدث له اذا خالف التنبيهات التي قالها له ، ولذلك يرجوه ان يذهب ليستأنف عمله البوليسى في مكان غير هذه الوكالة ، لانه سيبقى منبوذا ، طريدا ، وهو يعلم ان كل اهل الوكالة وسكان النجع يؤازرونه في هذا الموقف ، ثم سأله بلهجة حازمة ان ينصرف الى شأنه ، راجيا الا يراه في هذا الجوار مرة اخرى .

انصرف الرجل مغضبا ، ورأى باتايوتي صاحبه الطارقي وقد بدت علامات الدهشة على وجهه ، مستغربا لما ابداه باتايوتي من حزم وجزم في معاملة الرجل ، فافهمه ان المسألة لا تحتمل اية مجاملات، لانها هنا على حساب مؤامرة تستهدف هلاكه ، فلابد ان يظهر امام خصومه شديدا قويا ، وهو لا يقصد ان يستعرض موقفه الشديد القوي على هذا الشرطي

الذليل ، المرغم على اطاعة الاوامر مهما كان سخفها ، ولكنه يقصد سيده الذي يريد تسخيره للشر والجريمة ، وهو امر يناقض عمله الحقيقي في حماية الناس من الشر والجريمة ، ولانه يعرف ان هذا الاسلوب هو الذي يفهمه ضابط بائس مثل السردوك ، كما يفهمه هذا التابع الحقير ، وابداء الضعف هو ما يريدونه منه ، لاظهار قوتهم والعبث بضحاياهم . وابدى اوسادن اعجابه بمنطق صاحبه ، قائلا بانه يسعده حقا ان يراه قويا، قادرا على مجابهة النذالة المتمثلة في هؤلاء الرجال ، واعدا بانه سيقوم بتشديد الرقابة على رشيد ورصد حركته وسيعطيه علما باي تحرك مشبوه يقوم به.

انتهى اللقاء ، فذهب باتايوتي مستفردا بنفسه ، متحدا بالعتمة ،متوغلا في عمق الخلاء ، وقد بدت النجوم شاحبة فقدت لمعانها ، لان الكون تغلفه ابخرة ليست سحبا وليست ضبابا، وانما طبقة رقيقة شفافة من شبورة الخريف ، وقد احس بانسام الليل تهب عليه باردة منعشة ، وتضرب وجهه كانها محملة بالطل والندى ، وفكره منشغل بما يمكن ان يحدث من رد فعل على ما قدمه من انذار للشرطي السري ، انه

يعرف بالتأكيد ما سوف يفعله ، وهو ان يرفع الامر لسيده السردوك ، ولعله مشغول في هذه اللحظة بابراق ما ابلغه به الى سيده في مزده على جهاز المخابرة ، فكيف اذا سيكون رد فعل السردوك ، بالتأكيد سيكون الغضب والاحساس بالمهانة ، واهو امر ليس جديدا ، فقد سبق ان اغضبه واهانه بشكل اكثر قوة ، وفي وجهه شخصيا ، وليس عبر ذنب من اذنابه ، والسؤال ليس عن قوة هذا الغضب او هذا الاحساس بالمهانة، ولكن عن مدى الامكانيات التي يستطيع استخدامها للتعبير عن هذا الغضب ، وهذه المهانة وخاصة وان الاهانة هذه المرة لا تلحقه بسبب شخصي مثل الخطوبة ، وانما تتصل بما يمكن ان يسميه عملا ، فهو رفض لمندوب حكومي من التواجد في مكان تستدعيه ظروف العمل كما يدعي ، ومع ذلك ، فان ما يملكه قليل بالنسبة للتعبير عن غضبه او للانتقام على اهانته ، فهو لن يقدر على توقيفه ، او حجزه في المركز ، او حبسه احتياطيا على ذمة التحقيق او المحاكمة ، ولن يستطيع اتخاذ اجراء بسحب رخصة الوكالة مثلا ، بل مجرد توجيه انذار له ، امر ليس من اختصاصه ، وانما من اختصاص نائب الوالي

فهل في مثل هذه الحالة ، يستطيع استصدار قرار من البريجادير هيوز بمثل هذا الايقاف او الحجز ، الا يبدو ذلك مستبعدا جدا في ضوء ما ارسله اليه نائب الوالي من تطمينات وتعبير عن تأييده في هذه المعركة الظالمة التي يريد ان يخوضها ضده السردوك بلا حق ، وباسلحة المنصب الحكومي وقوته ، وجملة ما انتهى اليه تفكيره ،هو ان السردوك لن يصمت على ما حدث ، وسيحاول بشكل من الاشكال توظيفه في اطار الحملة التي يديرها ضده .

عندما عاد الى البيت كتب في دفتر يومياته :

((عادت الحياة الى روتينها بعد انقضاء شهر الصيام ، وما احسست به من طمأنينة تؤكدها تقاليد الناس في المجتمع الصحراوي في التعامل مع هذا الشهر ، واجد نفسي هذه الايام في حالة استنفار واستفزاز ، دون ان ارى ان هناك عاملا خارجيا هو الذي اوجب هذه الحالة ، فهي حالة ناتجة عما يخالجني من مشاعر نابعة من ذاتي ، بل ان الشرطي رشيد نفسه ، الذي تحول وجوده في الوكالة الى روتين وعادة ، ما كان يجب لعودته بعد اجازة العيد ، ان تكون مصدرا للتوتر ،

وعاملا يحرك نوازع الفزع التي تنتابني ، ان هي اذن ليست الا حالة شعورية نابعة من ذاتي ، بعد ان وجدت نفسي في غياب الاطمننان الذي يشيعه شهر الصيام في النفوس ، استشعر الخوف من المستقبل ، واستنفر اليات الدفاع الذاتي ، لكي تقوم بهذا الفعل الاستباقي للاحداث ، الذي ياخذ في ذهني صورة العمل الوقائي الاحترازي الذي يصد المتاعب ، فاذا به في حقيقة الامر ، يصبح عملا تحريضيا وليس وقائيا ، ويسعي لجلب المتاعب وليس لصدها ومنعها او ابعادها وتفاديها))

ما حدث في اليوم التالي ، لم يكن بعيدا عما تصور باتايوتي حدوثه ، غير انه جاء في صورة اقل جهامة وقسوة مما كان يتوقع ، فقد وصلت قبل منتصف النهار سيارة جيب تحمل لافتة الشرطة ، وقفت مباشرة امام مكتب الادارة ، وهبط منها السائق ومرافق له هو الشاويش عمر ، الذي سبق ان زار الوكالة صحبة رنيسه السردوك ، ناقلا اليه تحيات رنيسه ورسالة شفهية منه ، ذات صياغة شديدة التهذيب ، تقول بان السردوك يعتذر عن أي خطأ ارتكبه

الشرطي رشيد ، واثارت غضب صاحب الوكالة الذي طالبه بالرحيل ، ويريد ان يعرف هذا الاثم ، الذي اقترفه ضد باتايوتي ، لتذنيبه ، ومن اجل ذلك فهو يرجوه ان يحضر الى عاصمة الاقليم، ليفهم منه ما حدث ، ويعرف ما يريده بالضبط ، حرصا على صلة التعاون بين مديرية الامن والوكالة.

لم يكن باتايوتي يتوقع ان يتخذ رد فعل السردوك على رفض القبول بعميله ، مثل هذه الصيغة المهذبة ، الا انه مع ارتياحه الى انها لم تتخذ صيغة اكثر قسوة وعنفا ، لم يكن مطمئنا لصدقها ، او صدق صاحبها ، غير مستبعد ان تكون غطاء لشيء آخر سوف يسفر عن نفسه حال وصوله الى مديرية الامن ، ويكون هو عندئذ تحت سيطرة السردوك وبين الجلاوزة الذين يأتمرون بامره ، فكان موقفه متأنيا ازاء ما قاله الشاويش عمر ، ومتحفظا في اعطاء اية اجابة سريعة ، دون ان يفصح لهذا المبعوث بشيء من الهواجس التي تخامره ، واكتفى بان رحب به باعتباره ضيفا على وكالته ، وجلب له القهوة والبسكويت والمشروب البارد ، والح في

دعوته للبقاء من اجل تناول طعام الغذاء معه ، الا ان الرجل كان يريد الاسراع في اداء مهمته ، راجيا باتايوتي ان يرافقه في رحلة العودة الى مزده ، وستقوم ذات السيارة بارجاعه في مساء نفس اليوم الى الوكالة. اعتذر باتايوتي عن عدم استطاعته مغادرة الوكالة في هذا الوقت ، لان هناك نقصا في العاملين ، وثمة شاحنة قادمة لنقل رزم الحلفاء الى طرابلس ، يجب ان يكون في انتظارها ويشرف على تحميلها وتجهيزها ، ويرجوه ان يعود الى رئيسه ، ليطمئن انه سيكون قد رتب امره بحيث يسافر للقائه في موعد اقصاه يومين اثنين، لازالة أي لبس يتصل بوجود الشرطي رشيد في الوكالة ، وكان رشيد قد طوى خيمته وبقي ينتظر وصول السيارة التي تحمل الشاويش عمر ، جاهزا لمغادرة الوكالة معه .

ارجأ باتايوتي ذهابه الى السردوك ، لانه لا يريد ان يضع نفسه بين يدي خصمه دون ترتيب ، واول مراحل هذا الترتيب ان يخطر نائب الوالي بما حدث ، وانه قادم بعد غد لمديرية الامن بناء على استدعاء السردوك ، مع انه ليس استدعاء رسميا وانما دعوة للاجتماع به من اجل التفاهم على استمرار

وجود الشرطي السري الذي وضعه في الوكالة بحجة تعقب احد المجرمين ، وكان تفكير بانايوتي ينحصر فيمن يجب ان يحمل الرسالة ، الا انه لم يستعجل في اختيار هذا الرسول ، فهناك وقت للتفكير ، قبل ان يذهب مع سيارة الشحن التي تغادر الوكالة اواخر الليلة القادمة ، وقد جاءت زوجته مسرعة من الحانوت الى المكتب فور مغادرة السيارة تسأله في قلق عن سر مجيئها ، فابلغها باختصار بما حدث ، وسألته ان يأتي معها الى الحانوت ليطمئن ابنتها التي تركتها هناك في حالة خوف وتوجس من ان يكون السردوك ما زال يطارد والدها.

وهو ذات القلق الذي اثارته السيارة في نفوس بعض اهل النجع ممن سمعوا بمجيئها عند عودتهم من الشعاب ، وكان اول القادمين مستفسرا هو اوسادن ، الذي كان على علم اكثر من غيره ، بهواجس بانايوتي ومخاوفه ، فجاء لكي يطمئن عليه ، ولم يتردد بانايوتي في ابلاغه ما لم يبلغ به اسرته ، وهو مخاوفه من ان تكون الرسالة المهذبه التي ارسلها السردوك يطلب منه الاجتماع به ، مجرد فخ لاستدراجه الى قلعته في مزده ، فيدبر له مصيبة هناك ، وهنا تدخل اوسادن

مبديا استعداده لتقديم أي عون يريده منه ، وصارحه بانه يملك بعض القوي الخفية ، التي لا يعرفها احد غيره ، علمها له المرحوم والده ، ولم يصارح بها احدا بمن في ذلك زوجته ، لانه لم يكون يريد استخدامها ، خشية اثار سلبية رآها شخصيا تحدث لوالده الذي اورثه اياها ، وهي اوراد وادعية وتعاويذ وطقوس يستطيع ان يحضر بها اجنادا من اهل الخفاء ، يستعين بهم في دفع خطر يتهدده ، كذلك بعض التعاويذ الاخرى التي يستطيع ان يجلب بها الاذى للاخرين ، وهي ايضا تعلمها من والده ، اعطاه اسرارها مع تحذير صارم بالا يستخدمها ضد أي انسان الا اذا تأكد انه من اهل الشر ، فيستعملها ليكفي الناس شروره ، وقد قرر بينه وبين نفسه ان يطوي هذا السر في قلبه فلا يبوح به لاي انسان ، بل حاول جاهدا ان يمسح من راسه هذه التعاويذ وينساها الا انها بقيت في ذاكرته كالوشم لا يمكن محوه ، وكان مصمما على الا يستخدم هذه التعاويذ، او يقترب من عوالمها ، لان والده كان يدخل احيانا صراعا مع بعض اهل الخفاء ، ممن يخدمون اناسا آخرين من خصومه قاموا بتسليطهم عليه ، وقد استطاع

هؤلاء الخصوم جلب الاذى لوالده ، عندما اصابوه بداء الصرع، الذي فتك به ، لان نوبة من نوبات هذا الصرع داهمته وهو يضرب في الصحراء راكبا المهري لبعض شأنه ، فسقط فوق ارض صخرية ، ومات اثر ذلك بسبب نزيف في الرأس ، ولهذا السبب آثر ان يبتعد عن هذه العوالم والصراعات التي يجد فيها رجل يتعامل مع اهل الخفاء نفسه مرغماعلى خوضها كما كان الحال مع والده ، محبذا ان يعيش انسيا يتعامل مع الانس لا مع الجن . الان فقط وهو يري هذه الملاحقات الشريرة التي يلاحقه بها والسردوك ، فكر في ان يقوم باستثناء لهذا النظام الذي فرضه على نفسه ، ويستخدم هذه القوة لمرة واحدة لن تتكرر ، مستهدفا هذا الرجل ، لايقافه عند حده ، وهو مستعد ان يبدأ منذ اليوم الدخول في الحالة التي تؤهله للتعامل مع اهل الخفاء وقراءة ما يجب قراءته من اوراد والقيام بالطقوس التي تقضي صياما واغتسالا وترديد تسابيح وابتهالات ، ثم يباشر العمل الذي يعطل السردوك عن القيام باي عمل من اعمال الشر.

وتأثرا بما قاله اوسادن ، تقدم منه
باتايوتي يأخذه الى حضنه ، قائلا له انه يعتبره اخا اصغر له ، وعاهده على الصفاء والنقاء والبقاء على العهد الى آخر العمر ، ورجاه الا يفعل شيئا في هذا المضمار ، طالما انه يكره الدخول في هذه العوالم المسكونة باهل الخفاء ، لانه يفضل شخصيا ان يقوما بمواجهة الرجل باساليب العقل والحكمة ، لا بتلك القوى الواقعة خلف وفوق العقل وهو لا يحتاج منه الا ان يضع عقله معه ، وهما الكفيلان بان يحققا النصر في هذه المعركة ، ورد اوسادن قائلا بانه يقبل منه ان يترك الاستعانة بهذه القوى الخفية المجهولة ، مؤقتا ، وخلال هذه المرحلة ، دون ان يتنازل عن حقه في استخدامها اذا ما استطاع السردوك ان يكون مصدر خطر لا سبيل الى ردعه ودفعه بالوسائل الاعتيادية ، عندئذ فانه لن يتردد ولن يتنازل عن تسخير هذه القوى لتعطيله وايقافه عاجزا عن أي فعل ، ورأى باتايوتي ان اوسادن ، الذي صار شريكا في تحمل اعباء هذه المواجهة ، هو اصلح رسول الى نائب الوالي ، يذهب اليه في صباح اليوم التالي لابلاغه رسالته ، وفعلا سعى ان يتأخر سفر

سيارة الشحن الى وقت الفجر ، لكي يتفق وصوله الى مزده مع وجود الوالي في مكتبه ، ويعود مع الشاحنة القادمة بعد الظهر الى الوكالة ، وكما توقع باتايوتي ، استطاع اوسادن ان ينهي المهمة بنجاح، حيث وجد ترحيبا كبيرا من نائب الوالي ، لان لديه اهتماما خاصا ، سياسيا واداريا ، بتاريخ الطوارق في منطقة الحمادة الحمراء وتخومها الجنوبية المسماة الهروج السود، واساليب حياتهم وعاداتهم وتراثهم ، ولديه معلومات سابقة يريد ان يستوثق منها من مصدر طارقي ، فاجابه اوسادن على استفساراته ، وابدى استعداده لتقديم مزيد من المعلومات التي يريدها لاستكمال فهمه لهؤلاء القوم الذين يفخر بالانتماء لهم .

وجد باتايوتي نفسه يستطيع ان يذهب مطمنن البال للقاء السردوك ، دون ان يخشى غدره وخداعه ، وان يتكلم معه دون وجل او خوف ، حول الغاء مهمة الشرطي السري في الوكالة ، لانه لا وجود لاي عمل يقوم به ، ويتكلم واثقا من دعم نائب الوالي له ، الذي كان يعرف موقفه قبل

ارسال اوسادن اليه ، ولكنه راى ان يتأكد من قوة هذا الدعم بعد استدعاء السردوك له ، فعاد اوساد يحمل هذا التأكيد ، وينقل اليه الدعوة التي وجهها اليه نائب الوالي بضرورة ان يزوره في مكتبه بعد انتهاء اجتماعه بالسردوك .

وبدوره رأى السردوك وقبل وصول باتايوتي الى مكتبه ، ان يلتقي الشرطي رشيد ، يناقش معه الهدف من رغبة باتايوتي في طرده من الوكالة ، وبادره متخابثا بالسؤال ، عما كانت مهمته في الوكالة، ليعرف مدى فهمه واستيعابه للمهمة التي اوفده من اجلها ، فشرح له رشيد بانه كان موجودا بحجة الكشف عن مجرم من قطاع الطرق هرب الى الوكالة متنكرا في صورة واحد من جامعي الحلفاء، ولكنه يعرف ان هذه لم تكن مهمته الحقيقية ، وانما المهمة الحقيقية هي ان يكون عينا ترصد حركات وسكنات انجيليكا وزوجها الفونسو ، وتقديم تقرير عنهما ، وعاود السردوك سؤاله ، عن مهمته بعد ان طلق الفونسو زوجته ، وتقدم السردوك لخطبتها ، ورفضت هذه الخطبة وعما كان تصوره عن دوره في

الوكالة عندند ، فاجابه الشرطي الذي عمل سنوات تحت امراته وبات واحدا من كاتمي اسراره ، بانه غضب غضبا شديدا لهذا الرفض ، ورآه ركلا لنعمة يعرضها الرائد السردوك على هذه العائلة ، وشرفا لا تعرف قيمته ، وصار واثقا انها عائلة تستحق العقاب لهذا الرفض ، ووجوده في الوكالة ربما يكون عاملا مساعدا في العثور على سبيل لانزال هذا العقاب .

وغرز السردوك عينيه الحادتين الصغيرتين الماكرتين في عيني عميله يسأله ان كان خلال هذه الايام التي اعقبت الرفض قد فكر فيما يمكن ان تكون هذه الوسيلة ، فاجابه بان رجلا يملك وكالة مثل باتايوتي ، ويتعامل بيعا وشرا مع عدد كبير من الزبائن ، لابد ان يقع في اخطاء ، وتنشأ له مشاكل وخصومات مع الناس ، ومهمته اذا استمر في عمله ، ان ينتظر حصول خطأ كبير من جانبه او مشكلة مع احد الزبائن يمكن الباسها طابعا جنائيا ، ليقوم عندها بالابلاغ عنه ، والقبض عليه ، ويسعى لتكبير بالمشكلة ، والبحث عن القرائن والادلة التي تدينه ، وسيتمكن خلال اقامته في الوكالة من معرفة المناوئين له ، لاستخدامهم في الشهادة ضده، وقبل

ان يكمل الشرطي شرح افكاره عن المهمة المكلف بها في وكالة باتايوتي قاطعه السردوك منتقلا الى جانب اخر من الموضوع دون ان يعلق بالسلب او الايجاب عما سمعه منه ، متحدثا عن اجتماعه بصاحب الوكالة ، الذي يتوقع حضوره الى مكتبه هذا الصباح ، طالبا من رشيد ان يحضر الاجتماع اذا اراد ، سائلا اياه عما يجب في رأيه ان يقوله لباتايوتي ، فاجابه الشرطي بانه يريد ان يسمع حديثا حازما جازما مع الرجل ، يعيد اليه عقله ، لكي يعرف ان للحكومة هيبة وقوة ، ولها ارادة فوق ارادة أي فرد مواطنا كان او اجنبيا مثله ، وان لممثليها من افراد الشرطة حق التواجد والحضور في أي تجمع سكاني لحفظ الامن وحراسة القانون. فداعبه رئيسه ضاحكا ، بانه يقول هذا الكلام لانه حريص على القروش الاضافية التي يحصل عليها فوق مرتبه من وراء اقتلاع الحلفاء وبيعها ، فرد بصرامة وجدية ، ان ما يهمه هو سلطة الحكومة وكلمتها التي يجب فرضها على كل انسان . وقبل ان يسمع رأي رئيسه ، فتح الحاجب الباب ، قائلا بان السيد باتايوتي موجود بانتظار الاذن له بالدخول ، فطلب منه

السردوك ان يدخله ويذهب ليحضر له الشاي ، وفور جلوسه على الكرسي قبالة السردوك المتربع على مكتبه ، دخل بانايوتي في الموضوع ، مبديا اسبابه التي تجعله يعارض وجود شرطي في الوكالة ، يكون مصدر قلق وتوتر لقاطنيها اكثر مما هو مصدر راحة وامان ، وانه لو عرف بان هناك ضرورة تستدعي وجود مثل هذا الشرطي لكان هو الذي ياتي مطالبا بتعيين شرطي في الوكالة ، ولكن الوكالة تعيش في امان بدونه ، مثلها مثل أي نجع من نجوع البادية ، ويتحمل شخصيا المسئولية عن توفير هذا الامان ، ثم ان رشيد لا يقوم بدور الحارس او العساس ، وانما بدور الجاسوس ، فلمن يقوم بمهمة هذه الجوسسة ؟ ومن المقصود بها ؟ واذا كان هناك في السابق شبهة وجود قاطع طريق يختبيء في الوكالة؟ فقد ثبت انها شبهة باطلة ، فما السبب الذي يستدعي وجوده اذن ؟ وقف يستأذن في الانصراف بسبب ارتباطه بلقاء مع البريجادير هيوز ، الا ان السردوك نهض من مكتبه ، وقام يعترض طريقه قائلا له ، بانه لم يكمل حديثه معه ، وانه سيعتبر وجود الشرطي في الوكالة امرا عرضيا يمكن

الوصول فيه الى اتفاق، بعد الانتهاء من حسم قضايا اكثر اهمية ، فعاد كل منهما الى الجلوس ، واستأنف السردوك حديثه الذي انقطع حول الشرطي ، مطمننا باتايوتي بالا يعتبره عينا عليه ، وانما عين لصالحه ، مضيفا انه يمكن ان يجعل رشيد يأخذ تعليماته منه وينقل تقاريره اليه ، ويضع خدماته تحت تصرفه ، فقال باتايوتي ضاحكا بانه يقبل ان يكون رشيد تحت امره ورهن تعليماته وان اول هذه التعليمات ان يبقى مقيما في مزده مع زوجته وبين اولاده ، فشارك في الضحك كل من السردوك ورشيد ، وترك السردوك الموضوع دون حسم منتقلا الى ما يرى انه قضية معلقة ذات اهمية قصوى بالنسبة له ، وهي قضية خطبته لانجيليكا ، قائلا بانه يرجو الا يكون رفض ابنته لهذه الخطبة رفضا نهائيا ، ويمني نفسه بان تتراجع عن رأيها، وان يرى والدها يبدل جهدا بهذا الاتجاه ، لانه على يقين بان المصاهرة بينهما ستكون مصدر خير كثير ، وابلغه بان هناك مصدرا جديدا للرزق ، يريد ان يكون من نصيب واكالته ، فقد تأسست شركة مركزية على غرار شركة الحلفاء للتجارة في الحديد الخردة، واخرى في القماش البالي

، وثالثة للتجارة في مواد متفرقة اخرى ، وان الاولى ستشتري الحديد الخردة لاعادة تصنيعه وتصديره والثانية ستعمل نفس الشيء بالخرق البالية والثالثة للتحارة في متفرقات مثل العظام لطحنها وتصديرها دقيقا ليكون عنصرا في بعض الصناعات ، وان ترخيصا موجودا في مكتبة للتجارة في هذه الاشياء ، التي ستكون مورد ربح كبير جدا فالصحارى المجاورة لوكالته مليئة بمخلفات الحروب من الحديد ، ومليئة بمخلفات السيول من الخرق البالية ، ومليئة بمخلفات القوافل التالفة في الصحراء من العظام، مدفونة تحت الرمال تنتظر من يجمعها ، ولديه مصدر اخر للثروة ، سيبوح به له ، لانه مازال سرا حكوميا لم يعلن عنه ، وهو ان الدولة ضاعفت بسبب الجفاف في منطقة القبلة ، من حصتها في اعلاف الحيوانات التي تقدم مجانا لانقاذ الثروة الحيوانية من الانقراض ، ومعنى ذلك ان بامكانه ان يقيم في الوكالة حضيرة كبيرة ويشتري باسعار رخيصة الاف الرؤوس من الاغنام قبل الاعلان عن هذا الخبر ، لان اصحاب هذه الاغنام يسعون الان للتخلص منها قبل ان تنفق ، وسيتعهد له بتغذيتها من حصة

المنطقة من الاعلاف ، لتكون جاهزة لنقلها لمنافذ البيع في مختلف المدن خلال عيد الاضحى القادم ، وهو باب لاموال طائلة لا حد لها ، وسيكون هو عونا له ودعما وشريكا يتقاسم معه اثمان هذه الاغنام عند شرائها ويتقاسم معه الاموال عند بيعها .

ظل باتايوتي صامتا ، لا يريد ان يقاطع السردوك اثناء عرضه لهذه الاغراءات ، عازما الا يتورط في أي وعود له بالنظر في الموضوع من جديد ، فهو الان في حماية نائب الوالي ، ولن يجد فرصة افضل من هذه الفرصة لردع السردوك عن مواصلة اوهامه ، فالحسم في مثل هذه القضية ، اجدى من التسويف والمماطلة ، ولهذا اجابه بان ليس لابنته أي موقف آخر غير الموقف الذي صارحته به، ولا يستطيع من جانبه ارغامها على تغيير موقفها ، متمنيا ان يصرف السردوك جهده ووقته وموارده في البحث عن امرأة اخرى ، طالما انتهت حياته مع زوجته الاولى ، تتوفر له معها السعادة التي ينشدها ، معتذرا في ذات الوقت عن الدخول في أي تجارة غير تجارة الحلفاء التي تخصص فيها ،وارتبط مع

الشركة الام التي تتعهد بتصديرها والتي تريده ان يصرف جهده ووقته في هذا العمل دون سواه .

ورغم ان السردوك ابى ان يحسم معه موضوع الشرطي ، فقد وقف باتايوتي وخطا باتجاه الباب قائلا انه لا يريد ان يترك نائب الوالي ينتظر اكثر من هذا المقدار ، واثقا بينه وبين نفسه بان سيجد حسما لدى نائب الوالي لموضوع الشرطي ، الذي لا عمل له ولا ضرورة لوجوده في الوكالة ، وفاجأه فعلا هذا الترحيب الحار الذي استقبله به البريجادير هيوز ، قائلا له قبل ان يتبادل معه أي كلام ، ان الحديث سيكون اكثر حميمية عند الانتقال الى بيته ، لانه امر المرأة التي تعتني بطهي طعامه ان تعد مائدة لهما ،فهو يريده ان يؤانسه في بيته، وعندما اشار باتايوتي الى ارتباطه بموعد سيارة الشحن التي تعبر مزده في الطريق الى الوكالة ، بادره نائب الوالي بالقول ، انه يستطيع ان يأخذ وقته وراحته في الغذاء ، لانه سيضع سيارته الخاصة تحت امره ، تنقله متى كان جاهزا الى وكالته ، وهكذا لم يترك له سببا للاعتذار عن قبول هذه الضيافة ، والذهاب معه الى بيته والجلوس في

الصالون ، ليبدأ في مشاركته كاسا من الكحول لفتح الشهية ، قبل الانتقال الى المائدة لشرب نوع من النبيذ ، يملك نائب الوالي بعض الزجاجات المعتقة منه ، مهداة من اصدقاء في طرابلس لهم اتصال بقساوسة الكنائس الايطالية ممن يتبعون تقليدا كنسيا في اعداد النبيذ والاحتفاظ به لسنوات عديدة، وعلى كاس فتح الشهية بدأ الحديث الذي استهله البريجادير هيوز بالاستفسار عن اللقاء بينه وبين السردوك ، لانه يعرف ان زميله مدير الامن ما زال يملك موجدة في قلبه ازاء بانايوتي ، وهذه الموجدة تملأ راسه بالافكار السوداء التي لا تليق برجل يحتل منصبا عاما ، ويسعى لاستغلاله في تحقيق اغراض شخصية ، ساعيا الى طمأنة باناليوتي ، بانه مهما كان السبب لاستدعانه ، فانه لن يستطيع ان يفعل شيئا له ، طالما ان نائب الوالي موجود في هذا المنصب ، ولديه سلطات تعلو سلطاته وتقدر على نقضها وايقافه عن تنفيذ نزواته ، وبعد ان استعرض باناليوتي في ايجاز ما دار بينه وبين السردوك حول الشرطي الذي يريده ان يكون عميلا سريا في الوكالة ، ورفض باناليوتي لهذا الاسلوب في التعامل مع الوكالة ، مبديا قلقه لان

السردوك ترك الموضوع معلقا دون حسم ، افاده نائب الوالي بانه يستطيع اعتبار الموضع محسوما ، وان السردوك لن يستطيع ان يخالف تعليماته اذا ابلغه بها ، وهي انه لا حاجة ولا ضرورة لوجود هذا المندوب السري في الوكالة ، ثم افصح لباتايوتي عن احساسه قائلا بان ما يقلقه هو ما سيؤول اليه الامر بعد انتهاء عمله ، فهو يتبع سلطة انتداب سوف يرحل مع رحيلها ، بعد عامين او اكثر قليلا ، بينما السردوك باق لانه ينتمي لهذا البلد ، وعندها سيكون المجال فسيحا امامه للانتقام ، خاصة وان الوكالة ليست خيمة يمكن نصبها اليوم وتقويضها غدا وانما مشروع اقتصادي كبير ، واستثمار على مدى طويل ، وعمل يتركز فيه مسقبل باتايوتي واسرته ، وهنا وجد ضيفه الفرصة متاحة ليسأل هذا الصديق الذي استضافه في بيته ، عن سر القوة التي يملكها السردوك ، وتمنع عزله او نقله من هذا المنصب ، طالما هو مقتنع بعدم صلاحيته ، فاجابه بان وجود السردوك سابق لوجوده في هذه المنطقة ، وجاءها في اوج انشغال كل الاطراف بالحرب ، ووجود فراغ في السلطة المركزية في ليبيا ، مما اطلق العنان لقوى النهب

والسلب تسيطر على مناطق كثيرة في البلاد ، بما في ذلك منطقة القبلة ، وصحراء الحمادة الحمراء ، حيث بلغت الجريمة فيها معدلات قياسية ، وقد اكتسب السردوك سمعة في مكافحة الجريمة من خلال الحرب التي شنها على عصابات الصحراء ، وتحت قيادته الشخصية الميدانية ، الى حد يعترف فيه الجميع بانه صاحب الفضل في انقاذ المنطقة من تلك العصابات وعودة الامن والسلام الى مسالك الصحراء وتامين تجارة القوافل عبرها، ونجا باعجوبة من اكثر من كمين نصبته له تلك العصابات، اصيب في احداها بجراح شفي منها بعد علاج في طرابلس ، الا انه يعرف الان ان عمله لم يكن كله صافيا لوجه الامن والقانون ، وانه تربح من بعض هذه العمليات الامنية ، ومع ذلك ظل سجله لدى الدوائر العليا في حكومة الانتداب مقورنة بذلك النجاح مما يجعل أي اقتراح بتغييره يقابل بنوع من الخوف لدى تلك الدوائر من انهيار الامن في المنطقة وصعوبة تعويض السردوك برجل تكون له نفس الخبرة بامن المنطقة.

تناولا طعاما من اللحوم المشوية ،
مع زجاجة النبيذ الذي تعتق لثلاثين عاما ، وعادا الى الجلوس في الصالون يختمان الجلسة بنفجان القهوة ، وقد انطلقت شهية نائب الوالي في الافصاح عن مشاعره ، دون ان يفقد السيطرة الى حد الكشف بحقيقة نواياه فيما يتصل بخططه الخاصة بابنة باتايوتي ، واكتفى بان تحدث عن رغبته في ان يستمر في العمل في هذه البلاد ، لانه بعد سنوات الخدمة الطويلة في هذا المناخ ، لم يعد بمقدوره الانسجام مع مناخ مدن الشمال في بريطانيا ، ولن يكره ان يجد عرضا للعمل في ليبيا عقب انتهاء الانتداب البريطاني بها، فالادارة الليبية سوف تحتاج لخبراء اجانب يساعدون في تاسيسها ، وهو علي يقين بانهم سيرحبون باستمراره في العمل مستشارا للعناصر الوطنية ، الا ان قبوله لهذه المهمة يتوقف على شيء واحد ، هو الزواج ، فهو لن يستطيع ان يستمر وحيدا في حياته بعد ان بلغ هذه المرحلة من العمر ، وهذه المراة التي ستشاركه حياته ، لن يستطيع جلبها من بريطانيا ، لانه لن يكون واردا وجود امراة تستطيع القبول بشروط الحياة هنا ،

ومن ناحية ثانية فانه لن يستطيع اطلاقا ولا يتصور ابدا ان تكون شريكة حياته امرأة بدوية ، خاصة وان شروط الزواج في هذه البيئة ، وهذه البلاد ، يتطلب من الزوج الاجنبي تغيير دينه الى الاسلام ، وهو شديد الارتباط بدينه المسيحي ولن يرضى تغييره او يقبل الزواج بغير امراة من اهل دينه ، ولن يفكر في الزواج الا بامرأة مثل ابنته انجيليكا ، وسيتصل بكل من يعرف من عائلات صديقة تعينه على وجود مثل هذه الرفيقة ، التي ستجعل من استمرار بقائه في هذه البلاد امرا ممكنا ويسيرا ، وفي هذه الحالة يستطيع باتايوتي ان يطمئن الى ان السردوك لن يستطيع ، مهما طال المدى ، ان يمد ايه اصبعا .

في ختام اللقاء ذكر البريجادير هيوز لضيفه كلمة اعتبرها قيلت لكي تطمئنه الى انه مهتم بما قاله عن ضرورة ان يتنحى السردوك عن هذا المنصب الذي اساء استخدامه ، عندما قال له بان هناك اجتماعا للوالي مع نوابه العشرة، سيحين بعد ايام ، وسيرى ان كان باستطاعته ان يفعل

شيئا لتأكيد الشعار الذي رفعته ادارة الانتداب وهو الرجل المناسب في المكان المناسب .

وهو انطباع خرج به بانايوتي من كلمات نائب الوالي التي تركها غامضة دون افصاح عن طبيعة هذا الذي يمكن ان يفعله عند لقائه بالوالي ، ورای انه لا يحتمل تفسيرا غير هذا التفسير، الا انه عندما عاد الى الوكالة لم يكن يشغل نفسه بهذا الشيء الذي سيفعله نائب الوالي في طرابلس ، بعد ما استحوذت على تفكيره تلك الجملة التي اشار فيها الى ابنته انجيليكا ، والتي يقول نصها الحرفي "امرأة مثل انجيليكا" وكانه قول جاء بطريقة عفوية ، واخذ مكانه وسط الكلام عرضا ، من وحي اللحظة ، ليضرب المثل على المرأة التي يريد الارتباط بها . الا ان باتايوتي كان على يقين بان الرجل قالها عن قصد وتصميم ، وبعد سابق تدبير وتفكير ، لانه لم يكن يستطيع ان يطلبها صراحة منه ، وهو الذي جاء منذ ايام يتوسط في طلب يدها لزميله السردوك ، وفي وقت مازال فيه هذا السردوك ، يكاكي ، مهددا متوعدا ، يريد ان يحقق طلبه بالباطل والمكيدة والرشوة . انه واثق بان

الرجل لم يقل كلمته من فراغ ، ولن تنتهي الى فراغ ، فهي بذرة يزرعها ، ويرقب ليرى ثمرتها فيما بعد ، هي كلمة ، ستكون لها تداعيات وتوابع ، فهي القطرة ، التي تنبيء بقدوم وابل المطر . لن يفتح الموضوع مع زوجته ، ولن يفتحه مع ابنته ، فهو الان يشبه عبور الجسر قبل الوصول اليه كما يقول المثل ، سيفعل ذلك عند الوصول الى الجسر ، اما الان فلا حاجة للتكهن بما لم يحدث بعد . البريجادير هيوز ، زوج لابنته انجيليكا ، امر لم يكن قد خطر له على بال ، لعل هناك نقاطا لصالح هذا الرجل ، اذا تمت مقارنته بالسردوك ، فهو رجل اعزب ، وهو حاكم يحتل المركز الاول في هذه المنطقة ، وهو في حالة اغتراب في هذه البلاد مثله مثل اسرته ، وهي رابطة تتعزز برابطة الانتماء لدين السيد المسيح ، بغض النظر عن نوع الكنيسة بروتستانتية او كاثوليكية او مثله كنيسة الروم الارثوذكس ، ثم انه لم يبلغ من العمر ما يجعل زواجه من ابنته امرا مثيرا للسخرية والاحتجاج ، نعم هناك فارق في السن ، ولكنه فارق موجود لدى اغلب الازواج ، انه فارق معقول ومقبول ، هناك نقطة شديدة الاهمية ضده ، هو انه

ليس مغتربا مقيما كما في حالته ، فهو عسكري بريطاني ، عرضة للانتقال من بلد الى اخر او عودته الى بلاده بعد انتهاء الانتداب ، ومعنى ذلك انه سيأخذ انجيليكا معه ، وهو امر لا تريده انجيليكا ولا ترضى به امها ، ولا يعتقد ان رفضه ستترتب عليه اية مشاكل كما هو الحال الان مع السردوك ، سياخذ الامر بروح الرجل الاوروبي الذي لن يعاود عرضه لامراة قالت له لا ، اما قبوله ، اوه انه امر سابق كثيرا لاوانه ، يكفي انه عاد من زيارته الى عاصمة القبلة ، وقد زال ما يراوده من قلق بشأن ما كان يمثله السردوك من تهديد له.

رأى اوسادن ياتيه مع اول الليل ،
يسأله عن نتيجة زيارته الى مزده ، مبديا استعداده مرة اخرى لمباشرة قراءة الاوراد ، وقيام الليل ، صلاة وتسبيحا ، للاستعانة بمارد من الجن ، يردع شر السردوك بشر اقوى منه، ربما مرض يتركه طريح الفراش ، فقال بانايوتي ، بعد ان شكر اوسادن على استعداده :

ـ سندع امره لواحد من مردة الانس ، يتولى امره ، بدل ان نعطيه شرف الصراع مع ملوك الجن .

23

شملت التنقلات عددا من المناصب القيادية في المقاطعات التابعة لولاية طرابلس الغرب ، وضمن هؤلاء القادة المحليين المنقولين من منطقة القبلة البريجادير جوناتين هيوز ، والرائد شرطة صالح السردوك ، هكذا جاء الفونسو يحمل الاخبار لصاحب الوكالة ، الذي قام بنقلها لرفاقه من

شيوخ النجع ، دون ان يخبره الفونسو الى اين تم نقل كل منهما ، ولو انه سمع ان الضابط الجديد الذي صدر قرار تعيينه مكان البريجادير هيوز ، هو ضابط انجليزي اخر برتبة كولونيل اسمه جون تاور ،وسبب تعيينه انه باحث في العلاقات العشائرية ، وسيستغل فرصة وجوده في منصب نائب الوالي في منطقة القبلة ، لدراسة العلاقات العشائرية والتقسيم القبلي واليات صنع القرار وبنية السلطة في مجتمع القبيلة ونجوع البادية ، ولم يتضح لدى الفونسو بعد، ان كان لهذه التحولات تأثير على عمله الجديد كصاحب وكالة الحلفاء في وادي الخيل، لانه فعلا استلم الرخصة وينتظر الانتهاء من بناء المرافق لمباشرة العمل، ويتمنى الا ينتهز المنافسون له في الرخصة التي فاز بها عنهم ، فرصة تنحية السردوك ، للطعن في الطريقة التي اخذ بها الرخصة ، باعتبارها تمت بطريقة استثنائية،بحسب ما يدعون ، كما انه لا يعلم بعد ان كانت هناك اسباب وراء الاطاحة بهذا العدد الكبير من القيادات المحلية في المناطق ، ام انها مجرد حركة تنقلات روتينية ، وما يراه الفونسو مهما بالنسبة له ، وبالنسبة لاونكل بانايوتي هو ان

السردوك قد تمت ازاحته من الطريق ، ولم يعد يمثل تهديدا لاحد في هذه المنطقة ، ويرى انه كان ضحية لضغوط وتهديداته بحيث استطاع ارغامه على تطليق زوجته ، وهو يأتي الان بعد تنحية السردوك ، متوسلا لاونكل باتايوتي ان يتيح له فرصة تصحيح ما حدث من طلاق بينه وبين انجيليكا ، ويعودا كما كانا زوجين يحب احدهما الاخر ، الا ان الاب ، الذي رحب به ضيفا في الوكالة ، شكر له ما تجشم من تعب الحضور لنقل هذه الاخبار المهمة ، رد عليه بصراحة راجيا منه الا يعود الى موضوع زواجه من انجيليكا ، لانه ملف تم قفله وانتهى امره ولا سبيل الى فتحه من جديد ، لقد اختار هو هذا الطريق، وهو الذي اراد الطلاق ودخل في صفقة مهينة لا يريد ان يعود الى موضوعها ، ولا ان يوقظ ذكراها ، فقد وطن نفسه على نسيانها ، واهلا باي تعاون بينهما يتم في اطار العمل وتنسيق المواقف وتبادل المعلومات فيما يتصل بعمل الوكالتين .

عرف باتايوتي فيما بعد ان هناك مهلة مقدارها شهر واحد قبل البدء في تنفيذ التنقلات ، فرأى ان يختار يوما

يذهب فيه لتوديع البريجادير هيوز ، وتقديم واجب الشكر له ، لما ابداه من مساعدة في حمايته من حماقات السردوك ، ويسعى ايضا الى الحصول على مزيد الطمانينة منه ، بان السردوك لن ينتهز فرصة ما تبقى له من ايام في المنصب ، في القيام بعمل بانس يانس ضده ، وفعلا وجد نائب الوالي يرحب به ويسأله كما حصل في الزيارة الماضية ، ان يبقى معه للغذاء في البيت ، لانه يريد هذه المرة ان يتوسع في الحديث معه حول بعض الامور المهمة، وانه كان عازما على الذهاب اليه في الوكالة وهاهو ياتي اليه وكأن هناك تواصلا روحيا بينهما ، وفي صالون البيت ، ومع كأس الويسكي الذي استضافه عليه ، حكى له كيف انتهز فرصة اللقاء مع الوالي بلاكلي في طرابلس ، واخذ منه موعدا خاصا خا رج اطار اللقاء الجماعي ، وفي هذا اللقاء الخاص فاتحه في موضوع الرائد السردوك ، وكثرة الشكاوى التي يتلقاها من المواطنين بسبب استهتاره بالقانون وسوء معاملته للناس ، واقترح عليه نقله الى مقاطعة اخرى بمسئوليات اقل من مسئولية مدير الامن ، وقد استجاب الوالي لطلبه ، الا انه استأذنه في البقاء

في طرابلس ليوم او يومين ، لان هناك امرا يريد ان يستشيره فيه ، وفاتحه فيما بعد ، بان هناك ضابطا منقولا من برقة للعمل في طرابلس ، ويقوم بتحضير بحث للجهات الاستخباراتية عن بنية القبيلة الليبية ، ويرى وبعد ان درس هذه البنية في برقة ، ان يدرسها في منطقة القبائل بولاية طرابلس وهي منطقة القبلة ، مع الاستفادة منه في ذات الوقت في عمل تنفيذي هو نائب الوالي هناك ، ولكنه لا يريد ان يفرض الامر فرضا ، بل يترك لاختياره امر الانتقال من ذلك الموقع الى منصب مساعد الوالي في طرابلس ، وسياتي هذا التعيين ضمن حركة تنقلات تشمل عددا من المقاطعات ، فلم يشأ الاعتراض على هذا العرض ، الا انه طلب مهلة للتفكير في المنصب الجديد لان هناك بدائل اخرى معروضة عليه في القطاع الخاص ، وربما يجد في احداها حافزا للقبول ، لانها تتيح له الاستمرار في البقاء في هذه المنطقة بعد انتهاء فترة الانتداب البريطاني للبلاد ، وقد اعطاه الوالي هذه المهلة ، ويتوقف الامر كما افصح لبانايوتي على رأيه هو في الموضوع ، وظهرت علامات الدهشة على وجه ضيفه

اليوناني ، لانه كما قال لمضيفه لا يستطيع ان يتصور اية مهمة يمكن ان يتوقف قبول البريجادير هيوز لها على رايه فيها . الا ان نائب الوالي بعد ان اعد لنفسه كأسا جديدا من الويسكي ، وارتشف جرعات منه، استأنف الحديث شارحا ما يقصده بذلك القول ، وهو ان هناك افاقا واسعة في هذه المنطقة للعمل الحر ، وهناك شركة في بريطانيا تتاجر بالفراء ، عرفت ثراء هذه المنطقة من ليبيا بالثعالب ، وطلبت منه باعتباره حاكم الجزء الصحراوي من ولاية طرابلس ، واكثر ابناء قومه خبرة باهلها ولغتها ، ان ينشيء لها محطة تكون مهمتها صيد الثعالب التي تتولى هذه الشركة الاستفادة بجلودها في صناعة الفراء ، وهي تريد الاعتماد عليه في اختيار من يقود هذه المحطة ، الا انه يريد ان يتفرغ بنفسه لادارة هذه المحطة ، بسبب ما تتيحه من دخل كبير ، وايضا لانها سوف تشبع هوايته للصيد ، اما الهدف الثالث والاهم فهي انها تحقق له رغبة الاستمرار في الاقامة والعمل في هذه البلاد وهذه المنطقة بالذات ، متجولا كما يحب ويشتهي في هذه الفضاءات اللامتناهية ، مستمتعا بشتائها الجميل ، البعيد

عن شراسة الشتاء في الجزر البريطانية ، ويعتزم ان يتخذ من مقر وكالة باتايوتي ، مقرا لمحطة صيد الثعالب ، طلبا للمؤانسة وما يتوفر من بيئة صالحة للعمل والحياة في جنائن العرعار ، وسيبني لنفسه بيتا كما سيبني مرافق للمشروع الجديد ، وياتي هنا الى النقطة التي يستفسر السيد باتايوتي عن معناها ، وهي الاستشارة التي يتوقف عليها قبوله لهذا العرض ، وهذه الاستشارة تتلخص في اسم ابنته انجيليكا ، فاذا ضمن لنفسه الحصول على زوجة من اهل دينه ، تكون اما لاولاده ، متآلفة مثل انجيليكا مع الحياة في البيئة البدوية ، مستعدة للا ستمرار في البقاء والحياة بجوار امها وابيها ، شريكة له في ادارة المحطة المعنية بصيد الثعالب والمتاجرة في فروها ، فسيكون اسعد انسان في العالم بقبول العرض المقدم اليه ، وان لم يضمن وجود هذه الزوجة ، فسيرفض العرض ، مواصلا عمله الحكومي في المنصب الجديد الذي عرضه عليه الوالي كمساعد له .

ودون تردد مد باتايوتي يده الى البريجاير هيوز ، يعاهده بالوقوف الى جانبه في انجاح مشروعه وتحقيق هدفه في

الزواج من ابنته ، ويبلغه موافقته على هذا الزواج دون تحفظ ، ودون شروط ، واعتباره شرفا له ولابنته واسرته ، طالما اختار الاقامة والعمل بجواره في هذه المناطق الصحراوية ، الا ان هذه الموافقة من طرفه ، لا تلزم احدا غيره ، ولا تعني انه سيرغم ابنته على القبول به زوجا دون رغبتها ، فانجيليكا هي صاحبة الحق الاول في الرفض والقبول ، ويعاهده انه سيدعم لديها طلبه ويشجعها على قبوله.

نهض البريجادير هيوز واقفا ، فوقف باتايوتي مجاراة له ، وبتأثر تقدم يعانق باتايوتي عناقا حارا ، معبرا عن عمق امتنانه وشكره لانه بهذه الموافقة يكون قد اقترب من تحقيق امنية العمر بالزواج من امرأة تكمل له شرطا من شروط الاستقرار والهناء ، ويرجوه ان يتكتم على هذه الخطبة ، حتي ينتهي الشهر الذي تبدا فيه عمليات الاستلام والتسلم بين القيادات القديمة والجديدة ، لانه لا يريد استفزاز السردوك في ايامه الاخيرة ، رغم علمه انه لم يعد يشكل تهديدا ولا خطرا ، ولم تعد له الا صلاحيات شكلية ، حتى وان بقى منها شيء حقيقي ، فهو مازال والى آخر يوم

يقضيه في هذا العمل رئيسه الذي يستطيع ابطال كلمته وايقافه عند حده،

اما بعد ان ينتهي الشهر ، فلتقم عندئذ الافراح في كل اركان البادية ، ويسمع بالخبر القاصي والداني واهل الارض والسماء ، وسيقوم باعلان الخطبة في حفل كبير ، متزامنا مع المباشرة في بناء البيت الذي سيكون عش الزوجية لهما في جنائن العرعار .

لا احد يدري كيف عرف السردوك بامر ما اسره البريجادير هيوز اثناء وجبة الغذاء في بيته للسيد بانايوتي ، عن رغبته في الزواج بابنته ، لانه جاء الى مقر العمل غاضبا ، واقتحم مكتب رئيسه بوجه يحتقن بالدماء السوداء ، مستفسرا عن حقيقة ما يقال من انه تقدم لخطبة ابنة بانايوتي . لم يكن هيوز مستعدا لمثل هذه المباغتة من زميله في العمل ، وقد ظهرت على وجهه علامات الاندهاش مما سمع ، لا لان ما تناهى الى سمعه كان غريبا ، ولكن ما رآه حقا غريبا هو كيف وصل الخبر ، ومن أي مصدر ، الى اسماع آخر رجل

يريده ان يصل اليه ، ولكنه الان في مواجهة ما حدث وعليه ان يتصرف ، وكسبا للوقت سأل السردوك عن مصدر معلوماته حول هذا الخبر ، فقد فكر ان السردوك يقول له ذلك على سبيل الظن والتخمين ، اكثر منه على سبيل العلم واليقين ، الا ان السردوك لم يترك لنائب الوالي فرصة ان يتفادى الاجابة ، قائلا انه لن يعطي اهمية لاي مصدر يأتيه بمثل هذا الخبر ، غير صاحب الخبر نفسه ، ولذلك جاء لكي يتأكد منه شخصيا هل فعل ذلك ام لم يفعل ، واراد هيوز ان يكون ديبلوماسيا ، فقال بان ماحدث لم يكن خطبة صريحة ، وانما مجرد كلمة وردت على لسانه عندما جاء ذكر الحياة التي يحياها دون عائلة في هذه البلاد ، فقال لباناپوتي انه لو وجد ان هناك ظروفا تحتم عليه البقاء في هذه البلاد ، واراد ان يبحث عن امرأة يبني بها ، لما فكر الا في امرأة تكون على دينه ، وتنتمي لجزء من العالم الغربي الذي ينتمي اليه ، مثل ابنته انجيليكا. وجاء الدور على هيوز يسأل هذه المرة السردوك ان كان مثل هذا الموضوع يستفزه او يجد فيه ما يخالف الذوق والاخلاق والناموس ، فاجابه السردوك بصوت

يتهدج انفعالا ، ووجه ما زالت تغطيه سحب الغضب ، انه لا يريد ان تكون هذه المرأة سببا في أي عراك ينشب بينهما ، واذا كان نائب الوالي ما زال يريد نصيبه من الصفقة ، فهو لن يتخلى عن ذلك الاتفاق الذي ابرمه معه ، وسيكون راضيا ان يفي بالتزامه نحوه ، بعد ان قضى وطره منها لمدة عام واحد ، وانه لن يقبل الهزيمة في هذا الموضوع ابدا ، مدركا ان لكل شيئا ثمنه ، وان رفض ابنة باتايوتي له ، ومن خلفها والدها ، ليس الا من اجل تقوية الثمن ، وسيعرف كيف يصل بالثمن الى الحد الذي يرضيهما ، وتدخل البريجادير هيوز لتنبيه زميله بما حدث من تطورات لم يعد ممكنا اهمالها ، اثناء النظر والتفكير في هذا الموضوع ، اولها حقيقة ان رفض انجيليكا للزواج منه ليست مسألة مهر بعد ان قدم مهرا يعجز عن تقديمه أي رجل آخر في هذا الجزء من العالم ، ثم انهما الان وقد صدر قرار نقلهما لم يعد لهما قوة يضغطان لضمان الاستجابة لاي طلب منهما لدى عائلة باتايوتي او اية عائلة اخرى في منطقة نفوذهما سابقا، وانه شخصيا لو تقدم لطلب يد انجيليكا ورفضت طلبه ، فلا وسيلة لديه يمارس بها أي نوع من

الضغط عليها ، ولا مجال الا ان ياتي هذا القبول سواء له او للسردوك ، الا بالرضا والقبول ، وبناء على كل ما طرأ من مستجدات فان رفض انجيلكا له ، يعني ان الاتفاق بينهما قد سقط ، وكلاهما حر في ان يسعى لتحقيق هدفه بالاسلوب التي يراه .

نهض السردوك واقفا ، وقال تعليقا على ما سمعه من صاحبه ، بصوت يلونه الانفعال :

ـ اذن فانت تريدها مباراة حرة للفوز بها ، اليس كذلك ؟ لا مانع عندي اطلاقا سيادة البريجادير ، وعلى بركة الله نبدأ المباراة .

خرج مغضبا، وانتبه الى ان السردوك لاول مرة يتصرف امامه بهذه الطريقة ، ويكلمه باسلوب يحمل معنى من معاني التحدي ، ويخرج دون ان يقدم له التحية العسكرية ، وتوقع ان تكون غضبته هذه بداية المتاعب . لقد صدر قرار انتقاله الى نقطة ابو نجيم ، ضابط نقطة هناك، وليس مديرا لامن المقاطعة ، كما هو منصبه الحالي ، ولاشك انه تكهن بان نقله الى هذه المنطقة المتاخمة للحدود مع برقة

، وضآلة الموقع المنقول اليه ، ليس بالمسألة البعيدة عن تخطيط رئيسه في العمل ، ولعل حقيقة ان النقل يشمله بمثل ما جاء يشمل رئيسه قد خففت قليلا من غلوا ء الغضب ضده ، ولكنه بالتأكيد لن يستطيع ان يتخلص تماما من حقده، وهاقد جاء اليوم ليتزود بمزيد من الوقود لمحرك الحقد لديه ، فهو يراه الان بمثابة الرجل الذي سيختطف انجيليكا منه ، رغم علمه ان انجيليكا لم تكن له ، وترفض ان تكون له ، لو جاءها بجبل من ذهب ، الا ان الجنون الذي يمنع الانسان من ان يرى الواقع على حقيقته ، قد تمكن منه ، فهو مجنون بها ، ولعله لا يتصور امكانية الحياة دون ان تكون هذه المرأة في حوزته ، وها هو قرار النقل الذي صدر بشأنه ، يرمي به الى نقطة تبعد مئات الاميال عن مكان اقامتها ، وتبعده مسافة اعوام ضوئية عن مناطق نفوذه وسلطته ، هذا النفوذ الذي صار محدودا ضئيلا، فماذا بامكانه ان يفعل بكل هذا الجنون؟

لقد كان حذرا وهو يدعو بانايوتي الى ان يتكتم على امر خطوبته لابنته ، ومن جانبه سوف لن يخبر احدا بهذه الخطوبة ، ولن يحتفي بها اذا وجدت القبول من

صاحبة الشأن ، الا بعد ان يختفي صالح السردوك في ثقبه الاسود في صحراء سرت .

وراى ان اللياقة تقتضي توديع بعض نجوع الصحراء وشيوخها ، وهو يغادر منصبه ، فنظم رحلة من رحلات الصيد التي يقوم بها في الصحراء ، تتيح له ايضا فرصة المرور ببعض التجمعات السكانية في بعض مناطق الحمادة الحمراء ، وبناء على قرار كان قد اصدره بالمحافظة على الغزلان وحضر صيدها ، فقد منع نفسه ، كما منع كل مرافقيه من تصويب بنادقهم الى أي ظباء او غزلان او وعول ممن يسميها اهل الحمادة بقر الوحش ، مكتفيا بصيد الطيور والارانب والقطط البرية ، واستباقا لمهنة صيد الثعالب التي قد تصبح عملا رسميا له ، قام اثناء الرحلة بتوجيه رفاقه لامكانية اصطياد اثنين او ثلاثة منها ، وهو ما حدث فعلا ، فقد استطاع صيد ثعلب واحد اصابه في مقتل ، واحتفظ بجلده ، وهو ما فعله رفيق شرطي ممن كانوا في ركبه الذي كان عبارة عن سيارتين عسكريتين تجر احدهما الكارفان الذي يستخدمه للنوم ، وجعل المرور على وكالة بانايوتي جزءا من

هذه الجولة ، ولم يكن السبب هذه المرة توديعا ، لانه يعرف ان ثمة رابطة من المرجح ان تجدد الصلة بهذه الوكالة ، وانما ليعرف في كلمات هامسة يتبادلها على انفراد مع بانايوتي ، ماهو رد انجيليكا على طلبه ، وعرف منه انها توافق اذا كان واثقا من انه يستطيع تامين اقامتها مع اسرتها في الوكالة ، وعلى اسوأ الفروض الاقامة في طرابلس ، اذا حدث ظرف يمنع استمراره في العمل في الصحراء ، وان يكون قد فك ارتباطه باي عمل يحتم عليه الانتقال خارج هذه البلاد ، وعاد فرحا الى مزده ، يعد الايام التي سوف تنقضي على انهاء مهمته الرسمية مع الحكومة ، ليباشر بعد ذلك عمله الجديد، ويدخل لاول مرة في حياته دنيا الرجال المتزوجين .

فاجأ السردوك الجميع ، الحكومة والاهالي ، باعلان رفضه الانتقال الى نقطة ابو نجيم ، وكتب مذكرة الى الوالي يرفض فيها تنفيذ قرار النقل ، مبديا اسبابا عائلية لهذا الرفض ، محتجا على الهبوط بمركزه من مدير المنطقة الامنية في اكبر مقاطعات طرابلس ، الى رئيس نقطة حدودية ، ملتمسا من الوالي الجنرال بلاكلي ان يعيد النظر في قراره ،

الناتج عن دسيسة دسها عليه خصومه ، في حين ان سجله يشهد له بجليل الاعمال التي قام بها في سبيل استتباب الامن ونشر السلام والطمأنينة في الصحراء ، التي كانت قبل استلامه لهذا المنصب ارضا مستباحة من قبل اللصوص وقطاع الطرق ، وجاء الرد سريعا بان الاعراف العسكرية تنكر هذا الاسلوب في الاحتجاج ، وان الوالي يعطيه انذارا اخيرا لكي يختار بين الاستجابة لقرار النقل او التعرض لمحاكمة عسكرية قد يترتب عليه تنزيل رتبته وربما طرده من الخدمة ، وجاء رد السردوك حاسما قويا، ارسله الى الوالي عن طريق البريد ، وقبل ان يصل رده الى طرابلس ، كان هو قد غادر البلدة ليلا ، متجها الى عمق الحمادة الحمراء ، بعد ان اخلى مركز الشرطة من كل قطعة سلاح وذخيرة ، واخلى الخزانة من كل قرش بما في ذلك المرتبات الموجودة فيها على ذمة الصرف لافراد الشرطة ، وقال في رده على الوالي انه يستقيل من سلطة الحماية البريطانية ويعلن رفضها والانخراط في خدمة حكومتها لانها حكومة غير شرعية ، ووجود الوالي

نفسه لا شرعية له ، وانه سيقود حركة تمرد وعصيات تجبرقوات الاحتلال البريطاني على الجلاء.

هكذا راى نائب الوالي كيف البس السردوك استقالته وعملية النهب والسطو التي قام بها لمركز الشرطة ، لباسا وطنيا ، واسدل هذا الغطاء الشريف فوق ما سيقوم به من اجرام ولصوصية وقطع للطرق ، فاي اجبار هذا الذي سيقوم به لقوات الاحتلال على الجلاء ، وهم يعلنون ان انتدابهم على وشك الانتهاء ، وتسليم البلاد لحكومة من اهلها ، ان لم يكن تدجيلا وكذبا وادعاء .

في اليوم الثاني لهروب السردوك تلقى نائب الوالي استدعاء الى طرابلس للتشاور مع الوالي ، الذي طلب شرحا لهذا الموقف الذي اسفر عنه السردوك ، فافهمه ان هروبه يأتي تاكيدا للشبهات التي دارت حول تعاونه مع بعض العصابات ، كما ياتي تصديقا لما قاله له عن السردوك عندما طالب بنقله واعفائه من تولي المسئوليات القيادية ،فهو برغم حقيقة الدور الذي قام به في القضاء على عصابات الصحراء ، الا انه ابقى بعض الخيوط في يديه توصله بافراد من تلك

العصابات ، وهو يذهب الان ليستأنف علاقة قوية ووطيدة ربطته ببعض اهل المهنة ، بل ان واحدا من اعضاء هذه العصابات ، واسمه رشيد ، جاء به ليكون عسكريا معه ، وقد كان واحدا من الذين فروا معه الى الحمادة الحمراء ليكون فردا من افراد عصابته ، وسيشكل السردوك في مرحلته الجديدة خطرا حقيقيا على الامن ، بسبب الخبرات التي اكتسبها كمدير للامن ، عارفا بوسائل المقاومة وامكانيات السلطة واساليبها ، ولكي تحقق الحكومة احراز النصر عليه ، فلابد من حشد قوة كبيرة، والاستعانة بخبير من خبراء الامن الليبيين ، يحتل المنصب الذي كان يشغله ، ليتولى ادارة حملة للقضاء عليه ، والا فستشهد طرق الصحراء على يديه عودة للفوضى وانهيارا للامن يصعب السيطرة عليه.

كان هبوز قد مهد الطريق مع الوالي ، لفكرة انسحابه من العمل الحكومي ، متفرغا للعمل الخاص ، وشرح له كيف ان هذا العمل الخاص هو صيد الثعالب لحساب شركة بريطانية تعمل بصناعة وتجارة الفراء ، مؤكدا له كيف

ان منطقة الحمادة الحمراء تضم مستوطنات من الثعالب ستكون مصدرا من المصادر الكبيرة لمادة الفراء الثمينة ، وموردا للعملة الصعبة للبلاد ، وباعتبار ان الثعالب لن تنفد من الصحراء ، مهما كثر اصطيادها ، فهو يتوقع ان يستمر في هذا العمل سنوات كثيرة بعد انتهاء حكومة الانتداب ، واجدا في مناخ اصحراء طقسا يلائم صحته ، اكثر مما تلائمه المناطق البارده بسبب ما يعانيه من حساسية في عموده الفقري للبرد والرطوبة . وقد وافقه الوالي على وجاهة الفكرة متمنيا له النجاح في العمل والحياة ، الا انه ، كما قال له ، لم يكن ممكنا ان يتركه يمضي دون ان يجد طريقة للاستفادة من خبرته في التعامل مع المنطقة التي عرف خريطتها الاجتماعية والطوبغرافية ، ولذلك فهو سيعرض عليه ان يرتبط بعلاقة عمل ذات طبيعة استشارية مع نائب الوالي للمنطقة جون تاور ، وهو عمل لن يأخذ منه غير ساعة واحدة في الاسبوع ، يلتقي فيها به ليعطيه خلاصة رايه فيما يعرض للوالي من قضايا ، واثقا ان خبرته ستكون مطلوبة بالحاح في مرحلة المواجهة القادمة مع السردوك ، واقترح عليه الوالي

ان يمر على مكتبه في الغد ، عند الساعة العاشرة صباحا ، ليجد لديه الكولونيل جون تاور ، فيتعرف عليه . واعجبته فكرة ان يبقى على صلة بالعمل الرسمي ، فهو يحتاج لهذه الصلة التي ستكون ذات فائدة عملية بالنسبة لمحطة صيد الثعالب ،كما ستكون ذات فائدة لتعزيز حماية الوكالة ، خاصة وان السردوك في وضعه الجديد كرئيس عصابة تجوب الصحراء ، لن يكون صعبا عليه استهداف وكالة بانايوتي بارهابه واجرامه وانتقامه .

عندما حان موعد اللقاء في اليوم التالي ، وقام الجنرال بلاكلي بتعريفه بالكولونيل تاور ، وجد رجلا يرتدي الملابس المدنية ، له ملامح عذبة رقيقة ، لا توحي بالانتماء لمهنة العسكرية ، وعرف ان مبعث ذلك جذوره الاوروستقراطية وانتمائه الى عائلة من نبلاء الارض الزراعية في منطقة كينت ، جنوب شرق بريطانيا ، قريبا من كانتربري حيث مركز رئاسة الكنيسة الانجليكية ، وقد احس بالارتياح والالفة معه ، ووجد ترحيبا منه للعمل المشترك بينهما في مستقبل الايام .

عاد هيوز الى مزده ليواصل عمله الذي تنتهي مهلته بعد اسبوعين ، ووجد ان عليه ان يتولى بجوار مسئولياته في الادارة ، المسئولية الامنية التي ظل مركزها شاغرا بعد هروب السردوك ، وقد تزامن مع وصوله وصول شحنة من الاسلحة ارسلها الوالي من طرابلس تعويضا للسلاح الذي سطى عليه السردوك، جاءت الاخبار بعد يومين من عودته الى مزده، عن عملية سطو في الصحراء قامت بها عصابة السردوك ، مستخدما اسلوبا تمويهيا جديدا ، يدعي ان ما يقوم به من سطو انما هو لصالح الفقراء دون ان يسبب الا الضرر القليل للاغنياء من اصحاب القوافل ، فقد هاجم قافلة كانت في طريق العودة من مرزق في اقصى الجنوب الى مصراته الساحلية في الشمال ، ولم يأخذ من اهلها الا نقودهم وحلي نسائهم ، وترك لهم احمالهم من التمر والقمح والشعير ، عدا نسبة قليلة من هذه الاحمال اعطاها لواحد من النجوع ، تابعا لقبيلة المطري ، وهي قبيلة فقيرة قليلة العدد ، ليشيع بين الناس انه نصير الفقراء ولا يأخذ الا

حق الله في هذه القوافل ، وطبعا كان البريجادير هيوز عارفا بالاعيب السردوك ، وارسل تقريرا الى طرابلس ، لتنبيه الوالي الى هذه الحيلة التي يريد السردوك من ورائها كسب الحرب الدعائية لصالحه ، لاستقطاب قلوب السدج والمساكين من اهل الصحراء ، مبلغا اياه بحجم القوة التي سيرسلها من مزدة لملاحقة هذا المجرم الهارب ، طالبا منه سرعة ارسال التعزيزات ، وكان قد وضع على رأس القوة ضابطا ارسله له نائب الوالي في غريان،

لا يعرف السردوك ولم يكن يتعامل تحت امرته كما هو حال بقية العساكر والضباط الموجودين في مركز مزده، وزوده بتعليماته المشددة بان يكون حازما مع اعضاء فرقته، لئلا يكون باحدهم ضعف او ميل للسردوك لطول عشرته لهم ، وان يجتهد في محاصرة السردوك، وملاحقته، والقبض عليه، وتفادي قتله قدر الامكان ، وارسل القوة في ثلاثة سيارات صحراوية ، املا ان تاتي التعزيزات لارسال قوات اكبر في الايام القادمة ،وقد جاءت المعلومات ان السردوك يتحرك الان بقوة قوامها عشرة انفار يستخدمون الجياد ، وهناك احتمال

انه يستطيع بهذه الجياد ان يختفي في شعاب وعرة قد لا تصلها سيارت الامن ، الا ان المهم ، كما اتفق مع قائد القوة ، انهم حتى وان فشلوا في القبض عليهم ، فلا يريد فشلا في محاصرته ومنعه من الحركة ، معزولا في الخروم الجبلية التي لجأ اليها لا يستطيع مغادرتها لمهاجمة المعابر وما يمر بها من قوافل . وقبل اسبوع من انتهاء مهماته التحق به الكولونيل جون تاور ، يشاركه المبيت في نفس البيت الحكومي ، ويذهب معه الى المكتب، ويلتقي معه بشيوخ القبلة، واعيانها، وموظفيها ، ويباشر قراءة الملفات، والتعرف على القضايا المعلقة ، بمساعدة البريجادير هيوز ، ليكون جاهزا لاداء المهمة لحظة اكتمال عملية التسليم والتسلم ، وقد افهمه انه سيترك له السيدة التي تخدم المنزل، وهي امراة سمراء متقدمة في العمر، اسمها حواء ، وزوجها الذي يعينها في العمل، ويقوم بحراسة البيت، ويسقي نباتات الحديقة، ويقوم بغسل السيارة، واسمه مرزوق ، ولهما ابن وابنة متزوجان في احدى قرى الجنوب، ويقيمان في غرفة مستقلة بمنافعها بجوار بوابة البيت ، ولكنه سيحتفظ معه برجل ينتمي

ايضا الى الفئة السمراء اسمه عثمان، هو سائقه ومرافقه، وسياخذ تقاعدا مبكرا من عمل الدولة ليتفرغ لمعاونته في عمله الحر .

24

لم يكن سهلا على بانايوتي اقناع انجيليكا بفكرة الزواج مجددا، بعد العرض الذي تلقاه من نائب الوالي . كان قد اقنع امها قبل ان يفاتحها في الموضوع واتفق مع الام ان الرجل يمثل فرصة ذهبية قد لا تتكرر ، فهو رجل من طبقة الحكام ، لم يسبق له الزواج ، وينتمي الى نفس الدين ، ويريد ان يعيش ويعمل في هذه البلاد، بل وفي نفس موقع الوكالة ، ولهذا فهو يطلب منها ان تكون عونا له على اقناع انجيليكا ، واخراجها من هذه الحالة النفسية ، حالة النفور من الزواج ، فليس كل الرجال الفونسو، وهي لا تترك الفونسو لتذهب الى السردوك ، كما هو الحال مع العرض السابق ، وانما لكي تذهب الى رجل بريطاني ، صاحب مركز كبير في الحكومة ، واذا تركه فالى عمل افضل واكثر تميزا في التجارة ، ولا شيء يعيبه في سلوكه او اخلاقه ، كما لا شيء

يعيبه شكلا وعمرا ، ثم بعد ان وجد استجابة من زوجته ، اتفق معها على طرح الموضوع في جلسة تجمعهما مع انجيليكا ، واستهل الاب الحديث عارضا رغبة هيوز في الاقتران بها ، مبديا رأيه الايجابي في الرجل ، ومباركته لهذه الخطبة ، وعقبت كاتيا على كلام زوجها تؤيده و فتضيف هي ايضا مباركتها لمثل هذه الزيجة ، ومع ذلك فقد جاءت اجابة انجيليكا تاكيدا لموقفها السابق النافر من الزواج ، وسألاها ان تعطي نفسها مهلة للتفكير فيما قالاه لها ،وان تفكر بشكل خاص في ظروف المعيشة التي يعيشونها في هذه القفار، فمثل هذا الرفض امر مقبول ومعقول لو انه حدث وهم يعيشون في اثينا حيث فرص الاختيار والاختلاط كثيرة امام امراة في مقتبل العمر ، ترفض خطيبا واحدا وثانيا وثالثا حتى تجد الخطيب الذي تحب وترضى ، ولكنها هنا في قفر من قفار الارض ، وبيداء تحيط بها البوادي ، وفرصة مثل هذا الخطيب الذي جاءها الان ، راغبا في الحياة مع اسرتها في هذه الفيافي الجدباء ، قد لا تتكرر خلال عشرين او ثلاثين عاما يكون خلالها قطار الزواج قد فاتها ، ولهذا فان والداها يدعوانها

لمعاودة التفكير ، وتركاها نهارا وليلة وعادا اليها في اليوم التالي وامهلاها يوما ثانيا ، وكانت امها اكثر الحاحا من والدها ، حتى لانت عريكتها ، وبقى شرطها الوحيد هو انها اذا تزوجته فانها لن تذهب معه الى أي مكان يذهب اليه ، ولن تغادر اطلاقا هذا المكان حيث يعيش والداها ، وكان هذا هو الشرط الذي وضعه هيوز في حسابه قبل ان يتقدم للخطبة ، مستعدا لتلبيته لانه يتوافق مع رغبته الخاصة في ان يبقى عائشا في مثل هذه البيئة البدوية ، وانتهز فرصة وجوده لوقت قصير في الوكالة اثناء الزيارة التي عرف فيها هذه الموافقة ، وقام رفقة باتايوتي بجولة في محيط الوكالة لاختيار افضل موقع لبناء البيت ، واختاره بعيدا بضعة مئات من الامتار عن ابنية الوكالة ، حيث توجد تبة صغيرة ، تعطيه ميزة الارتفاع على ما حوله ، وايضا ليترك لنفسه براحا واسعا للبيت ولابنية اخرى تحتاجها محطة صيد الثعالب ، قائلا لباتايوتي انه سيبنيه على طراز البيوت في بريطانيا من طابقين وله شرفات عالية واسقف يزينها القرميد الاحمر ، ومن حوله حديقة وبالحديقة حوض للسباحة ، وجوسق

للجلوس تحت السماء المفتوحة ليلا وشرب الشاي مساء عند اعتدال الطقس ، مع باتجالو لجلسات الصيف الليلية وحفلات البارباكيو ، ويجب ان يكون هناك متسع خارج البيت لابنية اضافية جاراجات وزرائب لكلاب الصيد واسطبل للخيل مع محل لمبيت العمال ، وبعد ان ترك الوكالة عائدا الى مزده ، ظل همه هو ترتيب الامور لما بعد تقاعده المبكر من العمل العسكري ، ومناقشة تفاصيل عمله الجديد مع اصحاب الشأن عند زيارته لطرابلس ، والاتصال بالمهندس المسئول على رسم خريطة البيت والمرافق الاخرى ليباشر عمله وفق الرؤية التي يراها هيوز ووهو يفعل ذلك قبل ان يترك منصبه ،كسبا للوقت ورغبة في ان تباشر الشركة اعمال التنفيذ في اقرب وقت ممكن.

جاء خبر هروب السردوك للصحراء ، وتمرده على الحكومة ، ليكون اكثر الاخبار اثارة بالنسبة لمجتمع الوكالة ، وكان موضع حديث من باتايوتي واعضاء جلسته من شيوخ النجع الذين وجدوا فيه سببا للقلق واخذ الحذر ، فالسردوك لم يكن يخفي رغبته في الانتقام من باتايوتي ، واصراره على

فرض ارادته بالقوة عليه وعلى اسرتها، ولن يزيده موقعه الجديد الا جموحا وجنونا في هذا الاتجاه ، ولابد من التفكير في وضع التدابير الكفيلة بمواجهة هذا الخطر. لقد جاء ذات مرة جالبا معه تجريدة عسكرية يريد ان يحمي بها الوكالة من خطر الهجوم الطارقي ، الذي لم يكن الا هجوما وهميا من اختراعه ، اما هذه المرة فقد صار هو، ولا احد غيره ، مصدر هذا الخطر، ويستحق تجريدة عسكرية اخرى استعدادا لمواجهة حقيقية معه ، وبعد انقضاء الجلسة ، اراد باتايوتي ان يستفرد بصديقه اوسادن في حديث خاص حول نفس الموضوع ، قائلا له انه صار بامكان السردوك الان ، ان يلجأ هذه المرة لتقليد من تقاليد اهل الصحراء في تحقيق مايريد ، هو الغزو ، ولابد كما يرى باتايوتي من الاستعانة بالحكومة لحماية الوكالة من هجومه المنتظر ، ولكن اوسادن، الذي تربى في بيئة بدوية طارقية لا يدخل في حساباتها اللجوء الى الحكومة ولا الاستعانة بها ضد الخصوم، اقترح فكرة الدفاع الاهلي القائم على تكوين مجموعة متطوعي الوكالة للدفاع عنها ، وباتايوتي يدرك وجاهة الفكرة ، الا انها تحتاج

لامكانيات لا تتوفر لمجتمع الوكالة بسبب اختلافه عن مجتمع العشيرة ، نعم هناك نجع، وهنا نجع ، لكن الفرق شاسع بين النجوع ، نجوع البادية التي تعتمد على قوة من ابناء العشيرة لحمايتها ، تقوم على صلة الدم وعصبية الرابطة التي تصنعها تلك الصلة ، اما هنا فالناس اشتات ،واعراق ، والوان ، لاتجمعهم الا صلة الجوار التي يحتمها البحث عن لقمة العيش ، ولذلك فهو هنا مجتمع اقرب الى المجتمع المدني الذي يعتمد في حمايته على نوع آخر من العلاقات ، غير العصبية العشائرية وعلاقة الدم ، وهي تلك الناتجة عن الدولة وقوانينها ، فهو هنا مجتمع لا يستطيع ان يعيش بعيدا عن تلك الانظمة وقوانينها وحمايتها ، الا انه لا ينكر الصلة التي تربطة بمجتمعات البادية ونجوعها ، من حيث البيئة والظروف والعزلة بين الجبال ، والبعد عن مراكز العمران ، ولهذا فهو سيحاول ان يجد صيغة تجمع بين الاقتراحين ،اقتراح اوسادن باللجوء للجهد الاهلي ، كما يحدث في مجتمع العشيرة ، واقتراحه بضرورة الاستعانة بالحكومة ، املا اذا تم ارجاء الفكرة لايام قليلة فسوف يعمل على الاستعانة بجهود السيد

هيوز للحصول على هذا العون الحكومي وانشاء قوة من شباب النجع تتحصل على السلاح والتدريب من مصدر حكومي .

وفي اليوم الاول الذي اعقب انتهاء عمله الرسمي جاء هيوز الى الوكالة في سيارة صحراوية ، يقودها عثمان ، سائقه الذي تفرغ للعمل الخاص معه ، وعرض عليه بنايوتي ان يستضيفه في البيت الذي كان اقامه للفونسو وابنته ، باعتبار ان انجيليكا ستعود للاقامة في بيت والديها ، الا ان هيوز قال انه لم يات الا لاستقبال شركة المقاولات التي ستباشر بناء البيت ، لكي يريهم الموقع ، وفعلا وصلت الشاحنة التي تقل مساحا وبعض العمال ، لمعاينة الموقع والقيام بحفر الاساسات ، حيث عاين معهم المكان ، وتركهم يبنون هانجرا لاقامتهم ويبدأون الخطوات الاولى في تأسيس عالمه الجديد ، ليقضي ما تبقى من يومه صحبة صهره الجديد في المكتب والبيت ، مبلغا اياه بانه سيعود الى طرابلس لاستكمال اجراءات المحطة التي سيقيمها لصيد الثعالب ، ولعله يأخذ اياما قليلة على سبيل الاجازة التي تعود ان يقضيها

مع اصدقائه في مالطا ، متسائلا ان كانت انجيليكا وامها
ووالدها يأمرون بان يجلب لهم شيئا من رحلته في الخارج ،
وعندما لم يذكر له باتايوتي أي طلب خاص ، تطوع بالقول انه
سيقوم باحضار ثوب عرس جديد من مالطا لترتديه انجيليكا
يوم عرسها ، وهنا فاتحه باتايوتي بمخاوفه حول العراقيل التي
يمكن ان يقيمها السردوك امام هذا العرس ، الامر الذي رد
عليه هيوز بحزم وقوة قائلا ان السردوك لن يستطيع ان يفعل
شيئا فالبلاد ليست غابة ، وهناك دولة لها قانون يحمي
المواطنين ، وفاتحه باتايوتي بالاقتراح الذي اتفق عليه مع
اوسادن ، ورغم تطمينات هيوز بان هناك قوة ضاربة من
عناصر الامن خرجت لملاحقته ومحاصرته ، ستجعله عاجزا
عن تنفيذ تهديداته ، الا ان باتايوتي ظل شديد الشك في ان
السردوك سيخضع لمثل هذا الحصار الذي تفرضه عليه
مجموعة من سيارات الامن في صحراء قوامها الاف الاميال ،
لانه سيجد وسيلة للنفاذ من حصارهم والتسلل الى اي مكان
يستهدفه بالهجوم مثل هذه الوكالة ، قبل ان يجدوا فرصة
للانتباه اليه . ووعده هيوز بان يفاتح الكولونيل تاور في امر

المعونة التي تريدها الوكالة ، وسيتولى بنفسه الاشراف مع اوسادن على تاسيسها عند عودته، معبرا عن رايه في انه مهما كان خوف باتايوتي من السردوك فانه لن يشغل نفسه بالوكالة الا في حالة استفزازه باقامة العرس وهي مرحلة قادمة ، سيكون الاستعداد عندها كاملا للتصدي له ، وقبل انقضاء النهار غادر هيوز الوكالة ، تاركا لباتايوتي واوسادن عبء التفكير في حماية الوكالة من أي تهديد مهما كان احتماله كما قال هيوز ضعيفا في هذه المرحلة ، فهما لا يستطيعان اغفال الامر دون اتخاذ اجراء مهما كان ضئيلا ، وتمثل هذا الاجراء في القيام بغفارة ليلية على الوكالة ، يتناوب عليها سبعة رجال من اهل الوكالة ، ولقيت الفكرة موافقة شيوخ النجع ، بل تطوع عدد منهم للمشاركة في هذه الغفارة مثل الاومباشي جبران والسيرجينتي خليفة ، كما شارك فيها باتايوتي واوسادن ، وتم اختيار ستة من شباب النجع يكملون العدد بحيث تحل الغفارة ليلة في الاسبوع على كل واحد منهم يقضيها يقظا، تحسبا لاي طاريء ، ومن كان

يملك بندقية جاء بها ، ومن لا يملك تمت اعارته واحدة من البنادق خلال خفارته للوكالة .

وتتالت الايام دون ان تتعرض الوكالة لاي خطر ، توارى الخريف وبدا الشتاء يطل بلسعاته الباردة، ساد الهدوء خلال هذه الفترة الانتقالية التي شهدت غياب ادارة قديمة ومباشرة ادارة جديدة مكانها ، ولم تظهر اخبارا عن السردوك ، فهم لم يقبضوا عليه بعد ، الا ان نشاطاته في السطو والنهب ايضا غابت عن اخبار البادية ، فقد جاء شلومو وذهب اكثر من مرة دون ان ينقل شيئا عن تحركات تلك العصابة ، غير ان هذا الهدوء وهذا الغياب لاخبار السردوك لم يكن ليفرح باناليوتي كثيرا ، فهو يعرف ان خصمه في مكان ما يضع اذنه فوق الارض ينصت لدبدباتها عله يتلقى نامة دبدبة قادمة من جهة الوكالة ، تنبيء بمباشرة الاحتفال بعرس انجيليكا ليأتي متدفقا بخيول عصابته يداهم كالسيل هذا العرس ، لكن ما طمأنه قليلا هو ان سيارة صحراوية عسكرية ، جاءت من قبل الكولونيل تاور ، تحمل شاويشا اسمه سليمان ، كان قد وصل ضمن

القوة التي جاءت لتعزيز مركز مزده، وكان رجلا فارع الطول ، قوي البناء ، عريض المنكبين ، حاملا في سيارته عشرين بندقية ، وخيمة ، وشارة للرماية والتنشين ، وحمولة من المواد الغذائية التموينية ، وبسرعة اعانه اهل الوكالة في نصب خيمته ، واختيار مساحة من الارض جعلها ميدانا للتدريب والرماية بعيدا عن مجال حركة الناس والحيوانات ، وتم اختيار عشرة من شباب النجع ، ممن لم يسبق مشاركتهم في المناوبة على الحراسة ، ولا دراية لهم بالسلاح، ليبدأ تدريبهم على اسس جديدة ، وليكونوا نواة القوة الاحتياطية الموكول اليها حماية الوكالة ، بمشاركة الشاويش سليمان ، وباشراف ورئاسة اوسادن .

غاب هيوز ثلاثة اسابيع وعاد ليجد الوكالة في حالة استنفار لمواجهة أي هجوم يمكن ان يقوم به السردوك الذي ما زال هاربا في بعض فجوج الجبال ، لم تستطع فرق المطاردة العثور عليه بعد مروراكثر من شهرين على اختفائه ، وقد امضى الشاويش سليمان اسبوعين في تدريب الشباب الذي ابدوا اجتهادا ونجابة في الانتفاع بما

يتلقونه من دروس ، ووجد ان الكولونيل تاور كان كريما مع هؤلاء المتدربين العشرة عندما طلب منهم التفرغ تفرغا كاملا للتدريب مقابل تعويضهم ماديا عن الدخول التي يحصلون عليها من جمع الحلفاء، ويحتفظون بعد الانتهاء من التدريب ببنادقهم ويعودون لمواصلة عملهم في جمع الحلفاء ، في حالة استعداد دائم لاي ظرف طاريء يقتضي استدعائهم للدفاع عن الوكالة ، وفي ذات الوقت واصل اعضاء الحراسة مناوبتهم ، وباعتبار ان هيوز جاء ليقيم بضعة ايام في الوكالة فقد وافق على اقتراح باتايوتي باستخدام بيت ابنته خلال هذه الاقامة القصيرة ، لان ظروف تجهيز المحطة ، تقتضي ان يتردد كثيرا على طرابلس ، لانه حال الانتهاء من تجهيز البيت سيبدأ في العمل يعاونه اثنين من الصيادين المهرة الذين سياتون بكامل عدة الصيد من طيور الافتراس وكلاب الصيد غير سيارتي جيب لاستخدامهما في العمل ، وما تتطلبه عمليه صيد الثعالب من بنادق صيد واستخدام جواد او اثنين في المناطق الشديدة الوعورة التي لا تدخلها السيارة، بالاضافة الى سيارته التي يتنقل بها لان ، وسائقها الذي يلازمه في حله وترحاله ، وقد

خصص له مكانا للاقامة المؤقتة مع عمال البناء ، يشاركهم مبيتهم ويتابع معه اعمالهم وينقل الى المساح تعليمات رئيسه هيوز ، وكان مجيء فريق البناء قد تبعه ، مجيء شاحنة تحمل الة حفر عملاقة تسمى

"الصوندا" مؤهلة للغوص في اعماق الارض مئات الامتار وصولا الى الماء في منابعه التي تختفي في الطبقات الصخرية السفلى ، للحصول على مورد غزير ودائم للماء ، ولانه اتضح ان المياه ستكون ساخنة وبها نسبة من الكبريت ، فقد تم الاتفاق على بناء بحيرة صناعية امام البيت الجديد ، لتكون مكانا لتبريد الماء وتصفية الكبريت الذي سيبقى في قاع البحيرة بعد استقرار الماء فيها فلا يطفو الا الماء الصافي الصالح للاستهلاك البشري والحيواني واستخدامه في سقي المغروسات ،وهي فكرة رحب بها هيوز ليس فقط للضرورات العملية ، وانما لما رآه من انها تخدم جانبا جماليا ، فهذه البحيرة الصناعية ستجعل بيته يشرف عليها ، وبامكانه ان يحدث تعديلا فيصنع شرفة كبيرة تطل عليها ، ومن ناحية ثانية فوجود الماء في البحيرة سيكون متيسرا في كل وقت

ليستطيع أي عامل ان يحمل خرطوما يسقى به الغلاف النباتي المحيط بالبيت ، وقد اثبتت ارض الوكالة ، من خلال ما زرعه باناپوتي من اشجار ونباتات انها ارض صالحة لانبات الاشجار المثمرة متى توفرت المياه ، فلعله يستطيع ان يحقق حلما صغيرا بان ينقل الى هذه البيئة اخضرار وجمال الاشجار في كورنويل من اطلال بيوتها على الماء كما هو حال بيته وبيوت العائلة المطلة على المحيط، مستفيدا في ذات الوقت من دفء الطقس هنا ووجود الشمس المشرقة المشعة في في كل الفصول . وكان اول شيء فعله بعد عودته واستقراره في بيت ابنة صاحب الوكالة ، هو ان قام اثناء وجود باناپوتي معه في البيت واحضر له صندوق الكرتون واخرج منه الفستان اللامع البياض كالثلج ، فستان الفرح ، هدية منه لخطيبته ترتديه ليلة الزفاف ، كما اراه مجموعة من الحلي من بينها شبكة الخطوبة وهي طقم يتكون من اسورة وخاتم واقراط ودبلتين، اراد ان تراه خطيبته ، ليقوم في الايام القريبة القادمة بتقديمه رسميا اليها ووضع خاتم الخطوبة في اصبعها ، الا ان باناپوتي اقترح الا يقام فرح بالغناء والزغاريد والموسيقى ، لكي لا يثير

ضجيجا يلفت الانظار وتصل اخباره الى السردوك ، المهم حسب رايه هو ان يقام حفل الخطوبة في اطارعائلي ضيق ، لاشهار وتاكيد هذه الرابطة ، والوفاء بهذا التقليد الذي يسبق العرس ، مؤجلين الاحتفال الكبير الذي تصدح فيه الموسيقى وترتفع فيه العقائر بالغناء الى حين ان يحين موعد العرس الذي سيقام بعد الانتهاء من بناء البيت وتأثيثه ، ولم يكن هيوز يعنيه ان تكون الخطوبة محفوفة بضجيج الغناء والموسيقى او لا تكون ، المهم بالنسبة له ان المرأة التي سكرت بخمر جمالها الرؤوس قد اصبحت من نصيبه ، موعود بها هو وحده، رفيقة لعمره وشريكة لحياته ، وبادر بان اتفق مع ابي فاس بشراء عدة خراف تم نحرها لتكون وليمة عظيمة تصل قصاعها الى كل خيمة وكوخ من خيام النجع واكواخه، واكتفى بحفل صغير صامت في بيت صهره باناپوتي لم تحضره غير اسرة العروس واوسادن وزوجته حيث جلس بجوار خطيبته يضع خاتم الخطوبة في يدها .

وكان يأمل بعد انتهاء الخطوبة ان يستفرد بها متنزها معها في فترة الغروب عبر الخلاء المحاذي للوكالة، الا ان والدها مسايرة لقواعد التعامل في المجتمع البدوي الذي يحيط به ، لم يستطع الموافقة على تلبية هذه الرغبة التي ابداها السيد هيوز ، لكي لا يثير القيل والقال ، راجيا اياه ان ينتظر حتى اقامة حفل الزفاف ، ولان هذا التواصل مع خطيبته بقى محظورا ، فقد غادر الوكالة ليواصل اتصالاته مع مندوبي شركة الفراء في طرابلس ومقاوليها ، وافلح في اقناع المقاول الذي يتولى تشييد المباني بمضاعفة الجهد واضافة مزيد من العمال والالات لانجاز المشروع باكثر سرعة ، وعاد الى الوكالة ليراقب بنفسه المراحل الاخيرة في البناء واخذ مقاسات الابواب والنوافذ وتوفير الرخام والزليج والمواد الصحية لتكون كلها جاهزة للتركيب ، كما قام باكثر من زيارة الى موقع التدريب ، وشارك في تعزيز هذا العمل باحضار مدفع رشاش ، من مركز مزده ، او ما يسمى طقطاقه ، استطاع الفوز بها من خليفته الكولونيل تاور ، الذي يلتقي به في اجتماعات تشاورية دورية، القى دروسا للمتدربين عن كيفية

استعمالها ، وحضر في ذات مساء حفل التخرج الذي تمت اقامته للمتدربين واعطائهم شهادات تحمل اسماءهم ، باتمام عملية التدريب ، واستجاب الكولونيل تاور لطلبه بان يبقى الشاويش سليمان بسيارته وخيمته ، للقيام باعمال الحراسة على الوكالة طالما ظل السردوك طليقا لم يتم القبض عليه ، وكعادة الطبيعة في فصل الشتاء داهم الوكالة اكثر من وابل من المطر ، كان غالبا ما ياتي ليلا ولا يستمر لغير ساعتين او ثلاث ساعات ولكنها كفيلة باحداث سيول عبر المسارب التي تغذي صهاريج الماء، ويستعد لها اهل النجع باحاطة خيامهم واكواخهم بسواتر ترابية تمنع تسرب المياه الى داخلها ، وكان يوم الشجرة الذي تحتفل به البلاد والذي يقوم فيه الناس بغرس الاشجار قريبا فاقترح هيوز على اهل الوكالة ان يشاركوا في هذا اليوم ، وان يستفيدوا بالشتلات التي يتم توزيعها مجانا من مكاتب الحكومة ، وارسل سائقه عثمان الى مزده لاحضار نصيب الوكالة من هذه البذور والشتلات للمشاركة في يوم الشجرة طالبا من اهل النجع ان يخصصوا ساعة واحدة في الصباح قبل ذهابهم الى الشعاب لهذا العمل ،

وتم اختيار المناطق بمعرفة المساح ومشاركة كل من هيوز وباتايوتي ، التي يتم فيها وضع هذه الشتلات والفسائل والبذور ، وعندما انتهى اهل النجع من هذه المهمة عائدين الى شعابهم واصل مع سائقه عثمان غرس مزيد من شتلات وفسائل الاشجار التي يريدها ان تحيط ببيته وتكون موجودة في حديقته ، بعد ان تكفل جمهور النجع بغرس تلك التي تحيط بالموقع المرسوم للبحيرة الصناعية ، وهي البحيرة التي سيبقى حفرها مؤجلا الى حين الانتهاء من تشييد المرافق الاساسية للمشروع .

لم يكن هناك بريد يصل الوكالة ، واي بريد لاحد من الوكالة ، لابد ان يبقى في انتظار اصحابه بمكتب بريد مزده ، وهو جزء من المجمع الاداري الصغير الذي يضم مكاتب نائب الوالي ومركز الشرطة ، فكان هيوز لدى عودته من طرابلس الى الوكالة ، او خلال اجتماعه الاسبوعي مع نائب الوالي ، يمر بمكتب البريد ليأخذ ما يخصه او يخص باتايوتي من رسائل ، وقد وجد رسالة وصلته من عمته سامنتا

، فقرر ان يكتب رسالة للرد عليها ، اثناء وجوده في مقر اقامته المؤقتة بالوكالة ، قائلا فيها

عمتي العزيزة سامانتا

استطعت اخيرا ، دون اسف او اسى ، ان افك ارتباطي بالوظيفة العسكرية الحكومية ، وقد حدث ذلك منذ اسابيع قليلة مضت ، لعلها ستة او سبعة اسابيع ، لانني تحررت حتى من ضرورة احصاء الايام ومعرفة في أي يوم من العام هذا اليوم من اجل ارضاء السجل الحكومي الرسمي ، ولم يبق لي مع العمل الحكومي الا خيط رفيع جدا ، في شكل استشاري لا يحتاج مني الا لبضعة دقائق كل اسبوع او كل شهر اذا اردت ، وقد اقطع هذا الخيط ايضا اذا وجدته يشكل عبئا على حريتي في الحركة والانتقال والسياحة . نعم ، لقد اتفقت مع الشركة البريطانية لتجارة الفراء، على تزويدها بما استطيع من جلود الثعالب التي ساباشر عما قريب صيدها في براري ليبيا ،

مقابل اجر شهري ، ونسبة منوية من ثمن ما اجلبه لهم من فراء ، وستكون الشركةهي المنتفع حصريا بكل ما يتم صيده في هذه المحطة خلال العام كله ، وارجو ان تكون اعداد الثعالب التي يتم صيدها سنويا بعدد ايام العام في حدها الادنى ، ان لم يكن اكثر، وقد وضعنا لعملنا خططا خمسية ، حيث سيتم في السنوات الخمس الاولى تسديد نفقات التاسيس من صافي الارباح ، وهي نفقات تتحملها الشركة ، وبانتهائها ترتفع نسبتي ونسبة العاملين معي في العائد كما يرتفع مرتبي ومرتباتهم ، وقد اخبرتك في اخر رسائلي باحتمال ان اقدم على خطبة فتاة يونانية الاصل تعيش مع اهلها في هذا الجزء من البلاد ، وقد اصبح الاحتمال حقيقة ، فقد اعلنت خطبتي علي انجيليكا ، وننتظر الانتهاء من بناء البيت لاقامة حفل الزفاف وكنت اتوقع ان يكون ذلك مع احتفالات الكريسماس ورأس العام، وسيكون شيئا جميلا ، يكمل فرحتي لو استطاعت عمتي العزيزة حضور العرس ، ولكنني لن اكون قاسيا فاقتلعك من حفلات التجمعات الاسرية التي تشهدها هذه الفترة من كل عام ، وسارجيء العرس لانني صرت واثقا الان انني احتاج لوقت

اطول لاعداد البيت ربما لانني لا اتوقف عن ادخال التعديلات عليه ، كذل سارجيء الدعوة لحضورك الى عدة اشهر بعد ذلك ، ربما الربيع ، حيث يكون الطقس في تمام اعتدالة وتجود الطبيعة بجميل الوانها وعبيرها ، لابد انك الان تفكرين كيف يكون شعوري وانا اخطو خارج دائرة السلطة والمنصب الحكومي ، واقول لك ان عزاني خلال كل ما كان يواجهني من متاعب في العمل ، بما في ذلك العمل خلال سنوات الحرب وقريبا من خط النار ، هو انني اقوم باداء واجب وطني نحو بلدي ومليكي، وانا الان سعيد بما اجده من راحة الضمير لانني اديت واجبي كاملا ، الا انني لا اشعر باي احساس بالفقدان او التوهان لانني خرجت من غطاء السلطة الحكومية ، واخذت ما يسمونه تقاعدا مبكرا ،بل بالعكس من ذلك، يملأ وجداني احساس بالحرية والانعتاق ، وهو ذلك الاحساس الذي يراود كل من يصبح سيد نفسه ، بعد ان كان وقته وساعات عمله وراحته مشدودة لارادة رؤساء وادارات اكبر منه ، نعم ، انا هو ذلك الرجل الذي اصبح حقا وصدقا سيد نفسه المتحكم في وقت عمله وراحته ونومه ويقظته ، واعرف ايضا ما يجول

بخاطرك في مثل هذه المناسبة وهو ان هذا التحرر من العمل الحكومي يجب ان يقترن بالعودة الى الوطن ، ويجب ان اصدقك القول ايتها العمة العزيزة ، ان في الامر شيئا من الاضطرار اكثر من الاختيار ، فما كلمته عنه من برد في العظام اورثته لي ليالي الشتاء التي كنا نقضيها في الدشن والخنادق ايام الغارات ، وفي منطقة الظهر بالذات، يجعلني اخاف ان يتطور معي المرض اذا التزمت بالاقامة في بلاد شمالية مثل بريطانيا ، فدفء ، بل وقيظ هذه البراري هو ما يوافق صحتي ، ولعلني شكوت لك من حياة الرتابة والاحساس بالضجر ، وامل صادقا ان يجد الضجر والملالة علاجهما على يد العاطفة التي احملها لزوجة المستقبل انجيليكا ، فهي التي ستكون البلسم الذي يعالج امراض الوحدة والرتابة والسأم ، من ناحية اخرى فانني في الحقيقة قد تآلفت مع الشمس الساطعة طوال ايام العام في هذه البراري ، كما تآلفت مع البدو الذين يعيشون فيها ، وطابع حياتهم وهو اقرب الى الفطرة والطبيعة ، ولا اشعر معهم باي احساس بالغربة ، كما لن استطيع بعد ان تعودت الحياة وسط هذه الفضاءات ان اتآلف

مع كتل الاسمنت وركام المباني في المدن الحديثة ، طبعا الطقس هنا ليس كله متعة ودفنا واعتدالا ، فهاك طبعا حالات التطرف في الحر ، والتطرف في هبوب الريح التي تصنع عواصف من الرميل تدوم احيانا لعدة ايام ، وليس غريبا ابدا ان نرى تطرفا في البرد احيانا ، ولكن البيت الذي ابنيه في جنائن العرعار ، وهذا هو اسم المنطقة ، سيكون درعا لي ولزوجتي وربما لاطفالنا في المستقبل من هذا التطرف بكل اشكاله ، لانني احاول ان يكون في هندسته ومعماره ، تعويضا جميلا لغياب العمران والمدنية في هذا المحيط الصحراوي .

ولان الشركة البريطانية لتجارة الفراء ، قد خصصت ميزانية محدودة لبناء البيت، فقد اتفقت معهم على اكمال هذه الميزانية من مواردي الخاصة ، ليطابق شكله المواصفات التي اريدها لا مواصفاتهم هم ، واعاهدك بان اجعله اشبه ببيوت عائلة هيوز في كورنويل بحيث لن تشعري بانك انتقلت من بيتك هناك عندما تاتين لزيارتي في هذا البيت حتى الماء الذي لا يغيب منظره من شرفات بيتك ستجدين معادلا له في بحيرة اصطناعية صغيرة يطل عليها البيت، وهناك في الجوار اناس

متميزون بدءا بصهري بانايوتي وعائلته وعائلات اصدقائي من اهل البادية .

دعوتي لك قائمة ومفتوحة وقت تشائين ، واذا تعذر عليك السفر قريبا فلا تثريب عليك ، وسيكون واجبا عندئذ ان اسافر للقائك وساحضر معي زوجتي لكي تحظى بالمباركة منك ،راجيا ان تقبلي بالانابة عني اندرو وليز وتبلغي تحياتي للعزيزة ماجي ودمتك للمحب لك ابدا

جو

قبل حلول شهر ابريل ، ومع وصول شهر مارس الى منتصفه ، بدأ وجه الارض يكتسي حلة جديدة ، بظهور الوان وصفراء وحمراء وبنفسجية ، ناتجة عن ازهار تتبرعم او تتفتح في نباتات الشيح والرتم والحرمل والزعتر والقندول ، وظهور اعشاب الربيع او معاودتها الانتعاش والاخضرار بعد ان كانت مجرد قش اصفر واعواد سوداء مثل الجرجير والحريق وغيرها من حشانش تلتصق بالارض ، كما اكتست اشجار البطم في سفوح الجبال وبين الشعاب حلة من الازهار الحمراء ، وازدادت اشجار السدر اخضرارا بما تبرعم فيها من ثمار النبق قبل نضجها واسمرارها ، وازدادت اشجار العرعار كثافة وغزارة في الاغصان والاوراق وازهر اكثرها ازهارا ذات لون عنبي تميل الى الزرقة من حولها تكاثفت

شجيرات القندول تتداخل في بعضها البعض تغطيها طبقة من
الزهور الصفراء، واضفت كلها لمسة لونية على خط الافق
عبر الاركان الاربعة في منطقة جنائن العرعار ، حيث خاتم
الجبال المحيطة بالمنطقة صار الان خاتما تلمع فصوص
احجاره الكريمة تصنع مهرجانا من الالوان ، يبرز بينها اللون
الاحمر لتيجان الازهار التي تغطي اشجار البطم باعتبار انها
الاشجار الاكثر طولا وقد ظهور لون زهورها ليحقق انسجاما
مع القرميد الاحمر الذي بنى به السيد هيوز سقف البيت
الجديد وارفف النوافذ والشرفات، وقد اكتمل واستوى بطابقيه
الاثنين فوق التلة الصغيرة مهيمنا على الفضاءات التي حوله ،
وجاء الماء يكمل الوان اللوحة ، فهذه المساحة الكبيرة من
المياه الصافية الزرقاء ، التي تشكل البحيرة الصناعية
المحاذية للبيت ، لم يقتضي حفرها ورصفها بالاسمنت سوى
عدة ايام ، وكان الماء الساخن الذي نفذت اليه الانياب
الحديدية لصوندا الحفر ، تخترق طبقات من الصخور ،
لتستخرجه بعد وجوده ربما لملايين السنين هانئا امنا تحت
صخوره ، وتحولت الحفرة الواسعة العميقة الكبيرة بعد ان

امتلات بالماء ، الى قطعة من السماء سقطت فوق الارض تزيدها زينة وتملا المناطق التي حولها خصوبة ، وكانت شتلات الاشجار الكثيرة التي اجتهد هيوز في غرسها مشجعا كل اهل النجع على معاونته في ذلك ، قد انبثقت واظهرت حيوية وقدرة على النمو السريع بفضل مياه الشتاء السابق وبشائر الربيع الذي اهل ، حتى وصل اغلبها الى ما يقرب من نصف متر ارتفاعا ، ونمت حولها نباتات بطية واعشاب تنمو في الفراغ بين الشتلات ليسهم ذلك كله في صنع البساط الذي بدا يكسو الارض التي كانت كالحة صفراء غبراء ، تغطي سطحها الاعواد اليابسة لبنتات العجرم ، وهي نبتات لا تصلح الا لاشعال النار .

ـ انه يوم آخر جميل .

هكذا خاطب هيوز خطيبته انجيليكا وهما يقفان وسط الشرفة المطلة على البحيرة الصناعية . كانت السماء فوقهما شديدة الاتساع ، بزرقتها الصافية التي لا تشوبها اية شائبة ، الا في حافة الافق الغربي حيث وقفت الشمس على رؤوس الجبال متمهلة في انحدارها البطيء خلف الافق وقد تبعثرت من

حولها شظايا سحب حمراء عكست شيئا من لونها على الهضاب التي تحتها، وقد بدا المنظر لعينيهما بديعا ، فقد انتهيا من ترتيب الاثاث في البيت ، وهما الان يتفقدانه للمرة الاخيرة بعد ان فرغ العمال من تركيب اخر دولاب فيه ، فقد اشرك انجيليكا ووالدها وامها في شراء الاثاث من محلات الموبيليا الايطالية في طرابلس ، الصالونات وغرف النوم وقطع الاثاث والابسطة وما يحتاجه المطبخ من ادوات ، واشرك خطيبته في الاشراف على ترتيبه وتركيبه ، ومتزامنا مع تجهيز البيت تم تجهيز محطة للكهرباء التي تعمل طوال ساعات اليوم ، لانه يحتاج لمدد من الكهرباء اكثر مما كان يستطيع ا لمحرك القديم للوكالة تقديمه لاداء مهمات راها هيوز ضرورية لاقامته ولعمله الجديد مثل رفع الماء من البنروعمل الثلاجات التي يحفظ بها جلود الثعالب علاوة على انارة البيت ن وتشغيل اجهزة التكليف فيه، كما انتهى العمال من اقامة مقر لمعاونيه في الصيد ومقر لاقامة الكلاب وطيور القنص وحظيرة لما يمكن استخدامه من جياد ، وصار كل شيء جاهزا في محطة صيد الثعالب لتباشراداء مهمتها ، الا ان قرار السيد هيوز كان

منذ البداية ان يعطي الاولوية في حياته الجديدة للعرس ، فبه يبدأ عالمه الجديد كما كان يقول ، بحيث يجد انجيليكا بجواره تقيم معه في عش الزوجية الذي اعتني ببنائه وتجهيزه على احدث واجمل طراز، وهكذا تم الاتفاق مع صهره بانايوتي على تحديد موعد العرس يوم الخميس بعد القادم ، الذي يصادف منتصف شهر ابريل ،أي بعد عشرة ايام تخصص للتحضير للعرس واخطار الضيوف القادمين من مزده وطرابلس ، وتحضيرا للحفل استعار هيوز من مخازن الحكومة في مزده ، ادوات وعدة الطبخ التي تستخدم في الاحتفالات الرسمية، للوفاء بالتزامات الولائم التي سيقيمها بمناسبة العرس كما استعار من ذات المخازن عشرين خيمة كبيرة لتكون جاهزة لاستقبال الضيوف ،وكان الكولونيل تاور قد سأل هيوز في وقت سابق عن الموعد المناسب لاقامة حفل توديع لمغادرته المنصب ، وحالت انشغالاته دون تحديد الموعد ، حتى اقترب موعد الزفاف ، فقرر الكولونيل ان يصرف الميزانية المرصودة لغرض التكريم على بعض الجوانب التي تضيف مزيدا من البهجة والشرف لعرس سلفه هيوز، ومن بينها

استجلاب فرقة شعبية لفنون الرقص والغناء متخصصة في احياء الاعراس من بلدة غدامس ، علاوة على شراء هدايا للعروسين ، في شكل تحف تعلق على حوائط البيت جلود حيوانات ومشغولات يدوية من الفضة مشتراة من سوق المشير في طرابلس ، وقد وصلت الفرقة في اليوم الاول لبدء الاحتفالات الذي يسبق ليلة الزفاف بثلاثة ايام ،وخصص لها احدى اكبر الخيام الحكومية ، لتباشر فيها تقديم رقصاتها وغنائها وعزف الاتها الموسيقية الشعبية ومن بينها الطبلة والمقرونة والغيطة والناي وكان مثار استغراب اهل النجع ان تضم الفرقة بعض نساء يرقصن ويغنين من اهل البشرة السمراء، في حين خصص البيت الذي اعاره له بانايوتي لاستضافة نائب الوالي ، وقسيس جاء من كنيسة غريان ، بينما آثر بعض الاضياف الكبار من مزده مثل الشيخ مفتاح والتاجر شلهوب الاقامة في الخيام، وكانت مهمة قسيس غريان هي القيام باداء طقوس عقد القرآن، ولم ينس نائب الوالى عند قدومه للوكالة للمشاركة في العرس ، ان يحضر حمولة حافلة ، وهي شاحنة تغطى بقماش الخيام وتلصق

بارضيتها صفوف الكراسي الحديدية ،يركبها دستة من افراد الشرطة مسلحون بالبنادق لاخذ اماكنهم مع فرقة الدفاع الاهلي لحماية الوكالة تحسبا لاي حماقة يقوم بها السردوك ، ومشاركة من اهل النجع في احياء العرس ، احضروا من مزدة عددا من الفرسان ممن شاركوا سابقا في افراح شهدتها الوكالة، وفي ليلة العرس الموعودة، غمرت الاضواء كل انحاء النجع والمحطة وابنية الوكالة وما بينها من فراغات، وتحول البيت الجديد الذي سيضم العروسين الى ما يشبه شجرة عيد الميلاد التي يوقدها بانايوتي امام بيته في اعياد الميلاد، وزادت البحيرة المحاذية للبيت في جمال والق هذه الاضواء وهي تنعكس فوق مائها ، وفي فضاء قريب من البحيرة حيث نصبت الخيام على شكل هلال ، فرشت البسط في حضن الهلال ومدت الكراسي المخصصة لكبار الضيوف ليجلس فوقها نائب الوالي الجديد ،وشيوخ النجع وعائلة العروس وعدد من الضيوف واصدقاء العروسين القادمين من مزده وطرابلس ، واستوى العريس وعروسه فوق منصة عالية نصب فوقها كرسيان من كراسي الجلد وامامهما

وحولهما اعرام من الورود والزهور ، وقد ارتدى العريس بذلة السهرة السوداء تزينها ربطة عنق الفراشة ، والعروس في ثوب الزفاف الابيض يعلو راسها تاج من الذهب الاحمر ، والضيوف يصنعون حلقة حولهما وحول فرقة الغناء والعزف والرقص التي تقدم عروضها امامهما حينا وتلتفت في حين اخر الى اهل النجع الجالسين خلفها وحولها فوق الابسطة، الرجال في جانب والنساء والاطفال في جانب يحاذيهم ، وقد تصاعدت الزغاريد ، ترافقها عواصف من التصفيق للفرقة وصيحات الفرح بينما اكثر من امراة متقدمة في السن مثل العمة مريومة والعمة بدرية ، تطوف بالمباخر التي يضوع بخور زكي الرائحة ووفقا للتقاليد التي يمارسها اهله في اعراسهم سحب العريس يد عروسه وهبط بها من المنصة ووقف بها بين اعضاء الفرقة الفنية يحتوي خصرها ويشبك يده في يدها ويتحرك معها في خطوات راقصة مع انغام الموسيقى ، وفعل مثله بعض الضيوف الاجانب من اقارب بانايوتي ، الذين نزلوا ازواجا الى الحلبة ، فحذا بانايوتي ايضا حذوهم ساحبا زوجته كاتيا يراقصها مشاركة في عرس ابنتهما

وفرحا بها ، وقد اشعل هذا الجو الراقص حماس الحاضرين تصفيقا ومشاركة في الغناء واطلاقا للزغاريد وصيحات الفرح ،وفي ركن من الساحة كان القسيس يهيء بمساعدة احد العمال وبطاولة وقطعة من الموبيليا شيئا اشبه بالمذبح الكنسي واشعل مجموعة من الشموع يستعد لاداء الطقس الذي يربط بموجبه العريس وعروسه بوثاق الزوجية المقدس ، ووسط هذا الجو الصاخب المليء بالمرح ، دوى صوت الرصاص ، الذي لم يثر للوهلة الاولى حفيظة احد ظنا منهم انه مجرد عيار ناري يطلق مشاركة في الفرح ، ولكن الرصاص اشتد وازداد قوة وغزارة مما اكد للجميع انه لا ينتمي للطابع الاحتفالي المعهود في مثل هذه الاعراس الكبيرة ، فتوقف الراقصون عن الرقص متجمدين في اماكنهم ينصتون للرصاص الذي تواتر في زخات قوية عنيفة تقابلها زخات اخرى كانهما يصدران عن طرفين متقابلين ، ثم تاكد للجميع ان حربا تدور في الجوار عندما تعالى الصياح وطلبات النجدة ممن وصل اليهم الرصاص خارج الطرفين المتحاربين ، وحل الرعب مكان الترقب عندما انطفأت فجأة كل الاضواء ولم يبق

الا دوي الرصاص ولمعان اطلاقاته تضيء الظلام من مصادرها المختلفة ، وقد اختلط هذا الدوي باصوات الصراخ وصيحات النجدة الصادرة عن جمهور الفرح من نساء ورجال ، يحاولون البحث عن ملجا من هذا الرصاص الذي كان يتطاير في الفضاء ، فيرتطمون ببعضهم البعض ، واقتحم مكان العرس الذي تحول الى ساحة من الفوضى والصراخ ، شبح جواد ، يشق بصاحبه زحام الفوضى والظلام ، وامامه ماسورة بندقية ينصبها امامه يبحث بها عن هدف يصوبها اليه ، ولكنه قبل ان يتمكن من ذلك ، استهدفه وابل من الرصاص ارداه قتيلا ، فسقط هو وجواده وسط الحلقة التي كانت تحتلها الفرقة الموسيقية ، ولم يكن صعبا ان يدرك الجميع ان ما حدث هو هجوم عصابة السردوك على العرس ، وحدث ما كان يخشاه بانايوتي ويحذرمنه ، قائلا ان السردوك باجرامه وجنونه سيجد طريقا ينفذ منه الى الوكالة لابطال قران غريمه هيوز بانجيليكا ، وهو ما حدث بمنتهى الدقة التي توقعها الرجل ، وقد تصدى فريق الدفاع الاهلي مدعوما بقوة الشرطة ، ووقفوا بكل افرادهم جدارا يحول دون وصول افراد العصابة

الى مكان العرس ، الا ان السردوك الذي بدا واضحا انه على علم بخريطة الوكالة بكل مستجداتها ، ارسل فارسا ليعطل الكهرباء باطلاق النار على المحرك وافساده، وارسل فارسا آخر يقتحم العرس ساعة اطفاء الانوار ، من اجل ان يخطف له انجيليكا ،فوق حصانه ، وان لم يستطع فليقتلها ويقتل عريسها ، في حين واصل هو وافراد عصابته الاشتباك مع المدافعين على الوكالة وتلهيتهم عن الانتباه للفارسين المتسللين خفية من جانبي الوكالة ، الا ان الفارس الذي ارسله لكي يخطف له حبيبته ، وجد الرصاص يترصده فور دخوله موقع العرس ، وكان الرصاص قادما من مسدس يحمله العقيد تاور ، وآخر يحمله السيد هيوز ، حيث كان الاثنان جاهزين بمسدسيهما لمثل هذا الاقتحام بعد ان اجلسا العروس في مكان آمن خلفهما متاهبين للدفاع عنها فهي في النهاية المستهدف الاول من أي هجوم يقوم به هذا الرجل المجنون بحبها .

نجحت دفاعات الوكالة في طرد السردوك وعصابته ، ليتراجع مهزوما بعد ان ترك قتيلان من عصابته احدهما الفارس الذي اقتحم بجواده ساحة العرس ، كما ترك قتيلا من

اهل الوكالة هو الفني الذي يعمل بمحطة الكهرباء ، وعددا من المصابين بجراح خفيفة عن الرصاص الطائش اثناء الاشتباك.

انطفأ العرس

وانصرف الضيوف استعدادهم لرحيلهم في اليوم التالي عائدين من حيث جاءوا بمن فيهم الكولونيل تاور الذي تعهد لاهل الوكالة بانه سيضاعف الجهود لملاحقة السردوك وجلبه للعدالة ، مصدرا اوامره للقوة التي جاءت معه بان تبقى لحماية الوكالة من هجوم جديد.

وتأجل الفرح

مع كل مظاهر البذخ والفخامة التي احاطت به ، والتحضير الدقيق الناجح، فقد ضاع العرس.

جاءت هجمات السردوك لتجعل من المستحيل وسط ازيز الرصاص ورائحة الدم البشري المسفوح فوق ارض الوكالة ، ان يستمر الفرح ويمضي الى خواتيمه السعيدة.

وباكية حزينة رجعت العروس الى بيت ابيها ، في حين ذهب السيد هيوز ليمضي ليلته الاولي في بيته الجديد دون عروسه التي كانت ستقاسمه فراش الزوجية .

مضى بمحاذاة البحيرة يخترق العتمة الى باب البيت . كان الليل في آخر مراحله ، وتباشير الفجر تظهر في شكل شعاع ينبثق من خلف سحب حمراء ، حطت فوق دائرة الجبال التي صنعت قوسا يضع حافة وحدا للافق، وضوء اصفر شاحب يبدأ في الانتشار ، يأذن بشروق شمس جديدة ليوم يهل على العالم لا يدري ماذا يحمل له من مفاجآت .

نبذة عن الكاتب
وشهادات حول انتاجه

الكاتب من مواليد بلدة مزده الواقعة على ضفاق صحراء الحمادة الحمراء، جنوب طرابلس، ليبيا، بتاريخ 28-12-1942 لأسرة متوسطة الحال، حيث كان والده يعمل بالتجارة، وكان جده الفقيه، معلما للقرآن وعلوم الدين بالمدرسة القرآنية في البلده.

غادر بلدته مزده إلى مدينة طرابلس، بعد ان اكمل دراسته الابتدائية ليبدا مشوار الدراسة غير النظامية التي اقترنت احيانا بالعمل حتى أفضت به هذه الجهود إلى نيل درجة الدكتوراه في الادب العربي الحديث من جامعة ادنبره عام 1982.

التحق بالعمل الصحفي منذ وقت مبكر، وبدأ ينشر قصصه القصيرة ومقالاته في الصحف الليبية منذ عام 1959، وفي عام

1965، فازت مجموعته القصصية " البحر لا ماء فيه " بالمرتبة الأولى في جوائز اللجنة العليا للآداب والفنون بليبيا وهي المجموعة التي حققت لصاحبها اعتراف المجتمع الأدبي، في الوطن العربي، حيث تناولها كتاب كثيرون بالمقالات والدراسات النقدية من بينهم د. يوسف إدريس ود. عبد القادر القط ود. نقولا زياده وفاروق منيب وفاروق عبد القادر الذين رأوا فيها إضافة جديدة لفن القصة القصيرة في العالم العربي واعتبر الدكتور افنان القاسم ان قصة الجراد التي ضمتها تلك المجموعة علامة فارقة في تاريخ القصة العربية القصيرة .

في عام 1967 نشر احمد إبراهيم الفقيه، الفصول الأولى من روايته ((فئران بلا جحور)) في مجلة الرواد الأدبية، وهي الرواية التي اكمل كتابة فصولها ونشرها في سلسلة روايات الهلا ل بعد ذلك بسنوات كثيرة وبالتحديد عام 2000، أعقبتها رواية حقول الرماد الصادرة عام1985، وفي عم 1991، نشر عمله الكبير الثلاثية الروائية التي نالت شهرة واسعة وفازت بجائزة افضل عمل إبداعي من معرض بيروت للكتاب وترجمت

إلى عدد من لغات العالم لتضع اسم ليبيا على خارطة الأدب العالمي.

تم تصعيده من قبل اعضاء رابطة الادباء والكتاب والفنانين واختياره في اجتماع عام لمنصب امين (وزير) الاعلام والثقافة عام1989 الا ان ظروفا شخصية وعامة حالت بينه وبين مباشرة المنصب .

اسهم احمد ابراهيم الفقيه في تأسيس عدد من الصروح الثقافية والأدبية في بلاده، فقد عمل مديرا للعهد الوطني للتمثيل والموسيقى، كما أسهم عام 1966 في تأسيس مجلة الرواد الأدبية وعمل ضمن هيئة تحريرها، وانشأ صحيفة ((الأسبوع الثقافي)) في مطلع السبعينيات وعمل رئيسا لتحريرها وقدم من خلالها كتابا صاروا في طليعة الحركة الادبية والشعرية مثل ابراهيم الكوني، وخليفة حسين مصطفى، وجيلاني طريبشان، ورضوان ابوشويشة، كما اسهم في إنشاء مجلة الثقافة العربية في بيروت وعمل لفترة من الوقت رئيسا لتحريرها واستطاع عن طريق هذه المنابر تقديم أقلام وأصوات أدبية جديدة هي

التي تثري المجال الفكر ي والإبداعي في الوطن العربي الان، كما سعى لإنشاء اتحاد للأدباء في ليبيا وكان مقرر لجنته التأسيسية وتولى منصب الأمين العالم لفترة من الوقت قبل ان يتفرغ للعمل بالمجلس القومي للثقافة العربية رئيسا لشعبة الإبداع وعضو الهيئة المشرفة على مجلة الوحده، كما تولى لاكثر من خمسة عشر عاما رئاسة المؤسسة العربية الخيرية للثقافة

ARAB CULTURUL TRUST

التي أقامت الندوات والمعارض المعنية بتقديم الوجه الابداعي والثقافي للأمة العربية وإصدار المجلة التي كانت رائدة في تقديم الأدب العربي لقراء اللغة الإنجليزية وهي مجلة الأفق

Azure

التي كان يرأس تحريرها كعمل تطوعي طوال سنوات صدورها في لندن خلال فترة اقامته بهذه المدينة التي استمرت عشرة اعوام.

اهتم بكتابة أعمدة الرأي التي كان ينشرها يوميا في صحافة الستينيات في ليبيا ثم انتقل بهذا الباب إلى الصحافة العربية

فنشر مقالاته في مجلات الدستور والكفاح العربي والتضامن والموقف العربي، قبل ان ينتقل لنشر مقالاته اليومية بصحيفة الشرق الأوسط ويحرر بابا يوميا بعنوان ((كل يوم)) ثم ينضم عام 1996إلى اسرة كتاب الاهرام ليكتب لها اعمدة الرأي كل اسبوع.

بدأت مسيرة التكريم بالنسبة له منذ عام 1965عندما منحته اللجنة العليا للآداب والفنون الجائزة الاولى عن محموعته القصصية البحر لا ماء فيه، وفي عام 1970 تسلم من رئيس مجلس الثورة شهادة تقدير البلاد عن انجازه الادبي وفي عام 1989تسلم اعلى وسام في البلاد، كما اسمته مجلة المجلة عبر استفتاه اجرته مع القراء الشخصية الادبية لعام 1991وتسلم من دولة الرئيس عمر كرامي في بيروت درع معرض الكتاب عن الثلاثية الروائية التي فازت بجائزة افضل عمل ابداعي في المعرض.

شهدت عواصم كثيرة ندوات عن ابداعه الادبي في شمال العالم وجنوبه وترجمت اعماله للغات كثيرة وله في اللغة الانجليزية اربع مجلات تجمع انتاجه المترجم وهي كالاتي

5Novels – 30 Short stories – 8 plays – The Libyan shortstory (Research and Anthology}   by Ahmed Fagih

المؤلفات

1-البحر لا ماء فيه

2 - اربطوا احزمة المقاعد

3 - اختفت النجوم فاين انت

4- امرأة من ضوء -

5-خمس خنافس تحاكم الشجرة

6- مرايا فينيسيا

7- ثلاثون قصة قصيرة

8- في هجاء البشر ومديح البهائم والحشرات

9 -حقول الرماد

10 - ساهبك مدينة اخرى

11 - هذه تخوم مملكتي

12 - نفق تضينة امرأة واحدة

13- فنران بلا جحور

14- في هجاء البشر ومديح الحشرات والبهائم

15-26 الرواية الاثنى عشرية خرائط الروح

27- ابنة بانايوتي

28- بشر وحشرات

29- هكذا اتذكر هند

30- قصص من عالم العرفان

31 – صورة جانبية لصانع العيد

32 – كتاب الوميض

33- مسرحيتان ساخرتان

34- المسرحيات الطويلة

35- المسرحيات الغنائية

36- المسرحيات القصيرة

37- امام محكمة التاريخ (نصوص مسرحية تاريخية)

38-هاجس الكتابة

39 - معارك الغد

40-تحديات عصر جديد

41 - تجينين كالماء وتذهبين كالريح (نصوص مفتوحه بين القصة والقصيدة)

42 - البحث عن ليلى العامرية

43- الصحراء واشجار النفط

44 - كلمات من ليلى سليمان

45- شوق الاجنحة الى الرحيل (رحلة طائر بنر الغنم الى عواصم الغرب)

46 - حصاد الذاكرة

47- العودة الدائمة الى خانة الصفر

48- مع ايقاع العصر

49- تجربتي الادبية

50- الانتماء لاشجار النخيل

51- سيرتي الذاتية زمن الطفولة

52- الدخول الى بهو المرايا

53- المنعطف القادم

54- امواج الليل

55- خواطر في الادب والفن

56- شخصيات وتاريخ

57- سفر الاسفار

58- الانسان اولا

59- افق التواصل بين الشرق والغرب

60 – المرافيء البعيدة للسلام

61- سياحات في الصين وافريقيا

62 – ما اكثر هذه النوافذ ما اضعف هذا النور

63- عبير تلك الايام

64 – وجع الرحيل

65- من مفكرتي الشخصية

66- نحو خطاب ثقافي جديد

67- صقر يطارد سحابة سوداء

68-جولة في حدائق ابوللو

69- سعيدا تجري ايها النيل

71-بدايات القصة الليبية

72- ابناء الماء وابناء النار

73-كتاب الطغيان

74-في هجاء الطغاة

75-حياة من حبر وورق

76-افق يضج باقواس النصر

<u>كتب عن المؤلف</u>

73- تقنيات السرد الروائي في ثلاثية احمد ابراهيم الفقيه للباحث الليبي نصر محمد سعد

74- القصة في ادب الفقيه محمد سالم القزدار

75- نار الشرق العاشقة

76- سلطة الخيال التعزيمية

77- نافخ الرماد

78- خرائط الروح ترسم خريطة جديدة للسرد العربي

79- حزمة احلام

80- الاغتراب والحلم في ادب احمد ابراهيم الفقيه للباحث شعبان عبد الحكم

81- الثلاثية والمأثور الشعبي

82-احمد ابراهيم الفقيه ودوره الريادي في ادب القصة

84- الابعاد الدلالية للمكان الرواني في ثلاثية الفقيه للباحث بحر غيث احمد علي

85- تقنية السرد في رواية خرائط الروح

مصباح الشريف مصباح ا طبيقة

86- الثلاثية الروانية لاحمد ابراهيم الفقيه في منهج التحليل الفاعلي

إبراهيم الصديق أحرير

87- بناء الشخصية الروانية في ثلاثية الفقيه

احمد غيث احمد

88- الشخصية القصصة في الاعمال السردية لاحمد ابراهيم الفقيه رقية عبدالرحمن عكاشة

89-((المتعالية القرآنية في ...رواية خرائط الروح للدكتور الاديب احمد ابراهيم الفقيه/ دراسة في التناص)) للباحثة ابتسام اسماعيل الوافي

90- الزمن في الثلاثية – د. فاطمة الحاجي

شهادات في أدب الفقيه:

الأديب الليبي الكبير د. احمد ابراهيم الفقيه، يحتل مكانة مرموقة على الساحة الادبية العربية، منذ ان اصدر كتابه الاول البحر لا ماء فيه العام 1965 وفاز عنه بالجائزة الاولى عن اللجنة العليا للاداب والفنون، وحتى مجموعته الاخيرة مرايا فينيسيا مرورا بثلاثيته الشهيرة، فهو احد المبدعين المعاصرين الذين قدموا اضافة حقيقية للرواية والقصة القصيرة بشهادة كبار النقاد والباحثين العرب الذين واكبوا رحلته الابداعية على مدى العقود الثلاثة الماضية، حيث كانت حصيلة هذه الرحلة ما يقرب من ثلاثين كتابا بين قصة ومسرحية ورواية ومقالة فنية وبحوث ادبية وفكرية وقد وجد

الكثير من هذه الكتب طريقه إلى الترجمة إلى لغات اجنبية
عدة، إلى حد يصدق معه القول ان الفقيه اسهم في وضع اسم
بلاده على خريطة الادب العالمي
مجلة الشروق الاماراتية
- 31 ٧ - 2000

تعرفت عليه عن كثب في بيروت حين زارها ليستلم جائزته
اثناء
معرض الكتاب العربي الدولي الذي يقيمه النادي الثقافي
العربي بشكل
دوري منذ اكثر من اربعين عاما، تحاورت معه حول الادب
الروائي في
ليبيا والمغرب العربي، لم يذهلني حديثه عن الفن الروائي بقدر
ما اذهلتني

ثقافته الموسوعية وحداثه عبارته، تلك الحداثه التي تعطي
كتابته الروانية
بعدا مختلفا عن كلاسيكية الرواية العربية الحديثه
اهداني ثلاثيته وغرقت في دروبها واشخاصها وحكاياتها
وتنقلت مع بطلها خليل
الامام لاكتشف انهما واحد في تفاصيل كثيرة، البطل والكاتب
صوت ليبيا المثقف والاصيل
مريم شقير ابوجوده
مجلة المرأة اليوم- بيروت

رحلة طويلة وصعبة يقطعها الفقيه وهو يرسم ترجيديايا الزمن
العربى يصوغ تجليات الأزمة فى مسلماتها الأولى يعيد تفكيك
الوقائع والأحداث
ويدعونا للنظر فيها من جديد للنظر فى ذاتنا وفى أسباب أزمتنا
عبر صياغة
المشهد الثقافى العربى فى علاقته بذاته وعلاقته بالآخرين

ادريس المسماري
مجلة القاهرة

حقا كتب الفقيه من خلال اجناس ادبية مختلفة، متنوعة، ولكن بصمته الخاصة ظلت واضحة في كل ما كتب، ان روحه الشاعرية تطل علينا خلال الاسطر حتى ولو كانت كتابته من نوع النثر ولغته سلسة ويستطيع ان يعقد صلة مع القاريء وكأنه يجلس معه ويحاوره في الفة وحميمية، لقد تحول الفقيه إلى رمز من رموز الثقافة العربية واستطاع ان يتخطى حدود المحلية وان يصبح ذا حضور قوي ومميز في المحافل الوطنية والعربية والدولية، انه لم يقف عند حدود قريته الصغيرة، بل تشبع بالثقافة العربية السائدة في المنطقة، واستطاع ان ينضم إلى كوكبة المثقفين العرب الذين تمردوا على الحدود الجغرافية التي اصطنعها الاستعمار وان يثبت ان الثقافة تقوم على الوحدة الوجدانية بين المثقفين العرب

د.عبد الحميد ابراهيم

الاستاذ بجامعة لندن سابقا وعميد كلية الاداب بجامعة المنيا
في افتتاحية العدد الخاص عن ادب الفقيه من مجلة الوسطية
التي يرأس تحريرها

حين يهتدي أحمد إبراهيم الفقيه إلى تجربة مركزة تصلح لكي
يبلور بها
حدود الواقع إلى المثال الرمز، تتحول القصة عنده إلى قصيدة
من الشعر
القصصي متوترة العبارات شفافة الألفاظ موحية الصور يكسر
فيها المعنى الواحد
على عشرات من المعاني الجزئية المتكاملة التي تحيل
المألوف إلى شيء جديد،
وتجعل من المعاد المستهلك شيئاً أصيلا ومبتكرا
د.عبد القادر القط
-1969/5/17الحقيقة – بنغازي-

وإذا كان كاتبنا قد اتجه إلى الأسلوب الشعري الذي يعطيه
القدرة على
التحليق والخيال والشمول، فإنه قد اتجه أيضًا إلى الرمز.. إن
الرمز الذي
يستخدمه أحمد الفقيه ليس رمزًا مجردًا أو مطلقًا وإنما هو
مستقى
أساسا من ارض الواقع وهو الذي يعطى التجرب امتدادها
الوجداني والفكري في نفوسنا
فاروق منيب
صحيفة الجمهورية - القاهرة - ٢٧ أكتوبر
1966

والذين لم يعيشوا فترة
التحدى ا لابداعى فى أوائل الستينات وخلالها يلاحظون ان
النقد كان قاسيا
والاعتراف بالاخر لم يكن سهلا ومع هذا حظى أحمد الفقيه
باحترام نقاد لهم

مكانتهم خلال تلك الفترة من أمثال الدكتور عبد القادر القط
وفاروق عبد القادر
وفاروق منيب الذى كان راندا لفن القصة الحديثة(.....)
ولاشك ان كل هذا الانتاج يدل على مقدرة ابداعية جيدة ولقد
قرأت فى موقع على الانترنت مقالا كتبته الجارديان البريطانية
تصف اعماله بان به (روحا عبقرية) ونحن لانشك فى ذلك
د. فتحى سلامة
مجلة عمان

إنه من أكثر كتاب القصة الليبية تطورًا، ومن أقدرهم على
تجاوز
إنجازاته باستمرار، والإسهام بهذا التجاوز الدائم في إثراء
القصة العربية
والإضافة إلى مغامراتها الحديثة، وخاصة
في أعماله الأخيرة التي يقتحم فيها آفاقًا

فنية ومضمونية جديدة، ويضرب بها فِي أرض بكر تقع على

تخوم الواقع والحلم

وتنحت قسماتها من أديم الخيال، وتؤهله لأن يكون نسيجًا

وحده فِي عالم القصة

العربية

د. صبري حافظ

١١/١٩٨٧ /العرب - لندن - ١٨

ولعل مرد ذلك أن هذه الصفحات كتبت بصدق وأمانة..

صفحات نابعة من وجدان صادق وعواطف متأججة.. مفعمة

بمشاعر إنسانية،

مضخمة بعبارات الحب.. صفحات إن لم تكن من الشعر فى

الصميم، فهى

تحمل أرق صفاته وأعذب أخيلته وأوقع مشاعره.

د. زكى الصراف

مجلة "المجلة" السعودية

لعل الشكل عند أحمد إبراهيم الفقيه أميل إلى الشعر.. فيه
خصائص الشعر وإيقاعه وموسيقاه، وأنت تعثر فى كثير من
أعماله على
نصوص يمكن اقتطاعها وتحويلها إلى قصائد فيها شروط
القصيدة وأوزانها وتفعيلاتها وموسيقاها
كامل عراب
مجلة الفصول الاربعة
من القصاصين العرب القلائل الأكثر إمتاعا والأكثر تطويعا
لرهافة فن القصة بلاغيًا، وإبلاغيًا، فى التعبير عن الذات
القومية فى إنسانيتها الرحيبة
د.عبد الله ابو هيف
الاسبوع الادبي – سوريا

وأعتقد أن الفقيه كتب هذه القصص وهو فى قمة تجليات
الكتابة فأنتج عملا
يرقى إلى العالمية بلغته وتقنياته وأمكنته وعوالمه

عبد الرسول العريبي

من حديثه في الندوة التي خصصتها صحيفة الشمس لادب الفقيه

بادارة الشاعرة الراحلة جنينة السوكني

أحمد إبراهيم الفقيه شاعر كبير يكتب القصة والرواية وقاص وروائى فذ
يستدعى الشعر ويستلهمه ليسيطر على إبداعه وعلى قارئه

محمد احمد الزوي

من حديثه في الندوة التي خصصتها صحيفة الشمس لادب الفقيه

كاتب كبير وعلى مستوى عالمى وأعتبره فنانًا فى كلماته ومواقفه ورؤيته
للحياة وهى رسالة كل فنان فى العالم فهو يحلم بعالم أفضل يحقق السعادة للبشرية

ويضيف للحياة شيئًا جديدًا... حتى لا تتحول الحياة إلى مجرد
شيء روتينى
ورتيب وكل ما كتبه الكاتب حلم لا ينتهى من أجل عالم تسود
فيه العدالة والحب
خليفة حسين مصطفى
من حديثه في الندوة التي خصصتها صحيفة الشمس لادب
الفقيه

أحمد إبراهيم الفقيه هو أبو الرواية الليبية المكتملة فنيا، في
روايته حقول الرماد التي كانت فاتحة لمؤلفها ليكتب بعد ذلك
ثلاثيته الرائعة التي استطاعت أن تخترق الحجب
د. على فهمي خشيم
من محاضرته في المجمع الثقافي بابي ظبي
نقلتها صحيفة القدس العربي
إبداع قادر – بقوة البداهة – أن يثير الدهشة، والفرحة بهذا
العالم الزاهى النبيل
فهو خلق مكتمل(......)

، خالص الانتساب لسلالته الحكانية، التى منحته قوة البداهة وعبقرية البساطة،

وفتحت له طريق المماثلة مع أحداث تشكيلات فن الرواية، مع استقراره علىأصول من تراثه العربى

د. محمد حسن عبد الله

من محاضرة عن ادب الفقيه القاها بنادي القصة بالقاهرة ونشرها بمجلة الثقافة الجديدة

عالم احمد ابراهيم الفقيه الروائى هو عالم يحكمه الصراع الدائم للانسان بين القديم والحديث، بين الانسان وذاته، بين الرجل والمراة، وبين الابيض والاسودعالم متمرد دائما يحمل ازماته على كاهله، لكنه فى نفس الوقت عالم متطور يعيش المدينة والقرية كما يعيش الصحراء

شوقي بدر يوسفـ مجلة عمان

فنان يرسم باللغة مجموعة كبيرة من الصور السردية، يربط من خلالها السابق من

الحوادث باللاحق منها، ويحلل المشاعر ويصور المناظر
ويرسم الملامح
سمر روحي الفيصل
مجلة الوحدة
تشكل اعمال الكاتب الليبي د. احمد ابراهيم الفقيه ثورة ضد
الرتابة بكل
اشكالها
د. حسن عطية
في المقدمة التي كتبها بتكليف من هيئة قصور الثقافة للمجلد
الذي احتوى الاعمال المسرحية للفقيه وصدربعنوان الغزالات
ومسرحيات اخرى

ولديه من الشفافية والانطلاق، والانسيابية ما يضعه في
مصاف كبار الكتاب
العرب، ليس هذا فحسب، فهو صاحب تكنيك متفرد في الكتابة،
تكنيك وصل الى

مرحلة النضج والوعيِ، يؤهله لان يخاطب جماهيره فيِ غاية الهدوء، وفي غاية
الشاعرية وايضا في غاية العمق
محسن الخياط
الاسبوع الثقافي

قبل الكتابة إليك، فكرت مليا، وبعمق، عن جدوى الكتابة إليك، وأنت الرمز، والهرم، والنهر، والمحيط، والحقل، المكتفي بنفسه، الذي لا يحتاج لكلمات التشجيع، ولا لكلمات المديح، ولا لعبارات التبجيل، وإن كان غيرك يحتاج لمثل هذه الكلمة منك، أو لفتة، أو حتى همسة تشجيع تقال في وقتها، وتساءلت، هذا العملاق الأدبي من يكون...؟ أليس هو شخصية من شخصيات وطني الفكرية...؟ الذي رتب لنفسه مقعدا دائما في الامتداد العالمي بمفرده، دون معونة من أحد...؟ وبنى بيته الأدبي بعرق جبينه كما يقولون
عمر احمد جبريل

من كتابه نافخ الرماد الذي يحاور فيه الفقيه واعماله الابداعية

لقد استطاع المبدع أن يدون سيرة، ويكتب ملحمة صحرواية لا تقل سحرا
وجماً لا وعذوبة عن سيرة عنترة أو تغريبة بنى هلال، وإن كانت تخلو من البطولة الفردية لأنها بطولتها جماعية فليس هنالك شخصية مركزية واحدةٍ إذ ربما يمثل الجوع الذى أخرج النا س من ديارهم بطلا مركزيًا، وربما تمثِل الصحراء هذاالبطل
جريدة تشرين السورية
يونيو 272000

ازاء هذه الرواية التي سيتعرف عليها قراء الانجليزية قريبا نعتقد ان الدكتور احمد ابراهيم الفقيه يستحق ان يكون شخصية العام الروائية بلا منازع

مجلة المجلة

بمناسبة الاعلان عن نتائج الاستفتاء الذي اجرته بين القراء في الوطن العربي واسفر عن فوز الفقيه بشخصية العام الادبية سنة 1991 عام صدور الثلاثية الروائية للكاتب

وتقديرا لعبقريته في مجال الابداع الادبي تقرر منحه هذه الجائزة لحقوق الانسان لينضم لقائمة القيادات الفكرية والادبية التي فازت بها هذا العام

د. مفتاح الاسطى عمر

امين عام الجائزة اثناء حفل التوسيم

بمناسبة الاحتفال بعيد العلم الاول في هذا العام 1970 العام الدولي للتربية تقرر منح الاخ احمد ابراهيم الفقيه هذه الشهادة تقديرا لانتاجه في مجال القصة القصيرة

وقد سلمه الشهادة

رئيس مجلس قيادة الثورة بتاريخ 2 سبتمبر 1970

وبعد احتجاب استمر خمس عشرة عاما تعود جائزة الابداع التي يقدمها معرض الكتاب العربي ببيروت لافضل عمل ابداعي تقدمت به دور النشر المشاركة في المعرض، وقد عكفت لجان كثيرة على فحصه لينتهي الامر إلى لجنة عليا تقرر الفائز وكان العمل الفائز بهذه الجائزة لهذه الدورة هو الثلاثية الروائية الصادرة عن دار رياض الريس تاليف الكاتب العربي الليبي الدكتور احمد ابراهيم الفقيه.

مدير المعرض الاستاذ محمد قباني

اثناء حفل توزيع الجائزة التي استلمها الكاتب من دولة الرئيس عمر كرامي رئيس وزراء لبنان عام صدور الرواية

للغة الفقيه الشعرية الساحرة مقدرة عالية في تصوير هواجس النفس ونفعالاتها واستبطان اعماقها مما يساعد على كشف الجانب الوجداني للشخصية وعلاقة هذه المشاعر الدفينة بالحدث توترا وهدوءا وسرعة وبطئا

د. شعبان عبد الحكم محمد

من كتابه الاغتراب والحلم في ادب احمد ابراهيم االفقيه

ياسيد الازمنة الجميلة
ايها البدوي المتسربل بالعباءة العربية
يا من لم تغيرك العواصم والمدن الغربية
ايها الشاعر الحالم
يا من عفرتك مزده برمالها واقمارها
الدكتور احمد ابراهيم الفقيه
لك التحية والسلام

امينة البارودي
الاهداء الذي اوردته في كتابها
حزمة احلام - قراءة في بعض ادب احمد ابراهيم الفقيه -
الصادر في سوريا

هناك شيء من العبقرية في كتاباته

الجارديان البريطانية

تعليقاعلى مجموعة الكتب الصادرة للكاتب باللغة الانجليزية

إلى عبقرية قصصية وإنسانية لا أعترف بغيرها فى عالمنا العربي

د. يوسف ادريس

في اهداء للكاتب اعادت نشره بخط يده صحيفة اخبار الادب

لم ينل احمد الفقيه تشجيع يوسف ادريس من اجل المجاملة بل لاعتقاد يوسف ادريس ان الفقيه موهوب ويمتح من مناطق الابداع العميقة داخل النفس البشرية ولا يخضع لقوالب مسبقة وضعها النقاد أو حدود ابداعية وقف عندها المبدعون، إنما القصة عند الفقيه مثلما هى عند ادريس رحلة اكتشاف

الدكتور رأفت حسن رستم

من كتابه "احمد الفقيه ودوره الريادي في القصة الليبية"

جزء من اطروحته للدكتوراه في جامعة المنيا

انكم تقودون بلدا زاخرا بمعالم الحضارة ورموزها ويكفي ان نذكر من بين هذا المعالم الحضارية الحديثه الاديب والرواني الليبي

الدكتور احمد إبراهيم الفقيه الذي ارى فيه صنوا لكبار الكتاب في العالم

واحد عمالقة

ادباء الرواية في العصر الحديث من امثال جارسيا ماركيز

ملتمسا منكم ان تعمل ليبيا على نشر

وترجمة رواياته وانتاجه الادبي لانه اعظم تعبير عن روح الشعب الليبي وا رقى

رسالة يتلقاها العالم من ليبيا عن عمق انتمائها للحضارة الحديثه

الدكتور رفعت السعيد

رنيس حزب التجمع ورنيس لجنة الشنون الخارجية بمجلس الشوري المصري مخاطبا رنيس الوفد الليبي الذي زار المجلس

كان الكاتب الراحل الدكتور يوسف ادريس يعتبرني ويعتبر احمد
ابراهيم الفقيه افضل كاتبين بالنسبة له من كتاب القصة في العالم العربي وكان
يقول انه يريد مني ومن احمد الفقيه ان نكمل ما لم يستطع اكماله، في مجال
الانجاز القصصي والرواني، هذه كانت وصية يوسف ادريس، وحيث انني
شخصيا صرت اميل إلى اسلوب المتقاعدين في الحياة، فانني اقول لصديقى احمد
ابرهيم الفقيه انني ساضم صوتي لصوت يوسف ادريس واقول ان المهمة موكولة

له وحده لتحقيق مزيد من التطوير والتحديث والتجويد على
طريق الانجاز
القصصي والرواني، وهذا الاحتفال باصدار خمسة كتب من
ابداعه إلى قراء اللغة
الانجليزية يؤكد انه يسير على الطريق الصحيح
الطيب صالح

اثناء الاحتفال الذي اقامه النادي العربي للكاتب بمدينة لندن بمناسبة صدور خمسة كتب مترجمة للغة الانجليزية من اعمال الفقيه

اود ان اعبر عن اعجابي الشديد بكل ما يكتبه احمد ابراهيم حيث بدات علاقتي بابداعه منذ ان شاهدت مسرحيته الغزالات تعرض في لندن وفتنتني تلك المسرحية وصرت ابحث عن ادبه واستمتع بقراءته واضعه في لائحة افضل المبدعين

باللغة العربية في وقتنا الحاضر فاذا كان هؤلاء المبدعون الكبار عشرة فهو واحد منهم واذا كانوا ثلاثة فقط فهو واحد منهم

د. صلاح نيازي

الشاعر ورئيس تحرير الاغتراب الادبي اثناء الاحتفال الذي اقامه النادي العربي للكاتب بمدينة لندن

تعرفنا من خلال الثلاثية الروائية لاحمد ابراهيم الفقيه كيف انه احد اصحاب الانجازات الكبيرة على طريق السرد الروائي الحديث في العالم العربي

الشاعر ادونيس

خلال تقديمه للكاتب لالقاء محاضرته عن المعتمد ابن عباد في مراكش

اكتشفت من اسلوبك
انك كاتب غني بروح الشعر، وروح الشعر هي اعظم هبة
يمنحها الله لمن يحب
مساهمة الشاعر صلاح عبد الصبور
في تقديم الكتاب الاول لاحمد ابراهيم الفقيه عام1965

وتؤكد مسرحية الفقيه لعبة الرجل والمراة ان الابداع
المسرحي
في تجربة الفقيه لا يقل عمقا وتالقا وجودة عن ابداعه في
المجالات الاخرى، فهو
يكتب في كل مجال من هذه المجالات وكانه يكتب فيه على
سبيل التخصص
احمد عباس صالح
اثناء المحاضرة عن الابداع المسرحي في تجربة الفقيه التي
ساهم بها في الندوة التي اقامها المجلس الاعلى للثقافة في
القاهرة عن ادب احمد ابراهيم الفقيه تحت اشراف الوزير
الفنان فاروق حسني واستمرت لمدة يومين

لغة بلورية مقطرة، ونادرة بين الروائيين العرب، الذين
يقع اكثرهم في االنثرية، أو الانشانية، وهي على شعريتها لغة
روانية

جورج طرابيشي

من شهادته المثبتة في الغلاف الاخير للثلاثية الصادرة
عام1991

هذا البطل رمز قوي، للوعي الشقي عند الانسان العربي
المتمزق بين هذه العوالم المتعددة إلى درجة انه عجز، خلال
قرنين من الزمان،
عن الانتقل من حالة السكون إلى حالة الحركة.

د. محي الدين صبحي

من شهادته المثبتة في الغلاف الاخير للثلاثية الصادرة عام
1991

في رصيده سبع عشرة رواية، وعشر مسرحيات، وخمس وعشرون قصّة للأطفال والفتيان، وأكثر من مائة قصّة قصيرة، وآلاف المقالات الموزّعة بين ثلاثين كتاباً، ومئات البرامج المسموعة والمرئية، ومشاركة في مئات المؤتمرات العربية والدولية، وأعداد لا تحصى من جوازات السفر التي تحمل تأشيرات دخول إلى أغلب عواصم العالم، فهو كاتب مولع بالسفر.

استهلّ رحلته السندبادية بالعمل مستشاراً إعلامياً في لندن ومسؤولاً عن بناء قاعدة إعلامية وثقافية. وتولّى رئاسة «المجلس الثقافي العربي» في بريطانيا، ورئاسة تحرير مجلّة «أزيور» الثقافية الصادرة من بريطانيا بالإنكليزية، وتعنى بنشر الأدب العربي، و«الفجر العربي» السياسية و«فلسطين الحرّة»، وهي مطبوعات أصدرها باللغة الإنكليزية؛ كما أشرف على مجلّة تصدر بالعربية هي «الملتقى»، وأسهم في الاشراف على مجلّة يصدرها مكتب الجامعة العربية باللغة الإنكليزية، هي شؤون عربية. وعرض على مسارح لندن عدداً من المسرحيات هي «الغزالات» و«زائر المساء»، وأخيراً

«غناء النجوم»، كما صدرت له خمس روايات مترجمة إلى الإنكليزية عن بعض كبريات دور النشر في لندن ونيويورك، وخمس مجموعات قصصيّة ومجموعة مسرحيات، وصارت لندن مقرّاً ثانياً له بعد طرابلس.

الشاعر نوري جراح

مجلة الشاهد اللندنية

يمضي الفقيه بشفافية لغته ليزرع في ارض الرواية العربية شجرة بآلاف الثمار

محمد سيف الرحبي

احتمالات (مقالات ونصوص)

مسقط - يناير 2000

فاغتراب أحمد إبراهيم الفقيه وأحلامه لا تفترق عن اغتراب المتنبى وأحلامه التى كلما انكسرت على شوكة الواقع اجتهد فى أن يلملمها ويقيم بناءها من جديد

د. صفوت عبد الله الخطيب

رئيس قسم اللغة العربية ووكيل كلية الآداب – جامعة المنيا

في مقدمته لكتاب الاغتراب والحلم

في أدب أحمد إبراهيم الفقيه القصصي

من رحم القصة القصيرة خرج د. أحمد إبراهيم الفقيه، ليبدع

عملا روائيًا

كبيرًا وفذًا. يقدم به إضافة جديدة لإنجازات الرواية العربية

الحديثة فهذه الثلاثية

الروائية هى كتاب ا لحياة، وجماع الحكمة المقطرة، وهى

عصارة فكره وفنه

وثقافته وخبراته الواقعية والحسية والنظرية

احمد محمد عطية

مجلة الموقف العربي - قبرص

.يخيل لى أن الفقيه فى حالة اشتباك

مستمرة مع المشهد الثقافى العربى، بدءا من عموده اليومى
الذى كان يكتبه تحت
عنوان "نواقيس" فى جريدة بطرابلس، عام ١٩٦٦، وانتهاء
بعموده اليومى الذى
كان يحرره فى جريدة "الشرق الأوسط"
حتى عهد قريب(....) وأما "حدائق الليل" لأحمد إبراهيم
الفقيه فهى قمة من قمم اللعب الفنى بألف ليلة وليلة
د. خلدون الشمعة
مجلة الثقافة السعودية

يجعل عمله محراكا لعدد من الأنشطة العقلية والانفعالية تفضى
إلى ما يمكن أن
نسميه لذة النص أو لذة التلقي، وهى لذة تأتى من خلال التنقل
بين مستويات
مختلفة من مكونات النص
زيد الشهيد - العرب - لندن

وتطور أحمد إبراهيم الفقيه المستمر جعله يخطو خطوات
واسعة حتى دخل بإنتاجه
القارة الأوروبية، وجعل للجماهيرية صوتًا مسموعًا فى مجال
القصة والرواية
والأدب بصورة عامة وهذه مناسبة طيبة لتحيته
وان اشد على يديه متمنيًا له دوام
النجاح والانتاج والتميز فى دنيا الإبداع والخلق والإنشاء
محمد العيساوي الشتوي
الكاتب والوزير السابق للتعليم في ندوة الشمس

ينهل أحمد الفقيه من الذاكرة الانثروبولوجية وابنيتها العميقة
صورًا
ونماذج تكاد تلتصق بجذار ذاكرتنا العربية
عزازي على عزازي
العربي

فالقصة لديه ليست أحداثا مكثفة وحشدا من المشاهد المتلاحقة
وكفى، إنما
هى تواصل لأنفاس القصة بجدارة الفكرة ولهث وراء جوهر
الموضوع حتى ينهى
مديحه المشاكس للشخوص بضديهما وإلى استسلام الجياد
المتلهفة عند طرف
المسافة الملغومة بالدهشة مرة والحيرة / السؤال مرة أخرى
عبد الله الماي - الفصول الاربعة
إنه يقتحم تضاريس جغرافية الجوع والموت من أعرض أبوابه
ويدرج
خلال ذلك الصراع الإنسانى ضمن إطار أشمل هو الصراع
الكونى لكائنات
الطبيعية وقواها الطبيعية والحيوانية والنباتية
فاضل تامر
في كلمة التقديم لرواية فئران بلا جحور
الصادرة عن روايات الهلال

لقد أمتعنا الروائى الكبير بعمل

آخر جميل يضاف إلى أعماله السابقة عامة أثرى بها الأدب

الروائى الليبى

والأدب العربى

د. احمد الخميسي - اخبار الادب

هى أول رواية متكاملة تبرز فيها عبقرية الفقيه على تحليل

نفسيات

الشخصيات وما ينتابها من تغيير

د. الهادي احنيش

في معرض دراسته عن حقول الرماد صحيفة المغرب العربي

مسرحية صورة الكاتب الذي الذي لم يكتب شنا كانت

افضل عمل تمثيلي تم تقديمه في مهرجان هذا العام مقارنة بكل

العروض

التمثيلة الاخرى التي لا تعتمد في تسويغ نفسها على الرقص

والموسيقى

الصجفي الروماني سكوت استونكا
تعليقا على المسرحية التي قام الكاتب بتاليفها وتمثيلها وشارك
بها في المهرجان الدولي للمسرح برومانيا
كما جاء في النص المترجم المنشور بصحيف ايلاف

The Ambassador obtaining the artistic
Acknowledgement through lengthy
،applause at the end
Although the part played by him was not
easy at all. The script
Written by El Fagih is inspired from his
own life
Alexandra Elias
حقق السفير اعترافا فنيا من الجمهور من خلال التصفيق الذي
استمر لمدة طويلة

في ختام العرض المسرحي الذي قدمه مع العلم بان الدور الذي قام بتمثيله لم يكن دورا سهلا اطلاقا، وهو النص المسرحي الذي استوحاه الفقيه من حياته الشخصية

صحيفة اخبار التاسعة اليومية التي تصدر باللغة الانجليزية في بوخارست
تعليقا على الحفاوة التي لقاها الفقيه من الجمهور اثناء تمثيله للمسرحية
التي قام تقديمها عندما كان رئيسا للبعثة الدبلوماسية لبلاده في رومانيا

Ahmad Ibrahim al-Faqih ‹a novelist I had asked to see ‹was in town. His autobiographical trilogy (I Shall Present You with another City ‹These Are the Borders of My Kingdom and A Tunnel Lit by a Woman) has won him renown throughout the Arab world. Like

numerous Arab writers inspired by the nationalist wave of the 1960s ،he became disaffected after the Arab defeat in the Six-Day War. Many Arab intellectuals ، writers and poets are alienated from both their own societies and the West. Few have embraced religion. Al-Faqih's first novel opens: 'A time has passed and another time is not coming.' The final sentence of the trilogy is: 'A time has passed and another time has not come and will not come.' He told me that he is close to finishing a ten-novel work. 'I've just been appointed ambassador to Romania. As you can imagine there is not much to do there ،so I will have plenty of time to finish it.'

Tariq Ali

The new left review- London

احمد ابراهيم الفقيه هو الروائي الذي سالت ان اراه اثناء زيارتي إلى ليبيا، وكان موجودا في طرابلس في تلك الفترة، ثلاثيته ذات الصلة بالسيرة الذاتية (ساهبك مدينة اخرى، هذه تخوم مملكتي، نفق تضيئه امرأة واحدة)اكسبته شهرة على امتداد العالم العربي، وهوعلى غرار كتاب عرب لا حصر لهم تأثروا بالموجة القومية في الستينيات، اصابته مثلهم حالة انتكاس بعد هزيمة حرب الايام الستة في عام 1967 كثير من المثقفين العرب والكتاب والشعراء عاشوا حالة اغتراب مع مجتمعاتهم ومع الغرب ايضا وقلة منهم احتضنوا الدين.

يفتتح الفقيه روايته الاولى في الثلاثية قائلا " زمن مضى وزمن اخر لا ياتي " واخر سطر ينهي به الثلاثية هو " زمن مضى وزمن اخر لا ياتي ولن يأتي" واخبرني انه في سبيله لان ينتهي من رواية متعددة الاجزاء تتكون من عشر روايات وحيث انه قد تم تعيينه سفيرا لبلاده في رومانيا، فانه يقول لي

بانه لن يكون امامه عمل كثير في مثل هذا المنصب كما يمكن ان اتصور، ولهذا فسامك كثيرا من الوقت لانهاء روايتي

حسبما قال

طارق على

مجلة اليسار الجديد- لندن

احتفى المثقفون العرب فى بريطانيا بالأديب الليبى أحمد إبراهيم الفقيه بمناسبة

صدور بعض أعماله القصصية والأدبية إلى اللغة الانجليزية، وقد تجمع فى قاعة

الكوفة بلندن عشرات المثقفين والأدباء والشعراء العرب والبريطانين فى احتفالية

ثقافية بأعمال الفقيه ومسيرته الأدبية وانجازاته فى مجالات القصة القصير ة

والرواية والمسرح والنقد .

وركزت الكاتبة البريطانية سوزانا طربوش على قراءة مجمل أعمال الفقيه وتقديم

قراءة نقدية لها فى هذه الاحتفالية التى احتضنتها قاعة الكوفة
ودعا إليها النادى
العربى، ولسوزانا قدرة كبيرة على متابعة أعمال الكاتب
والغوص فى
رموزها والدلالات المرتبطة بها حول مظاهر البينة والاتصال
مع الغرب والعودة
إلى رموز الواقع الثقافى العربى فى مختلف أوجه الحياة ٠
مجلة الثقافة السعودية

أولى مفردات فن أحمد الفقيه، خفة اليد القصصية والقدرة
على استدراج القارئ
وسحبه إلى حيث يريد له الكاتب أن يكون، وخفة اليد هذه كان
الرومان يعرفونها
بالمقولة المشهور ة: " الفن هو اخفاء الفن" أ
د. على الراعي
في مقالة بالاهرام تحت عنوان احمد ابراهيم الفقيه ومنحى
جديد في فن القصة

فى الجزء الأو ل- وهو الجزء الوحيد الذى تم إصداره حتى الآ
ن- ترجمت
الموسوعة
لثمانية عشر علمًا من أ علام ليبيا، منهم من لايزال يواصل
عطاءه فى
ميادين الأدب والفن_ أطال الله أعمارهم- وهم ستة (أحمد
إبراهيم الفقيه، خليفة
التليسى، على صدقى عبد القادر، على فهمى خشيم، على
مصطفى المصرانى،
محمد الزواو ى) ومنهم من قضى نحبه بعد حياة زاخرة بالبذل
والعطاء فى ميدان
الكلمة والنضال
د. عبد الله مليطان
في مجلة الدعوة الاسلامية ترحيبا بصدور موسوعة اعلام
العرب

كاتبٌ ليبي وعربيٌ

يفرض حضور صوته ويكسب بفنه أدب القص العربى شاعرًا

مكانيًا متناغمًا مع

تنوعات الجغرافيا وتقلبات زمن الحدث

شريف الربيعي - الناقد- لندن

كاتب مقتدر مسيطر على

أدواته، خبير بفنه وبموضوعه الذى يعالجه هنا. ويسمح لى

الصديق الفقيه

بأن أعترف بأنه يعتبر اكتشافًا بالنسبة لى. صحيح أنه كات

ذائع الصيت منذ

سنوات طويلة مضت، لكننى بكل صدق وصراحة لم أكن قرأت

له إلا بعض

قصص قصيرة، ومقالات، وحينما استلبتنى هذه الرواية شعرت

بفداحة القطيعة

القائمة بين جزر الثقافة العربية

خيري شلبي ـ مجلة الاذاعة

وبتشوق ومتعة عكفت على قراءة هذه الثلاثية التى تمثل انجازًا
فى هذا المجال (..).تمزج الرواية الوهم بالواقع والحقيقة بالخيال وتنتقل فى حرية بين مستويات الحلم والذاكرة، والواقع مما يجعل هذه الرواية أحدى شوامخ الأعمال الأدبية ويمنحها قوتها الجاذبة التى تسيطر على القارئ فلا يترك القراءة قبل الوصول إلى السطر الأخير، أنها معالجة جديدة ومتألقة وإضافة جليلة إلى رصيد الأدب العربى
المستعرب الصيني لى رونغ جيان
مترجم اعمال الفقيه إلى الصينية

،

يعد الأديب القاص والروائى "أحمد إبراهيم الفقيه" من اهم الأدباء الليبيين

المعاصرين، فلقد ذاعت أعماله لا في ليبيا وحدها، وإنما في
مختلف العواصم
العربية عبر ما قدم من قصص قصيرة ومسرحيات، ومقالات
نقدية وروايات(......)وهذه الثلاثية
تمثل ذروة أعماله الإبداعية، وترتفع باسم صاحبها إلى مصاف
كبار الأدباء لتماهيها
مع الهموم الكبرى للإنسان العربي
شمس الدين موسى
مجلة الثقافة الجديدة – القاهرة

الفقيه له قدرة على الوصف الدقيق وعلى تكثيف الأشياء
وعلى
الرؤية البعيدة للشخوص والأماكن
ادريس الخوري
الشرق الاوسط اثناء الندوة التي اقامتها الصحيفة للكاتب في
الرباط

لابد من تقديم واجب التحية لدار النشر التي قامت بنشر هذا

العمل

الابداعي العربي الكبير، والاشادة بكاتب الثلاثية الذي اسهم في

وضع الرواية

العربية على خريطة الادب العالمي واثقا من ان هذا العمل

سينقل إلى الحياة

الصينية نبض ومشاعر واحاسيس المواطن العادي في الوطن

العربي، ويقدم

صورة صادقة عن الحياة في جزء من هذا الوطن، مما يسهم

في تعريف القاريء

الصيني بجانب مهم من الحياة العربية

الدكتور مصطفى السفاريتي

سفير فلسطين في الصين، ورئيس

اللجنة الاعلامية الثقافية التابعة لمجلس السفراء العرب

عند مشاركته في الاحتفاء بصدور ثلاثية الفقيه في الصين

Singing of the Stars" is an enigmatic little playlet by Ahmed Ibrahim Al-Fagih and directed by Wilma Marcus Chandler that balances gentleness and commitment against lust and selfishness under the pressure of fear and danger.

A strong performance by Avondina Wills contrasts well with Lisa Hadley's nicely cynical characterization in this quirky little story that moves from romantic interlude to impending doom ‹ accompanied by ubiquitously raucous news reporters and sweetly singing stars.

BY ANN BENNETT
SENTINEL THEATER REVIEWER

غناء النجوم مسرحية قصيرة مبهمة بقلم احمد ابراهيم الفقيه قامت باخراجها ويلما ماركوس شاندلير التي وازنت بين اللطف والالتزام في مواجهة الشهوة الانانية تحت ضغوط الخطر والخوف، اداء قوي من افونيدا ويلز مع اداء بنفس المستوى من ليزا هادلي بتشخيص ساخر لابطال هذه القصة الغرائبية الصغيرة التي تتحرك من بداية رومانسية إلى بلاء قادم، متوافقا مع المداهمة الصاخبة لفريق من الاعلاميين وتصاعد الغناء الجميل الصادر عن النجوم

الناقدة الفنية لصحيفة سينتينال

تعليقا على المسرحية التي قدمها مسرح مدينة سانتا كروز في امريكا من تاليف احمد ابراهيم الفقيه

Books unlimited

Customer Rating

★★★★

شهادة من موقع كتب بلا حدود

لكتاب8 plays للمؤلف

ومنحه درجة 4 نجوم

مع نموذج لتعليق القراء الذين منحوه هذه الدرجة

Drama with a difference ★★★★

Perhaps it is a very good chance to read scripts of such finesse and magnificence coming from the Arab world reflecting ideas and thoughts and visions of humanitarian nature with the subject

matter of a universal outlook that can catch the interest of the reader from every corner of the world although they are translated works but you feel as if they were written originally in English I enjoyed reading the 8 plays and look forward to seeing them on stage

Omar Alian Shalashy

Reviewed on 04 June 2008

كلمة للغلاف الاخير

تدور رواية ابنة باناريوتي في ليبيا الاربعينيات وفي وكالة للحلفاء تقع بين الجبال في الحمادة الحمراء ، يديرها اليوناني باناريوتي ، الذي ينجذب الى الجوانب الصوفية والعرفانية والروحانية التي يجدها لدى بدو الصحراء ، وتستقطب ابنته "انجيليكا" التي حباها الله بالجمال والذكاء، اهتمام الرجال الذين يريدون الفوز بها ، وهو ما يشكل محورا من محاور الصراع الذي تستحكم حلقاته في اجزاء من هذه الرواية وهي كما يعلم القراء المتابعون لانتاج الكاتب، الرواية الثامنة عشرة في رصيد الروايات التي كتبها الفقيه ،وتحكي جزءا من مكابدات الشعب الليبي خلال اعوام الجوع والمسغبة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية، وتصور مجتمعا تنوعت اعراقه وثقافاته ومشاربه ومقاصده في الحياة ولكنه التقى في هذا العالم القصي البعيد المحصور بين الجبال ، تحيط به المفازات الصحراوية في عزلة الحمادة الحمراء برقانقها الحضارية وهذه التجمعات السكانية التي لم تكن تقتصر على من ابناء

البادية، ورغم العزلة وشساعة الارض والسماء، فان الصراع بين الناس يصل الى أوج المأساة والفضيحة.

دار الخيال - بيروت